اضمحلال

الامبراطورية الرومانية

وسقوطها

تأليف :

إدوارد جيبون

ترجمة :

د. محمد سليم سالم

مراجعة :

محمد على أبو درة

الجزء الثالث

هذه ترجمة القسم الثالث من كتاب

EDWARD GIBBON'S

DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

One Volume - Abridgement

by D. M. Low.

محتويات الكتاب

(أرقام الفصول هنا هى أرقام الفصول نفسها فى النص الأصلى الذى دونه جيبون)

● ظهــور الاســلام

الفصل الخمسون (٥٦٩ ـ ٦٣٢)

صفحة

الفصل الحادى والخمسون (٦٣٨)

● اضمحلال الامبراطورية فى الشرق

الفصل الثالث والخمسون (٩١٢ ـ ٩٨٨)

صفحة

صفحة

صفحة

كشـاف

(يشمل الأجزاء الثلاثة)

ظهور الإسلام

الفصل الخمسون

(٥٦٩ - ٦٣٢)

وصف بلاد العرب ، أخلاق العرب ودينهم ، ظهور النبى محمد وتعاليمه • هجرته من مكة الى المدينة • الجهاد فى سبيل الله • وفاته • أخلاقه وحياته الخاصة • تقييم أثره •

بعد أن قطعنا أكثر من ستمائة عام مع قياصرة القسطنطينية وألمانيا الذين مروا مر السحاب ، نهبط الآن ، فى حكم هرقل ، على التخوم الشرقية للمملكة اليونانية . ففى الوقت الذى أنهكت فيه الحروب الفارسية الدولة ، ومزق الكنيسة نزاعها مع النساطرة وأتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، أقام النبى محمد والسيف فى يد والقرآن فى الأخرى « عرشه » على أنقاض المسيحية وأطلال رومه . وتحمل عبقرية النبى العربى وعادات قومه وروح دينه ، بين طياتها أسباب اضمحلال الامبراطورية الشرقية وسقوطها ، وهنا تتركز أنظارنا فى لهف وشغف على واحدة من أجدر الثورات بالذكر ، وهى ثورة وسمت أمم الأرض بأثر جديد خالد [١] .

---

(١) سيبدو فى هذا الفصل والفصل الذى يليه أنى مطلع اطلاعا واسعا على الأبحاث العربية • وهنا يجدر بى أن أعترف بجهلى التام باللغات الشرقية ، وأن أقر بجميل المترجمين من الباحثين الذين نشروا علمهم باللاتينية أو الفرنسية أو الانجليزية • وسأشير من حين الى آخر الى مدوناتهم وترجماتهم والى كتب التاريخ التى وضعوها •

ففى وسط تلك البيداء الشاسعة التى تمتد بين فارس وسوريا ، ومصر والحبشة ، يمكن أن تتصور شبه الجزيرة العربية على شكل مثلث ذى أبعاد ضخمة ، ولكنها غير منتظمة . فمن أعلى نقطة فى الشمال يمكن أن نرسم خطا طوله ألف وخمسمائة ميل يمتد من بيليس Beles على نهر الفرات لينتهى عند باب المندب وبلاد البخور (شرق أفريقية) ، ويمكن أن يقال ان عرض شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب ، من البصرة الى السويس ، ومن الخليج الفارسى الى البحر الأحمر ، نصف طولها تقريبا . ويزداد طول ضلعى المثلث تدريجا . أما قاعدته الجنوبية فتطل على ألف ميل من شاطىء المحيط الهندى . وتبلغ المساحة الكلية لشبه الجزيرة أربعة أمثال مساحة فرنسا أو ألمانيا . ولكن الجزء الأكبر منها قد دمغ بوصفين أصابا كبد الحقيقة ، أحدهما حجرى والآخر رملى . فحتى فى مجاهل بلاد التتار تلمس يد الطبيعة الصخر ، فينبت أشجارا باسقة وحشائش نضرة تمد السائر فى وحدته بالراحة والأنس فى كنف النبات .. أما فى صحارى العرب المقفرة فلا توجد الا جبال عارية يتقاطع بعضها مع بعض فوق مساحات لا حد لها من الرمال ، بينما تلفح الشمس الاستوائية بأشعتها العمودية الحارقة وجه الصحراء ، دون ما ظل أو مأوى . وبدلا من النسيم العليل تحمل الرياح ، ولا سيما الرياح الجنوبية الغربية ، أبخرة ضارة قد تكون أحيانا قاتلة . ويمكن تشبيه تلال الرمال التى تثيرها الرياح ثم تذروها ، بأمواج المحيط . فكثيرا ما فقدت قوافل بأكملها وجيوش بأسرها ، ودفنت تحت الرمال التى تثيرها العواصف . أما الماء ومنافعه المشتركة فكانت موضع اشتهاء ومثار منازعات . كما كانت الأخشاب نادرة . ولهذا باتت الحاجة ماسة

الى التحايل للمحافظة على عنصر النار والعمل على تكاثره . وقد خلت بلاد العرب من الأنهار الصالحة للملاحة ، والتى تخصب الأرض وتحمل محصولها الى الأقاليم المجاورة . والسيول المتدفقة من التلال تمتصها الأرض العطشى . والنباتات القوية النادرة كالتمر الهندى والسنط التى تمد جذورها فى شقوق الصخور تنعشها قطرات الندى ليلا . وكمية المياه التى تتجمع فى الأحواض والقنوات ، والآبار والعيون هى ذخر الصحراء وكنوزها . وحتى الحاج الى مكة بعد أن يسير أياما عديدة فى الحر والجفاف يعاف المياه التى مرت بطبقة من الملح أو الكبريت . فهذه وأمثالها هى الصورة العامة والحقيقية لمناخ الجزيرة العربية . ومواجهة البلاء الشديد تزيد عادة من قيمة أية متعة ولو كانت محلية أو جزئية . فأجمة ظليلة ، ومرعى مخضر ، ومجرى من المياه العذبة ، كل هذه كافية لاجتذاب مجموعة من العرب المقيمين الى أى مكان ميمون يستطيع أن يمدهم ودوابهم بالماء والغذاء ، وتشجيعهم على غرس النخيل والأعناب . أما الهضاب المرتفعة التى تطل على المحيط الهندى فتمتاز بوفرة مياهها وأخشابها . والهواء هنا أكثر اعتدالا والفاكهة أطيب ، والانسان والحيوان أوفر عددا . وخصب الأرض يجذب الزراع ويكافىء جهودهم . وقد اجتذب البخور والبن ، وهما هبة عجيبة من هبات الطبيعة فى مختلف الأزمنة ، تجار العالم . ولو قورن هذا الاقليم المنعزل ببقية أجزاء شبه الجزيرة لكان جديرا حقا باسم بلاد العرب السعيدة . فالألوان الساحرة التى أضفاها معين الخيال والخرافة ترجع الى التباين الذى يؤكده بعد الشقة . وقد احتفظت الطبيعة بأجمل هباتها وأغرب صنعتها لهذه الجنات الأرضية . وأعجب ما فى الأمر أن

نعمتى الترف والبراءة ــ وهما ضدان لا يجتمعان ــ نسبا لأهل هذه البلاد . فالتربة مشبعة بالذهب والجواهر . وكل ما فى الأرض والبحر قد درج على ارسال الروائح العطرة . وهذا التقسيم الى رملى وحجرى وسعيد ــ مع أنه كان مألوفا لدى الاغريق واللاتين ــ لا يعرفه العرب أنفسهم . ومن الغريب أن قطرا توحدت لغته وسكانه منذ أمد سحيق لا يكاد يحتفظ بأثر لجغرافيته القديمة . وتواجه أقاليمه البحرية فى عمان والبحرين مملكة فارس . أما مملكة اليمن الحالية فتبين لنا حدود بلاد العرب السعيدة ، أو على الأقل موقعها ، ويطلق اسم نجد على البقاع الداخلية . وقد أضفى مولد النبى محمد شرفا وسموا على اقليم الحجاز الواقع على البحر الأحمر .

وتحدد وسائل العيش كثافة السكان . فالقاطنون فى شبه الجزيرة على سعته لم يكونوا يبلغون عدد سكان ولاية خصبة مجدة . وقد استمر آكلو السمك على شواطىء الخليج الفارسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر فى تجوالهم بحثا عن طعام لا يجدونه على الدوام . وفى هذه الحالة البدائية المذلة التى لا تستحق اسم المجتمع لا يكاد الآدمى المتوحش ــ وهو مجرد من الفنون والقوانين ، وهو محروم تقريبا من حسن الادراك ومن اللغة ــ يتميز عن بقية أنواع الحيوان الا تميزا بسيطا . وقد تطوى زوايا النسيان أجيالا وعصورا ، وهذا الانسان المتوحش الحائر العاجز لا يستطيع التكاثر ، وقد حددت اقامته فى شريط ضيق على ساحل البحر ، من حاجاته ومن سعيه . غير أنه فى فترة مبكرة من العصر العتيق خرج عدد كبير من العرب من وهدة هذا البؤس والشقاء ، ولما كانت الصحارى المجدبة

لا تستطيع أن تمنح القوت لشعب من الصيادين . فقد نهضوا على التوالى الى حياة الرعى وهى حياة أكثر طمأنينة ورخاء . وعلى هذا النهج الرتيب نفسه من الحياة عاشت القبائل المتجولة فى الصحراء . ومن الممكن أن نكشف فى صورة البدوى الحديث ملامح أجداده الذين عاشوا فى عصر موسى أو محمد تحت خيام مشابهة ، واقتادوا خيولهم وابلهم وأغنامهم الى الينابيع والمراعى نفسها . ان متاعبنا تقل وثروتنا تزيد بسيطرتنا على الحيوانات النافعة . وقد أتيح للراعى العربى ملكية مطلقة لصديق وفى ، وعبد مجد . فبلاد العرب فى رأى علماء الطبيعة هى الوطن الحقيقى والأصيل للحصان . فالجو جد ملائم ، لا لحجم هذا الحيوان الكريم ولكن لحيويته وسرعته . وجميع مميزات السلالة المغربية والأسبانية والانجليزية قد انحدرت من اختلاطها بالدم العربى . ويحافظ البدو بعناية بالغة على أمجاد أحسن سلالة وعلى نسبها . وتباع الذكور بأثمان باهظة ولكن يندر أن تباع الاناث . ويعتبر مولد مهر نبيل مدعاة للابتهاج والفرح وتبادل التهانى بين القبائل . وقد ربيت هذه الخيول فى الخيام بين أطفال العرب تربية اتسمت بالألفة الرقيقة ، غرست فيها الوداعة والتعلق بصاحبها . وقد عودت على المشى والركض فقط ، فلم يتبلد شعورها باساءة استخدام المهماز والسوط بصفة دائمة ، فاحتفظت بقوتها كاملة للكر والفر أو المطاردة . ولكن ما ان تشعر بلمس اليد أو المهماز حتى تنطلق بسرعة تسابق الريح . فاذا ترجل صاحبها أثناء الركض السريع فانها تقف فى التو حتى يعود الراكب الى مقعده على ظهرها . أما الجمل فهو هبة مقدسة ثمينة فى رمال أفريقية وبلاد العرب . فهذا الحيوان القوى

الصبور يستطيع ، دون طعام أو شراب ، أن يقطع رحلة تستغرق أياما كثيرة . فهناك خزان من الماء العذب فى كيس كبير هو معدة الجمل الخامسة . فجسم الجمل يحمل علامات عبوديته . والصنف الضخم من الجمال يستطيع أن يحمل ثقلا يبلغ ألف رطل . أما الهجين ، وهو أقل جسما وأكثر نشاطا ، فيمكنه أن يسبق أسرع الجياد فى حلبة السباق . وينتفع الانسان بكل جزء من جسم الجمل حيا أو ميتا . فلبن الأنثى غزير ومغذ ، ولحم صغاره يشبه فى طعمه لحم العجول الصغيرة . ويستخرج من بوله ملح عظيم القيمة . أما روثه فيقوم بسد العجز فى الوقود . أما وبره الطويل الذى يتساقط ويتجدد كل عام ، فيصنع منه بطرق بدائية الثياب الخشنة والأثاث والخيام التى يستخدمها البدو . وفى فصول الأمطار يتغذى البدو على الأعشاب النادرة القليلة التى تنبت فى الصحراء . وعند اشتداد قيظ الصيف ، أو عندما يقل الكلأ فى الشتاء ، يرحلون الى ساحل البحر والى تلال اليمن أو الى جوار نهر الفرات . وقد يركبون الخطر فينتهزون الفرصة لزيارة ضفاف النيل أو قرى سوريا وفلسطين . وحياة البدو الرحل حياة كلها خطر وضيق ، على الرغم من أنهم يحصلون أحيانا بطريق النهب أو المبادلة على المنتجات الصناعية ، فحياة الفرد العادى فى أوربا وما فيها من ترف وبهجة ، أكثر سعادة من حياة أمير يسير مختالا الى ميدان القتال على رأس عشرة آلاف من الفرسان .

ومع ذلك يمكن أن نكشف عن فارق أساسى بين جماعات سكيذيا Scythia وبين القبائل العربية ، فقد استقر كثير من القبائل العربية فى المدن واشتغلوا بالتجارة والزراعة . ووجهوا جزءا كبيرا من

وقتهم وجهودهم لتربية قطعانهم . واتصلوا فى الحرب والسلم باخوانهم فى البادية . واستفاد البدو من هذا الاتصـال فحصـلوا على بعض حاجياتهم ، واكتسبوا بعض مبادىء الفنون والمعرفة . وقد بلغ عدد المدن التى شيدت فى بلاد العرب اثنتين وأربعين مدينة حسب احصاء أبى الفداء ، وكان أقدمهـا وأكثرها سكانا تلك التى قامت فى بلاد اليمن : قلاع صنعاء والسدود العجيبة فى مأرب ، التى بناها ملوك حمير . ولكن بريقها الوثنى حجبته الأمجاد النبوية لمكة والمدينة ، وهما تقومان على مقربة من البحر الأحمر ويفصل بينهما مائتان وسبعون ميلا . وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها اسم ماكورابا . وهذا اللفظ يدل على عظمة هذه البلدة التى لم تزد حقا فى أزهى عصورها من ناحية الحجم والسكان عن بلدة مرسيليا . وهناك حافز خفى ربما كان ذا صلة بالدين هو الذى دعا مؤسسى مكة الى اختيـار موقع لا يبشر بأدنى أمل . لقد أقاموا مساكنهم من الطين أو الحجارة فى واد لا يزيد طوله على ميلين وعرضه على ميل واحد . فى سفح جبال ثلاثة جرداء . فتربته صخرية وماؤه ، حتى ماء البئر المقدس زمزم ، أجاج أو مر المذاق . والمراعى بعيدة عن البلدة . والعنب يحمل اليها من الطائف ، على مسافة سبعين ميلا تقريبا . وقد تألق مجد قريش التى حكمت مكة وعرفت بنشاطها بين القبـائل العربية . وقد استعصت التربة الجدباء على الزراعة ، ولكن موقع مكة كان ملائما للمشروعات التجارية . وقد سهل ميناء جدة ، وهو على بعد أربعين ميلا فقط ، طريق الاتصال بالحبشة ، تلك المملكة المسيحية التى كانت أول ملجأ لأتباع محمد . وكانت كنوز أفريقية تنقل عبر شبه الجزيرة الى بلدة

القطيف فى اقليم البحرين ، وهى بلدة شـيدت ، على ما قيـل ، من ملح صخرى بناها المنفيون من الكلدانيين ـــ ومن هنـاك نقلت مع اللؤلؤ المستخرج من الخليج الفارسى على أطواف الى مصب نهـر الفرات . وتقوم مكة فى منتصف الطريق تقريبا على مسيرة شهر بين اليمن الى اليمين وسوريا الى اليسار . وكانت اليمن محط القوافل شتاء ، كما كانت سوريا محطها صيفا . ووصول هـــذه القوافل فى الوقت المناسب أراح السفن القادمة من الهند من رحلة شاقة مملة فى البحر الأحمر . ومن أسواق صنعاء ومأرب ، ومن مينائى عمان وعدن حملت جمال قريش أحمـــالا ثمينة من العطور . وكانت كميات من الغلال والمصنوعات تجلب من أسواق بصرى ودمشق . وقد أشاع هذا التبادل التجـارى الذى أتى بأرباح طائلة ، الرخاء فى ربوع مكة ، فجمع أنبل أبنائها بين حب الحرب والاشتغال بالتجارة .

أخلاق العرب

كان استقلال العرب الدائم موضع ثناء سار على ألسنة الأجانب والمواطنين على السواء . وقد قلبت أفانين الجدل هذا الحدث الفريد الى نبوءة ومعجزة تشريفا لذرية اسماعيل ، غير أن بعض الاستثناءات، التى لا يمكن اخفاؤها أو التملص منها ، جعلت هـــذا النوع من الاستنتاج طائشا سطحيا . فقد خضعت اليمن على التعاقب للأحباش والفرس وسلاطين مصر والترك . كما خضعت المدينتان المقدستان ، مكة والمدينة ، مرارا لطاغية من سكيذيا . وضمت ولاية بلاد العرب الرومانية الصحراء العجيبة التى لابد أن اسماعيل وأبناءه نصبوا فيها

خيامهم فى مواجهة اخوانهم . ومع ذلك فهذه استثناءات اما محلية أو وقتية . وبرىء الجزء الأكبر من الأمة العربية من نير أقوى الممالك، فلم يكن فى استطاعة جيوش سيزوستريس وكورش ، أو بومبى وتراجان ، أن تحقق غزو بلاد العرب . وقد يكون لسلطان تركيا الحالى ظل من السيادة ، ولكن كبرياءه قد يهبط الى حد التماس الصداقة بين قوم من الخطر اثارتهم ، كما أنه من العبث مهاجمتهم ، وانك لتجد الأسباب الواضحة لهذه الحرية منقوشة على أخلاق العرب وعلى الأقليم الذى يسكنون . وقد أحس جيرانهم احساسا شديدا قرونا طويلة قبل زمن محمد ، بجرأتهم الفائقة فى الهجوم والدفاع . فشيمة الجندى من صبر ونشاط قد نمت نموا غير محسوس فى عادات حياة الرعى ونظامها . فالعناية بالغنم والابل تركت لنساء القبيلة ، أما الشباب المحارب فهو دائما تحت راية الأمير فى الميدان يدرب على استعمال القوس والرمح والسيف . ان طول تذكرهم لاستقلالهم لهو أقوى ضمان لاستمرار هذا الاستقلال . وفى ذلك حافز للأجيال التالية على أن تبرهن على كرم أصولها وأن تحافظ على تراثها . وعند اقتراب أى عدو مشترك يتوقف كل نزاع داخلى . وفى آخر أعمالهم العدائية التى قاموا بها ضد الأتراك ، هاجم ثمانون ألفا من القبائل المتحالفة ، قافلة متجهة الى مكة وسلبوها . وعندما يسيرون الى ميدان القتال فان الأمل فى النصر يملأ صدور مقدمة الجيش على حين تؤمن مؤخرته سبل التقهقر . وعندئذ تختفى خيولهم وابلهم عن أعين الفاتح ، وهى تستطيع أن تقطع فى ثمانية أيام أو عشرة ، مسافة أربعمائة أو خمسمائة ميل ، ويبحث القائد المظفر سدى عن مياه الصحراء الخفية ، فتتساقط

جيوشه المنتصرة يقتلها الظمأ والجوع والتعب فى مطاردة عدو قد اختفى مستخفا بجهود خصمه ، ومستلقيا فى دعة وسط الصحراء المتقدة . ان سلاح البدوى وصحراءه لم تكونا ضمانا لحريته فحسب ، وانما كانتا كذلك حواجز تحمى العرب السعيدة التى أوهن طيب التربة والمناخ سكانها لبعدهم عن النضال . وقد ذابت كتائب أوغسطس نتيجة المرض والاعياء . ولم يفلح أحد فى محاولة فتح اليمن الا بقوة بحرية . وعندما رفع النبى محمد رايته المقدسة ، كانت اليمن ولاية فارسية ، ومع ذلك كان هناك سبعة من الأمراء الحميريين يحكمون فى المناطق الجبلية . ووقع الحاكم الذى أنابه خسرو عنه تحت تأثير الاغراء ، حتى كاد ينسى وطنه البعيد ومولاه التعس . ويصف المؤرخون الذين عاصروا جستنيان حال هؤلاء الأعراب المستقلين الذين فرقتهم مصالحهم وميولهم فى النزاع الطويل الذى شب فى الشرق . لقد سمح لقبيلة غسان أن تعسكر على حدود سوريا ، أما أمراء الحيرة فقد سمح لهم ببناء مدينة تبعد أربعين ميلا تقريبا الى الجنوب من أطلال بابل . وكان بلاؤهم فى الحروب قويا وسريعا ، ولكن صداقتهم كانت تباع وتشترى ، كما أن ولاءهم حول قلب . ويسير عداؤهم وراء أهوائهم . وكانت اثارة هؤلاء المتبربرين الجوالين أيسر من حملهم على وضع أسلحتهم . ومن الاتصال المألوف فى الحروب اعتادوا رؤية الرومان والفرس وازدراء ضعفهم . وقد أطلق الاغريق واللاتين على القبائل العربية كلها من مكة الى نهر الفرات اسما عاما هو المشارقة Saracens ، وهو لفظ تعلم كل مسيحى أن ينطق به فى فزع ونفور .

وقد يفخر عبيـــد الطغيـان الداخلى باســتقلالهم القومى ، ولكن العربى كان حرا كغيره . وهو يتمتع الى حد ما بمزايا المجتمع دون أن يفقد امتيــازات الطبيعة . وفى كل قبيلة رفعت الخزعبلات أو عرفان الجميل أو الحظ أسرة ما فوق رءوس نظيراتها . وفى هذا العرق المختار ينتقل شرف المشيخة (الرياسة) أو الامارة دون تغيير . ولكن نظام التعاقب أو الوراثة فضفاض غير مستقر . ويقع الاختيــار على أكثر الأقارب النبلاء جدارة وأكبرهم سنا ليشغل تلك الوظيفة البسيطة ، ولكنها هامة ، ألا وهى فض المنازعات باسداء النصح والحث على الشجاعة بالقدوة الحسنة . وقد سمح حتى لامرأة ذات عقل وروح كالزباء (زنوبيا) أن تقود مواطنيها . وكان أى اتصال وقتى بين عدة قبائل ينشىء جيشا . أما اتحادها الأكثر دواما فيخلق منها أمة . وقد يكون شيخ مشايخهم ، أى أمير أمرائهم ، الذى يرى علمه يرفرف فوق رءوسهم جديرا فى نظر الغرباء بأن يحظى بالشرف الذى يحيط باسم الملك . واذا أساء الأمير العربى استغلال سلطانه ، حل به عقاب سريع ، اذ يتخلى عنه رعاياه الذين ألفوا حكما أبويا معتدلا . فروحهم حرة وحركاتهم طليقة والصحراء مفتحة ، ويربط القبائل والأسر بعضها الى بعض مواثيق اختيارية متبادلة . وقد أذعن المواطن اليمنى . وهو أكثر وداعة ، لأبهة الملك وجلاله . ولكن اذا كان ذلك الملك لا يستطيع أن يغادر قصره دون خطر على حياته ، فلابد أن سلطات الحكم الفعالة تكون قد آلت الى نبلائه وحكامه . وقد اتخذت حكومتا مكة والمدينــة ، وهما تقعان فى قلب آسيا ، شكل حكم مجموعة من الأمم (كومنولث) ان لم يكن جوهره ، فجد محمد وأسلافه من قبله برزوا فى الشئون

الخارجية والداخلية كأمراء لبلادهم . ولكنهم حكموا كما فعل بركليز في أثينا وآل ميدتشي في فلورنسه ، معتمدين على ما عرف عنهم من حكمة ونزاهة . وكان نفوذهم يتبع تقلب ثرواتهم . فانتقل الصولجان من أعمام محمد الى الفرع الأصغر من قبيلة قريش . وفي المناسبات الخطيرة كانوا يدعون الجمعية العمومية للشعب . ولما كان الناس اما أن يجبروا على الطاعة أو يستمالوا اليها ، فان انتشار الخطابة وشهرة الخطباء بين العرب القدامى هما أوضح دليل على الحرية العامة . ولكن حريتهم البسيطة أمر يختلف عن النظم الدقيقة المصطنعة في الجمهوريات اليونانية والرومانية ، حيث كان لكل عضو قسط لا يتجزأ من الحقوق السياسية والمدنية في الجماعة ، غير أنه في الدولة العربية ، وهي أكثر بساطة ، فان الأمة حرة لأن كل فرد من أبنائها يستنكف أن يطأطيء الرأس في خضوع وذلة لارادة سيد ما . ولقد حصن العربي نفسه بفضائل صارمة من الشجاعة والصبر والاعتدال ، ودفعه حبه للاستقلال الى ممارسة عادة ضبط النفس ، وحفظته خشية العار من أن يذل بالخوف من الألم والخطر والموت . وان رجاحة عقل العربي وضبط نفسه واضحان في مظهره الخارجي . فحديثه يتميز بالأناة والجزالة والايجاز . وقلما يستثار ليضحك . والحركة الوحيدة التي يقوم بها هي لمس لحيته ، وتلك هي السمة الوقورة للرجولة . وقد علمه شعوره بأهميته أن يتحدث الى أقرانه دون استخفاف ، والى رؤسائه دون رهبة . وقد بقيت الحرية العربية حتى بعد الفتوح الاسلامية . وقد أجاز الخلفاء الأول أسلوب رعاياهم على ما فيه من رفع الكلفة والجرأة .

فصعدوا المنابر للاقناع والحث على مكارم الأخـلاق . ولم يقتبس العباسيون مراسم البلاطين الفارسى والبيزنطى بما فيهما من أبهـة ورواء ، الا بعد أن انتقلت عاصمة الامبراطورية الى نهر دجلة .

ويمكن عند دراسة الأمم والرجال أن نلاحظ الأسباب التى تجعل بعضهم لبعض أعداء أو أصدقاء ، وتنفث فى أخلاقهم الاجتماعية شدة أولينا ، أو وداعة أو تزمتا . وقد اعتاد العرب ، لانعزالهم عن بقيـة البشر ، ألا يفرقوا بين الأجنبى والعدو . وقد أدخل فقر البلاد قاعدة فقهية لا زالوا يؤمنون بها ويتبعونها الى هذه الساعة . فهم يزعمون أنه عند قسمة الأرض أعطيت المناطق الغنية الخصبة للفروع الأخرى من الجنس البشرى ، وأن ذرية اسماعيل الطريد قد يستردون بالخديعة أو بالقوة ، ذلك الجزء من ميراثه الذى حرم منه ظلما . وطبقا لملاحظة أبداها بلينى ، عكفت القبـائل العربية كلها على النهب والتجـارة . فالقوافل التى تعبر الصحارى ، اما أن تدفع فدية أو تتعرض للسلب . وقد عاش جيرانهم منـذ الأزمنة الغـابرة فى زمن أيوب وعصر سيزوستريس نهبا لجشعهم . فاذا ما رأى البدوى مسافرا وحيـدا ركض نحوه بشـدة صائحا بأعلى صوته : اخلع رداءك ، فخالتك (يعنى زوجته) ليس لديها ثوب . فاذا ما بادر المسافر الى الطاعة ، حفز ذلك الى الشفقه عليه ، أما ان قاوم ، فانه يثير حفيظة من يهاجمه. ويجب أن يكفر بدمه عن دم يزعم أنه فى دفاع شرعى عن نفسـه . ويوصم اللص الواحد أو شرذمة من شركائه بالاسم الصريح ، ولكن مغامرات العصابة الكبيرة تأخذ طابع الحرب المشروعة المشرفة ، انشعبا يحمل السلاح على هذا النحو ضد البشر ، لابد أن يلتهب مزاجه التهابا

مضاعفا ؛ بإباحة النهب والقتل والثأر فى الداخل . ففى دساتير أوربا وضع الآن حق اعلان الحرب أو السلم فى أيد قليلة . كما انحصرت ممارسة الحرب الفعلية فى أيدى عدد أقل من الأقطاب الموقرين ، لكن كل عربى كان يستطيع بكل فخر ، وهو فى مأمن من العقاب ، أن يسدد رمحه ضد حياة أى فرد من مواطنيه . فوحدة الأمة العربية تظهر فقط فى تشابه مبهم بعيد فى اللغة والسلوك . وكانت سلطة الحاكم فى كل جماعة واهية غير مسموعة . ويتناقل الناس أنباء ألف وسبعمائة معركة حدثت فى عصر الجاهلية قبل زمن النبى محمد . وكان الحقد الذى تنج عن التفرق الداخلى يزيد هذه العداوة مرارة . فالقاء قطعة من النثر أو الشعر عن نزاع قديم تناساه الناس ، كان كافيا لاشعال الضغائن ذاتها بين ذرارى القبائل المتعادية .

وفى مجال الحياة الخاصة كان كل فرد ، وان شئت فكل أسرة ، هو القاضى وهو ولى الدم فى قضيته فى وقت معا . وكان الاحساس المرهف الدقيق بالكرامة والشرف ، ذلك الذى يهيج لمجرد الاهانة أكثر مما يقدر الضرر والأذى ، هو الذى ينفث السموم ويثير الضغائن فى شجار العرب وحربهم بعضهم مع بعض ، فما كان أيسر من أن يمتهن شرف أعراضهم أو كرامة لحاهم ، ذلك أن أى تصرف يجافى اللياقة أو الحشمة ، وأية لفظة يشتم منها الزراية أو الاحتقار ، لم يكن ليغسلها و يمحو عارها غير دم المسىء . وتلك عادة تأصلت فيهم ، حتى انهم ليتذرعون بالصبر شهورا وأعواما طوالا ، حتى تحين الفرصة المواتية للأخذ بالثأر . وكانت الدية أو التعويض أمرا مألوفا لدى المتبربرين فى كل عصر ، ولكن أولياء القتيل عند العرب كان لهم

الخيرة فى قبول الدية ، أو فى أن يثأروا بأيديهم تطبيقا لمبدأ « النفس بالنفس والعين بالعين .. » . ويرفض العرب بدافع من الحقد الدفين رأس القاتل نفسه . ويأخذون أحد الأبرياء بذنب الجانى . ويصبون العقاب على أفضل الرجال وأعلاهم قدرا فى الأسرة التى أساءت اليهم أو آذتهم ، فاذا ما وقع فى أيديهم ؛ تعرضوا هم بدورهم الى خطر الثأر ، وهكذا يتضخم الدين الدموى وأرباحه . ويعيش أفراد كل من الأسرتين حياة مليئة بالحقد والشك . وفى بعض الأحيان قد يمر خمسون عاما قبل أن تتم تصفية الحساب أو الثأر تصفية نهائية . ويخفف من الشغف بسفك الدماء ؛ ذلك الشغف الذى لا يعرف الشفقة ولا الصفح — يخفف منه قواعد الشرف التى تتطلب فى كل مبارزة خاصة نوعا من المساواة اللائقة : من حيث السن والقوة ، والعدد والعدة . وكان هناك عيد سنوى يمتد شهرين وقد يطول الى أربعة ؛ كان العرب يحتفلون به قبل زمن النبى محمد ، وفى أثنائه تغمد سيوفهم ولا تسل أبدا فى عداء داخلى أو خارجى . وهذه الهدنة المؤقتة دليل أقوى على انتشار الفوضى والحروب .

ولكن روح السلب والانتقام خفف منها ما للتجارة والأدب من آثار مهدئة . اذ يحف بشبه الجزيرة المنعزل أكثر مدن العالم القديم حضارة . والتاجر صديق الناس عامة . وقد حملت القوافل السنوية أول بذور المعرفة والأخلاق الى المدن والى خيام الصحراء . ومهما يكن نسب العرب ، فان لغتهم مشتقة من الأصل نفسه الذى أخذت عنه العبرية والسريانية والكلدانية . ومن الدلائل على استقلال القبائل وجود لهجات خاصة بها . ولكن كل قبيلة سمحت — بعد لغتها — بقدر من

الايثار العادل ـــ للهجة مكة النقية الواضحة . وقد حدث فى بــلاد العرب ، ماحدث فى بلاد اليونان ، من أن اللغة بلغت ذروة الكمال قبل أن تصقل العادات والأخلاق . واستطاعت لغة العرب أن تبتدع ثمانين اسما مختلفا للعسل ، ومائتين للثعبان ، وخمسمائة للأســد ، وألفا للسيف ، وذلك فى وقت عهد فيه بهذا المعجم الغزير الى ذاكرة شعب أمى . وقد عثر فى آثار الحميريين على نقوش بخط عتيق مجهول. أما الحروف الكوفية وهى أساس الخط العربى الحالى ، فقد ابتدعت على شاطىء الفرات . وقد حمل هذا الكشف الجديد الى مكة وعلمه أهلها رجل أجنبى استقر بهذه البلدة بعد مولد محمد . على أن فنون النحو والعروض والبــلاغة ، لم تكن معروفة للفصاحة العربية التى نشأت حرة . ولكن ذكاءهم كان حادا وخيالهم خصبا ، ونكاتهم لاذعة وزاخرة بالحكمة . وكان القاء خطبهم وقصــائدهم التى دبجت بدقة قويا ، وكان له تأثير كبير فى نفوس السامعين . وكانت عبقرية الشاعر الناشىء الذى بدأ شعره فى الذيوع ، وفضله ، موضع احتفــاء قبيلته والقبائل التى تمت لها بصلة النسب ، فكانت تقام تكريما له وليمة فخمة تضرب فيها جوقة من النساء على الدفوف وهن رافلات فى ثياب عرسهن البهية ، مترنمات أمام أبنائهن وأزواجهن بسعادة قبيلتهن التى ظهر فيها الآن بطل يذود عن حياضها ويخلد ذكراها . أما القبائل البعيدة أو المعادية فقد لجأت الى عيد سنوى أبطله تعصب المسلمين الأول . ومن الضرورى أن هذا المحفل القومى (السوق) قد قام بدوره فى تمدين البرابرة وتهذيبهم . حيث كانوا يقضون ثلاثين يوما لا فى مبادلة الغلال والنبيذ فحسب ، ولكن فى مطارحة البلاغة والشعر أيضــا .

وقد تنافس الشعراء على الجائزة فى مباراة كريمة . ثم أودعت القصائد الفائزة فى خزائن الرؤساء والأمراء . ونستطيع أن نقرأ اليوم فى لغتنا المعلقات السبع الأصلية التى كتبت بحروف من ذهب وعلقت فى حرم مكة . وكان شعراء العرب هم المؤرخين ومعلمى الأخلاق فى زمانهم . فان هم تعاطفوا مع أهواءقومهم ، فقد ألهموهم الفضائل ورفعوا من شأنهم . وكان الاتحاد الذى لا تنفصم عراه بين الجود والشجاعة موضوع أناشيدهم المفضل . وعندما كانوا يهجون عرقا دنيئا هجاء لاذعا ، فانهم كانوا يؤكدون فى مرارة أن رجاله لا يعرفون البذل ونساءه لا يعرفن التعفف ، وما زال الكرم نفسه الذى عرفه ابراهيم وتغنى به هوميروس ، يمارس فى مضارب خيام الاعراب . والبدوى المتوحش الذى يثير الفزع فى الصحراء يحتضن دون تساؤل أو تردد أى غريب يجرؤ على الوثوق فى شرفه ودخول خيمته . ويلقى الضيف معاملة كريمة . ويشاطر مضيفه ثراءه أو فقره . وبعد أن يأخذ قسطه الضرورى من الراحة يودع بالشكر والدعاء وربما بالهدايا كذلك . وينفتح القلب وتنبسط اليد الى درجة أكبر اذا مس الضر أخا أو صديقا . ولكن أعمال البطولة التى تستحق الاعتراف من العام والخاص لابد أنها تخطت الحدود الضيقة للتروى والحنكة . وثار يوما بين أهل مكة جدل حول من يستحق منهم جائزة الكرم . ولقى التحدى قبولا عند الثلاثة الذين كانوا يعتبرون أجود الناس . وكان عبد الله بن عباس يزمع القيام برحلة بعيدة وقد وضع قدمه فى الركاب عندما ناداه السائل فى تضرع : « يا ابن عم رسول الله ، انى ابن سبيل منقطع » . فنزل لتوه ليعطى السائل جمله وزينته

الثمينة وكيسا به أربعة آلاف قطعة من الذهب . ولم يحتفظ بغير سيفه ، اما لقيمته الفريدة ، أو لأنه كان هدية من قريب نبيل . أما مولى قيس فقد أبلغ السائل الثانى بأن سيده نائم ، ولكنه أضاف لتوه : « هاك كيسا به سبعة آلاف قطعة من الذهب (وهذا كل ما فى الدار) ، وأمرا بمنحك جملا وعبدا » . وسرعان ما استيقظ مولاه ، فأثنى على خادمه الأمين وأعتقه ، ولكنه أضاف عتابا رقيقا قائلا له انه احترم نومه فأنقص جوده . أما ثالث الأبطال فهو عرابة الأعمى الذى فاجأه سائل ، حين كان ذاهبا الى صلاته يتوكأ على كتفى عبديه ، فأجابه : « وا أسفاه ! ان خزائنى خاوية ولكنك تستطيع بيع هذين العبدين ، فان أبيت قبولهما فانى أتخلى عنهما » . وبعد أن نطق بهذه الكلمات دفع بالشابين بعيدا عنه وسار متحسسا طريقه بجوار الحائط مستعينا بعصاه . وتعتبر أخلاق حاتم مثالا للفضيلة العربية . كان شجاعا جوادا وشاعرا مجيدا [١] . كان يشوى أربعين جملا فى ولائمه السخية . وعندما تضرع اليه أحد أعدائه رد اليه كل ما أخذ من أسرى وغنائم . وكانت حرية مواطنيه تزدرى قوانين العدالة ، ولكنهم استسلموا تلقائيا ، فى فخر واعتزاز ، لحوافز الشفقة والخير .

ديانة العرب

كان دين العرب ، كما كان دين الهند ، ينحصر فى عبادة الشمس والقمر والنجوم الثابتة ، وهذا نوع بدائى براق من الخرافات .

(١) أسقطنا من الترجمة هنا عبارة and a successful robber ولم يوصف حاتم الطائى قط بهذه الصفة (الترجمة)

فالأجسام المضيئة فى السماء تعرض صورة مرئية لاله . وتوحى كثرة عددها وبعدها عن الأرض الى عين الفيلسوف أو الرجل العادى بفكرة فضاء لا حدود له . وطابع الخلود واضح فى هذه الأجرام السماوية الصلدة التى يخيل للناس أنها غير قابلة للفساد أو الاضمحلال . ويمكن أن ينسب انتظام حركاتها الى عقل مدبر أو الى الفطرة . وأثرها الحقيقى أو الخيالى يشجع على الاعتقاد الفاسد بأنها ترعى الأرض ومن عليها رعاية خاصة . وقد نشأ فى بابل علم الفلك . ولكن مدرسة العرب قبة صافية وسهل عار . وقد اهتدوا فى سيرهم ليلا بمواقع النجوم . فأسماؤها وترتيبها ومواقعها فى كل يوم كانت معروفة للبدوى لحبه للاستطلاع وورعه . وقد علمته التجارب أن يقسم منازل القمر الى ثمانية وعشرين منزلا . وأن يبارك النجوم التى تبعث بالمطر الذى يجلب الخير ويروى ظمأ الصحراء . ولما كان حكم الأجرام السماوية لا يمكن أن يتعدى العالم المرئى ، وكان من الضرورى وجود قوى وراء الطبيعة (ميتافيزيقية) لتحافظ على استمرار تناسخ الأرواح وبعث الأجساد . فانهم كانوا يتركون جملا يهلك على القبر لكى يخدم سيده فى الدار الآخرة . وتتضمن مناجاة الأرواح ايمانا بأنه لا يزال للموتى شعور وقوة . انى أجهل أساطير المتبربرين المبهمة وهى لا تثير عندى اهتماما للبحث عن أسماء الآلهة المحلية وعن النجوم والهواء والأرض ، عن جنسها وألقابها ونعوتها الدالة على رفع بعضها فوق بعض . وقد أوجدت كل قبيلة وكل أسرة، بل كل محارب مستقل ، طقوس الدين ومادة العبادة ، كما عمدت الى تغييرها . ولكن الأمة العربية فى كل عصر خضعت لدين مكة ،

كما أجنت الرأس أمام لهجتهــــا . ويرجع تاريخ الكعبة حقا الى ما قبل العصر المسيحى . وقد لاحظ المؤرخ اليونانى ديودوروس فى وصفه لشاطىء البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين أرض ثمود وأرض سبأ ، يبجله جميع العرب لما له من قدسية سامية . وجدير بالذكر أن الكسوة المصنوعة من التيل أو الحرير والتى يجددهـــا امبراطور تركيا كل عام ، كان أول من قدمها ملك تقى من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمائة سنة . وقد يكتفى الشـــخص المتوحش فى عبادته بخيمة أو مغارة ، غير أن بناء من حجر وطين قد أقيم مقامهما . ولم يتجاوز فن ملوك المشرق أو قدرتهم ، بســـاطة النموذج الأصلى . ويضم رواق فسيح بناء الكعبة . وهى حـــرم مربع الشكل طوله أربعة وعشرون ذراعا ، وعرضه ثلاثة وعشرون ذراعا ، وارتفاعه سبعة وعشرون . ولها باب ونافذة يسمحان بدخول الضوء . ويحمل السقف المزدوج أعمدة ثلاثة من الخشب ، وينصرف ماء المطر من ميزاب (من الذهب الآن) . وتقوم على بئر زمزم قبة تحميها من أى تلوث طارىء . وقد حصـــلت قبيلة قريش بالقوة أو بالحيلة على ســدانة الكعبة . وانتقلت هــذه الوظيفة الكهنوتية الى جد محمد بعد أن شغلها قبله أربعة من أسلافه . وكان بنو هاشم الذين ينحدر محمد من نسلهم ، يعتبرون فى نظر مواطنيهم أكثر الناس قدسية واحتراما ، وكانت أرباض مكة تتمتع بحق حماية اللاجئين ، ويزدحم الحرم والبلدة فى الشهر الأخير من كل سنة بجموع غفيرة من الحجيج الذين يجيئون ليوفوا نذورهم ويقـــدموا قرابينهم فى بيت الله . وهذه الطقوس نفسها التى يقوم بها الآن أتقياء المسلمين ،

ابتدعها ومارسها عبدة الأوثان فيما عرفوا من خزعبـــلات . فكانوا يخلعون ملابسهم من بعد قصى ويهرولون فى طوافهم سبع مرات حول الكعبة ثم يقبلون الحجر الأسود . ويطوفون بالصفا والمروة سبع مرات تبجيلا لهما ، ويرمون الجمرات سبع مرات فى « منى » ، ويختم الحج كما يحدث الآن بنحر الأغنام والجمال ، وبدفن شعرها وقلامات أظافرها فى الأرض المقدسة . وقد وجدت كل قبيلة معبودها الخاص فى الكعبة أو أدخلته اليها ، فزين المعبد أو دنس بثلثمائةوستين صنما لرجال ونسور وأسود وظباء . وكان أبرزها تمثال هبـــل صنم قريش ، المصـــنوع من العقيق الأحمـــر ، وهو يمسك بيـــده سبعة ســــهام بلا رءوس أو ريش ، وهى أدوات الرجم بالغيب فى الجاهلية ورموزه . ولكن هذا التمثال كان يمثل الفنون السورية . أما العبادة فى العصور الأقل تحضرا فكان يكفيها عمود أو لوحة . وقد نحتت صخور الصـــحراء لتكون آلهة أو مذابح ، تقليـــــدا للحجر الأسود فى مكة الذى لوثه عيب أصله الوثنى . وقد شاع تقديم الذبائح قربانا ـــ بين الناس فى الشرق والغرب ، وعبر العابد عن اعترافه بفضل الآلهة أو خوفه من غضبها بالتضحية بأغلى وأعز ما يملك تكريما لها . وحياة الانسان هى أثمن ضحية لابعاد كارثة عـــامة . وقد دنس الدم البشرى مـــذابح مصر وفينيقيـــة وروما وقرطاجة . وظلت هذه العبادة الوحشية سائدة زمنا طويلا بين العرب. ففى القرن الثالث كانت قبيلة الدوماتيين تقدم كل عام غلاما ضحية أو قربانا . وذبح أمير عربى كان حليفا لجستنيان وجنديا من جنوده ـــ أسيرا ملكيا بدافع من الورع الدينى . أما الأب الذى يجر ابنه الى

المذبح فهو يمثل التعصب فى أشد حالاته ايلاما وأعظمها سموا . وقد أضفى الاقتداء بالقديسين والأبطال على هذا العمل أو عقد النية عليه هالة من القدسية ، وكاد والد محمد نفسه أن يهلك بسبب نذر طائش ، ولم يفتد الا بمشقة بما يساوى مائة بعير . وفى عصر الجاهلية أمسك العرب ، كما فعل اليهود والمصريون ، عن تذوق لحم الخنزير . وقاموا بختان أطفالهم عند البلوغ [1] . وهذه العادة التى لم ينه عنها القرآن الكريم أو يأمر بها تناقلها الخلف فى صمت ، كما سار عليها كل من اعتنق الاسلام . ويرى البعض ، وفى رأيهم ما ينم عن الفطنة — أن المشرع البارع أظهر تسامحا واستسلم لأهواء مواطنيه العنيدة ، وقد يكون من الأيسر أن نعتقد أنه تمسك بعاداته وأفكاره فى زمن شبابه دون أن يتنبأ بأن عادة تلائم جو مكة قد تكون غير نافعة أو مناسبة على شواطىء الدانوب أو الفولجا .

كانت بلاد العرب حرة . أما الممالك المجاورة لها فقد هزتها عواصف الغزو والطغيان . ففرت الطوائف المضطهدة الى البلاد السعيدة التى يستطيع المرء فيها أن يجهر بآرائه ويمارس معتقداته . فانتشرت ديانة الصابئة والمجوس واليهود والمسيحيين من الخليج الفارسى الى البحر الأحمر . وفى زمن سحيق فى القدم انتشرت ديانة الصابئة فى أرجاء آسيا بفضل علوم الكلدانيين وجيوش الآشوريين . ومن ملاحظات دامت ألفى سنة ، استنتج الكهنة وعلماء الفلك فى

(١) لم يولع علماء المسلمين بهذا الموضوع ، غير أنهم يرون الختان ضروريا للخلاص والنجاة بل انهم يزعمون أن محمدا ولد مختونا بمعجزة .

بابل القوانين الأزلية للطبيعة والعناية الالهية . فعبـــدوا الآلهة السبعة أو الملائكة السبعة الذين يتحكمون فى مســـار الكواكب السبعة ، ويؤثرون فى الأرض تأثيرا لا سبيل الى مقاومته ، وقد مثلت صـــفات الكواكب السبعة وعـلامات البروج الاثنى عشر ومجموعات النجوم الأربع والعشرين فى نصف الكرة الشـــمالى والجنوبى ـــ مثلتها صـــور وطلاسم ، وخصص كل يوم من أيام الأسبوع السبعة لأحد الآلهة . وكانت الصابئة تصلى ثلاث مرات فى اليوم . وكان معبد القمر فى حران نهاية حجهم . ولكن طبيعة دينهم المرنة كانت دائما على استعداد لأن تعلم أو تتعلم . وكان بينهم وبين دين أسراهم من اليهود اتفاق عجيب فيما يخص قصـــة خلق العالم والطوفان والكهنة والأنبياء . وقد استشهدوا مرارا بكتب آدم السرية وكتب شيث وادريس . وتسرب قليل من تعاليم الانجيـل ، فتحولت البقية الباقية من هؤلاء الوثنيين الذين يؤمنون بتعدد الآلهـة الى مسيحيين على يد القديس يوحنا فى منطقة بصرى . وهدم المجوس هياكل بابل تهديما . ولكن سيف الاسكندر انتقم لما أصاب الصابئة من سوء . وبقيت فارس تئن أكثر من خمسمائة ســـنة تحت النير الأجنبى . وفر أطهر أتباع زردشت من عدوى عبادة الأوثان ، وتنفسوا مع خصومهم نسيم الحرية فى الصحراء . واستقر اليهود فى بـــلاد العرب سبعمائة سنة قبل وفاة محمد ، وطرد منهم من الأراضى المقدسة فى حروب تيتوس وهادريان عدد أكبر بكثير من ذلك . وقد تطلع المنفيون المجدون الى الحرية والسيطرة : فشيدوا الهياكل فى المدن والقلاع فى البيداء . وقد اختلط من اعتنق اليهـــودية من الوثنيين

بنى اسرائيل الذين كانوا يشبهونهم فى ممارسة عادة الختان . وكان المبشرون المسيحيون دواما أكثر نشاطا وتوفيقا . وقد أكد الكاثوليك سيادتهم العامة . وتمكنت المذاهب التى اضطهدها الكاثوليك من الاعتزال فيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية . ونشر أتباع ماركيون ومانى آراءهم الغريبة وأناجيلهم الزائفة . واستمدت كنائس اليمن وأمراء الحيرة وغسان ايمانا أنقى من يد أساقفة اليعاقبة والنساطرة ، وقد أتيح للقبائل حرية الاختيار : فكان كل عربى حرا فى أن يختار أو يكون دينه الخاص . وقد اختلطت خزعبلات وطنه البدائية مع لاهوت سام من وضع القديسين والفلاسفة . ورسخت فى الأذهان قاعدة من قواعد الدين الأساسية ، وذلك برضاء الغرباء العارفين : أعنى وجود اله واحد فرد سما فوق قوى السماء والأرض . وكثيرا ما كشف عن نفسه للبشر على يد ملائكته وأنبيائه ، وتدخلت رحمته أو عدالته فى نظام الطبيعة بمعجزات فى الوقت الملائم . وقد اعترف أكثر العرب ذكاء بقدرته ، على الرغم من أنهم أهملوا عبادته . وكانت العادة لا العقيدة هى التى لا تزال تربطهم الى بقايا عبادة الأوثان . وكان اليهود والنصارى هم أهل الكتاب . وكان الانجيل قد ترجم من قبل الى اللغة العربية . أما العهد القديم فقد تم الاتفاق على تقبله بين هؤلاء الأعداء الألداء . وقد ابتهج العرب اذ كشفوا فى قصص الأنبياء العبريين عن آبائهم الأولين . وهللوا لمولد اسماعيل وفرحوا بوعوده . وبجلوا دين ابراهيم وفضائله ، وأرجعوا نسبه ونسبهم الى الانسان الأول . واستوعبوا فى سذاجة مماثلة ، المعجزات التى ذكرت فى النصوص المقدسة وفى رؤى أحبار اليهود ورواياتهم .

ظهور النبى محمد

ان القول بأن نسب محمد غير عريق أو غير نبيل ، قذف أحمق تعوزه البراعة من جانب المسيحيين الذين يرفعون بذلك من قدر خصمهم بدلا من الحط منه . وكان نسبه الى اسماعيل امتيازا قويا أو خرافة . ولكن اذا كان الجزء القديم من النسب محوطا بالظلام والشك ، فانه يستطيع أن يشير الى أجيال عديدة من النبل النقى الأصيل . لقد ولد من قريش فى بنى هاشم ، وهم أشهر العرب ، وهم أمراء مكة وسدنة الكعبة بالوراثة . وكان جده عبد المطلب بن هاشم ، وهو مواطن ثرى جواد ، قد أنقذ البلد من محنة القحط بما جلب من تجارة . ومكة التى أطعمها جود الأب أنقذتها شجاعة الابن . وكانت مملكة اليمن تخضع لحكم أمراء الحبشة المسيحيين . وقد ثارت ثائرة أبرهة والى اليمن لاساءة لحقته ، فعزم على أن يثأر لشرف الصليب فأحاط المدينة المقدسة بكثير من الفيلة وبجيش من الأفريقيين ، وجرت هناك مفاوضات لعقد صلح . وفى الاجتماع الأول طالب جد محمد برد ابل سلبت منه . وتساءل أبرهة : « أتكلمنى فى الابل ، وتترك الكعبة ، وقد جئت لهدمها ؟ » وأجاب ذلك الزعيم الجرىء : « انى أنا رب الابل ، أما البيت (الكعبة) فله أرباب تحميه وتدفع عنه الأذى والدنس » . وقد اضطر الأحباش ، اما لقلة المؤن أو لبسالة القرشيين ، الى التقهقر الزرى الشائن . وقد ازدانت قصة اندحارهم بمعجزة تحليق « الطير الأبابيل » فوق هؤلاء الكفرة

« ترميهم بحجارة من سجيل » . وخلد العرب ذكرى هذه النجاة فأخذوا يؤرخون أحداثهم أمدا طويلا بعام الفيل . وقد توجت السعادة العائلية مجد عبد المطلب . فقد امتدت حياته حتى بلغ مائة سنة وعشرا. كما أصبح أبا لست من البنات وثلاثة عشر من الأبناء . وكان عبد الله أحب بنيه اليه ، وكان أجمل شبان العرب وأكثرهم تواضعا . وفى الليلة التى زف فيها الى آمنة وهى من أسرة زهرة النبيلة ، قيل بأن مائتى عذراء قضين نحبهن غيرة ويأسا . وقد ولد محمد وهو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة — بمكة فى السنة الرابعة لموت جستنيان وبعد مضى شهرين من هزيمة الأحباش الذين لو قدر لهم النصر ، لدخل الدين المسيحى الكعبة . وحرم محمد فى طفولته من أبيه وأمه وجده . غير أن أعمامه كانوا كثرا ، وكانوا أشداء ، وعند قسمة الميراث لم يحظ اليتيم الا بخمسة جمال وأمة حبشية . وكان أبو طالب ، وهو أعلى أعمامه مقاما ، رائد شبابه وحاميه ، فى الداخل وفى الخارج ، فى السلم والحرب . وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين، عمل لخديجة ، وكانت أرملة غنية نبيلة تقطن مكة . وقد كافأت أمانته بعد وقت قصير بأن وهبته يدها ومالها . ويردد عقد الزواج ، فى بساطة الأسلوب العتيق ، الحب المتبادل بين محمد وخديجة ، ويصفه بأنه من أفضل الشبان فى قبيلة قريش . ويحدد العقد صداقا قدره اثنتا عشرة أوقية من الذهب وعشرون جملا . وقد دفع عمه الكريم هذا الصداق . وبهذا الزواج استرد محمد بن عبد الله مركز أجداده . وقنعت هذه السيدة الراجحة العقل بفضائله الشخصية ،

حتى نزلت عليه فى الأربعين من عمره الرسالة ، وبلغ النـــاس دين القرآن .

وطبقا لما رواه أصحابه ، كان محمد يتميز بجمال الخلقة . وهى نعمة يندر أن يمتهنها الا من حرم منها ، وقبل أن يتكلم استمال ، كخطيب الى جانبه مودة سامعيه فى مجلس خاص أو عام . وكان أصحابه تبهرهم هيبته وجلال منظره وعيناه النافذتان وابتسامته العذبة ولحيته المرسلة ، ومحياه الذى عبر عن كل خلجة من خلجات نفسه ، وحركاته التى أكدت كل لفظ جرى على لسانه . وفى أمور الدنيا العادية اعتصم محمد بآداب قومه بما فيها من رزانة وجلال ، وقد زاد تواضعه وحسن لقائه لفقراء مكة المعدمين من شرف رعايته واحترامه للأغنياء والأقوياء . وأخفت صراحة سلوكه براعة أفكاره . وكان أدبه الجم يرجع الى صداقة شخصية أو حب عام للخير . وكانت له ذاكرة قوية واعية . وكانت دعاباته هينة لطيفة ، وخياله ساميا ، وحكمه على الأشياء واضحا وسريعا وفاصلا . وتحلى بشجاعة التفكير والعمل معا . وعلى الرغم من أن خططه ربما اتسعت بالتدريج مع كل نجاح أصابه ، فان أول فكرة واتته عن رسالته المقدسة تحمل طابع الأصالة والعبقرية الفذة . وتربى ابن عبد الله فى أحضان أنبل قوم ، ودرب على استخدام أنقى لهجة فى العرب . وقد ازدانت طلاقة لسانه بالتزامــه الصمت الحصيف فى الوقت الملائم . وعلى الرغم من تسنمه ذروة البلاغه فقد عاش أميا بعيدا عن مراكز الحضارة . فلم يتعلم فى شبابه فن القراءة والكتابة . وأعفاه الجهل السائد فى زمانه من اللوم والخجل. ولكنه حصر فى دائرة ضيقة من هذا الوجود وحرم من تلك المرايا الصادقة

التى تعكس الى عقولنا آراء الحكماء والأبطال . ومع ذلك فقد كانت الطبيعة وأخلاق الناس كتابا مفتوحا أمام ناظريه . وقد لعب الخيال فى الملاحظات السياسية والفلسفية التى تنسب الى هذا « الرحالة » العربى ،فهو يقارن بينأمم الأرض ودياناتها ويكشف عن ضعفالملكيات الفارسية والرومانية ، وينظر فى شفقة وأسى الى تدهور الأزمنة ، ويعزم على أن يوحد فى ظل اله واحد وملك واحد روح العرب المنيعة وفضـائلهم البدائية . واذا دققنـا البحث لوجدنا ، أنه بدلا من التردد على بلاط الملـوك ومعابد الشرق ومعسـكراته ، اقتصرت رحلتنا محمد على أسـواق بصرى ودمشق ، وأنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره عندما سافر مع قافلة عمه ، وأن واجبه حتم عليه أن يعود توا بعد بيعه تجارة خديجة . وفى هذه الرحلات العابرة السريعه ربما استطاعت عين العبقرية أن ترى أشياء قد لا يراها رفقاؤه الذين هم أقل منه ارهافا فى الحس . وقد تنثر بعض بذور المعرفة فى أرض خصبة . ولكن عدم المامه باللغة السريانية كان لا بد أن يحد من حبه للاستطلاع . وانى لا أستطيع أن أرى فى حياة محمد ، أو فيما روى ، أن أفقه امتد الى أكثر من حدود العالم العربى . فمن كل فج من هذا العالم المنعزل كان حجاج مكة يجتمعون كل سـنة ملبين داعى التقوى والتجارة . وفى هذا الاختلاط الحـر بين الجماهير الغفيرة يستطيع المواطن العادى أن يدرس فى لغة قومة أحوال القبائل السياسية وأخلاقها وطباعها وعقائد اليهود والنصارى وطقوسهم . وقد يحمل بعض الأجانب النافعين أو قد يغرون على طلب الضـيافة . وقد أشار أعداء محمد الى يهودى والى فارسى والى راهب سورى ، واتهموا

هذا أو ذاك بأنه بذل العون سرا لمحمد فى وضع القرآن . ان الحديث يثرى الفهم ويوسع الأفق ، ولكن العزلة مدرسة العبقرية ، والتناسق فى أى مؤلف (كتاب) يدل على أن صانعه فنان واحد . لقد انكب محمد منذ شبابه الباكر على التأملات الدينية . ففى شهر رمضان من كل سنة كان يعتزل العالم ويهجر زوجه خديجة ، وفى غار حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، كان محمد يناجى روح الخداع أو الحماسة التى لا تقطن السماء وانما تسكن عقل النبى . ويتألف الدين الذى بشر به عشيرته وأمته باسم الاسلام من حقيقة أزلية وقصة حتمية : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله »[(١)] .

ويفخر المدافعون عن اليهود بأنه بينما خدعت الأمم القديمة المتعلمة المستنيرة بخزعبلات الشرك ، فان أجـدادهم البسـطاء فى فلسطين حافظوا على معرفة الاله الحق وحده وعلى عبادته . وقد يصعب التوفيق بين صفات يهوه الأخلاقية وبين مستوى الفضائل البشرية . أما صفاته الميتافيزيقية فيكتنفها الغموض ، فان كل صحيفة من أسفار موسى الخمسة أو من سفر الأنبياء تدل على قوته وقدرته . وقد نقشت وحدانية اسمه فى أول لوح من ألواح الشريعة ولم تدنس هيكله أية صورة مرئية لكائن غير مرئى . وبعد هدم الهيكل ، طهرت العقيدة اليهودية فى المنفى وحددت ، وهذبتها التقوى الروحية فى المعابد ، ولا يمكن أن نبرر ، استنادا الى ما جاء على لسان محمد ، تنديده الدائم بأن يهود مكة أو المدينة كانوا يعبدون «عزيرا» على أنه ابن الله [(٢)] . ولكن لم يعد

---

(١) ترجمت كلمات جيبون بنصها . وهذا هو أسلوب جيبـون فى حديثه عن الدين . وقد لا نكون فى حاجة الى التعليق عليه (الترجمة)

(٢) يشير الى ما جاء فى سورة التوبة الآية ٣٠

بنو اسرائيل يعتبرون شعبا . وكانت ديانات العالم ترتكب منكرا من القول وزورا ، على الأقل فى نظر النبى ، بافترائها أن الله فى عليائه قد اتخذ أبناء وبنات ورفقاء . وكانهذا الاثم فى وثنية العرب الفجة صارخا وقحا . ولا يشفع للصابئة أن الكوكب الأول أو العقل احتل الذروة السامية فى المراتب السماوية فى دينهم . وفى دين المجوس يدل التنازع بين مبدأين على عيب الفاتح ونقصه . وكان النصارى فى القرن السابع قد رجعوا الى ما يشبه الوثنية دون أن يشعروا . فكانت نذورهم الخاصة والعامة توجه الى البقايا المتخلفة والصور التى وصمت كنائس المشرق بالعار ، لقد احتجب عرش الواحد القهار وراء سحابة من الشـــهداء والقديسين والملائكة ، وهم موضع تبجيل العوام . وقد أضفى الهراطقة الكوليريديون Collyridians الذين ازدهروا فى بلاد العرب ووجدوا فيها مرتعا خصبا ، على مريم العذراء اسم الالهة ومراسم الالهة . وتبدو أسرار التثليث والتجسيدمناقضة لمبدأ وحدانية الله . ففى أبسطمعانيهما وأكثرها وضوحا يوجد التثليث ثلاثة آلهة متكافئة . ويتحول عيسى وهو بشر الى أقنـــــوم هو ابن الله . ولن يقنع أى شرح تقليدى أرثوذكسى غـــير عقل مؤمن . وحب الاستطلاع والتحرق الذى فاق حد الاعتدال قد مزقا الحجاب عن قدس الأقداس . وكان أصحاب كل مذهب فى الشرق على استعداد لأن يعلنوا أن جميع المذاهب خـــلا مذهبهم ، جديرة بأن توصم بالوثنية وتعدد الآلهة . أما عقيدة محمد فقد خلت من الشك والابهام . والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله . ورفض بنى مكة عبادة الأصـــــنام من البشر ومن الكواكب والنجوم ، تطبيقا للمبدأ العقلى بأن كل ما يبزغ فهو الى أفول ، وكل

ما يولد فهو الى ممات ، وكل ما يقبل الفساد فهو الى الانحلال والزوال. وقد آمن فى حماسه العقلى ، كما عبد ، فى خالق العالم موجودا خالدا لا حد له ولا شكل ولا مكان ولا عقب ولا شبيه ، حاضرا فى أسرارنا الخفية ، موجودا بطبيعة وجوده ، متصفا بذاته بجميع صفات الكمال الذهنى والأخلاقى . وهذه الحقائق السامية ، التى عبر عنها النبى على هذا النهج ، آمن بها أصحابه ايمانا لا يتزعزع ، وحددها مفسرو القرآن بدقة ميتافيزيقية . وأى فيلسوف يؤمن بوجود اله يمكنه أن يقر بعقيدة محمد المألوفة . وهى عقيدة ربما كانت أسمى من عقولنا فى الوقت الحاضر . فماذا بقى للخيال أو حتى للذكاء ، اذا جردنا هذا الجوهر غير المعروف من كل فكرة عن الزمان والمكان وحتى عن الحركة والمادة ، والاحساس والتأمل ؟ لقد أكد صوت محمد أول مبدأ للعقل والالهام . وتميز أتباعه من الهند الى المغرب باسم الموحدين . وقد زال خطر عبادة الأوثان بتحريم الصور والتماثيل . ويعتنق المسلمون دون شك أو تردد المبدأ القائل بالقضاء والقدر والجبرية المطلقة (١) . ولكنهم يناضلون متصدين للمعضلات العادية : كيف يمكن أن نوفق بين علم الله الأزلى وبين حرية المرء ومسئوليته عن أعماله .وكيف يوجد الشر فى ظل قوة قاهرة لا حد لقدرتها ، خيرة لا حد لخيرها ؟

لقد سجل اله الطبيعة وجوده على كل ما خلق . كما دون شريعته على قلوب البشر . وكان التذكير بوجوده والسير على هدى شريعته هدف جميع الأنبياء فى كل العصور ، سواء أكان هذا الهدف حقيقيا

---

(١) هذا الرأى لا يتفق والحقيقة (المترجم)

أم مزعوما . وقد سمح كرم محمد لمن سبقه من الأنبياء بمثل ما ادعى لنفسه من الفضل ، وامتدت سلسلة الوحى من سقوط آدم الى نزول القرآن . وفى تلك الفترة أضاء نور النبوة فى قلوب مائة وأربعة وعشرين ألفا من المصطفين الأخيار ، رفع بعضهم فوق بعض بقدر ما منحوا من فضيلة وبركة . وبعث ثلثمائة وثلاثة عشر رسولا برسالات خاصة ليخرجوا مواطنيهم من الوثنية والرذيلة . وأملى الروح القدس مائة وأربعة مجلدات . وقام ستة من المشرعين ذوى الذكاء الخارق بابلاغ الناس ما أوحى به اليهم على توالى الأزمنة من شرائع مختلفة ولكنها كلها تندرج تحت دين واحد لا يتغير . وترتفع درجات آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد بعضها فوق بعض . ولكن من يبغض أو ينكر أى نبى يعد من الكافرين . وكتابات الآباء الروحانيين لم تبق الا فى النسخ اليونانية والسريانية المشكوك فيها . وسلوك آدم لم يجعله جديرا باعتراف سلالته له بالجميل . وتعاليم نوح السبعة لا يتبعها الا طبقة حقيرة عاجزة من المؤمنين فى معابدهم . وذكرى ابراهيم كان الصابئة يبجلونها فى غموض فى كلديا وهى موطنه الأصلى . وعاش من بين ألوف الأنبياء موسى والمسيح وكانا يحكمان . وتتألف بقايا كتبهم المقدسة من العهد القديم والعهد الجديد . وترد قصة موسى الاعجازية فى القرآن فى ثوب قدسى جميل . وتنشرح صدور اليهود الذين فى الأسر للتشفى سرا بفرض عقائدهم على أمم يزدرون أديانها الحديثة العهد . وقد علم النبى المسلمين أن يبجلوا مؤسس المسيحية تبجيلا ساميا خفيا : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته

ألقاها الى مريم وروح منه »[1] ــ « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين[2] . وقد نسبت اليه دون تحفظ عجائب الأناجيل الصحيحة والمشكوك فيها . ولم تأنف الكنيسة الغربية أن تأخذ عن القرآن فكرة ولادته دون أب من أم عذراء[3] ومع ذلك فان عيسى لم يكن الا بشرا سويا ، ولسوف تستخدم شهادته يوم القيامة ضد اليهود الذين رفضوا الايمان به كنبى ، وضد النصارى الذين عبدوه كابن الله . وقد اغتابه أعداؤه الخبثاء ووشوا به ، وتآمروا على حياته . ولكن نيتهم وحدها هى التى أثمت ، اذ وضع على الصليب شبح أو مجرم ، ورفع القديس الطاهر الى السماء السابعة . وكان الانجيل طوال ستمائة سنة هو الطريق الحق وسبيل الخلاص ، ولكن المسيحيين نسوا بالتدريج كلا من القانون وسنة نبيهم . وقد علم الغنوصيون النبى محمدا أن يتهم الكنيسة وكذلك الهيكل اليهودى ، بتحريف النصوص المقدسة . لقد ابتهج موسى والمسيح لتقواهما بالبشارة المؤكدة ، وهى أن النبى الذى سيأتى من بعدهما سيكون أعظم منهما وأكثر شهرة . فالوعد الذى ورد فى الانجيل عن الروح القدس (Paraclete) تمثل أولا فى اسم محمد ، ونفذ فعلا فى شخص محمد أعظم رسل الله وخاتمهم .

ويحتاج نقل الآراء الى تشابه فى الأفكار وفى اللغة . فحديث فيلسوف ما قد يطرق سدى أذنى فلاح . ومع ذلك فما أقل المسافة التى تفصل

---

(١) سورة النساء آية ١٧١ (٢) سورة آل عمران آية ٤٥

(٣) أشير الى ذلك بغموض فى القرآن ، وقد فسرتها روايات أهل السنة بوضوح أكبر ، وفى القرن الثانى عشر رفض القديس برنارد الولادة العذرية باعتبارها بدعة جريئة .

بين ذهنيهما اذا قورنت باتصال عقل لا حد له بعقل محدود ، بكلام الله اذا عبر عنه لسان أو دونه قلم . فالوحى الذى نزل على أنبياء بنى اسرائيل أو على حواريى المسيح وكتاب الأناجيل قد لا يتعارض واستعمالهم لقواهم العقلية وذاكرتهم . وقد ترك اختلاف عبقرياتهم طابعا ظاهرا فى أسلوب كتب العهدين القديم والجديد وتأليفها . ولكن محمدا قنع بدور أكثر تواضعا ، وأعظم سموا ، الا وهو دور المبلغ فحسب . فمادة القرآن فى رأيه أو رأى أتباعه أزلية خالدة محفوظة فى جوهر الألوهية ومسطرة بقلم من نور فى اللوح المحفوظ الذى سطرت فيه الأقدار الأزلية . وقد حمل جبريل الى السماء الدنيا نسخة منه مكتوبة على الورق فى مجلد من الحرير والجواهر . وجبريل طبقا للعقيدة اليهودية قد أرسل من قبل فى مهام الأمور . وهذا الرسول الأمين نزل بالسور والآيات منجمة على النبى العربى . وبدلا من تعبير كامل دائم عن الارادة الالهية أظهر محمد آيات من القرآن كلما تراءى له ذلك، وكان كل وحى يلائم ظروفه السياسية أو هواه . وقد أزيل التناقض باتباع المبدأ التحفظى الذى يقرر أن أى نص فى الكتاب الكريم قد ينسخ أو يغير بنص لاحق . واجتهد أتباعه فى تدوين كلمات الله ورسوله على سعف النخيل وعظام الكتف المأخوذة من الغنم . وأودعت هذه الصفحات دون ترتيب أو ارتباط فى صندوق بمنزله عهد بحفظه الى احدى زوجاته . وبعد وفاة محمد بسنتين ، جمع أبو بكر صديقه وخليفته هذا المجلد المقدس وقام بنشره . وقام بمراجعة هذا العمل الخليفة عثمان فى السنة الثلاثين بعد الهجرة . وتؤكد طبعات القرآن على اختلافها تلك الميزة المعجزة لنص موحد لا يتبدل أو يفنى . وبروح الحماسة أو الزهو

أقام محمد صدق رسالته على مميزات كتابه . وهو يتحدى فى جرأة الجن والانس على السواء أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو حتى بسورة من مثله . وهو يؤكد أن الله وحده هو الذى يستطيع أن يأتى بمثل هذا العمل الذى لا يبارى ، ويوجه هذا الدليل الى كل عربى ورع ، يتعلق قلبه بالايمان ويمتلىء بالنشوة ، وتطرب أذنه لموسيقى الأصوات، ولا يمكنه جهلهمن مقارنة انتاج العباقرة منالبشر . وموسيقىالأسلوب وجزالته ، لن يكون لهما عند الترجمة وقع فى نفس أوربى كافر.وسوف يتصفح هذا ، فى ضجر ، خليطا متنافرا لا نهاية له من القصص والمواعظ والخطب ، قلما تثير الشعور أو تبعث فى النفس فكرة . وقد تزحف أحيانا على الثرى وقد تحلق فيفتقدها المرء بين السحب . وتحفز صفات الاله خيال البشير العربى . ولكن أسمى الأساليب لابد أن تتراجع أمام البساطة الهائلة لسفر أيوب الذى وضع منذ زمن سحيق فى عين القطر وفى اللغة نفسها . واذا كان أسلوب القرآن يسمو فوق قدرة البشر ، فالى أى ذكاء نادر يجب أن ترجع الياذة هوميروس أو فيلبيات ديموستنيس [1] . وفى كل دين تعوض سيرة مؤسسه عن صمت الوحى المدون . وقد كانت أحاديث محمد دروسا عديدة فى الصدق ، وأفعاله نماذج كثيرة للفضيلة . وقد قام أصحابه وأزواجه على حفظ آثاره العامة والخاصة ، وبعد مضى مائتين من السنين ثبتت دعائم السنة أو القانون الشفوى بفضل جهود البخارى الذى حقق سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثا صحيحا اختارها من مجموعة

---

(١) لا هذا ولا ذاك يستحقان أن يوضعا الى جوار سورة قصيرة من القرآن . (المترجم)

تحوى ثلثمائة ألف حديث ما بين مشكوك فيه وزائف . وفى كل يوم كان هذا المحقق الورع يصلى فى حرم مكة ويتوضأ بماء زمزم ، ويضع أوراقه التى انتهى منها على منبر الرسول وعلى قبره . وقد حظى عمله بموافقة الأئمة الأربعة لمذاهب أهل السنة .

لقد أيدت معجزات كثيرة باهرة رسالة الأنبياء القدامى كموسى وعيسى . وكم ألح أهل مكة والمدينة على محمد بأن يأتى بدليل مماثل على رسالته المقدسة ، كأن ينزل عليهم من السماء ملكا ، أو كتابا يحوى ما يوحى به اليه ، أو ينبت فى الصحراء حديقة ، أو يرسل نارا تلتهم البلدة المشركة . وكلما ألحت عليه قريش فى المطالبة بالمعجزات أحاط نفسه بفخر غامض من الرؤيا والتنبؤ ، ولجأ الى البراهين العقلية فى عقيدته معتصما بعناية الله الذى يرفض تلك الآيات والمعجزات التى تنقص من قدر الايمان وتزيد فى جسامة الكفر . ولكن نغمة دفاعه سواء كانت غاضبة أو متواضعة تنبىء عن ضيقه . وهــذه المواضع التى تشير الى العتاب تثبت دون ريب وحدة القرآن . أما أتباع محمد فهم أكثر منه ايمانا بقدرته على الاتيان بالمعجزات ، وتزداد ثقتهم وايمانهم كلما ابتعدوا عن زمان مآثره الروحية ومكانها . انهم يؤمنون أو يؤكدون أن الأشجار سارت للقائه ، وأن الأحجار حيته ، وأن الماء نبع من بين أصابعه ، وأنه أطعم الجائع ، وشفى المريض وأحيا الميت ، وأن رافدة من الخشب تأوهت تشوقا اليه ، وأن الجمل شكا اليه ، وأن كتف الشاة أخبرته أنها مسمومة ، وأن الكائنات الحية والجامدة كانت تخضــع على السواء لرسول الله . ثم ان رؤياه التى رأى فيها أنه أسرى به ليلا ، وصفت حقا بأنها أمر تم فعلا وبالجسد . فحمله حيوان غريب اسمه

البراق من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى فى بيت المقدس . وفى صحبة جبريل صعد السموات السبع على التوالى وتقبل تحيات النقباء والأنبياء والملائكة ، كل فى قصره ، ورد التحية . وبعد السماء السابعة سمح لمحمد وحده أن يتقدم . وقد مر بحجاب الوحدة وهو قاب قوسين أو أدنى من العرش ، وشعر ببرودة اخترقت قلبه عندما مست كتفه يد الله . وبعد هذا الحديث الودى على الرغم من أهميته . هبط محمد ثانية الى بيت المقدس وركب البراق وعاد الى مكة . وأتم فى عشر ليلة رحلة لا تتم الا فى آلاف من السنين . وطبقا لرواية أخرى أفحم الرسول ، فى جمع عام ، قريشا ، فى تحديهم الخبيث له ، فانشق قرص القمر اطاعة لكلمته التى لا ترد ، وهبط الكوكب المطيع من موضعه فى السماء وطاف بالكعبة سبع مرات وحيا محمدا بلسان عربى ، وأنقص فجأة من حجمه ودخل من الرقبة ليخرج من كم القميص . ويجد العامة متعة فى هذه الحكايات العجيبة . ولكن أكثر علماء الاسلام رزانة يقلدون تواضع نبيهم ويشيرون اما الى سماحة العقيدة أو التفسير . وقد يتذرعون بأنه لا حاجة الى خرق قوانين الطبيعة عند نشر دين من الأديان . وأن دينا لا تكتنفه الأسرار والغموض يمكن تبرير ما فيه المعجزات ، وأن سيف محمد لم يكن أقل فى قدرته من عصا موسى .

ان تعدد الخرافات وتنوعها يثقل كاهل الوثنى ويشتت فكره ، ولقد نسج فى جوهر الشريعة الموسوية ألف طقس من أصل مصرى . كما تبخرت روح الانجيل وسط أبهة المحافل الكنسية ومهرجاناتها . وقد مال نبى مكة ، اما بدافع الهوى أو السياسة أو الوطنية ، الى اضفاء القدسية على الطقوس العربية وعادة زيارة الحجر الأسود فى الكعبة . ولكن تعاليم محمد نفسه تغرس ورعا أكثر بساطة وأكثر تعقلا أو التئاما مع العقل : فالصلاة والصوم والزكاة هى واجبات المسلم الدينية . وهو يشجع على التعلق بالأمل فى أن الصلاة تقربه الى الله وأن الصوم سيصل به الى باب الجنة وأن الزكاة ستسمح له بالدخول .

وطبقا لقصة الاسراء أمر النبى عندما كلمه ربه على انفراد أن يفرض على أتباعه خمسين صلاة فى اليوم . واتباعا لنصيحة موسى طلب التخفيف من هذا العبء الذى لا يمكن احتماله . وقد أنقص العدد تدريجا الى خمس . ولا يقبل من تاركها عذر من عمل أو لهو أو زمان أو مكان . وتتكرر صلاة المؤمن فى الفجر وفى الظهر وفى العصر وفى المغرب وفى العشـــاء . وحتى فى وقتنا هذا فان الســـائح الأوربى الذى فتر فيه الحماس الدينى ، ليستشعر شيئا من الرفعة والسمو حين يرى شـــدة خشوع الأتراك والفرس ويقظتهم فى صلاتهم . والوضوء هو مفتاح الصلاة . وفى القرآن أمر صريح بتكرار غسل اليدين والوجه والجسم. وكان العرب قديما يفعلون ذلك . وهناك نص صريح باباحة التيمم اذا تعذر الماء . وقد جددت السنة أو الاجتهاد ألفاظ الصلاة وحركاتها سواء

فى الركوع أو القيام أو السجود . وينساب الدعاء والضراعة الى الله فى ابتهالات قصيرة حارة . ولا يوهن من حماسهم أية طقوس مهما كانت مضنية . وكل مسلم مسئول بنفسه عن أمور دينه وواجباته الدينية . ووجد أنه من الضرورى ، بين أناس لا يؤمنون الا فى وجود الله وحده ويرفضون استخدام الصور — الحد من شطحات الخيال وذلك بتوجيه العين والفكر نحو « قبلة » أو موضع ظاهر فى الأفق . وكان النبى يميل أولا الى ارضاء اليهود فاختار بيت المقدس ، ولكنه رجع بسرعة الى قبلة أكثر التئاما مع ميوله الطبيعية . وتتجه خمس مرات فى كل يوم ، عيون الأمم فى اصطخر وفاس ودلهى فى خشوع الى حرم مكة المقدس . وجدير بالذكر أن كل بقعة طاهرة صالحة لأداء الصلاة فيها ، فيؤدى المسلم صلاته سواء فى حجرته أو فى الطريق العام . وللتمييز بين المسلمين وبين اليهود والنصارى خصص يوم الجمعة من كل أسبوع لاقامة صلاة جامعة اعترافا بفائدة هذا النظام . فيجتمع الناس فى المسجد ويرقى الامام ، وهو شيخ مبجل ، المنبر ليبدأ الصلاة ويلقى الخطبة . ولكن الدين الاسلامى لا يعرف الكهنوت ولا القرابين . وتنظر روح التعصب المنطلقة باحتقار الى الكهنة وعبيد الخرافات .

كان النبى يبغض ما يقوم به الزهاد والنساك من تكفير اختيارى ، فيه تعذيب لأنفسهم بغية احاطتها بهالة من القدسية فى حياتهم ، وقد لام بعض أصحابه لأنهم نذروا فى حمق الامتناع عن اللحم والنساء والنوم ، ونادى بقوة أنه لن يسمح بقيام رهبنة فى دينه . ولكنه فرض صوم ثلاثين يوما من كل سنة ، وألح فى النصح باتباع هذا الأمر كنظام يطهر النفس ويقهر البدن ، وكترويض نافع على اطاعة أوامر الله ورسوله . ففى شهر رمضان يمتنع المسلمون من الفجر الى

غروب الشمس عن الطعام والشراب والنساء والاستحمام والتعطر ، أعنى عن كل غذاء يعيد الى المرء قوته ، وعن كل لذة تشبع حواسه . وفى دورة السنة القمرية قد يأتى رمضان أحيانا فى قر الشتاء وأحيانا فى حر الصيف ، حيث يجب على هذا الشهيد الصابر أن يرقب انتهاء نهار قائظ طويل ممل دون أن يطفىء ظمأه بقطرة من الماء ، وكان تحريم الخمر مقصورا على فئة من القساوسة والنساك ، فغير محمد وحده ذلك وجعله قانونا عاما واجب الطاعة . وقد حرم جزء كبير من سكان العالم — اطاعة لأمره — استعمال ذلك الشراب النافع (أحيانا) وان يكن ضارا خطيرا فى أغلب الأحيان ، وقد يخرق الفاسق دون ريب هذه القيود الشاقة وقد يجد المنافق مخرجا . ولكن المشرع الذى سن هذه القيود لا يمكن حقا أن يتهم بأنه استمال أتباعه بالتساهل فى اشباع شهواتهم البدنية . ويمتد البر عند المسلمين الى عالم الحيوان. ويؤكد القرآن مرارا أن اغاثة الفقير والمسكين ليست فضلا ومنة ، وانما هى واجب معلوم لا يمكن الفكاك منه . وربما كان محمد هو المشرع الوحيد الذى حدد مقدار الزكاة بالدقة ، وقد يختلف المعيار باختلاف المال : مقداره ونوعه ، فقد يكون نقودا ، أو حنطة أو ماشية أو فاكهة أو تجارة ، ولكن المسلم لا يكون منفذا للشرع الا اذا أخرج عشر ماله أو ايراده . فان اتهمه ضميره بغش أو ظلم ارتفع القدر الى الخمس [1] طبقا لفكرة رد المظالم . فالبر والاحسان

(١) حفزت الغيرة ماراتشى Maraeci الى تعداد صدقات الكاثوليك فى رومه ، على أنها أكثر كرما وجودا · حيث فتح خمسة عشر مستشفى ضخم للألوف من المرضى والحجاج ويدفع الصداق لألف وخمسمائة عذراء كل سنة · وقد أسست ست وخمسون مدرسة خيرية لكلا الجنسين ، ومائة وعشرون جمعية أخوية للتخفيف من عوز اخوانهم ··· الخ · وأعمال البر فى لندن أكثر من ذلك · ولكنى أخشى أنه يجب أن ينسب هذا الى الروح الانسانية فى الشعب أكثر منه الى ديانته ·

أساس العدالة ، طالما حرم علينا أن نؤذى من تجب علينا معونته . وقد يكشف لنا نبى عن أسرار السماء ويرفع الحجاب عن غيب المستقبل ، ولكنه فى تعاليمه الأخلاقية لا يستطيع الا أن يردد ما يدور بخلدنا .

ويحمى الأمل فى الثواب والخشية من العقاب الركنين الأساسيين فى الاسلام وفرائضه الأربعة العملية . وقد ارتكزت العقيدة عند المسلمين فى خشوع على الحساب فى اليوم الآخر . ولم يجرؤ النبى على تحديد زمن هذه « الواقعة » الرهيبة بالدقة ، على الرغم من أنه يشير فى غموض الى علاماتها فى السماء والأرض ، وهى علامات زوال العالم عندما تدمر الحياة وتعود الخليقة سيرة الفوضى البدائية الأولى . ويوم ينفخ فى الصور تبدأ عوالم جديدة فى الظهور ، ويقوم الملائكة والجن والناس من قبورهم وتتحد الروح والجسد مرة أخرى. وجدير بالذكر أن المصريين كانوا أول من آمن بفكرة البعث . وقد حنطت أجسادهم وبنيت الأهرام لتحافظ على الجسد ، المعقل القديم للروح ، لفترة امتدت ثلاثة آلاف سنة . غير أن هذه محاولة جزئية وغير مجدية . وقد أظهر محمد روحا فلسفية أعظم عندما اعتمد على قدرة الخالق التى لا حد لها ، والذى يستطيع بكلمة منه أن يحيى العظام وهى رميم ، وأن يجمع الذرات التى لا حصر لها والتى لم تعد تحتفظ بشكلها أو مادتها . ومن الصعب الجزم بشىء عن حال الروح فى البرزخ . ولا يستطيع من يؤمنون ايمانا مطلقا بطبيعتها اللامادية أن يفقهوا كيف يمكنها التفكير أو العمل دون عون من الحواس .

ويأتى الحساب بعد اتحاد الروح والجسد مرة أخرى . وفى تقليده

للصورة المجوسية رسم النبى بأمانة طرق السير فى الدعوى ، ولم ينس اجراءاتها البطيئة المتتالية ، مما هو مألوف فى محكمة دنيوية . وقد وجه اليه أعداؤه المتعصبون اللوم لأنه بعث ، حتى فيهم أنفسهم ، الأمل فى النجاة ، حيث أكد أسوأ (هرطقة) فى الوجود : وهى أن أى انسان يؤمن بالله ويعمل صالحا ، من الممكن أن ينتظر فى اليوم الآخر حكما يصدر فى صالحه . ولا يتفق هذا الاعتدال المنطقى مع طبيعة التعصب . كما أنه ليس من المحتمل أن رسولا من السماء ينتقص من قيمة رسالته وضرورتها . ويؤكد القرآن أن الايمان بالله لا يمكن أن يفترق عن التصديق بمحمد . وأن الأعمال الصالحة هى التى أمر بها . وهذان الشرطان يعنيان اعتناق الاسلام . وقد دعى الى اعتناقه جميع الأمم وجميع المذاهب سواء بسواء . ويكون العذاب المقيم جزاء عماهم الروحى . على الرغم من أن لهم عذرا من الجهل ، وعلى الرغم من أنهم يتسمون بالفضيلة . وان الدموع التى ذرفها محمد على قبر أمه التى منع من الدعاء لها ، لتظهر تباينا مؤثرا بين انسانيته وحماسته . فمصير الكفار عام . أما درجة اثمهم وعقابهم فتقاس بمقدار البينات التى كذبوا بها ، وضلال العقائد التى اعتنقوها ، أما المقار الأبدية للنصارى واليهود والصابئة والمجوس وعبدة الأوثان فقد رصت بعضها تحت بعض فى قرار الجحيم . وقد خصص أسفل ذلك فى جهنم للمنافقين الكفرة الذين تستروا وراء قناع من الدين . وبعد أن يحاسب أكبر قدر من الناس بسبب معتقداتهم وحدها ، يحاسب المؤمنون الصادقون على أعمالهم . ويوزن الخير والشر الذى عمله كل مسلم بميزان دقيق حقيقى أو مجازى . ويسمح

بطريقة غريبة بالتعويض عن الاساءات . فيقدم المسيء قدرا مساويا
من حسناته الى من أساء هو اليه . فان لم يكن له حسنات على
الاطلاق ، وضع على سيئاته قسط مساو من سيئات المعتدى عليه .
وتبعا لرجحان كفة الاثم أو الفضيلة يكون النطق بالحكم . وعلى
الجميع دون تمييز أن يمروا على صراط حاد خطر نصب فوق الهاوية .
أما البرىء فسيلج باب الجنة منتصرا سالكا طريق محمد . ويقع
المذنب فى أولى طبقات جهنم السبع وأقلها سعيرا . وتختلف الفترة
اللازمة للتكفير من تسعمائة سنة الى سبعة آلاف عام . ولكن النبى
قطع وعدا حكيما بأن جميع أتباعه مهما كانت سيئاتهم سينجون
بايمانهم وبشفاعته من الخلود فى النار . وليس بعجيب أن تؤثر
الخرافة تأثيرا قويا على مخاوف من يؤمنون بها . اذ الخيال البشرى
يستطيع أن يصور بدقة شقاء الدار الآخرة أكثر من أن يصف سعادتها.
وباستعمال النار والظلام وهما عنصران بسيطان يمكن أن نخلق شعورا
بالألم يزداد الى درجة لا حد لها ، اذا فكرنا أنهما مستمران الى الأبد.
ولكن عين الفكرة تنتج أثرا عكسيا على استمرار السرور . فأكثربهجتنا
الحالية مستمد من التخلص من الشر أو المقارنة بين الخير والشر . ومن
الطبيعى جدا أن يطيل نبى عربى الوقوف ، جذلا ، عند الحدائق والعيون
والأنهار فى الفردوس . ولكنه بدلا من الهام ساكنى الجنان ذوقا رفيعا
للموسيقى والعلوم ، وللحديث والصداقة ، يسهبون دون فائدة فى وصف
اللؤلؤ والماس وثياب الخز ، وقصور الرخام وصحاف الذهب ، وأنواع
الخمور الفاخرة . والموائد الشهية الأنيقة والخدم الكثيرين ، وكل
صنوف الترف الحسى الثمين الذى يمله صاحبه حتى فى عمره القصير

الذى يعيشه على الأرض . ويكون لأفقر مؤمن سبع وعشرون حورية أو فتاة من ذوات العيون السود والجمال الوضاء والشباب الغض وطهارة العذارى والحساسية العالية . وستطول كل لحظة من حياته حتى تصبح ألف سنة ، وستقوى حواسه مائة مثل لكى يصبح جديرا بهناءته .

وعلى الرغم من تعصب الدهماء تفتح أبواب السماء للجنسين على السواء . ولكن محمدا لم يحدد رفقاء الأنثى فى الجنة لكيلا يثير غيرة أزواجهن السابقين أو يخلق فى سعادتهن اضطرابا ان خيل اليهن أن زواجهن سيكون أبديا . وقد أثار هذا الوصف الحسى للجنة غضب الرهبان ، أو بالأحرى حسدهم : فهم يذمون دين محمــد ، ويضطر الذين يدافعون فى تواضع عن ديانته أن يلجأوا الى الاعتذار الضعيف بأن كل هذا مجاز ورموز . ولكن أصحاب الرأى الأصح والأكثر تماسكا يلتزمون ، دون استحياء ، بالتفسير الحرفى للقرآن الكريم : فما الفائدة من بعث الجسد ان لم يعد اليه استخدام أفضل ملكاته . واتحاد المتعة الحسية والذهنية أمر ضرورى لتمام سعادة الحيوان المزدوج ، وهو الانسان الكامل . ولكن التمتع فى جنات محمد لن ينحصر فى اشباع اللذة المترفة . فقد أعلن النبى فى جلاء أن القديسين والشهداء الذين ينعمون برؤية الله سوف ينسون ويزدرون كل الألوان الدنيا من السعادة .

هجرة محمد من مكة إلى المدينة

كان أول انتصار وأشقه على محمد أنه كسب الى جانبه زوجتــه ومولاه وتلميذه وصديقه ، لأنه قدم نفسه أول ما قدم ـــ بوصفه رسولا نبيا ، الى أولئك الذين كانوا على علم تام بصفاته وأحواله

بوصفه بشرا . على أن خديجة آمنت بصدق رسالة زوجها واعتزت . أما زيد المطيع المحب فقد أغراه أمله فى الحصول على حريته [1] . أما الشاب اللامع على بن أبى طالب ، فقد اعتنق مبادىء ابن عمه بروح البطل الشاب . وقد دعم ثراء أبى بكر واعتداله وصدقه دين محمد الذى قدر له أن يخلفه . وقد استمال أبو بكر عشرة من أشراف مكة وحثهم على الاستماع الى دروس محمد الخاصة . واستجاب هؤلاء لصوت العقل والحماسة ، ورددوا ركن العقيدة الأصلى الأساسى « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . وقد كوفئوا على ايمانهم حتى فى هـذه الحياة الدنيا ، بالثراء والأمجاد ومناصب الشرف : قيادة الجيـوش وحكم الممالك . وقد مرت ثلاثة أعوام هادئة اعتنق فيها الدين الجديد أربعة عشر ، هم باكورة رسالته . وفى السنة الرابعة أعلن محمد دعوته وقرر أن يظهر عشيرته على نور الحقيقة الالهية . فأقام وليمة من شاة وصاع من لبن ، كما يقول الرواة ، للاحتفاء بأربعين ضيفا من بنى هاشم . وخطب فيهم : « يا بنى عبد المطلب ، انى والله ما أعلم انسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيـا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم اليه . فأيكم يجيبنى الى هذا الأمر ويؤازرنى عليه فيكون وصيى ووزيرى وأخى [2] ، فلم ينطق أحد بشىء ، وساد الصمت دهشة وحيرة وازدراء ، حتى قطعت فى النهاية شجاعة على وحميته ، وهو عندئذ شاب فى الرابعة عشرة من عمره ، هذا الصمت وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على

---

(١) أعتق زيد قبل البعثة (المترجم) .

(٢) آثرنا هنا ايراد النص العربى الذى نقل عنه جيبون (المترجم).

من حاربت » ، وقد تقبل محمد هذا العرض منشرحا . وصاح أبو لهب بأبى طالب ساخرا : أسمعت ما قال ابن أخيك ! انه يأمرك أن تسمع لابنك وتطيع . وفى نغمة أكثر جدية ، نصح أبو طالب ابن أخيه أن يترك هذا الأمر الذى لا يمكن تحقيقه . وأجاب محمد عمه وحاميه الذى كان يرعاه ، فى تعصب وجرأة : « دع عنك النصح ، والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » [1] . واستمر محمد ينشر دعوته عشر سنين . وسار بخطى وئيدة مضنية فى داخل مكة ، هذا الدين الذى انتشر فيما بعد فى مشارق الأرض ومغاربها .

ولكن محمدا استمتع بمنظر جماعته القليلة من الموحدين وهى تنمو وتنتشر . وكان أتباعه يبجلونه بوصفه نبيا . وكان يقدم اليهم فى الوقت المناسب الغذاء الروحى المستمد من القرآن . ويمكن تقدير عدد أتباعه من معرفة أن ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة هاجروا الى الحبشة فى السنة السابعة من البعثة . وقد قوى حزبه واعتز الاسلام باعتناق عمه حمزة واعتناق عمر الاسلام ، وكان هذا رجلا

---

(١) رواية جيبون تختلف كل الاختلاف عما جاء فى المصادر العربية فنقلنا النصوص العربية . وجاء فى سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٦٥) : « ثم ان أبا طالب عثر عليهما (النبى وعلى) وهما يصليان ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم ، يا ابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ ، فقال النبى : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم ، بعثنى الله به رسولا الى العباد .. فأجاب أبو طالب أى ابن أخى : انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك بشىء تكرهه (يصل اليك أذى) ما بقيت » . وذكروا أنه قال لعلى : « ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به وصليت معه لله ، واتبعته . فقال له : أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه » .

عنيدًا شديد المراس ، وجاء اسلامهما فى الوقت المناسب . وقد أبدى عمر فى خدمة الاسلام الحمية نفسها التى كان قد أبداها للقضاء عليه .
ولم تقف دعوة محمد عند قبيلة قريش أو أرباض مكة ، ففى أيام الأعياد العظيمة، وأيام الحج ، كثيرا ما زار الكعبة وتحدث الى الوافدين من كل قبيلة ، وحض الناس فى أحاديثه الخاصة وخطبه العامة ، على الايمان باله واحد وعبادته . وقد أكد حرية الضمير ، ورفض استعمال العنف الدينى وعيا منه بقضيته وبضعفه . ولكنه دعا العرب الى التوبة، وحثهم على تذكر مصير الوثنيين القدامى من عاد وثمود ، الذين محاهم العدل الالهى من على وجه الأرض .
واستبدت الخرافة والحسد بأهل مكة ، فتشددوا فى كفرهم برسالة محمد ، وتظاهر شيوخ هذه البلدة من أعمام النبى بازدراء ما يدعيه طفل يتيم من أنه يريد اصلاح بلده . وكان بعضهم يصيح بأعلى صوته ردا على خطب محمد عن التقوى والصلاح فى الكعبة : « أيها المواطنون والحجاج ، لا تستمعوا الى هذا الساحر الذى يغرر بكم ، ولا تعيروا بدعه الملحدة أذنا صاغية . والزموا عبادة اللات والعزى » . ومع ذلك فقد بقى ابن عبد الله عزيزا أثيرا لدى الشيخ المسن (أبى طالب) الذى دافع عن شرف ابن أخيه ورد عنه اعتداءات قريش التى طال حقدها وحسدها لبنى هاشم لتفوقهم وسيادتهم . وقد اصطبغ حقد قريش بصبغة الدين . وفى زمن أيوب كان للحاكم العربى أن يعاقب على تهمة الالحاد ، وارتكب محمد جريمة ترك الآلهة الوثنية وانكارها ، الا أن سياسة مكة فى ذاك الوقت كانت غير حازمة ، فاضطر رؤساء قريش ، بدلا من توجيه الاتهام الى آثم ، أن يستخدموا وسائل الاقناع أو العنف . وكثيرا ما تحدثوا

فى ذلك الى أبى طالب لائمين ومنذرين : « ان ابن أخيك سب ديننا ، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » [1] . وان استمر ، فسنرفع سيوفنا ضده وضد أتباعه وستكون أنت مسئولا عن دم مواطنيك) ولكن مركز أبى طالب واعتداله حالادون عنف التحزب الدينى . وهاجر أشد أتباع محمد عجزا وجبنا الى الحبشة . وخرج النبى نفسه الى الأماكن القريبة من مكة والى شعابها . ولما كان النبى لا يزال يعتمد على مؤازرة أسرته ، فقد تعاهدت سائر قريش على مقاطعة بنى هاشم ــ ألا يبيعوهم أو يشتروا منهم شيئا وألا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم ، بل يطاردوهم بروح عدائية لا تلين ولا تنثنى ، حتى يسلموا اليهم محمدا ليقتلوه . وقد كتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة لتكون أمام أعين الناس . وطاردت رسل قريش المسلمين فى منفاهم فى قلب أفريقية . وحاصروا النبى وأشد أتباعه اخلاصا ، فمنعوا عنهم الماء وأذكوا نار العداء بينهم ، وأمعنوا فى الأذى والسباب . وقد أعادت هدنة مشكوك فيها مظاهر الوفاق حتى ترك موت أبى طالب محمدا تحت رحمةأعدائه وقوتهم ، فى الوقت الذى حرم فيه النبى من السعادة المنزلية بفقد زوجه الوفية الكريمة ، « خديجة » . وقد تولى أبو سفيان رئيس فرع بنى أمية ، زمام الحكم فى مكة . ولما كان يشتعل حماسا لعبادة الأوثان ، كما كان عدوا لدودا لفرع بنى هاشم فقد عقد جمعية من قريش وحلفائها ليقرروا مصير

(١) سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٧٧) . أوردنا هنا النص الأصلى فى العربية ، وتجاوزنا عن عبارة جيبون وهى لا تخرج عنه .

الرسول . وقالوا ان سجنه قد يثير حماسه اليائس . أما نفى خطيب بليغ متعصب فقد ينشر الشر فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . ومن ثم اتفقوا على قتله ، كما وافقوا على أن يغمد فى صدره سيف من كل قبيلة ليتفرق دمه بين القبائل جميعا ، فيحار بنو هاشم ممن يثأرون . ولكن كشف عن هذه المؤامرة ملك أو جاسوس ولم يبق لمحمد من سبيل غير الهجرة . وفى سكون الليـــل خرج سرا من داره مهاجرا مع صديقه أبى بكر ، وكان القتـــلة يراقبون باب داره . ولكن عليا خدعهم وهو يرقد على فراش النبى ، وقد التف ببردته الخضراء . وقد احترمت قريش تقوى الشاب البطل ، ولكن بعض الأبيات التى نظمها على ، والتى وصلت الينا ، ترسم صورة تثير الانتباه لقلقه ورقته ، ويقينه الدينى . وبقى محمد وصاحبه ثلاثة أيام فى غار جبل ثور على بعد فرسخ من مكة . وفى مساء كل يوم كانا يتلقيان الأخبار سرا من ابن أبى بكر وابنته التى كانت تحمل اليهما كمية من الطعام . وقد بحثت قريش بحثا جادا فى كل موضع بجوار مكة ، ووصلوا الى مدخل الغار . ويقال ان العناية الالهية هى التى خدعت قريشا بنســـيج عنكبوت وعش يمامة أقنعاهم بأن المكان مهجـــور لم يلجه أحد . وقال أبو بكر وفرائصه ترتعد : نحن اثنان فقط . وأجاب النبى : « هناك ثالث ، انه الله نفسه » [1] . وسرعان ما خفت المطاردة وخرج المهاجران من بين الصخور وركبا ناقتيهما . وفى طريقهما الى المدينة

---

(١) « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين أذ هما فى الغار أذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا ... »
الآية ٤٠ سورة التوبة .

لحق بهما رسل قريش . وقد خلصا من أيديهم بالدعوات والوعود . وكان من الممكن فى هذه اللحظة الخطيرة ، أن تغير حربة أحد الأعراب تاريخ العالم . وقد اتخذت هجرة النبى من مكة الى المدينة مبـــدأ للتقويم الهجرى المشـــهور الذى لا يزال بعد مضى اثنى عشر قرنا ، يميز الشهور القمرية فى الأمم الاسلامية .

وكان من الجـــائز أن يوأد دين القـــرآن فى مهـــده ، لولا أن يثرب احتضنت عن ايمان واجـــلال أولئك المهـــاجرين الأطهـــار من مكة . كانت مدينة الرســـول أو المدينة ـــ وكانت تسمى يثرب قبل أن يباركها عرش النبى ـــ موزعة بين قبيلتى الأوس والخزرج . وكان من الممكن اشعال النزاع الوراثى لأقل سبب . وكان حلفاؤها المتواضعون مستعمرتين من اليهود كانتا تفخـــران بالانتساب الى أسرتين من الأحبار . ودون أن يقنع اليهود العـــرب باعتناق الديانة اليهودية ، أدخل اليهود فى المدينة الميـــل الى العلم والدين ، مما ميز المدينة بانها بلد « الكتاب » . وقد اعتنق الاسلام بعض من أنبل مواطنيها عندما ذهبوا للحج الى مكة واستمعوا الى دعوة محمد . ولما عادوا الى المدينة ، نشروا الايمان بالله ورسوله . وعقد وفد منهم حلفا جديدا فى اجتماعين سريين عقدا ليلا على تل فى أرباض مكة . ففى المرة الأولى أكد عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، وقد توحدوا دينا وحبا ـــ أكدوا باسم أزواجهم وأطفالهم واخوانهم الغائبين انهم سيؤمنون بالقرآن ويتبعـــون تعـــاليمه . أما الاجتماع الثانى فكان اجتماعا سريا سياسيا ، وهو أول شرارة حيوية أطلقت فى الامبراطورية العربية . فقد عقد ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من المدينـــة اجتماعا رهيبـــا مع النبى وأقاربه وأتبـــاعه .

وتعاهد الفريقان وأقسما أيمان الولاء المتبادل ووعدوا باسم المدينة ، أنه اذا هاجر النبى ، فانهم يستقبلونه كحليف ، ويطيعونه كزعيم ، ويدافعون عنه الى آخر نقطة من دمائهم ، كما يدافعون عن أزواجهم وأطفالهم . ولكنهم سألوه فى قلق يدفع السرور الى النفس : (ولكن ان دعاك وطنك ، أتترك حليفك الجديد ؟ وأجاب محمد مبتسما « كل شىء عام مشترك بيننا . فدمكم دمى وفى هلاككم هلاكى . وقد ربط بيننا رباط الشرف والمنفعة . فأنا صديقكم وعدو عدوكم» [1] ــ وصاح أعضاء وفد المدينة : ولكن ان قتلنا فى خدمتك فما جزاؤنا ؟ فأجاب النبى : « الجنة » ، فقالوا : مد يدك ، ومد النبى يده فأعادوا عليه قسم الاخلاص والولاء . وقد أقر أهل المدينة الذين اعتنقوا الاسلام هذا العهد بالاجماع . لقد سرهم أن يهاجر الرسول اليهم ، ولكنهم ارتعدوا خوفا على سلامته وانتظروا قدومه على أحر من الجمر بصبر نافد . وبعد رحلة سريعة ، ولكنها خطيرة ، على ساحل البحر توقف النبى فى قباء على مسافة ميلين من المدينة . ودخل المدينة من هــــذا المكان علانية بعد مضى ستة عشر يوما من مغادرته مكة . وتقـــــدم خمسمائة من أهل المدينة لاستقباله ، وقوبل بهتافات الولاء والوفاء المتقدة . وكان يركب ناقة ويحمى رأســه بمظلة ، وقد نشرت أمامه عمامة تقوم مقام اللواء أو الراية . واجتمع حوله أشجع أتباعه الذين فرقتهم العاصفة . وقد ميز بين المسلمين ــــ المتساوين مهما تباينت

---

(١) قارن هيكل « حياة محمـــــد » (بيعة العقبة الثانية) ص ٢٠١ وما بعدها « بل الدم الدم والهدم الهدم . أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » (المترجم) .

جدارتهم ، باسم المهاجرين والأنصـــار ، أعنى اللاجئين من مكة . والأعوان فى المدينة . ولازالة بذور الحقد والغيرة . آخى النبى بشرعة الانصاف بين أتبـاعه الأساسيين . وربط بينهم بحقوق الأخـــوة وواجباتها . ولما وجد على نفسه بدون لقب نبيل أعلن النبى فى رقة أنه سيكون رفيق هـذا الشاب النبيل وأخاه . وقد توج هـــذا التدبير بالنجاح . ونظر الناس الى هذه الأخوة المقدسة بعين الاعتبار والاجلال فى الحرب والسلم . وتنافس الفريقان فى مباراة كريمة فى مجال الشجاعة والولاء . ولم يعكر صفو هذا الوفاق غير مرة واحدة . بسبب نزاع طارىء بسيط ، حين عاب أحد زعماء المدينة عجرفة هؤلاء الغرباء . ولكن الاشـــارة الخفية الى طردهم قوبلت بالاســـتياء والاستنكار ، وعرض ابن الرجل نفسه فى لهفة أن يضع رأس أبيه تحت قدمى النبى .

ومنذ أن استقر النبى بالمدينة تولى أمور الدنيا والدين . وكان من الكفر أن يستأنف المرء حكم قاض ينزل عليه وحى الحكمة الالهية . واقتنى محمد ، اما بالشراء أو الهبة ، قطعة صغيرة من الأرض كانت ملكا ليتيمين ، وبنى فى هـذه البقعة المباركة بيتا ومسجدا كانا فى بساطتهما البدائية أعظم جلالا من قصور ملوك آشور ومعابدها . وقد نقش على خاتمه المصنوع من الذهب أو الفضة لقبه كرســول الله .وعندما كان يصلى أو يعظ كل أسبوع ، كان يتكىء على جذع نخلة . وبعد مضى وقت طويل سمح لنفسه أن يستخدم كرسيا أو منبرا من الخشب الخشن غير المصقول . وبعد حكم دام ست سـنوات ، وقف ألف وخمسمائة من المسلمين يحملون أسلحتهم فى الميـــدان

يجددون يمين الولاء . وأكد زعيمهم مرارا وتكرارا عزمهم على الدفاع عنه ، حتى يلقى كل منهم حتفه ، أو تحل الرابطة نهائيا . وفى عين هذا المعسكر رأى رسول من مكة ما أذهله من اصغاء المؤمنين الى كلمات الرسول والتعلق بنظراته ، والتشوف الذى أظهره أتباعه فى جمع رضابه أو شعرة سقطت على الأرض من شعره ، أو الماء الذى توضأ به ، كأنهم يشتركون بذلك الى حد ما ، فى بركات النبوة . فقال : « رأيت كسرى فارس وقيصر رومه ، ولكننى لم أر قط ملكا بين رعاياه مثل محمد بين أصحابه » ، بديهى أن الحماس المشتعل الصادر عن التقوى والورع يعمل بنشاط أكبر وصدق أعظم من عبودية البلاط الشكلية الباردة .

الجهاد فى سبيل الله [1]

تجيز الطبيعة لكل امرىء أن يدافع بقوة السلاح عن نفسه وعن ماله ، وأن يصد أو يحول دون عنف أعدائه ، الى الحد الذى يرضى فيه عن نفسه ويشبع الرغبة فى الانتقام . وفى المجتمع العربى الحر فرضت واجبات الرعية والمواطنين قيدا واهيا . وقد سلب مال محمد واضطر الى الهجرة للنجاة من أذى مواطنيه وهو يقوم بنشر دعوة سليمة كلها خير ، وقد رفع شعب مستقل ، طواعية واختيارا ، ذلك المهاجر الى مصاف الملوك . ومنحه الحق العادل فى عقد الأحلاف واعلان الحرب ، هجومية كانت أو دفاعية . وكملت الحقوق الانسانية

(١) العنوان فى النص الانجليزى : « محمد يعلن الحرب على الكفار » .
(الترجمة)

ودعمتها قوة الهيـــة سامية . واتخـــذ النبى فى المدينة ، من الآيات القرآنية التى أوحى اليه بها آنذاك ، نغمة أكثر قسوة وشـــدة ، مما يثبت أن اعتداله السابق كان نتيجة ضعفه [١] . لقد جرب وسائل الاقناع ومضى زمن الاحتمال . فأمر الآن أن ينشر دينه بحد السيف ، وأن يدمر آثار الوثنية . وأن يهاجم الكفار دون نظر الى الأيام الحرم أو الشهور الحرم . وينسب النبى الشريعة الدموية نفسها التى يلح عليهـــا القرآن مرارا وتكرارا الى التوراة والانجيل . ولكن هدوء الانجيل قد يساعد على تفسير نص مبهم ذكر فيه أن عيسى جلب الى هذه الأرض سيفا لا سلاما [٢] . وعلينا ألا نخلط بين أخلاق المسيح التى تجلى فيها الصبر والتواضع وبين حماس الأمراء والأســـاقفة ، وتعصبهم ، فهم الذين جلبوا العار على أتباعه . وقد يستطيع محمد ، فى شن حرب دينية ، أن يجد قدوة أكثر صلاحية فى موسى وقضـــاة بنى اسرائيل وملوكهم . ولكن قوانين اليهود الحربية ما زالت أكثر

(١) لم يتحر جيبون وجه الدقة ولا الحقيقة فى هذا الموضوع ٠ أنظر هيكل : « حياة محمد » الفصل ١١ « أول العهد بيثرب » ص ٢١٥ ٠ وقد اجتزأنا منه العبارات التالية : « كان النبى جنوحا الى السلم ، راغبا عن القتال ، مقتصدا طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجىء اليه الا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعا عن الدين وعن العقيدة ٠ ولم يفكر الا فى توفير الطمأنينة لمن يتبعونه ، وكفالة الحرية لهم فى عقيدتهم ، ككفالتهـــا لغيرهم فى عقيدتهم ٠ ولهذا أبيح القتال ، ودفع المعتدى ، حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه ٠

قال تعالى : « أذن للذين يقـــاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ، سورة الحج آية ٣٩ ٠ « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـــة ويكون الدين كله لله » ٠ سورة الأنفال آية ٣٩ ٠

(٢) يشير جيبون الى ما ورد فى انجيل متى ، الاصحاح العاشر ٣٤ ــ من قول السيد المسيح : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا ٠ »

جمودا من قوانين المشرع العربى [١] . سار رب الجيوش بنفسه على رأس الكتائب اليهودية ، واذا امتنعت بلدة أعمل السيف فى جميع الذكور دون تمييز . وقد كتب الدمار على القبائل السبع فى كنعان ، وما كانت التوبة ولا التحول الى الديانة اليهودية بمانعتهم من مصيرهم المحتوم ، وهو ألا يترك مخلوق حيا داخل حدودهم . أما أعداء محمد فقد عرض عليهم اختيارا عادلا : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال . فانهم اعتنقوا الاسلام ، حظوا بالمزايا المادية والروحية ، نفسها التى حصل عليها أتباعه الأول ، وساروا تحت اللواء ذاته لينشروا الدين الذى اعتنقوه . وكانت مصلحة النبى تملى عليه سماحته . ومع ذلك فيندر أن يكون قد وطىء بقدميه عدوا ذليلا . ويظهر أنه بعد دفع الجزية يستطيع أقل رعاياه كفرا واثما أن يستمروا على عبـــاداتهم أو على الأقل عقيدتهم المعيبة . وفى الشهور الأولى من حكمه أعلن محمد الحرب المقدسة ونشر رايته البيضاء أمام أبواب المدينـــة . واشترك الرسول المجاهد بنفسه فى تسع معارك أو [٢] حصارات . وفى عشر سنين قام هو نفســـه أو أتباعه بخمسين حملة حربية . وواصل العربى الجمع بين مهنة التجارة والسلب . وكان فى خروج النبى فى اشتباكات صغيرة ، للدفاع عن قافلة أو مهاجمة أخـــرى ،

(١) يقرأ أتقياء المسيحيين فى هذا العصر الفصلين العاشر والعشرين من سفر تثنية الاشتراع (التوراة) مع التعليقات العملية الموجودة فى يوشع وداود ، وغيرهما ، فى رعب أكثر منهم فى ارتياح . ولكن أساقفة الأزمنة السابقة وأحبار اليهود قد قرعوا طبـــول الابتهاج والنجـــاح فى الكنيسة والهيكل .

(٢) أى خمسين غزوة وسرية . والغزوة هى التى قادها الرســـول بنفسه ، أما السرية فكان يقودها أحد أتباعه .

تدريب لجنوده واعداد لهم لفتح بلاد العرب . وقد نظم توزيع الغنائم بقانون سماوى حيث جمعت الأسلاب كلها بأمانة فى مكان واحد . واحتفظ النبى بخمس الذهب والفضة والأسرى والقطعان والمنقولات والعقار ، لانفاقه فى أوجه البر والصدقة ، ووزع الباقى بالتساوى على الجنود الذين أحرزوا النصر أو قاموا بحراسة المعسكر . وكان نصيب الشهيد من الغنائم يسلم الى أرملته وأطفاله اليتامى ، وأعطى الفارس سهمين ، أحدهما له والآخر لراحلته ، وقد شجع هذا على زيادة عدد الخيالة . وجاء العرب الرحل من كل فج وانضموا تحت راية الدين والأسلاب . وقد أحل الرسول نكاح الأسيرة كزوجة أو سرية . وهذا التمتع بالجمال والمال لم يكن الا طرازا يسيرا من بهجة الفردوس التى أعدت لشهداء العقيدة الشجعان . ويقول النبى : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » [٢]. وقد اشتعلت أرواح العرب الجريئة حماسا . وارتسمت صورة العالم غير المرئى بقوة فى خيالهم ، وأصبح الموت الذى كانوا يحقرونه على الدوام هدفا مرغوبا فيه . وينص القرآن بأجلى بيان على القضاء والقدر والجبرية التى قد تقضى على الجد والفضيلة ، اذ سيطر التأمل فى العقيدة على أعمال الانسان وتصرفاته . ومع ذلك فان الايمان بالقضاء والقدر والجبرية فى كل زمان زاد من شجاعة

---

(٢) ورد فى الجهاد أحاديث نبوية كثيرة ، ويبدو أن جيبون اجتزأ عبارات من عدة أحاديث . وأوردنا هذا الحديث بنصه العربى ، وهو أقرب الى ألفاظ جيبون .

العرب والترك . ولقد تقدم أصحاب محمد الأولون الى ميــــدان القتال في ثقة لا تعرف الخوف ايمانا منهم بأنه ليس هناك من خطر حيث تنعدم الفرصة ، فقد كتب عليهم الموت حتى فى مضاجعهم ، والا فهم فى مأمن ، ولن تنال منهم سهام الأعداء .

وربما قنعت قريش بهجرة محمد ، لو لم يثرهم ويقض مضاجعهم انتقام عدو قادر على أن يعترض طريق تجارتهم مع الشام فى مرورها بالمدينة فى الذهاب والاياب . وكان أبو ســـفيان نفسه مع ثلاثين أو أربعين من أتباعه على رأس قافلة تتألف من ألف بعير وقد مكنه حسن حظه أو حذقه وبراعته ومعرفته بدروب السير من أن يهرب من يقظة محمد . ولكن رئيس قريش علم أن اللصوص المقدســين قد أعدوا كمينا فى انتظار عودته . فأرسل رسولا الى اخوانه فى مكة . وثارت ثائرة قريش خوفا على فقد تجارتهم ومؤنهم ، الا اذا سارعوا لنجدته بجيش مكة . وكانت كتيبة محمد المقدسة تتألف من ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، منهم سبعة وسبعون من المهاجرين والباقى من الأنصار . وكانت ابلهم سبعين بعيرا جعلوا يعتقبونها أى يتبادلونها : (واشتهرت جمال يثرب فى الحروب) . وقد بلغ من فقر أتباعه الأولين أن اثنين منهما فقط ظهرا فى الميدان على ظهور الخيل . وفى وادى بدر الشهير الخصيب ، وهو على ثلاث محطات من المدينة ، أخبره عيونه بأن القافلة تقترب على أحد الجانبين ، وعلى الجانب الآخـــر تتقدم قريش بمائة من الفرسان وثمانمائة من الرجالة . وبعد نقاش قصير ضحى بزخرف الثروة والمال طلبا للمجد والثأر . ثم حفر خندقا صغيرا يحتمى فيه الجنود . وكان هناك مجرى من الماء العذب ينساب خلال

الوادى . وعندما رأى النبى جموع قريش تهبط من التلال رفع يديه الى السماء قائلا : « اللهم ان هذه قريش جاءت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . (الشجاعة يا أبنائى . ضمـــوا صفوفكم وسددوا سهامكم ، اليوم يومكم) . وبعد أن نطق بهذه الكلمات اعتلى عريشا أو منبرا ومعه أبو بكر ودعا فى التو أن يساعده جبريل وثلاثة آلاف من الملائكة . وعندما نظر الى ميدان القتال رأى المسلمين يكاد يغمى عليهم والعدو يضغط عليهم . وفى هذه اللحظة الحاسمة وثب النبى من عريشه وامتطى جواده وأخذ حفنة من الرمال ورماها فى الهواء صائحا : « شاهت الوجوه » . وقد سمع كل من الجيشين صوته الذى كان يدوى كالرعد . ورأوا بمخيلتهم الفرسان من الملائكة. فارتعدت قريش وولت الأدبار . وقتل سبعون رجلا من أشـــجع شجعانها . وازدان أول نصر للمسلمين بسبعين أسيرا من قريش ، وقد سلبت وأخذت جثث الموتى من قريش ومثل بها ، وعوقب بالاعدام اثنان من أبغض الأسرى الى النبى . وعوضت فدية الآخرين ، وكانت أربعة آلاف درهم من الفضة ، الى درجة ما ، عن افلات القافلة . ومع أن عير أبى سفيان اكتشفت عبثا طريقا آخر عبر الصحراء على شـــط الفرات ، فقد أدركتهم يقظة المسلمين . وكانت الغنيمة ثمينة ، اذ كان نصيب الرسول منها عشرين ألف درهم من الفضة وهو الخمس [1] . وقد استبد الحنق بأبى سفيان تنيجة الخسارة العامة والخاصة ، فجمع

(١) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، فلقيهم على ماء من مياه نجد فأصاب تلك العير وما فيها من فضة كثيرة . (المترجم)

جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل ، منهم سبعمائة يلبسون الزرد . ومائتان يمتطون ظهور الخيل ، كما أخذ معه فى حملته هذه ثلاثة آلاف بعير . وكان مع زوجه هند خمس عشرة من سيدات قريش يضربن على الدفوف باستمرار لالهاب الحماس فى الجنود ، ولتمجيد هبل أحب آلهة الكعبة الى قلوب الناس . ورفع راية الله ورسوله تسعمائة وخمسون من المؤمنين . ولم يثر عدم التناسب فى العدد انزعاجا أكثر مما أثار فى بدر . وتغلب شعور المسلمين بأن النصر سيكون لهم على كل شيء عداه . ودارت المعركة الثانية على جبل أحد ، على بعد تسعة أميال شمال المدينة . وتقدم جيش قريش على شكل هلال . وتولى خالد ، وهو أشجع محاربى العرب وأكثرهم توفيقا ، قيادة جناح الخيالة الأيمن . واتخذ جنود محمد أماكنهم بمهارة على سفح الجبل ، يحمى ظهورهم فرقة تتألف من خمسين من الرماة . وعند هجوم المسلمين زحزح الوثنيون عن أماكنهم وتحطم قلب جيش قريش . ولكن المسلمين عندما بدأوا فى مطاردة عدوهم فقدوا ميزة مواقعهم . وترك الرماة مراكزهم ، وأغرت الأسلاب المسلمين فعصوا قائدهم وأشاعوا الفوضى فى صفوف اخوانهم . والتف خالد الجرىء بخيله حول الجناح والمؤخرة وصاح أن محمدا قد قتل . وكان النبى قد جرح حقا فى وجنته بضربة رمح . وكسرت سنتان من أسنانه برمية من حجر . ومع ذلك وفى وسط هذا الاضطراب واليأس كان يوبخ المشركين لقتالهم نبيا . وبارك اليد الحبيبة التى جففت دمه ونقلته الى مكان أمين . واستشهد من المسلمين سبعون رجلا تكفيرا عن ذنوب الأمة . وقال النبى انهم سقطوا مثنى كل واحد منهم

يحتضن أخاه . وقد مثلت نساء مكة المتوحشـــات بجثث القتلى ، ولاكت هند كبد حمزة عم النبى . وكان من الممكن للكفار أن يمجدوا خرافاتهم وأن يشبعوا جنونهم لولا أن المسلمين سرعان ما انضموا بعضهم الى بعض فى ميدان القتال . وكان ينقص قريشا الشـــجاعة أو القدرة على حصار المدينة . وفى السنة التالية هوجمت المدينـــة بجيش يتألف من عشرة آلاف مقاتل . وقد سميت هذه الغزوة بأسماء مختلفة فسميت بغزوة الأحزاب نسبة الى الأحزاب التى سارت تحت راية أبى سفيان أو غزوة الخندق اشارة الى الخندق الذى حفر أمام المدينة . وكان عسكر المسلمين ثلاثة آلاف . وقد أظهر محمد حكمة فى رفضه الالتحام مع العدو فى معركة عامة . وظهرت شجاعة على فى مبارزات فردية . ولما طال أمد الحرب حتى دامت عشرين يوما حدث انفصال نهائى بين الحلفاء . وهبت ريح عاصفة وسقط المطر والبرد فاقتلعت خيامهم . وأشعل خصم ماكر خصوماتهم الشخصية . وفقدت قريش أملها فى تحطيم عرش محمد أو منع انتصاراته بعد أن هجرها حلفاؤها ، فلم تعد قادرة على أن تصمد أمام قوة ابنها الذى نفته ، والذى أصبح ذا قوة لا تقهر .

ويكشف اختيار بيت المقدس كأول قبلة للمسلمين عن ميل محمد الى اليهود . وما كان أسعدهم من أجل مصالحهم المادية لو أنهم رأوا فى النبى العربى أمل اسرائيل والمسيح المنتظر ، ولكن عنادهم قلب وده الى كراهية دائمة لا تلين . فطارد هذا الشعب المنكود الى آخر لحظة من حياته . وبوصفه رسولا وفاتحا مظفرا امتد اضطهاده لهم الى الدار الآخرة . وكان بنو قينقاع يسكنون المدينة ويحتمون بها .

فانتهز النبى فرصة اضطراب نشأ مصادفة ، ودعا بنى قينقاع الى اعتناق الاسلام أو الحرب . وصاح اليهـود وهم يرتدون : يا ويلنا انا نجهل استعمال الأسلحة ونريد أن نستمر على دين آبائنا وعبادتهم، فلم تضطرنا الى هذه الضرورة وهى الدفاع الشرعى عن أنفسنا ؟ وقد انتهى هذا النزال الذى لا تكافؤ فيه فى خمسة عشر يوما . وقد رفض محمد مدة طويلة أن يستجيب لرجاء حلفائه ، وأخيرا وافق على انقاذ حياة الأسرى ، ولكن صودرت أموالهم واستعملت أسلحتهم بفعالية أعظم فى أيدى المسلمين . وخرجت هذه المســتعمرة التى تتألف من سبعمائة من المنفيين مع نسائهم وأطفالهم يطلبون ملجـأ على حدود الشام . أما جريمة بنى النضير فقد كانت أشد وأنكى . اذ أنهم تآمروا على قتل النبى حين جاءهم فى حديث ودى ، فحاصر حصنهم ، وكان على مسافة ثلاثة أميال من المدينة . وقد ضـمنت لهم مقاومتهم المستميتة تسليما مشرفا . فسمح للحامية أن تخرج بكل مظاهر التكريم الحربى ، ينفخون فى أبواقهم ويدقون طبولهم . ولما كان اليهود قد حرضوا قريشا على الحرب وانضـموا اليها ، فسرعان ما ابتعدت الأحزاب عن الخندق حتى سار محمد ، قبـل أن يضع سلاحه ، فى اليوم نفسه لقطع دابر بنى قريظة . وبعد مقاومة دامت خمسـة وعشرين يوما استسلموا دون قيد أو شرط . وكانوا يعتمدون على شفاعة حلفائهم القدامى فى المدينة . ولا بد أنهم كانوا يعلمون أن التعصب يمحو المشاعر الانسانية . فنطق شـيخ مبجل كانوا قد ارتضوا حكمه بوجوب قتلهم ، فاقتيد سبعمائة من اليهود مكبلين بالأغلال الى سوق المدينة ، وهناك هبطوا أحياء الى القبور التى

حفرت لتكون جدثا لقتلاهم ودفنهم . ورأى الرسول دون تأثر تقتيل أعداء لا حول لهم ولا قوة . وورث المسلمون أغنامهم وجمالهم . وكان أعظم جزء ذى قيمة من الأسلاب ثلثمائة قميص من الزرد وخمسمائة حربة وألف رمح . وعلى مسيرة ستة أيام الى الشمال الغربى من المدينة تقع بلدة خيبر ، وهى بلدة قديمة غنية كانت مركز اليهود فى بلاد العرب . وكانت المزارع والقطعان تملأ المنطقة . فهى بقعة خصبة فى الصحراء تقوم على حراستها ثمانية حصون بعضهـا منيع عزيز المنال . وكانت قوة محمد تتألف من مائتى خيال وألف وأربعمائة من المشاة . وفى ثمانية حصارات منتظمة شاقة متتالية ، تعرض المسلمون للخطر والارهاق والجوع ويئس أكثرهم شجاعة من نجاح المشروع . ولكن الرســـول قوى من ايمانهم وعزائمهم ، وأشار الى على ابن أبى طالب كقدوة ، وقد منحه النبى فى ذاك الهجوم لقب «أسدالله». وقد يكون من الممكن أن نصدق أن عليا ضرب زعيما يهوديا ضخم الجسد فشجه الى صدره بسيفه الذى لا يقهر . ولكنا لا نستطيع أن نمتدح تواضع هذه القصة الرومانسية التى تمثله ، وقد انتزع أحد أبواب الحصن ورفعه بيده اليسرى متخذا اياه درعا ضخما [1] وبعد سقوط الحصون استسلمت بلدة خيبر . وقد عذب رئيس القبيلة فى حضرة محمد ، لاجبـاره على الاعتراف بكنـوزه . وكوفىء الرعاة والمزارعون بتسامح مؤقت ، وأجيز لهم طالما رضى عنهم الفاتح ، تنمية ثرواتهم مناصفة لفائدتهم وفائدته . وفى خلافة عمر نقل يهود خيبر الى

(١) يقال ان أبا رافع مولى النبى روى أنه حاول ومعه سبعة رجال فيما بعد رفع هذا الباب من الأرض فلم يوفقوا . كان أبو رافع شاهد عيان على قوة على ، فمن الذى يشهد لأبى رافع ؟ .

الشام . وزعم هذا الخليفة أن ذلك كان بأمر من النبى فى مرض موته : أن يبقى دين واحد ، وهو الدين الحق ، فى بلاد العرب وهى موطنه الأصـــلى .

ولى النبى محمد وجهه خمس مرات فى اليوم والليلة شطر مكة . وكانت أقدس الحوافز وأقواها تستحثه على أن يدخل منتصرا تلك البلدة وذاك الحرم الذى أخرج منه . وكانت الكعبة تداعب خياله فى منامه ويقظته . وقد انقلب حلم لا معنى له الى رؤيا ونبوءة . ونشر اللواء المقدس . وجاء دون تحفظ وبسرعة كبيرة ، وعـــد من النبى بالظفر . وكان موكبه من المدينة موكب حج سلمى تحف به الجلالة . وسبق الموكب تسعون جملا منتقاة ومزينة ، كأنها « هدى بالغ الكعبة » وحفظ للمنطقة المقدسة حرمتها ، وسرح الأسرى دون فدية ليعلنوا عن تسامحه وورعه . ولكن سرعان ما هبط محمد الى الوادى وأصبح على مسيرة يوم من مكة حتى صاح : « لقد لبست قريش جلود النمور » . اذ اعترضت قريش سبيل تقدمه بأعدادها وعنادها المعتاد . وقد يتخلى العرب الرحل عن قائد يتبعونه أملا فى الأسلاب ، أو قد يخونونه ، ولكن ذلك المتعصب الجرىء انقلب الى سياسى حذر متئد. فتغاضى فى المعاهدة عن لقبه كرسول الله . وعقد مع قريش وحلفائها هدنة لمدة عشر سنوات ، تعهد فيها برد اللاجئين الذين يعتنقـــون الاسلام الى مكة . واشترط فقط للسنة المقبلة شرطا متواضعا ، وهو دخول مكة كصديق والبقاء بها ثلاثة أيام لاتمام مراسم الحج . وأظلت سحابة من العـــــار والأسى تقهقر المسلمين . ولكن أشــــعل منظر مكة ايمـــــان الحجاج مرة أخرى . فأغمـــدوا ســـــيوفهم وطافوا

سبع مرات حول الكعبة فى أثر النبى ، وتراجعت قريش الى التلال . وخرج محمد من مكة فى اليوم الرابع بعد تقديم الأضحيات المعتادة . وقد أثر ورعه فى الشعب . أما أعداؤه من الرؤساء فقد خافوا أو انقسموا أو اقتنعوا . وتخلى خالد وعمرو ، وهما اللذان فتحا الشام ومصر فيما بعد ، فى أنسب الأوقات عن قضية الوثنية الخاسرة . وزادت قوة محمد بخضوع القبائل لسلطانه . فحشد عشرة آلاف جندى لفتح مكة . وكان من السهل اتهام عبدة الأوثان ، وهم الجانب الضعيف ، بأنهم خرقوا الهدنة . وقد ساد هذه الحملة عاملان : الحماسة والنظام، ودفعا بها الى الأمام ، وقد أخفى السر حتى أعلنت عشرة آلاف من النيران الموقدة الى قريش التى ارتاعت دهشة ، هدف العدو واقتراب قواته التى لا سبيل الى قهرها . وقدم أبو سفيان المتعجرف مفاتيح مكة الى محمد ، وأبدى اعجابه بالأسلحة والرايات التى مرت أمامه على هيئة استعراض . ولاحظ أن ابن عبد الله قد استولى على ملك قوى ، واعترف تحت سيف عمر بأن محمدا رسول الله ، وأن الله هو الاله الحق . لقد دنس رجوع ماريوس وسلا بدم الرومان ولكن انتقام محمد كان يحفزه حماس دينى . وكان أتباعه ممن أصابهم الأذى يتوقون الى القيام بمذبحة أو متعها تبعا لأمره ، وبدلا من السير وراء أهوائهم أو أهوائه الشخصية (1) عفا المهاجر الذى عاد منتصرا عن ذنوب أهل مكة ، ووحد الأحزاب فيها ، ودخلت جنوده مكة فى ثلاث

---

(1) بعد فتح مكة ، يمثل النبى محمد فى قصة ڤولتير ، وهو ينفذ أبشع الجرائم . ويعترف ڤولتير بأنه لا سند له من الحقيقة أو التاريخ . وهو لا يستطيع الا أن يزعم أن من يشن حربا على وطنه تحت اسم الله =

فرق . وقتل ثمانية وعشرون بسيف خالد ، وأصدر النبى أمرا بقتل أحد عشر رجلا وست نساء . ولكن لام قائده على قسوته . ان كثيرين من أبغض الناس اليه مدينون بحياتهم لسماحته أو احتقاره . وخر رؤساء قريش سجدا تحت قدميه فقال : « ما تظنون أنى فاعل بكم » فأجابوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » ، وأجاب النبى : « لن تذهب ثقتكم عبثا . اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد استحق أهل مكة العفو عنهم باعتناقهم الاسلام . وبعد نفى دام سبع سنوات ، أصبح المهاجر الناشر لدين الله أميرا على قومه ورسولا اليهم ، ولكن الثلثمائة والستين صنما التى كانت فى الكعبة حطمت تحطيما مخزيا مزريا . وطهر بيت الله وزين . وقام النبى باتمام مناسك الحج ليكون قدوة للأجيال التالية. وصدر قانون أبدى بألا تطأ قدم كافر هذه البلدة المقدسة قط .

حدد فتح مكة ديانة القبائل العربية وولاءها بعد أن كانت من قبل تمتثل لفصاحة النبى أو قوة أسلحته ، أو تغفل أمر هذه وتلك ، تبعـــا لتقلبات الحظ . ولكن اســـتمرت بقية معـــاندة تصر على التمسك بدين الآباء والأجداد وبحريتهم . وقد اشتقت حرب حنين اسمها من أحد هذه الأصنام التى نذر محمد أن يدمرها ، والتى أقسم حلف الطائف على أن يدافع عنها . فسار أربعة آلاف من عبدة الأوثان خفية ليفاجئوا القائد المظفر . وقد تولاهم الحزن والأسى ،

يستطيع أنأ يرتكب أى شىء ، وليس فى هذا القول انصاف أو فلســفة . ومن المؤكد أن بعض الاحترام واجب نحو شهرة الأبطال وأديان الأمم — وقد أخبرنى بعضهم أن سفير تركيا فى باريس أظهر أشد استيناء عنــد عرض هذه القصة التراجيدية .

ورثوا لقريش واحتقروها بسبب اهمالها وتراخيها . غير أنهم اعتمدوا على رغبات ، وربما على مساعدة ، قوم كفروا منذ مدة قصيرة بآلهتهم وطأطأوا الرأس أمام عدوهم . ورفع النبى رايتى مكة والمدينة ، وزاد عدد من البدو من جيشه وأمدوه بقوة . وداخل قلوب اثنى عشر ألفا من المسلمين غرور أثيم بأن قوتهم لا غالب لها . فهبطوا وادى حنين دون احتراس أو حذر . وكانت المرتفعات قد احتلها رماة السهام ورماة المقاليع التابعون للأحلاف . وضغط العدو على المسلمين فاضطرب نظامهم وخانتهم شجاعتهم ، وابتسمت قريش وهى ترى الدمار الذى يهددهم . وأحاط الأعداء بالنبى وهو على بغلته البيضاء ، وحاول أن يلقى بنفسه على أسنة حرابهم طلبا لموت مجيد ، فوضع عشرة من أصحابه الأوفياء أجسادهم وسلاحهم بينه وبين العدو . فسقط ثلاثة منهم تحت قدميه وصاح محمد من الغضب مرارا وفى أسى : « أنا محمد بن عبد الله ، أنا رسول الله ، أيها الناس تمسكوا بدينكم ، اللهم عونك » وجعل العباس وهو عم النبى ، وقد امتاز كأبطال هوميروس بصوته الجهورى يردد من قمة الربوة ، نعم الله ، والوعود التى وعد بها الله عباده المؤمنين ، فتراكض المسلمون الفارون من كل فج الى اللواء المقدس ولاحظ محمد فى سرور أن نار الحماسة التهبت مرة أخرى وحمى الوطيس . وكان تصرفه والاقتداء به سببا فى كسب المعركة ، فقلب الهزيمة الى نصر . ثم انه حث جنوده المنتصرين على أن ينتقموا ممن ألحق بهم العار انتقاما لا هوادة فيه . ومن ميدان القتال فى حنين سار بسرعة الى حصار الطائف ، وهى تبعد ستين ميلا الى الجنوب الشرقى من مكة .

وهى قلعة قوية تنتج أراضيها الخصبة فاكهة الشام فى قلب الصحراء القاحلة . وقدمت له قبيلة صديقة مدربة على فنون الحصار عددا من أدوات الحصار وآلات الحرب . وكذلك خمسمائة من الصناع المهرة . لكن منحة الحرية التى عرضها على عبيد الطائف ذهبت سدى . كما لم تجد مخالفته لقوانينه حيث أتلف بساتينها . كذلك لم يجد نفعا حفر العمال للأرض وتقدم الجنود لمهاجمة أية فتحة فى الحصون . وبعد حصار دام عشرين يوما أمر النبى بالتقهقر ، ولكنه تقهقر يردد أنغام النصر متظاهرا بأنه يدعو الله لهداية هذه البلدة الكافرة وسلامتها . وقد بلغت الأسلاب فى هذه الحملة الموفقة ستة آلاف أسير وأربعة وعشرين ألف جمل وأربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة . وقد اشترت قبيلة كانت تحارب فى حنين أسراها بالتضحية بأصنامها . وقد عوض محمد هذه الخسارة بالتنازل للجنود عن نصيبه فى الغنائم ، وود من أجلهم لو أن له من القطعان عدد أشجار تهامة ليقسمه عليهم . وبدلا من صب العذاب على قريش العاتية حاول أن يقطع ألسنتهم على حد تعبيره هو نفسه ، وأن يضمن ولاءهم بقدر عظيم من الجود . فمنح أبا سفيان وحده ثلثمائة بعير وعشرين أوقية من الفضة . واعتنقت مكة فى اخلاص ديانة القرآن المربحة .

وشكا المهاجرون والأنصار من أنهم ، وهم الذين احتملوا العبء أهملوا ساعة النصر . وأجاب قائدهم الحصيف : « ويحكم دعونى أؤلف قلوب أولئك الذين كانوا أعداء الى وقت قريب ، أولئك المشكوك فى ايمانهم ، بهبة من متاع زائل . وانى لأضع حياتى ومالى فى حماكم . فأنتم أصحابى فى المنفى وفى الحكم وفى الجنة » . وتبعه

وفد الطائف من الذين خشوا تجدد الحصار قائلين : هبنا يا رسول الله هدنة لمدة ثلاث سنين مع السماح لنا باتباع ديننا القديم . ورد النبى : لا أسمح بشهر أو حتى بساعة . فطلبوا اعفاءهم من فرض الصلاة . وأجاب النبى « أما الصلاة فانه لا خير فى دين لا صلاة فيه » . بذلك استسلموا فى صمت . فهدمت معابدهم . وصدر حكم مماثل نفذ فى جميع أنحاء بلاد العرب على جميع الأصنام . واستقبلت رسل محمد على شاطىء البحر الأحمر والمحيط والخليج الفارسى بتحيات شعوب وفية . وكان عدد السفراء الذين ركعوا أمام عرش المدينة مثل عدد التمر الذى يسقط من النخل . اذا تم نضجه ، كما يقول المثل العربى . وخضعت الأمة كلها لله ولسلطان محمد . وألغى اسم الجزية البغيض . واستخدمت الزكاة والعشور فى خدمة الدين سواء قدمت طواعية أو بعد تردد . وصحب النبى فى حجه الأخير (حجة الوداع) مائة وأربعة عشر ألفا من المسلمين .

وعندما رجع هرقل منتصرا من حربه مع الفرس استضاف فى حمص أحد رسل محمد الذين بعث بهم لدعوة الأمراء والأمم الى اعتناق الاسلام . وعلى هذا الأساس افترض حماس العرب أن الامبراطور اعتنق الاسلام سرا . وود اليونانيون فى غرورهم أن يزورهم أمير المدينة بنفسه . وقد قبل محمد هبة ثمينة من الأرض الخصبة وملجأ مأمونا فى ولاية سوريا . ولكن صداقة محمد وهرقل لم تدم طويلا . فقد أشعل الدين الجديد روح السلب والنهب فى العرب أكثر من أن يهدئها. وقد أتاح قتل أحد الرسل فرصة طيبة ومبررا لغزو منطقة فلسطين التى

تمتد شرقى نهر الأردن فسار اليها بثلاثة آلاف جندى . وعهد النبى براية الجهاد الى زيد بن حارثة . وقد بلغت دقة النظام أو شدة الحماس فى هذا الدين الصاعد أن أنبل الزعماء ، عملوا دون تردد كجنود تحت أمرة رجل كان مولى للنبى ، على أن يخلفه فى حالة موته جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة على التوالى . فان توفى ثلاثتهم ، سمح للجنود بأن يختاروا قائدهم . وقد سقط القادة الثلاثة فى موقعة مؤتة . وهى أول معركة حربية اختبرت فيها شجاعة المسلمين ضد الجيوش الأجنبية . وسقط زيد كجندى فى الصفوف الأمامية ، ومات جعفر ميتة الأبطال : موتا يخلد الذكر ، حيث فقد يمناه فنقل الراية الى اليسرى ، فلما قطعت هذه احتضن الراية بعضديه الداميتين حتى وقع على الأرض مثخنا بخمسين جرحا نبيلا . وصاح عبد الله الذى تقدم ليشغل المكان الخالى : تقدموا ، تقدموا فى ثقة ، اما النصر واما الجنة ، وقد فصلت حربة أحد الروم فى هذا الاختيار . ولكن خالدا وهو أحد الذين آمنوا فى مكة ، أنقذ اللواء من السقوط . وقد تحطمت تسعة سيوف فى يده . وقاومت بسالته المسيحيين وردتهم على أعقابهم على الرغم من أنهم كانوا أكثر عددا . وفى المجلس الحربى الذى عقد ليلا وقع الاختيار على خالد ليشغل مركز القيادة . وحددت المناورات البارعة التى قام بها فى اليوم التالى الموقف ، فاما انتصار العرب أو تقهقرهم . وقد اشتهر خالد بين اخوانه وأعدائه بلقبه المجيد : « سيف الله » . ووصف محمد وهو على المنبر فى نشوة النبوة ، أكاليل الغار على رءوس الشهداء الذين أنعم الله

عليهم [١] ولكنه كان اذا ما خلا الى نفسه ، أظهر المشاعر البشرية العادية . وفاجأه أحد أتباعه ذات مرة وهو يبكى ابنة زيد . فسأله وقد استولى عليه الدهش : ماذا أرى ؟ ورد النبى : انك ترى صديقا يبكى فقد أعظم أصحابه وفاء . وبعد فتح مكة تظاهر ملك العرب بأنه يريد أن يعرقل استعداد هرقل للحرب ، فأعلن الحرب علانية على الروم ، دون أن يحاول أن يخفى مشاق مثل هذه الحملة وأخطارها .. وأصاب المسلمين قنوط : وتعللوا بنقص المال والخيل والمؤن ، وزعموا أن الوقت وقت حصاد ، واحتجوا بقيظ الصيف . ورد النبى مستاء : « نار جهنم أشد حرا » . وأنف النبى أن يجبرهم ، ولكنه بعد أن رجع عاقب أعظمهم اثما بعدم حضور الصلاة معه خمسين يوما . وقد رفعت خياناتهم من قدر أبى بكر وعثمان وأصحابه المخلصين ، الذين وقفوا حياتهم وأموالهم على خدمة الاسلام . وكان جيش المسلمين يتألف من عشرة آلاف من الخيالة وعشرين ألفا من الرجالة . وكانت متاعب الطريق مؤلمة حقا ، وزادت رياح الصحراء اللافحة والحاملة للأوبئة من متاعبهم وظمئهم . وتعاقب عشرة رجال بالتناوب على البعير الواحد . وأجبرتهم الضرورة الملحة على أن يشربوا الماء الموجود فى معدة هذا الحيوان النافع . وفى منتصف المسافة بين المدينة ودمشق وعلى مسيرة عشرة أيام من أيهما ، حطوا رحالهم بالقرب من نخيل تبوك وعين مائها .

---

(١) فى سيرة ابن هشام ج ٣ ، ص ٤٣٦ ، قال رسول الله « لقد رفعوا الى فى الجنة (القواد الشهداء الثلاثة) فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب » .

ورفض النبى أن يتابع السير بعد ذلك المكان . وقد أعلن انه مقتنع بالنوايا السلمية للامبراطور . والأرجح أنه خشى الحشود الحربية التى أعدها له امبراطور المشرق . ولكن خالدا النشيط الجرىء نشر الرعب حوله . فتقبل النبى خضوع القبائل والمدن من نهر الفرات الى أيلة على رأس البحر الأحمر . وبادر النبى بتأمين رعاياه من المسيحيين على أنفسهم وحرية تجارتهم وملكية أمتعتهم وسلعهم ، والتسامح نحو دينهم . وقد حال ضعف اخوانهم فى بلاد العرب دون الوقوف فى وجه مطامعه ، كما أحب عدو اليهود أتباع المسيح . وكان من مصلحة الفاتح أن يعرض شروطا سخية عادلة لأقوى دين فى العالم .

وفاة النبى

تكافأت قوة محمد ، حتى بلغ الثالثه والستين من عمره ، مع متطلبات أعباء رسالته الروحية والدنيوية . وكان من الممكن أن تثير أزمات الصرع — وهو ادعاء سخيف من اليونانيين — الشفقة لا الكراهية . ولكنه اعتقد اعتقادا جازما أن امرأة يهودية دست له السم فى خيبر انتقاما منه . وخلال سنوات أربع ضعفت صحته واشتدت علته . وانتابته الحمى لمدة أربعة عشر يوما ، وحرمته أحيانا من اعمال عقله . وعندما أدرك اقتراب منيته ، قام يلقن اخوانه درسا فيما تتسم به الفضيلة أو التوبة من تواضع . فقال من فوق المنبر : « أيها الناس : من كنت جلدت له ظهرا بغير حق فهذا ظهرى فليقتص منى . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه . ومن

أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى » . وعلا صوت من بين الجمهور : أجل ، أنت مدين لى بثلاثة دراهم من الفضة . وأصغى محمد الى هذا الادعاء ودفع الدين وشكر الدائن لأنه طالبه به فى هذه الدنيا ولم يطالبه به يوم الحساب . ورأى الموت يقترب منه فتلقاه بعزيمة وهدوء . وأعتق عبيده وكانوا سبعة عشر رجلا واحدى عشرة امرأة كما ورد فى الروايات . وأعطى أوامر دقيقة فيما يتبع فى دفنه . وخفف من لوعة أصحابه الباكين حوله ومنحهم بركة السلام . وقد أدى بانتظام الى اليوم الثالث قبل وفاته صلاة الجماعة . ويظهر أن اختيار أبى بكر ليحل محله فى الصلاة بالناس كان اشارة الى أن ذاك الصديق الوفى القديم سيخلفه فى أمور الدين والدنيا . وكان النبى قد أبى — وكان حكيما فى ذلك — أن يحتمل ما يثيره تعيين صريح من مخاطرة وحقد . وفى وقت خيل للناس أن ملكاته الذهنية قد ضعفت ، طلب قلما وحبرا ليكتب أو بالأحرى ليملى كتابا مقدسا يوجز فيه كل ما أوحى به اليه ويكمله . وقام نزاع بين الحاضرين فى الحجرة هل ينبغى أن يسمح له فى هذه الحالة بأن يتعدى سلطان القرآن . واضطر النبى أن يؤنب أتباعه على العنف الذى لا يليق بهم . واذا نحن اعتمدنا ، أقل اعتماد على الروايات التى وصلت الينا عن طريق أزواجه وأصحابه . فانه احتفظ وسط عشيرته بمقام النبوة وبايمانه المتحمس ، الى آخر لحظة من حياته . فوصف زيارات جبريل الذى ودع الدنيا وداعا أبديا . وعبر عن ثقته القوية ، لا فى رحمة ربه فحسب ولكن فى رضاه أيضا . وكان قد ذكر فى حديث عائلى أن ثمة امتيازا خاصا به ، ذلك أن ملك الموت لم يكن ليقبض

روحه دون استئذانه . وقد أعطى الاذن . وفى الحال عانى محمد ألم الاحتضار ، وكان رأسه يستند الى صدر عائشة أقرب زوجاته الى قلبه ، وأغمى عليه من شدة الألم . فلما أفاق شخص ببصره الى سقف الدار ، بنظرة ثابتة . ولكن بصوت ضعيف نطق بآخر كلمات فاه بها ، كلمات متقطعة ولكنها واضحة : اللهم .. اغفر لى .. أجل انى آت .. الى الرفيق الأعلى من الجنة . وعلى هذا النهج قضى نحبه فى سلام على بساط فرش على الأرض . وقد أوقف هذا الحادث سفر حملة لفتح سوريا . وكان الجيش يعسكر أمام أبواب المدينة . والتف الزعماء حول نبيهم وهو يجود بروحه . وملئت المدينة أو بالأحرى منزل الرسول بمناظر من الحزن الصاخب أو اليأس الصامت . واستطاع التعصب وحده أن يشير الى شعاع من الأمل والمواساة « كيف يمكن أن يموت شاهدنا وشفيعنا ووسيطنا عند الله . قسما بالله انه ليس بميت ولكنه كموسى وعيسى فى اغماءة مقدسة ، وأنه سيعود سريعا الى شعبه الوفى : » وتغاضى الناس عن الأدلة الملموسة . وسل عمر سيفه وهدد بقطع رأس كل كافر يجرؤ على القول بأن محمدا قد مات . وقد هدأت رزانة أبى بكر واعتداله ، من هذا الاضطراب ، وقال أبو بكر لعمر وللجمهور : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » .

ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفاين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . (آل عمران ١٤٤) .

ودفن النبى فى ورع وجلال بيد أقرب الناس اليه ، فى البقعة

نفسها التى قبض فيها . وقد أصبحت المدينة مكانا مقدسا ، لموته ودفنه بها . وكثيرا ما انحرف عدد غفير ممن يقصدون مكة للحج ، عن طريقهم ليقفوا طواعية فى خشوع أمام القبر البسيط الذى دفن فيه النبى .

أخلاق محمد وحياته الشخصية

فى ختام حياة محمد ، ربما كان على أن أزن أخطاءه وفضائله ، وأن أقدر أيهما أجدر بهذا الرجل الغريب : لقب المتحمس أم لقب الدجال . ولو كنت أعرف ابن عبد الله معرفة وثيقة لظل الأمر شاقا على ، ولكان النجـــاح غير مؤكد . فما بالك بعد اثنى عشر قرنا وأنا أتفحص ظله بصعوبة خلال سحب من النور المقدس . ولو استطعت بحق أن أرسم له صورة فى موقف ما أو فى فترة محددة ، فان هــذا الرسم لن يمثل تماما الرجل المتعبد فى غار حراء ، والبشير النذير الذى كان ينشر دينه فى مكة ، وفاتح الجزيرة العربية . ويظهر أن هذا الرجل الذى قام بأعظم ثورة فى العالم كان تقيا ورعا ميالا الى التأمل بطبيعته . وعندما رفعه زواجه فوق الحاجة والعوز ، ابتعد عن طريق الطموح والشح . لقد عاش بريئا طاهرا حتى بلغ الأربعين . وكان من الممكن أن يموت دون أن يعرف اسمه . ان وحدانية الله التى دعا اليها هى فكرة ملائمة للطبيعة والعقل . وربما علمته محـــاورة عابرة مع اليهود والنصارى ازدراء الوثنية فى مكة وكراهيتها . وكان من واجبه كرجل ومواطن أن ينشر نظرية الخلاص ، وأن ينقذ وطنه من وهدة الاثم والخطيئة . وقد يحول النشاط الذهنى المركز على موضوع واحد

الالتزام العام الى رسالة خاصة . وقد يشعر المرء بأن الأفكار التي تصدر عن الادراك أو الخيال ان هي الا وحي من السماء . وقد يفنى أعمال الفكر فى غمار النشوة والرؤيا ، وعندئذ قد يوصف الشعور الداخلي ، أي الناصح الخفى ، بأنه ملك من ملائكة الله له شكله وسماته . وبين الحماس والدجل خطوة زلقة خطرة . ولدينا فى « راعية » سقراط المقدسة مثل جدير بالذكر ، يوضح كيف يمكن أن يخدع رجل عاقل نفسه ، وكيف يمكن كذلك أن يخدع رجل طيب أناسا آخرين ، وكيف ينام الضمير فى حالة مختلطة وسط بين خداع النفس والاحتيال الارادى . ومهما يكن من شيء فقد يؤمن الأبرار بأن حوافز محمد الأصيلة كانت ترجع الى حب الخير الطاهر الحقيقى . ولكن أى مبشر من بنى آدم لا يستطيع أن يحب الكفار الذين يرفضون مزاعمه ويسفهون أدلته ويهددون حياته . ويجوز أن يصفح عن أعدائه الشخصيين ، ومن الجائز شرعا أن يبغض أعداء الله . وتأجج فى نفس محمد انفعالات عنيفة هى انفعالات الكبرياء والثأر . وربما تاقت نفسه — مثل نبى نينوى — الى ابادة أعدائه الذين استنكر أعمالهم . وقد حول ظلم مكة واختيار المدينة المواطن العادى الى أمير ، والبشير المتواضع الى قائد الجيوش . ولكن سيفه أحيط بهالة من القداسة . فان الاله الذى يبتلى عالما آثما بالوباء والزلازل تعذيبا لهم ، قد يثير الحمية فى صدور عباده المخلصين ليؤدبوا العالم أو يهدوه الى دين جديد . واضطر محمد فى تدبير شئونه السياسية ، الى أن يخفف من حدة التعصب ، وأن يتمشى الى حد ما مع نزوات أتباعه وأهوائهم ، بل يستخدم رذائل البشر كوسيلة لانقاذهم . وكثيرا ما كان استخدام الخداع والخيانة والقسوة والظلم أداة لنشر الدين . وقد

أمر محمد بقتل اليهود والوثنيين الذين فروا من ميدان القتال . ولابد أن أخلاق محمد ، قد شابتها بعض شائبة نتيجة لتكرار هذه الأعمال . ومن العسير أن يعوض التخلق بالأخلاق الفاضلة الشخصية والاجتماعية اللازمة للاحتفاظ بسمعة نبى أمام الأتباع والأصحاب ، عن آثار هذه العادات الضارة الا بقدر ضئيل . كان الطموح هو الهوى الذى سيطر على محمد فى سنواته الأخيرة . وقد يظن رجل السياسية أنه (أى الدجال المنتصر) قد ارتاح فى أعماق نفسه الى حماسه فى شبابه ، والى تصديق أتباعه لدعوته ، أولئك الذين آمنوا به [1] ، وقد يلحظ الفيلسوف أن تصديق أصحابه لدعوته ونجاحه فيها قد يدعمان ويؤكدان صدق رسالته السماوية . وأن مصلحته ودياناته قد ارتبطتا برباط لا تنفصم عراه ، وأن ضميره هداه الى الاقتناع بأنه هو وحده الذى أعفاه الله من وجوب اتباع تلك القوانين الأخلاقية . واذا احتفظ بأثارة من براءته الأصلية فقد تجاز سيئاته كدليل على اخلاصه . وقد تعتبر فنون الخداع والكذب أقل اثما اذا استخدمت لدعم الحق . ومن الجائز أن محمدا كان يرتعد أمام شناعة وسائله لو لم يكن راضيا عن أهمية هدفه وعدالته، وأستطيع أن أكشف حتى فى فاتح أو قسيس عن كلمة أو فعل يتسم بالروح الانسانية الحقة . ان قرار محمد ، الذى حرم بمقتضاه ، التفريق بين الأم وأولادها عند بيع الأسرى ، قد يمنع أو يخفف أى لوم يوجهه اليه أى مؤرخ .

---

(١) فى موضع من مؤلفاته الضخمة ، يقارن ڤولتير بين النبى فى شيخوخته وبين الفقير « المشعوذ » الذى يخلع سلسلته من عنقه ليضرب بها اخوانه فى آذانهم .

كان محمد حكيما فى احتقاره لأبهة الملك . ولم يأنف رسول الله من القيام بالأعمال المنزلية التى كان يقوم بها عادة الخدم : لقد أوقد النار وكنس الدار وحلب الشاة ، وخصف نعله ، ورقع رداءه المصـــنوع من الصوف بيده . وكان لا يقر طريقة الرهبان والنساك فى تعذيب النفس تكفــيرا والتماسا للمنزلة الرفيعة . ولكنه قنــع دواما دون مشقة أو زهو بالطعام البسيط ، شأن الجنــدى والعربى . أما فى المناسبات الجليلة فكان يمد لأصحابه سماطا يتسم بالبساطة مع وفرة الطعام . أما فى حياته الخاصة فكثيرا ما كانت تمر عدة أسابيع دون أن توقد نار فى داره . وفى تحريمه الخمر كان مثالا يحتذى . وكان يمسك رمقه بقدر معتدل من خبز الشعير . غير أنه كان يحب اللبن والشهد ويسر بهما . أما طعامه العادى فكان التمر والماء . أما الطيب والنساء فهما المتعتان اللتان تطلبتهما نفسه وطبيعته ، ولم يحرمهما دينه . وقد قرر محمد أن هذه المتع البريئة كانت تقوى من عزيمته فى خشوعه وتقواه . والجو الحار يلهب دم العربى . وقد لاحظ الكتاب فى العالم القديم أن نضارة العربى تدل على حبه للشهوات . وقد حدت الأحكام المدنية والدينية التى وردت فى القرآن من افراط العرب فى شهواتهم . فأنحى باللائمة على نكاح المحارم . ووضــــع حدا لتعدد الزوجات الذى لم يكن له حدود ، فجعل الحد الأقصى أربع زوجات أو محظيات شرعيات . وبين حقوقهن العادلة فى الصداق والمعاشرة بالعدل . ولم تلق حرية الطلاق تشجيعا . وجعل الزنا جريمة عقابها الاعدام . وعاقب الفسق بالجلد مائة جلدة لكلا الجنسين . وكانت هذه وأمثالها شريعة النبى الهادئة المعقولة . ولكنه فى سلوكه الخاص لم يكبح شـــهوته

كرجل ، أو أساء استعمال مزاعمه كنبى ، وكأن وحيا خاصا أعفاه من القيــود التى فرضهــا على أمته ، فترك الجنس اللطيف دون تحفظ لرغبات النبى [١] . وقد أثار هذا الامتياز الفريد حسد أتقياء المسلمين أكثر مما أثار استياءهم ، كما أثار تبجيلهم أكثر مما أثار حسدهم . واذا تذكرنا أنه كان لسليمان الحكيم ســبعمائة زوجة وثلثمائة من الحظايا لامتدحنا تواضع النبى العربى الذى لم يتخذ أكثر من سبع عشرة أو خمس عشرة زوجة ، وقيل ان أحدى عشرة زوجة كن يقمن معه فى المدينة فى مساكن مستقلة حول بيت الرسول . واستمتعت كل منهن ، فى دورها ، بلقائه كزوج . والشىء الغريب جدا أنهن كلهن كن أرامل ماعدا عائشة بنت أبى بكر فقد كانت دون ريب عذراء عندما بنى بها محمد ، وكان لها من العمر تسع سنين . (وهذا النضج المبكر أثر من آثار الجو الحار) . وقد حظيت عائشة بمكانة سامية لشبابها وجمالها وروحها . وكان الرسول يحبها ويثق بها . وبعد موت النبى استمرت ابنة أبى بكر تحظى بالتبجيل وقتا طويلا كأم المؤمنين . غير أن سلوكها ذات مرة كان غير واضح وغير حكيم : فقد تركت مصادفة وراء القافلة وكانت القافلة تسير ليلا . وفى الصباح عادت الى الخيام

---

(١) أعمى التعصب الأوربي جميع الكتاب عن فهم الحكمة فى تعدد زوجات النبى ، وقد كن جميعا أرامل ما عدا عائشـــة ، كما لاحظ ذلك جيبون نفسه الذى شاد بوفاء النبى لخديجة فى حياتها وبعد موتها . وهم يرفضون أن يذكروا أن النبى عند هجرته كان قد جاوز الثانية أو الثالثة والخمســين . والمعروف أن الجسم ينحل سريعا فى الجو الحار . وهؤلاء الأوربيون أنفســهم أول من لاحظ تقشف النبى وزهده . وتهجده الذى أتعب جسده . قال تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . وكثر لغط الكتاب الأجانب عن زوجات النبى ، ولا بد أن جيبون نقل عنهم . والواقع أنه كان وراء كل زيجة حافز انســانى أو سياسى ، والرســـول أبعد ما يكون عما ظنه هؤلاء الكتاب . (الترجمة)

فى صحبة رجل . وكان محمد بطبيعته غيورا ، ولكن الوحى الالهى أكد له براءتها ، فعاقب من اتهمهـــا . ونزل تشريع ينشر الطمأنينة فى الحياة الزوجية ، وهو ينص على أنه لا يحكم بادانة امرأة الا اذا كان قد رآها أربعة من الرجال وهى ترتكب فعلا جريمة الزنى [1] . وفى مغامراته مع زينب زوجة زيد ، ومع مارية القبطية ، جاريته المصرية ، نسى النبى فى غرامه مقتضيات سمعته ، ففى دار زيد مولاه المعتق وابنه بالتبنى ، رأى محمد جمال زينب فى ثوب فضفاض ، فاستغرق فى صيحات ابتهال ورغبة . وقد فهم المعتق الذليل أو المعترف بالجميل مغزى ما رأى ، وتراجع دون تردد أمام حب مولاه . ولكن لما كانت علاقة البنوة قد أثارت بعض الشك والاستياء فقد هبط جبريل من السماء ليعلن موافقة الله على هذا العمل ، ويبطل التبنى وليوجه الى النبى لوما هادئا على قلة ثقته فى عفو ربه [2] . ثم ان حفصة بنت عمر احدى زوجات النبى فاجأته وهو على سريرها فى أحضان مارية سريته المصرية . فوعدت بكتمان الخبر والعفـــو . وأقسم النبى أنه سيتخلى نهائيا عن تملك مارية . ولكن كلا الجانبين نسيا ما وعدا به . وهبط جبريل مرة أخرى من السماء بآيات من القرآن ليحله من قسمه ويحثه على حرية التمتع بسرياته وحظاياه دون التفات الى صـــياح زوجاته . وفى مكان منعـــزل عاش النبى مع مارية لمـــدة ثلاثين يوما لتنفيذ أوامر جبريل . وعندما أشـــبع حبه وانتقـــامه ، دعا أزواجه

(١) يشير جيبون هنـــا الى حديث الافك ، وما تعلق به من أحكام وردت فى الربع الأول من سورة النور .

(٢) للرد على هذه الافتراءات انظر هيكل « حياة محمد » ، ص ٤٤٤ وما بعدها (المترجم) .

الاحدى عشرة للمثول بين يديه وأنبهن على عصيانهن وحماقتهن ، وهددهن بالطلاق فى هذا العالم والعالم الآخر ، وهو قرار رهيب ، اذ أن زوجات النبى لا يحل لهن الزواج من غيره بعد طلاقهن منه . وقد تخفف الرواية التى تصف قوة محمد الطبيعية أو الشاذة من افراطه فى شهواته . فقد قيل انه جمع قوة ثلاثين رجلا من بنى آدم ومن الممكن أن ينافس النبى هرقل البطل اليونانى فى أعماله الثلاثة عشر . ولكن هناك دفاعا أكثر جدية وتهذيبا يمكن استنتاجه من وفائه لخديجة . فطوال هذا الزواج الذى دام أربعا وعشرين سنة ، امتنع زوجها الشاب عن حقه فى الزواج من أخرى ، ولم يوجه اهانة الى كرامة هذه السيدة الجليلة أو رقتها بوجود ضرة لها . وبعد موتها وضعها زوجها بين فضليات النساء الأربع ، مع أخت موسى وأم عيسى وابنته فاطمه أحب بناته اليه . قالت عائشة ذات مرة فى طيش الشباب النضر : ألم تكن عجوزا شمطاء ؟ ألم يبدلك الله خيرا منها ؟ وأفاض محمد فى الاعتراف بجميلها : كلا والله . لم يبدلنى الله قط خيرا منها . آمنت بى عندما كذبنى الناس . وسدت خلتى عندما كنت فقيرا مضطهدا فى هذا العالم [١] .

---

(١) أمين دويدار : « صور من حياة الرسول » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩١ . وروى الامام أحمد عن عائشة ، قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها أحسن الثناء . (قالت) : فغرت يوما فقلت : : ما أكثر ما تذكرها ! حمراء الشدقين !! قد أبدلك الله خيرا منها ! قال : « ما أبدلنى الله خيرا منها ؛ وقد آمنت بي اذ كفر بي الناس ، وصدقتني اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقنى الله ولدها . اذ حرمنى أولاد النساء » .

(المترجم)

« وعلى الرغم من تعدد زوجاته فان محمـدا لم يترك وارثا . وفى عام ٦٥٥ أو ٦٥٦ ، أصبح صهره على أميرا للمؤمنين ولكن أبناءه لم يحتفظوا بالخلافة » .

نفوذ محمد

ان عبقرية محمد جديرة منا بكل اعجاب . ولكن نجاحه هو الذى جذب اعجابنا بدرجة فائقة . فهل أصابنا الدهش لأن جمهورا غفيرا اعتنقوا آراء رجل متعصب فصيح واتبعوا أهواءه ؟ لقد استخدم أسلوب الاغراء نفسه فى مذاهب (الهرطقة) فى الكنيسة مرارا وتكرارا من زمن الرسل الى عصر الاصلاح الدينى . فهل يبدو أنه مما لا يكاد يصدق أن يقبض مواطن عادى على السيف والصولجان وأن يخضع وطنه ، وأن يقيم مملكة باتتصاراته الحربية ؟ لقد ظهر على مدارج التاريخ فى الأسرات الحاكمة فى الشرق مئـات من الغاصبين الذين حالفهم التوفيق والذين نشأوا من أصـل أكثر ضـعة ، وتغلبوا على عقبات أشد ، ولعبوا دورا أكبر فى الامبراطوريات والفتوحات . لقد مرن محمد على الحرب وعلى الدعوة سواء بسواء . ان اجتماع هذه الصفات المتعارضة رفع من شأنه كما عاونه على النجاح . وتفاعلت القوة والاقناع ، والحماس والخوف بعضها مع بعض باستمرار ، فذللت كل عقبة أمام قوتها القاهرة . لقد دعت صيحته العرب الى الحرية والى النصر ، الى الحرب والى الاسلاب ، الى اشباع رغباتهم المحببة الى نفوسهم فى هذا العالم وفى الدار الآخرة . وكانت القيود التى فرضها ضرورية لدعم مركز النبوة ، ولتدريب الناس على الطاعة. وكانت العقبة الوحيدة فى طريق نجاحه هى عقيدته المعقولة المنطقية عن

وحدانية الله وكماله . وليس انتشار دينه هو الذى يدعو الى العجب والدهشة وانما بقاؤه . فان نفس الطابع النقى الكامل ، الذى نزل به فى مكة والمدينة لا يزال محفوظا ، بعد مرور اثنى عشر قرنا من الثورات والتقلبات ، فى قلوب المؤمنين بالقرآن من هنود وأفريقيين وأتراك . ولو أن الرسولين المسيحيين القديسين بطرس وبولس استطاعا أن يعودا الى الفاتيكان لسألا عن اسم الاله الذى يعبد فى هذا المعبد الفخم بهذه الطقوس الخفية . وقد تصيبهم دهشة أقل فى اكسفورد وجنيف ، وربما كان عليهما أن يتصفحا عقيدة الكنيسة وأن يدرسا تعليقات فقهاء المسيحية ، التى دونت على كتاباتهما وعلى كلمات معلمهما (السيد المسيح) . ولكن قبة أيا صوفيا فى تركيا ، وهى أعظم رواء وأكبر حجما تمثل البناء المتواضع الذى شيده محمد فى المدينة بيديه . وقد وقف المسلمون بالاجماع يقاومون الاغراء الذى ينزل بعقائدهم وتقواهم الى مستوى حواس الانسان وخياله . فشهادة « ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » هى الشهادة الاسلامية البسيطة التى لا تتغير . فصورة الاله فى الأذهان لم تصبها مهانة قط بتمثيلها بوثن يراه الناس . والأمجاد التى أسبغت على النبى لم تتعد قط حدود الفضائل البشرية . وحصرت تعاليمه الحية اعتراف أصحابه بفضله فى داخل حدود العقل والدين . والحق أن شيعة على قدسوا ذكرى بطلهم وزوجه وأبنائه حتى أن بعض علماء الفرس يزعمون أن الجوهر المقدس قد حل فى أشخاص الأئمة . ولكن أهل السنة رفضوا خزعبلاتهم رفضا باتا . وقد كان الحادهم تحذيرا جاء فى الوقت الملائم ضد عبادة القديسين والشهداء . وأثارت القضايا الميتافيزيقية الخاصة

بصفات الله الاضطراب فى المدارس الاسلامية والمسيحية سواء بسواء. ولكنها لم تستول قط على عقول الجماهير أو تعكر صفو الهدوء فى الدولة . وسبب هذا الاختلاف الهام هو التفريق أو التوحيد بين الصفة الزمنية والصفة الدينية . وكان من مصلحة الخلفاء الذين خلفوا النبى وأمراء المؤمنين أن يحولوا دون احداث أى بدع فى الدين ، وألا يشجعوا الناس عليها ، فلا يعرف المسلمون طوائف الكهنة ونظامهم وطموحهم الزمنى والروحى . أما فقهاء الشرع (يقصدالأئمة) فهم هداة المسلمين ومرجعهمفى أمور دينهم . ومنالمحيط الأطلسىالى نهرالكنجيقر المسلمون بأن القرآن هو قانونهم الأساسى ، لا فى أمور دينهم فحسب، ولكن فى كلا التشريعين المدنى والجنائى . وتحمى ارادة الله القوية المعصومة القوانين التى تنظم أعمال البشر وأحوالهم ، غير أن هذا الخضوع المدين قد يقترن ببعض المساوىء العملية . فكثيرا ما ضلل المشرع الأمى هواه وهوى وطنه . فالنظم التى تلائم صحراء العرب قد لا تلتئم مع ثراء أصفهان والآستانة ولا عدد سكانهما . وفى هذه الأحوال يضع القاضى بكل اجلال المصحف الشريف فوق هامته ولكنه يستبدل به تفسيرا بارعا أكثر ملاءمة لمبادىء العدالة وعادات العصر وسياسته .

وثمة نقطة أخيرة نعرض لها فى أخلاق محمد ، تلك هى أثره النافع أو الضار على السعادة العامة . ومن المحقق أن ألد أعدائه مرارة وتعصبا من النصارى واليهود سيقولون بأنه حمل رسالة زائفة ليغرس عقيدة تهدى الى الرشد لا تقل فى كمالها الا عن عقيدتهم . وقد افترض محمد ورعا منه ، كأساس لدينه ، صدق وحيهم القديم ، وقدسيته وفضائل

مؤسسى الديانات السابقة ومعجزاتهم . وهكذا حطمت أصنام العرب
أمام عرش اللهوقد قامت الصلاة والصوم والزكاة وهى الفنون المحمودة
أو البريئة للورع مقام دم الضحايا البشرية ، ورسم ثواب الله وعقابه..
فى الدار الآخرة فى صور بلاغية تلائم تماما جيلا غارقا فى شهواته .
ومن المحتمل أن محمدا كان لا يستطيع أن يفرض نظاما أخلاقيا وسياسيا
يطبق فى وطنه ، ولكنه بث فى المسلمين روح البر والمحبة ، وحث الناس
على ممارسة الفضائل الاجتماعية ، وحد بقوانينه وشريعته من التعطش
للثأر وظلم الأرامل واليتامى . وقامت بين القبائل المتعادية وحدة فى الدين
والطاعة ، ووجهت الشجاعة التى كانت تذهب سدى فى المنازعات
الداخلية ضد العدو الخارجى ، ولو أن الحافز كان أقل قوة لكان من
الجائز أن تزدهر بـــلاد العرب المتمتعة بالحـــرية والاستقلال فى
الداخل ، القوية فى الخارج ، على يد جماعة أبنائها من الحكام . ولكنها
فقدت سلطانها لاتساع فتوحاتها وللسرعة التى تمت بها هذه الفتوحات.
فانتشرت عشرات من مستعمرات هذه الأمة فى أرجاء الشرق والغرب
واختلط الدم العربى بدم الأسرى ومعتنقى الاسلام . وبعد الخلفاء
الراشدين الأربعة نقل مقر الخلافة من المدينة الى وادى دمشق ، ثم الى
شاطىء دجلة ، ودنست حرب فاجرة المدينتين المقدستين وحكمت عصا
فرد من الرعية ــ وربما عصا أجنبى غريب ــ حكمت بلاد العرب.وبعد
أن استيقظ بدو الصحراء من حلم السيطرة عادوا الى اســتقلالهم
الانعزالى القديم .

الفصل الحادى والخمسون

٦٣٨

مصير مكتبة الاسكندرية

حذف الفصلان الحادى والخمسون والثانى والخمسون ، وهما يتناولان قصة الفتوحات العربية وامتداد سلطان العرب وحضارتهم الى افريقيـــة وأسبانيا · وقد عاق تقدمهم الى فرنسا انتصار شارل مارتل فى معركة بواتييه سنة ٧٣٢ · وبعد أن انتشروا غربا أصـبحت غزواتهم تقع ـ ان أردنا الدقة ـ خارج الامبراطورية الرومانية · وقد قمنا هنا بابراز قطعة من الفصل الحادى والخمسين لأنها تصف تدمير مكتبة الاسكندرية · فقد كان هذا العمل على الأقل رمزا لأفول نجم الثقافة القديمة · وهـذا أمر لا يمكن اغفاله ، على حد تعبير جيبون · وقد هيأت له الأقصوصة السبيل ليؤدى واجب التحية والأجلال للمرة الأخيرة ، لتلك الآداب التى كانت عماد حياته وفكره · ومنها تعقب ، كما فعل من أى شىء آخر ، اضمحلال الحضارة وسقوطها · ومع ذلك فهو يوجه سهام نقده الى هذه القصة ، وان الفـكر الحديث ليؤيده فيما ساوره من شك فيها ·

مكتبة الإسكندرية

لا بد أن يخيب ظن القارىء بى اذا مررت مر الكرام بمصـــير مكتبة الاسكندرية ، كما يصفه العلامة أبو الفرج . وكان عمرو أكثر حبا للاستطلاع وأكثر تحررا من بقية أصـــحابه . وكان يحلو له فى أوقات فراغه أن يتحدث الى يوحنـــا آخر تلاميذ أمونيوس الذى استمد لقب فيلوبونس مما بذله من جهود فى أبحـــاثه فى النحو والفلسفة . وقد شجعت يوحنا أحاديثه التى تتسم بالألفة ورفع الكلفة

مع عمرو ، على أن يطلب منه هدية لا حد لقيمتها عنده هو ، ولكنها حقيرة فى نظر المتبربرين — ألا وهى المكتبة الملكية ، وكانت الشىء الوحيد من أسلاب الاسكندرية الذى لم تمسه يد الفاتح ، ولم تقع عينه عليه . وكان عمرو ميالا الى اجابة عالم النحو الى رغبته . ولكن نزاهته ودقته أبتا أن يتنازل عن أى شىء مهما كان تافها دون اذن من الخليفة . وقد ألهم جهل المتعصبين رد عمر المشهور : « ان كانت هذه المؤلفات اليونانية تتفق وكتاب الله فلا فائدة منها ولا حاجة بنا الى حفظها وان كانت تخالفه ، فهى ضارة ويجب اعدامها » ... وقد نفذ حكمه فى طاعة عمياء فوزعت هــذه المجلدات المكتوبة على الورق أو الرق على حمامات المدينة ، وكان عددها أربعة آلاف حمام . وقد بلغت هذه المؤلفات من الكثرة حدا لا يصدق ، بحيث أن ستة أشهر لم تكن كافية الا بصعوبة لاستهلاك هذا الوقود الثمين . ولما كان تاريخ أبى الفرج قد قدم للعالم باللغة اللاتينية ، فقد تكرر نقل هذه الحكاية عنه . كما رثى كل باحث فى غضب وقور لهذه الخســارة التى لا تعوض ، ولضياع مثل هذا العلم والفن والعبقرية القديمة . ولكنى أميل بشدة — وهذا رأيى الخاص — الى انكار هذه الواقعة ونتائجها كلية . فالواقعة حقا غريبة . يقول أبو الفرج نفسه : « اقرأ وتعجب ! » ويرجح رواية هذا المؤرخ الأجنبى الوحيد الذى كتب بعد ستة قرون على أرباض ميديا صمت مؤرخين أقدم منه ، وكلاهما مسيحى ، وكلاهما مواطن مصرى . وأقدمهما البطريق يوتيخيوس الذى أفاض فى وصف فتح الاسكندرية . ويتناقض رأى عمر القاسى مع شريعة فقهاء المسلمين الصحيحة السليمة . فهم يقررون فى جلاء أن

كتب اليهود والمسيحيين الدينية التى تم الاستيلاء عليها بحق الفتح لا يجوز مطلقا احراقها . أما كتب العلوم الدنسة الأخرى ، ككتب التاريخ والشعر والطب والفلسفة ، فمن الجائز استخدامها لينتفع بها المؤمنون . وقد يعزى الى خلفاء محمد الأول حماس أشد تدميرا . ولكن فى هذه الحالة كان من المنتظر أن تؤدى قلة المادة الى سرعة اخماد الحريق . ولن أعدد الكوارث التى حلت بمكتبة الاسكندرية ، كالحريق الذى أشعله قيصر عمدا دفاعا عن نفسه ، والتعصب الضار لدى المسيحيين الذين وجهوا حماسهم الى تدمير آثار الوثنية . ولكنا اذا ما هبطنا شيئا فشيئا من عصر الأنطونينيين الى زمن تيودوروس. فسنعلم من عدد كبير من الشهود المعاصرين أن القصر الملكى ومعبد سرابيس لم يكونا يحويان الأربعمائة ألف أو السبعمائة ألف مجلد التى جمعها حب البطالمة للاطلاع وسخاؤهم . ومن الممكن أن الكنيسة والدار البطريركية قد ازدانتا بذخائر من الكتب . ولكن ان كانت المجلدات الضخمة التى ألفت فى النزاع الذى أثاره أتباع آريوس أو أتباع الطبيعة الواحدة ، هى التى أحرقت حقا فى حمامات الاسكندرية ، فقد يسلم الفيلسوف ، وعلى شفتيه ابتسامة ، بأن هذا كان فى النهاية من مصلحة البشرية . وانى آسف من صميم قلبى لما أصاب المكتبات التى هى أعظم قيمة ، فى غمرة الخراب الذى نزل بالامبراطورية . ولكنى عندما أعدد بشكل جدى ، تعاقب الأجيال ، وما ضيع الجهل وكوارث الحرب ، فانى لن أعجب لضياع ما فقد ، ولكن لبقاء الكنوز التى وصلت الينا . لقد طمس النسيان وقائع كثيرة هامة وغريبة . فمؤرخو رومه الثلاثة قد وصلوا الى أيدينا فى حالة

يرثى لها . وقد حرمنا من كثير من المؤلفات البهيجة من الشعر اليونانى الغنائى الأرجوزى والمسرحى . ومع ذلك فينبغى أن نذكر مع الحمد والشكر أن كوارث الأيام وأحداثها قد تركت لنا مؤلفات كلاسيكية كانت لها الصدارة باجماع الآراء ، فى العالم القديم ، من حيث العبقرية والشهرة . فمعلمو المعرفة القديمة الذين وصلوا الينا كانوا قد تصفحوا وقارنوا كتب أسلافهم . فلا يمكن أن يزعم أحد حقا أن نظرية هامة أو كشفا نافعا فى الفن أو الطبيعة قد حرمت منه القرون الحديثه المحبة للاستطلاع .

اضمحلال الامبراطورية فى الشرق

الفصل الثالث والخمسون

(٩١٢ - ٩٨٨ م)

حـــال الأمبراطورية الشرقية فى القـــرن العاشر . ثروة الأمبراطورية ومصنوعاتها وايراداتها . القصر الامبراطورى . نســيان اللغة اللاتينيــة . احيــاء العلوم اليونانيــة . انحطاط الذوق .

يبدو أن شعاعا من الضوء التاريخى يخترق ظلام القرن العاشر . فنحن نفتح فى اجلال وشغف المجلدات الملكية التى دبجها قسطنطين بورفيروجينتيوس ، والتى ألفها بعد أن تقدمت به السن ، لتعليم ابنه، وهى تعد بأن تبسط حال الامبراطورية الشرقية فى الحرب والسلم ، وفى الداخل والخارج . وفى أول هــذه المجلدات يصف الامبراطور بدقة رواء الطقوس الكنسية ومراسم القصر الملكى طبقا لما اعتاده هو وأسلافه . وفى المجلد الثانى من هـــذه المؤلفات يحاول الكاتب أن يستعرض بدقه الولايات فى كل من أوربا وآسيا ، وكان يطلق عليها عندئذ اسم « ثميس » Themes . وقد ورد فى المجلد الثالث من هذه المجموعة التعليمية التى يمكن أن تنسب الى قسطنطين أو الى أبيه ليو ، وصف لفن التكتيك الحربى عنـــد الرومان ونظام الجنـود وترتيبهم ، والعمليات الحربية الرومانية فى البر والبحر . وفى المجلد

الرابع — وهو يبحث فى ادارة الامبراطورية — يكشف المؤلف عن أسرار السياسة البيزنطيه فى علاقاتها الودية والعدائية مع أمم العالم . وربما عادت الجهود الأدبية ونظم القانون العملية والزراعة والتاريخ فى عصر ما ، على الرعية بفائدة ، وعلى أمراء مقدونية بالمجد . فالكتب الستون الملكية [1] ، وهى تحوى القانون المدنى وأحكامه ، دونت شيئا فشيئا فى عهد الأباطرة الثلاثة الأول من هذه الأسرة السعيدة . واجتذب فن الزراعة اهتمام أفضل القدماء وأعقلهم فتسلوا بها فى أوقات فراغهم ، كما جرت أقلامهم بالكتابة فيه . وقد تضمنها كتاب قسطنطين المسمى « فن وعلم الزراعة » . وبأمر منه صنفت النماذج التاريخية للفضيلة والرذيلة فى ثلاثة وخمسين مجلدا ، فأصبح من الممكن لأى مواطن أن يطبق على معاصريه أو على نفسه دروس الماضى وعظاته. وهكذا هبط أمبراطور الشرق من مشرع فى عليائه ، الى وظيفة معلم أو كاتب ، وهى وظيفة جد متواضعة . واذا كان خلفاؤه ورعاياه لم ينتبهوا الى رعايته الأبوية ، فقد نرث نحن هذا التراث الخالد وننعم به.

والحق أن فحصا أكثر دقة قد يقلل من قيمة الهبة ومن عرفان الخلف . وقد نرثى لفقرنا وجهلنا مع أننا نملك هذه الكنوز الثمينة . وسيمحو الاهمال أو الازدراء مجد مؤلفيها الزائل وستهبط « البازيليك » الى نسخة بالية من قوانين جستنيان ، فهى ترجمة مهلهلة وناقصة لها باللغة اليونانية . وكثيرا ما غطى التعصب فيها على حكمة علماء القانون المدنى القدامى . وقد خنق تحريم الطلاق تحريما باتا ومنع

---

(١) Basilics كتب القوانين البيزنطية ، نسبة الى الامبراطورية باسيليوس الأول (بازيل) القرن التاسع الميلادى .

التسرى ، وكذا أخذ فائدة عن الأموال ، خنق حرية التجارة وسعادة الفرد . وعند تصفح كتب التاريخ قد يتعجب أحد رعايا قسطنطين من فضائل اليونان والرومان التى لا يستطيع أن يحاكيها . وقد يتعلم الى أى حد من النشاط والرفعة قد سما الخلق البشرى فى العالم القديم. ولكن لابد أنه كان ثمة أثر عكسى ، نتيجة لاصدار طبعة جديدة من حياة القديسين ، صدرت الأوامر أو التعليمات باعدادها الى مستشار الامبراطورية الأكبر . وزاد من هذا الرصيد الكئيب من الخرافات ما أضيف اليه من أساطير سيمون « المترجم الحرفى » Metaphrast وهى خزعبلات منمقة . وان امجاد هذا السجل كله ومعجزاته لا تساوى فى نظر الحكيم عناء مزارع واحد يزيد فى هبات الخالق ويزود اخوانه بالطعام . ومع ذلك فقد بذل المؤلفان الملكيان لكتاب « فن وعلم الزراعة » جهدا أكبر فى شرح الفن المدمر الذى كان يلقن من أيام زينوفون باعتباره فن الملوك والأبطال . ولكن كتاب « فن التكتيك » Tactics الذى سطره ليو وقسطنطين قد خلط بمزيج أقل قيمة استقياه من العصر الذى عاشا فيه . وقد خلا من العبقرية الأصيلة خلوا تاما ، فانهما لم يزيدا على أن نقلا ضمنا القواعد والحقائق العامة التى أكدتها الانتصارات . وخلا الكتاب من البراعة فى الأسلوب أو فى المنهج ، وخلط الكاتبان دون تبصر بين نظم بعيدة متنافرة ، وبين كتائب اسبرطه ومقدونية ، وفيالق كاتو وتراجان ، وأوغسطس وتيودوسيوس . وقد يتساءل المرء بحق عن نفع هذه المبادىء الحربية أو على الأقل عن أهميتها . لقد أملى العقل والمنطق الأهمية النظرية العامة لهذه المبادىء ولكن فضلها وصعوبتها تظهران عند تطبيقها .

فان اعداد الجندى يعتمد على التدريب أكثر منه على الدراسة . ومواهب القائد قد اختصت بها تلك العقول الهادئة ، ولكنها العقول سريعة البت ، التى أوجدتها الطبيعة لتقرر مصير الجيوش والأمم . والهدوء عادة من عادات الحياة ، أما سرعة البت فهى ومضة بنت لحظتها . ويمكن أن ندرج المعارك التى فاز فيها قائد ما حفظ دروس التكتيك ، فى عداد الملاحم الشعرية التى أوجدتها قواعد النقد الأدبى . وكتاب المراسم ان هو الا سرد ممل ، ولكنه ناقص ، للطقوس المزرية التى دنست الكنيسة والدولة منذ الانحطاط التدريجى لنقاوة الأولى ، ولقوة الثانية . وقد نستبشر خيرا باستعراض الولايات أو المديريات ، ليزودنا بمعلومات حقيقية ونافعة ، كتلك التى تعنى الحكومة وحدها بالحصول عليها ، بدلا من تلك الخرافات المتوارثة عن أصول المدن ، والمقطوعات الشعرية الخبيثة عن رذائل سكانها . وربما كان يسعد المؤرخ أن يسجل مثل هذه المعلومات ، وينبغى ألا يلام على صمته ، اذا كانت أطرف المسائل وأهمها : مثل عدد سكان العاصمة والولايات ، ومقدار الضرائب والايرادات ، وعدد الرعايا والأجانب الذين يعملون تحت لواء الامبراطورية ، قد أغفلها ليو الفيلسوف وابنه قسطنطين . ويشوب بحثه فى « الادارة العامة » الشوائب نفسها ، ومع ذلك فهو يتميز بشىء غريب يستوجب الثناء . فقد تكون آثار الأمم وتاريخها القديم موضع شك وارتياب ، أو أسطورية ، ولكن جغرافية العالم المتبربر وأخلاقه قد وصفت بدقة عجيبة . ومن هذه الأمم كان الفرنجة وحدهم أهلا لأن يكتبوا بدورهم عن عاصمة الشرق ويصفوها . فقد صور أسقف كريمونا ،

سفير أوتو العظيم ، حالة القسطنطينية حوالى منتصف القرن العاشر ، وأسلوبه فى هذا مشرق ، وسرده للحوادث مثير ، وبصره بالأمور حاد . بل ان تعصب ليوتبراند [1] وأهواءه تحمل الطابع الأصيل للحرية والعبقرية . ومن هذا الرصيد الهزيل من المواد المحلية والخارجية سنتقصى شكل الامبراطورية البيزنطية وجوهرها ، والولايات والثروة والحكومة المدنية ، والقوة الحربية ، وأخلاق اليونانيين وآدابهم ، على مدى ستة قرون ، من حكم هرقل الى نجاح الفرنجه أو اللاتين فى غزو الامبراطورية .

بعد تقسيم الامبراطورية تقسيما نهائيا بين أبناء تيودوسيوس ، انتشرت فى الولايات جماعات من البرابرة من سكيذيا وألمانيا ، وقضت على امبراطورية رومه القديمة قضاء مبرما . وكان ضعف القسطنطينية يختفى وراء اتساع ممتلكاتها ، فلم تنتهك حدودها أو على الأقل لم تمس . وقد اتسعت مملكة جستنيان بضم أفريقية وايطاليا . وهذا عمل باهر . ولكن تملك هذه الفتوحات الجديدة كان مؤقتا غير دائم ، اذ انتزعت جيوش العرب حوالى نصف الامبراطورية الشرقية . وفتح الخلفاء الراشدون الشام ومصر ، وغزت قواتهم الولاية

---

(١) Liutprand ٩٧٢/٩١٢ كاتب حوليات ايطالى تعتبر مؤلفاته أهم مصادر تاريخ ايطاليا والامبراطورية فى القرن العاشر ، انضم الى بلاط أوتو الأول الذى عينه أسقفا فى كريمونا ، وأوفده فى ٩٦٨ الى القسطنطينية ليطلب يد أميرة يونانية للأمير الذى أصبح فيما بعد أوتو الثانى . وتتلون كتابات هذا المؤرخ وفقا لعداواته وولاءاته وتعصبه الشخصى (ضد اليونان مثلا) ، ولكنها مع ذلك من أهم المراجع .
(الترجمة)

الرومانية التى كانت قد أصبحت مملكة القوط فى أسبانيا ، وأخضعتها . ولم تكن جزر البحر المتوسط بمأمن من سفنهم الحربية . ومن محطاتهم البحرية البعيدة ، من موانى جزيرة كريت وقلاع كيلكيا كان الأمراء الموالون أو الثائرون يوجهون الاهانات للامبراطور وعاصمته . وقد أعيد تنظيم الولايات التى بقيت خاضعة للأباطرة ، وطبعت بطابع جديد . فحل مكان اختصاصات الرؤساء والقناصل جديد . فحل مكان اختصاصات الرؤساء والقناصل والكونتات ، « نظام الولايات Themes » أو الحكومات العسكرية التى سادت زمن خلفاء هرقل والتى وصفها قلم الكاتب الملكى . ان منشأ الولايات التسع والعشرين (اثنتى عشرة فى أوربا وسبع عشرة فى آسيا) غامض ، واشتقاق الكلمة مشكوك فيه أو نزوى . وكانت حدود الولايات تعسفية وغير مستقرة . ولكن بعض الأسماء الخاصة التى قد تكون أشد غرابة فى آذاننا اشتقت من خصائص وصفات الفرق التى احتفظ بها على نفقة الأجزاء المختلفة لحراستها . ذلك أن غرور أمراء اليونان أمسك فى أعظم لهفة بطيف الفتوحات وبذكرى الممتلكات الضائعة . فنشأت ميزوبوتاميا جديدة على الشاطىء الغربى للفرات . ونقل اسم صقليه وحاكمها الى شريط ضيق فى كالابريا ، وارتقت قطعة صغيرة من دوقية بنفينتوم Beneventum الى مركز ولاية لومبارديا ولقبها . وعند انهيار الامبراطورية العربية كان من الممكن لخلفاء قسطنطين أن يطلقوا العنان لكبريائهم فى فتوحات أكثر استقرارا ، فان انتصارات تقفور ، ويوحنا جيمسكى وباسيليوس الثانى أحيت أمجاد الاسم الرومانى ووسعت من حدوده . فعادت ولاية كيلكيا وأنطاكيه العاصمة وجزيرتا كريت وقبرص الى الولاء للمسيح والقيصر ،

وضم ثلث ايطاليا الى عرش الامبراطورية ، ودمرت مملكة بلغاريا ، وامتد سلطان آخر ملوك الأسرة المقدونية من منبع دجلة الى أرباض رومه . وفى القرن الحادى عشر تلبد الجو بظهور أعداء جدد وحدوث نكبات جديدة . فاكتسح المغامرون من النورمان البقية الباقية من ايطاليا ، كما اقتطع الفاتحون الأتراك جميع الولايات الأسيوية تقريبا من جسم الامبراطورية الرومانية . وبعد هذه الخسائر ظل أباطرة الأسرة الكومنينية يحكمون من الدانوب الى الموره ، ومن بلجراد الى نيقيا وطرابزون ونهر مياندر المتعرج . وكانت الولايات الشاسعة، وهى ولايات تراقيا ومقدونيه واليونان تخضع لصولجانهم . واقترن امتلاك قبرص وردوس وكريت بامتلاك الجزر الخمسين فى بحر ايجه أو البحر المقدس . وفاقت بقايا امبراطوريتهم مساحة أكبر مملكة فى أوربا .

ثروة الإمبراطورية ومصنوعاتها وإيراداتها

ربما كان من حق هؤلاء الأمراء أن يقرروا فى عزة وكرامة وصدق أنهم وحدهم ، من بين ملوك الدول المسيحية الأوربية ، تملكوا أعظم مدينة وأوفر ايرادات وأكثر الولايات ازدهارا وسكانا . وقد تدهورت مدن الغرب وسقطت باضمحلال الامبراطورية وسقوطها . وما كانت أطلال رومه أو الأسوار المبنية من الطمى والأكواخ الخشبية وأرباض لندن وباريس الضيقة، تقول ما كانت هذه كلها لتهيىء اللاتينى الغريب لكى يتأمل موقع القسطنطينية واتساعها ، وقصورها وكنائسها الفخمة وفنون وترف شعب لا يحصى عديده . وربما اجتذبت كنوزها

الفرس والبلغار والعرب والروس الى المغامرة بغزوها ، غير أن قوتها العذرية البكر صدت ، ولا تزال تبشر بأن تصد ،مثل هذه المغامرة ، ولكن الولايات كانت أقل حظا وأقل منعة . ويندر أن نجد قلة من المناطق والمدن لم يدنسها بعض المتبربرين المتوحشين الذين يتحرقون الى السلب والنهب ، لأنهم لا يأملون فى امتلاك شىء . ومنذ زمن جستنيان بدأت الامبراطورية الشرقية فى الانحدار عن مستواها السابق . وكانت قوى التدمير فيها أشد فعالية من قوى الاصلاح . وزادت مساوىء الطغيان المزمنة فى الحكومة والكنيسة من مرارة كوارث الحرب . فكثيرا ما جرد وزراء الملك الأسير الذى كان قد هرب من أيدى المتبربرين ، وأودعوه السجن ، وقد ساعدت الخرافات اليونانية على استرخاء الذهن فى الصلاة ونحول الجسم وذبوله بالصيام . وعطلت كثرة الأديرة والأعياد كثيرا من الأيدى العاملة ، وأضاعت كثيرا من الأيام ، مما كان يمكن استخدامه والانتفاع به فى الأغراض الدنيوية ، ومع ذلك فان رعايا الامبراطورية البيزنطية كانوا لا يزالون أكثر الأمم مهارة وجدا . وقد باركت الطبيعة بلادهم فمنحتهم مزايا التربة والمناخ والموقع . وكانت طباع الصبر والمسالمة فيهم ، أكثر نفعا لتشجيع الفنون واحيائها من الروح الحربية وفوضى الاقطاع فى أوربا . وقد زادت الكوارث التى حلت بالولايات التى فقدت دون أمل فى استرجاعها ، من سكان الولايات التى بقيت تابعة للامبراطورية ، ومن ثرائها ، حيث تسلل الكاثوليك فى سوريا ومصر وأفريقية هربا من نير الخلفاء ، وهرعوا الى ولاء أمرائهم وصحبة اخوانهم . وحملوا معهم ثرواتهم المنقولة التى أفلتت من يد الظالمين ،

فلطفت من قسوة اغترابهم . وتلقفت القسطنطينية فى أحضانها التجارة التى أدبرت عن الأسكندرية وصور . كما أكرمت وفادة زعماء أرمينيا وسكيذيا الذين فروا من الاضطهاد العدائى أو الدينى . وتشجع أتباعهم على تشييد مدن جديدة وزراعة الأراضى القاحلة . وقد احتفظ كثير من الأماكن فى كل من أوربا وآسيا بأسماء هذه المستعمرات القومية أو عاداتها أو على الأقل ذكراها . بل ان القبائل المتبربرة التى كانت قد استقرت بقوة السلاح داخل حدود الامبراطورية استردت شيئا فشيئا قوانين الكنيسة والدولة . وطالما بقوا منفصلين عن اليونانيين ، قدمت ذريتهم طرازا من الجنود الأمناء المطيعين . واذا كان لدينا مادة تكفى لاستعراض الولايات التسع والعشرين فى الامبراطورية البيزنطية ، فقد يكتفى حبنا للاستطلاع ببعض الأمثلة المنتقاة . ومن حسن الحظ أن أنصع ضوء هو ذلك الذى قدر له أن يلقى على الولاية التى تثير أعظم اهتمام ، فان اسم البلوبونيز (شبه جزيرة المورة) سوف يثير انتباه قارىء الآداب الكلاسيكية .

وفى وقت مبكر يرجع الى القرن الثامن ، أثناء حكم محطمى الأيقونات (الصور المقدسة) الذى ساد فيه الاضطراب ، انتشرت فى بلاد اليونان حتى وفى المورة ، بعض العصابات السكلافونية التى سبقت أعلام البلغار الملكية . وكان أجانب العصر القديم من أمثال كادموس وداناوس Danaus وبيلوبس Pelops قد غرسوا فى هذه التربة الخصبة بذور السياسة والعلم ، ولكن برابرة الشمال اقتلعوا ما تبقى من جذورها الذابلة الواهنة . وقد غير هذا الغزو من الاقليم والسكان ، ودنس الدم اليونانى . ودمغ أعظم نبلاء

المورة كبرياء بأسماء الأجانب والعبيد ، وقد طهر الأمراء الذين جاءوا بعد ذلك الى حد ما ، البـــلاد من المتبربرين بجدهم واجتهادهم ، أما البقية المتواضعة منهم فقد أقسمت يمين الطاعة وفرضت عليهـــا الجزية والخدمة العسكرية . وما أكثر ما جددوا هـــذه المواثيق ، وما أكثر ما حنثوا فيها . وحدث أن اشترك فى حصار باتراس ، فى اتفاق غريب ، السكالفيون فى المورة ، وعرب أفريقية . وفى آخـــر مرحلة من مراحل محنة المواطنين رفع من شجاعتهم ما وقر فى أذهانهم من خيال ورع ، باقتراب والى كورنثه ، ومن ثم شنوا هجوما جريئا حالفهم فيه التوفيق . فرحل الأجانب على سفنهم وخضع الثوار ، ونسب مجد ذلك اليوم الى طيف أو رجل غريب حارب فى مقـــدمة الصفوف فى زى القديس أندرو (أندراوس) الرسول . فزين ضريحه الذى يحوى رفاته بأسلاب النصر . ونذر الجنس المقهور نفسه الى الأبد لخدمة كنيسة باتراس الجامعة وأتباعها . وكثيرا ما اضـــطرب السلام فى شبه الجزيرة بقيام قبيلتين من السكلافيين بالثورة بالقرب من هيلوس ولقديمون Lacedaemon . وعابوا فى بعض الأحيان ضعف الحكومة البيزنطية ، وفى أحيان أخرى قاوموا ظلمها ، حتى انتزع فى النهاية اقتراب اخوانهم والمعادين لهم قرارا بابويا حدد حقوق وواجبات العزاريين Ezzerites والميلنجيين Milengi وحددت الجزية السنوية التى فرضت عليهم بألف ومائتى قطعـــة مـــن الذهب . ومن بين هؤلاء الغرباء ميز ليوتبراند مؤرخ الامبراطور ومؤلف الجغرافية ، بدقة جنسا محليا ، ربما كان أصـــيلا ، وربمـــا كان ينتسب الى حد ما برابطة الدم ، الى الهيلوت Helots (أرقاء اسبرطة القديمة)

الذين أوذوا كثيرا . وقد حرر كرم الرومان ، ولا سيما أوغسطس ، المدن الساحلية من سلطان اسبرطة . وقد رفع بقاء هذه الميزة من شأنهم وشرفهم بلقب Eleuthero أو « اللاكونيين الأحرار » . وفى زمن قسطنطين يورفيروجنيتوس أطلق عليهم اسم ماينوتيس Mainotes وتحت هذا الاسم دنسوا ادعاءهم الحرية بما اقترفوا من نهب قاس وحشى لكل من تحطمت سفينته على شواطئهم الصخرية ، وقد امتدت رقعتهم التى انعدمت فيها الحبوب وكثر فيها الزيتون الى رأس ماليا . وقد تقبلوا رئيسا أو أميرا من الوالى البيزنطى . وكانت الجزية القليلة وقدرها أربعمائة قطعة من الذهب ، رمز حصانتهم أكثر منها رمز تبعيتهم . وقد تمسك أحرار لاكونيا بطابع الرومان والتزموا بديانة اليونان طويلا . قد حملهم حماس الامبراطور باسيليوس على التعميد وفقا لديانة المسيح . ولكن مذابح الالهة فينوس ونبتيون بقيت موضع تبجيل هؤلاء الأتباع الريفيين خمسمائة سنة بعد مصادرتها أو تحريمها فى العالم الرومانى . وقد أحصى فى ولاية المورة أربعون مدينة كانت لا تزال قائمة . ومن الممكن أن توضع حالة تدهور اسبرطة وأرجوس وكورنث فى القرن العاشر فى مركز وسط بين بهائها القديم وخرابها الآن . كان واجب الخدمة العسكرية الشخصى أو بوساطة نائب مفروضا على أراضى الولاية أو قطائعها . وحدد مبلغ خمس قطع من الذهب ضريبة رأس على كل مستأجر ثرى . واشترك فى ضريبة الرأس هذه أفراد أقل ثراء . وعند اعلان حرب على ايطاليا أعفى أهل المورة من الاشتراك فيها مقابل تقديم هبة اختيارية مقدارها مائة رطل من الذهب (أربعة آلاف جنيه

استرلينى) وألف حصان بأسلحتها وعدتها . وكانت الكنائس والأديرة تقدم حصتها . فابتز ربح حرام تتيجة بيع المناصب الكنسية ، وفرض على أسقف ليوكاديا المعوز أن يكون مسئولا عن منحة قدرها مائة قطعة من الذهب .

كانت ثروة الولاية وحصيلة الايرادات تعتمد على انتاج التجارة والصناعة ، وكان انتاجا جيدا ووفيرا . ويمكن أن تتتبع معالم السياسة الكريمة فى قانون يعفى بحارة المورة وصناع الورق من الرق والثياب الأرجوانية ، من دفع ضريبة الرأس ، وهذا الامتياز يمكن أن يطبق أو أن يمتد من قبيل الانصاف الى صناع الكتان والصوف ولا سيما صناع الحرير . وقد ازدهرت صناعة الكتان والصوف فى بلاد اليونان منذ زمن هوميروس . أما الصناعة الأخيرة ، صناعة الحرير ، فقد ترجع الى عصر مبكر هو عصر جستنيان . وكانت هذه الفنون التى مارسها أهل كورنثه وطيبة وأرجوس موردا للرزق والعمل لعديد من الناس، من الرجال والنساء والأطفال الذين وزعوا تبعا لسنهم وقوتهم . وعلى حين كان كثيرون منهم عبيدا أرقاء لأفراد من الناس ، فان سادتهم الذين أداروا العمل وتمتعوا بالربح كانوا من طبقات حرة نبيلة . ومما لا ريب فيه أن الهدايا التى قدمتها سيدة غنية كريمة من المورة الى الامبراطور باسيليوس ، ابنها بالتبنى ، كانت من نسج اليونان . وقدمت دانيليس Danielis بساطا من الصوف الناعم حاكى فى رسمه نمط ذيل الطاووس المرقط . وكانت مساحته تكفى لفرش أرضية كنيسة جديدة ، شيدت تكريما « للآب والابن والروح القدس » ، وميكائيل رأس الملائكة والنبى اليشع ، كما قدمت

ستمائة قطعة من الحرير والتيل ذات فوائد وأوصاف مختلفة . وقد صبغت القطع الحريرية بصباغة مدينة صور كما زينت بأشغال الابرة . وقد بلغ التيل درجة من الدقة بحيث كان يمكن أن تطوى قطعة كاملة منه وتوضع فى جوف عصا . ويميز مؤرخ صقلى فى وصفه للمصنوعات اليونانية أثمانها تبعا لوزن الحرير وجودته ودقة نسيجه وجمال ألوانه ، وذوق تطريزه ومواده . وكان المألوف أن خيطا واحدا أو خيطا مزدوجا أو خيطا مثلثا كاف فى النسيج العادى ، ولكن اجتماع ستة خيوط يكون قطعة أمتن نسيجا وأغلى ثمنا . ومن بين الألوان يشيد المؤرخ متكلفا الفصاحة بوهج اللون القرمزى النارى أو بهاء الأخضر الرقيق . وقد طرز الوشى اما بالحرير أو الذهب . وامتازت الزخرفة الجميلة التى تحاكى الأزهار على زخرفة أكثر بساطة تتألف من خطوط ودوائر . وكثيرا ما تلألأت الملابس التى تصنع للقصر أو للمذبح بالأحجار الكريمة ، كما نظمت الصور والأشكال عليها فى عقود من لآلى الشرق . وكانت اليونان وحدها حتى القرن الثانى عشر من بين جميع الأقطار المسيحية فى أوربا ، تمتلك تلك الحشرة التى علمتها الطبيعة ، كما كان لديها أولئك الصناع الذين دربهم الفن على توفير أسباب هذا الترف الرشيق . ولكن هذا السر أخذه العرب تنيجة حذقهم وجدهم . وأنف خلفاء المشرق والمغرب أن يأخذوا من الكفار أثاثهم وثيابهم . ففى أسبانيا اشتهرت مدينتا ألميريا ولشبونة بصنع الحرير واستعماله وربما تصديره . وكان النورمان أول من أدخل الحرير فى صقلية . وهجرة التجارة هذه تميز انتصار روجر (ملك صقلية النورمانى) فى العزوف عن الأعمال العدوانية العادية

العقيمة فى كل عصر . وبعد نهب كورنثه وأثينا وطيبة أبحر نوابه بعدد من النساجين والصناع من كلا الجنسين ، وهـذا رمز للنصر يجلب المجد لصاحبه والثناء على الامبراطور اليونانى . وكان ملك صقلية يدرك قيمة هذه الهدية . وعند اعادة الأسرى استثنى فقط صـناع طيبة وكورنثه من الذكور والاناث الذين كانوا يعملون ، كما يقول المؤرخ البيزنطى ، تحت امرة سـيد متبربر ، شـأن الأرتريين الذين عملوا قديما فى خدمة دارا . وأقيم بناء فخم فى قصر بالرمو لهذه الجالية المجدة . وقام أبناؤهم وتلاميذهم بنشر هذا الفن اسـتجابة للطلب المتزايد فى العالم الغربى . ويمكن أن نرجع اضمحلال أنوال صقلية الى اضطرابات والى منافسة المدن الايطالية . وفى عام ١٣١٤ احتكرت لوكا Lucca وحدها ، من بين أخواتها من الجمهوريات ، هذه الصناعة المربحة وأدت ثورة داخلية الى تشتيت الصناع ، فنزحوا الى فلورنسة وبولونا والبندقية وميلان ، بل الى أقطـار تقع وراء جبال الألب . وبعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذا الحادث نصت قوانين مودينا على غرس شجر التوت وعلى تنظيم المكوس المقررة على الحرير الخام . ويلاحظ أن الأجزاء الشمالية أقل ملاءمة لتربية دودة القز . ولكن انتاج ايطاليا والصين أثرى صناعة فرنسا وانجلترا ، وزودها بكل ما تحتاج اليه من الحرير .

ولا مفر من تكرار الشكوى من أن المذكرات الهزيلة الغامضة التى كتبت فى ذلك الوقت لا تعطينا تقديرا جيـدا لضرائب الامبراطورية اليونانية ، ولا لايراداتها ولا لمواردها . فمن كل ولاية فى أوربا وآسيا صبت نهيرات من الذهب والفضة فى المستودع الامبراطورى فيضـا

موسميا وفيرا . وزاد فى عظمة القسطنطينية نسبيا انفصال الغصون من الجذع . وقصرت قواعد الطغيان الدولة على العاصمة ، والعاصمة على القصر ، والقصر على شخص الامبراطور . زار سائح يهودى فى القرن الثانى عشر المشرق ، وذهل اعجابا بالثراء البيزنطى . فيقول بنيامين من بلدة توديلا : « الى هنا ، الى عروس المدائن ، يؤتى سنويا بما يجبى من الامبراطورية اليونانية . فنرى القلاع العالية مليئة بالخزائن النفيسة من الحرير والثياب الأرجوانية والذهب . ويقال ان القسطنطينية قدمت كل يوم الى مليكها عشرين ألف قطعة من الذهب ، تجبى من الحوانيت والحانات والأسواق ، ومن التجار الذين يفدون من فارس ومصر ، ومن روسيا والمجر ، ومن ايطاليا وأسبانيا ، ليزوروا العاصمة بطريق البحر أو البر » . ويعتبر اليهودى بلا ريب حجة وثقة فى كل الأمور المالية . ولكن لما كانت الثلثمائة وخمسة وستون يوما تنتج ايرادا سنويا يزيد على سبعة ملايين من الجنيهات الانجليزية ، فان رغبة تراودنى ، على الأقل ، فى انقاص أيام الأعياد الكثيرة فى التقويم اليونانى . وتعطى ضخامة الكنز الذى ادخرته تيودورا وباسيليوس الثانى فكرة باهرة ، ولكنها غير محددة عن مواردهما ومصادرهما . وحاولت أم ميكائيل قبل أن تعتزل فى دير ، أن تحد أو تفضح اسراف ابنها العاق ببيان أمين عادل عن الثروة التى ورثها ، ومقدارها مائة ألف وتسعة آلاف رطل من الذهب وثلثمائة ألف رطل من الفضة ، وهى حصيلة حسن تدبيرها هى وزوجها الراحل . ولا يقل بخل باسيليوس عن شجاعته وحظه الحسن . فقد دفعت مرتبات جيوشه المظفرة ومكافآتها دون أن يمس كنز يقدر

بمائتى رطل من الذهب (حوالى ثمانيـــة ملايين من الجنيهـــات الاسترلينية) خبأه فى مقصــــورات تحت الأرض فى القصر . وتأبى السياسة الحربية علما وعملا مثل هذا الاكتناز للثروة . فنحن أكثر ميلا الى حساب الثروة القومية فى ضـــوء حسن استخدام الأموال العامة واساءة استخدامها . ولكن آراء القدامى لا يزال يعتصم بها ملك يرهب أعداؤه جانبه ، وجمهورية لها احترامها عند حلفائها . وقد بلغ كل منهما الغاية التى ينشـــدها من القوة الحربية والهدوء الداخلى .

القصر الامبراطورى

ومهما يكن من أمر الأشياء التى تحتاجها الدولة للاســـتهلاك فى الحاضر ، أو يحتفظ بها للاستعمال فى المستقبل ، فقد كان أول وأقدس مطلب هو توفير أبهة الامبراطور ولهوه . وحكمته وحدها هى التى تحدد مدى نفقاته الشخصية . وكان أمراء القسطنطينية بعيدين كل البعد عن البساطة الطبيعية ، غير أنه ، مع كر الفصول ، حفزهم حسن الذوق أو طراز العصر الى الالتجاء الى جو أنقى من دخان العاصمة وصخبها . فقد تمتعوا حقا ، أو تظاهروا بالتمتع ، بعيد قطاف العنب فى الريف . وأثلج صدورهم فى وقت فراغهم رياضة القنص ، وقطعوا وقتهم فى صيد السمك ، وهو أكثر هدوءا ، وحمتهم الظلال من الشمس فى قيظ الصيف ، وأنعشهم النسيم العليل الذى يهب من البحر . وغطت دورهم الريفية الفخمة الشـــواطىء والجزر فى أوربا وآسيا . وبدلا من ذلك الفن الذى يعمل فى استحياء ويجاهد سرا فى

أن يخفى نفسه ، ويزوق المناظر الطبيعية ، عملت الأبنية الرخاميـــة فى حدائقهم على عرض ثروة الأمير وجهد المهندس . وقد جعلت صروف الثورات والمصادرات المتتالية من الامبراطور مالكا لعدد كبير من الدور الفخمة فى العاصمة وضواحيها . وقد خصصت اثنتا عشرة منها لوزراء الدولة . أما القصر الكبير ، المقر الرئيسى للامبراطور ، فقد ثبت فى مكانه نفسه أحد عشر قرنا بين حلبة السباق وكنيسة أيا صوفيا والحدائق التى تدرجت شرفاتها العديدة هابطة الى شـــواطىء بحر مرمرة . كان البناء القديم الذى شيده قسطنطين الأول نموذجا لقصور رومه أو منافسا لها ، ولكن التحسينات التى أدخلها تدريجا خلفاؤه ، تطلعت الى أن تنافس عجائب العالم القديم . وفى القرن العاشر أثار القصر البيزنطى اعجـاب اللاتين على الأقـل ، وذلك بتفوقه الذى لا ريب فيه فى المتانة والحجم والعظمة . ولكن جهود مثل هذا العدد الكبير من السنين وكنوزها قد أنتجت كومة شاسعة غير منتظمة . وقد تميز كل بناء على حدة بطابع زمانه ومؤسسه . وقد يبرر ضيق المكان فى وقت ما أن يهدم الامبراطور ــ وربما كان يخفى رضاه ــ ما شيد أسلافه . وقد سمح اقتصاد الامبراطور ثيوفيلوس بمجال أكثر حرية وسعة فى الترف والبهاء الداخلى . وقدم سفير مقرب ، وكان قد أدهش العباسيين بكبريائه وكرمه ، قدم بعد عودته ، نموذجا لقصر كان خليفة بغداد قد شيده حديثا على شواطىء الدجلة . فحوكى النموذج فى التو وزيد عليه . وأضيفت الى مبانى ثيوفيلوس الجديدة بعض الحدائق وخمس كنائس . وقد امتازت احدى هذه الكنائس بحجمها وجمالها ، وكان يعلوها ثلاث قباب ، وارتفع السقف ، وهو من نحاس

مذهب ، على أعمدة من الرخام الايطالى ، ورصعت الجدران برخام مختلف الألوان . ويواجه هذه الكنيسة رواق نصف دائرى على هيئة حرف السين اليونانى ويحمل اسمه . ويقوم على خمسة عشر عمودا من رخام فريجيا . وشيدت الأقبية تحت الأرض على النسق نفسه . وزين الميدان أمام الرواق بنافورة ، وازدان الحوض من جميع جوانبه بصحائف الفضة . وفى أول كل فصل امتلأ الحوض لا بالماء ، وانما بأجمل الفواكه التى تركت للجماهير لادخال السرور على قلب الأمير . وقد تمتع بهذا المنظر الصاخب من فوق عرش تلألأ بالذهب والجواهر، رفعه درج من الرخام الى مستوى شرفة عالية . وجلس تحت العرش الضباط والحرس والحكام وزعماء فرق السيرك . أما الدرجات الدنيا من السلم فقد احتلها الشعب ، واحتشد فى أسفل السلم أعداد غفيرة من الراقصين والمغنين والممثلين الايمائيين . وأحاطت بالميدان دار العدالة والترسانة وأماكن العمل واللهو المختلفة . وسميت الغرفة الأرجوانية بهذا الاسم لأن الامبراطورة نفسها كانت توزع فيها كل عام بيدها ، العباءات القرمزية والأرجوانية . وحوى القصر عددا كبيرا من الأجنحة توائم الفصول المختلفة ، وازدانت بالرخام السماقى والرسوم وأعمال النحت والفسيفساء مع اسراف فى الذهب والفضة والأحجار الثمينة . واستغل الامبراطور فى بلوغ مستوى الفخامة التى تخيلها ، مهارة من جاد به عصره من فنانين ومن صبرهم. ولكن كان الذوق الآثينى لابد أن يزدرى هذه الجهود التافهة الكبيرة النفقة ، من ذلك شجرة من الذهب تظل أغصانها وأوراقها سربا كبيرا من الطير تغرد أنغاما مصطنعة ، وأسدان من الذهب الخالص الطبيعى يحملقان ويزأران كما يفعل أقرانهما فى الغابة . ولم يكن خلفاء ثيوفليوس من أباطرة الأسرتين

البازيلية والكومنينية أقل شوقا الى تخليد ذكرى اقامتهم فى هذا القصر . وقد شرف أعظم أجزاء القصر فخامة وبهاء باسم « المائدة الذهبية » وتاق أثرياء اليونان ونبلاؤها فى تواضع يليق بهم الى محاكاة مليكهم ، فكانوا اذا مروا بالطرقات فى ثيـابهم الحـريرية المزركشة ممتطين جيادهم أخطأهم الأطفال فظنوهم ملوكا . وثمة سيدة من الموره كانت تعتز بذكريات طفولة باسيليوس المقدونى ، وحفزها حنانها ، أو غرورها الى أن ترى عظمة ابنها بالتبنى ، وقد آبى عليها سنها أو كسلها تحمل متاعب ركوب الخيل أو العربات فى قطع خمسمائة ميل من باتراس الى القسطنطينية . فكان هودج دانيليس ، أو محفتها الناعمة ، محمولة على أكتاف عشرة من العبيد الأشداء ، ولما كان استبدالهم يتم على مسافات قصيرة ، فقد وقع الاختيار على فرقة مكونة من ثلثمائة من الرقيق للقيام بهذا العمل . وقد استقبلت فى القصر البيزنطى بما يليق بجلال البنوة وكرامة الملكة . ومهما تكن مصادر ثرائها ، فان هداياها كانت تليق بمقام المليك . وقد وصفنا فيما سبق مصـــنوعات الموره الدقيقة العجيبـة من الكتـــان والحـرير والصوف . وكانت هدينها التى لاقت أعظم قبول تتألف من ثلثمائة شاب وسيم منهم مائة من الخصيان . ويقول المؤرخ : «لأنها لم تكن تجهل أن هواء القصر يلائم أمثال تلك الحشرات أكثر من ملاءمة ملبنة الراعى لذباب الصيف » . وطوال حياتها وهبت ليو ، ابن باسيليوس ، معظم ضياعها فى الموره ، كما اختارته فى وصيتها وريثا وحيدا لها . وبعد تنفيذ وصاياها ضمت الى ممتلكات الامبراطور ثمانون فيللا أو مزرعة وأعتق السيد الجـــديد ثلاثة آلاف من رقيق دانيليس ونقلهم الى ساحل ايطاليا لانشاء مستعمرة منهم هناك . ومن ثراء هذه السيدة العادية

يمكن أن نقدر ثروة الأباطرة وجلالهم . ولكن استمتاعنا محصور فى دائرة ضيقة . ومهما تكن قيمة ترف الحياة ، فان الفرد المطلق التصرف فى ثروته يستطيع أن ينعم بهذا الترف نعيما أكثر براءة وأمنا ، مما يفعل الأمين على الأموال العامة .

وفى ظل الحكم المطلق الذى يسوى بين امتيازات الرفيع والوضيع ، يكون الملك هو المنبع الوحيد للشرف . ويتوقف مركز الفرد فى القصر وفى الامبراطورية على الألقاب والمناصب التى يمنحها أو يسلبها الملك بارادته المطلقة . وكان « قيصر » ، طوال ألف سنة من عصر فسبازيان الى زمن الكسيوس كومنينوس ، هو الشخص الثانى ، أو على الأقل فى الدرجة الثانية ، بعد أن أضفى ، فى حرية أوسع ، لقب أوغسطس ، وهو أسمى الألقاب ، على أبناء الملك الذى يتربع فى دست الحكم وعلى اخوته . ولكى يراوغ ، دون أن ينكث عهدا قطعه على نفسه مع حليف قوى ، هو زوج أخته ، ولكى يكافىء ورع أخيه اسحق دون أن يخلق لنفسه ندا ، أدخل ألكسيوس الماكر منصبا جديدا عاليا . وقد مكنته المرونة السعيدة للغة اليونانية من أن يؤلف بين اسمى أوغسطس الامبراطور (Sebastos and Autocrator) وأخرج مزجهما اللقب الرنان : سيباستوكراتور Sebastocrator وبهذا اللقب سما فوق مرتبة « قيصر » درجة واحدة من درجات العرش : ورددت الابتهاجات العامة اسمه ، ولم يميزه عن « الملك » غير بعض الزخارف الغريبة التى تزين الرأس والقدمين ، فكان الامبراطور وحده ، هو صاحب الحق فى ارتداء الحذاء المرتفع ذى اللون الأرجوانى أو الأحمر ، والتاج المحبوك على طراز ملوك فارس . وهو قلنسوة عالية على شكل هرم من القماش

أو الحرير تكاد تختفى تحت عدد كبير من اللآلىء والجواهر . ويتكون التاج من دائرة أفقية يعلوها قوسان من الذهب ، وفى القمة أى فى نقطة تقاطعهما ، كرة أو صليب . كما يتدلى منها خيطان أو هدبان من اللؤلؤ على كلا الخدين . وبدلا من اللون الأحمر ، كان لون الحذاء المرتفع الذى يلبسه « السيباستوكراتور » أخضر . ووزعت الجواهر الثمنية باقتصاد أكبر على أكاليلهم المفتوحة أو تيجانهم . والى جانب « القيصر ، وفى مرتبة أقل منه ابتدع خيال ألكسيوس Protosebastos و Panhypersebastos مما قد يرضى الأذن اليونانية مغزاهما وجرسهما». وهما ينطويان على سمو وأفضلية على اسم « أوغسطس » البسيط . فانحط ، بذلك أول لقب مقدس حمله أمير رومانى ،ليخلع على الأقارب والخدم فى البلاط البيزنطى . وتمتدح ابنة « ألكسيوس » فى سرور وحنان هذا التدرج الماهر فى مراتب الطموح والمجد ، ولكن المهارة فى خلق الألفاظ شىء مستطاع لأحقر القدرات ، وقد أثرى بسهولة هذا المعجم الأجوف بسبب كبرياء خلفائه . فمنحوا ذوى الحظوة من أبنائهم وأخوتهم لقبا أكثر سموا ، هو لورد أو المستبد (Despot) وميز حامله بشعارات جديدة وامتيازات جديدة ، وجاء ترتيبه مباشرة بعد شخص الامبراطور نفسه . وهذه الألقاب الخمسة وهى (١) دسپوت (٢) سيبا ستوكراتور ، و (٣) قيصر و (٤) بانهيپر سيباستوس، و (٥) بروتوسيباستوس ، اقتصرت عادة على أقارب الأباطرة من جهة الدم ، بوصفهم منبثقين من صاحب الجلالة . ولكن لما كانوا لا يقومون باداء أى عمل منتظم ، فقد كان وجودهم عبثا ونفوذهم مزعزعا .

ولكن فى كل مملكة يجب أن يتقاسم وزراء القصر والخزانة والجيش

والأسطول سلطات الحكومة الأساسية وأن يضطلعوا بأعبائها . ومن الممكن أن يوجد اختلاف فى الألقاب وحدها ، وعلى كر العصور انحط أصحاب ألقاب Count و Prefect و Praetor و Quaestor دون أن يشعر أحد وسما خدمهم فوق رءوسهم الى أعلى مراتب الشرف فى الدولة .

١ ـ ففى مملكة يكون الأمير فيها هو كل شىء تعتبر ادارة شئون القصر ومراسمه أكثر الادارات اعتبارا . فالكوروبالاتا **Curopalata** الذى اشتهر فى عصر جستنيان حل محله بروتوفستياری **Protovestiare** وكانت وظيفته مقصورة أولا على حفظ ثياب الامبراطور . ومن هنا امتد نفوذه على عدد من خدم الأبهة والترف . وكانت له الصدارة وهو ممسك بصولجانه الفضى فى المقابلات الخاصة والعامة .

٢ ـ فى النظام القديم الذى وضعه قسطنطين كان لقب **Logothete** أو المحاسب يطلق على من يتسلم الأموال . وكان كبار الموظفين يسمون « لوجوثيتى » الأملاك ، والبريد ، والجيش ، والخزانة الخاصة والعامة ، ويشبه اللوجوثيتى العظيم ، وهو الحارس الأعلى للقوانين والايرادات ووزير الخزانة Chancellor فى الممالك اللاتينية.وكانت عينه اليقظه تراقب الادارة المدنية . وكان يعاونه ، مع الخضوع لسلطانه ، الابارخ Eparch أو محافظ المدينة ، والأمين الأول ، وحاملو الختم الخاص ، والسجلات ، وحامل الحبر الأرجوانى أو الأحمر ، الذى كان مخصصا للتوقيع المقدس ، توقيع الامبراطور وحده . وكان يطلق على من يقدم السفراء الأجانب ويترجم لهم ، لقب القواص العظيم Chiauss والترجمان Dragoman ،وهما لفظان من أصل تركى وما زالا من الألفاظ المألوفة فى الباب العالى .

٣ ـــ ومن سلك الخدمة المتواضـــعة فى الحرس ارتقى الخـــدم أو الحجاب « Domestics » ، دون أن يحسوا ، الى مراتب القواد ، وكثيرا ما كانت الولايات الحربية فى الشرق والغرب وكتائب أوربا منقسمة بعضها على بعض ، حتى أسندت فى النهاية الى الحاجب الأعظم قيادة القوات البرية قيـــادة عامة مطلقة . وكان على البروتوستراتور Protostrator بحكم مهامه الأصلية أن يساعد الامبراطور عندما يمتطى جـــواده ، ثم أصبح يوما بعـــد يوم نائب « الحاجب الأعظم » فى الميدان ، ثم امتد سلطانه حتى شمل الاصطبلات والخيالة وحاشـــية الملك التى ترافقه للقنص أو الصيد بالباز . وكان الستراتوبيدارخ Stratopedarch هو كبير قضـــــاة المعســـــكر ، وكان البروثوسپاتيرى Protospathaire يرأس الحرس ، وكان الكونســـتابل والأيتريارخ العظيم Aeteriarch والاكوليت Acolyth على الترتيب هم رؤساء الفرنجة والبرابرة والفارانجى أو الأنجليز ، أعنى المرتزقة الأجانب الذى كونوا بعد انهيار الروح القومية عصب الجيوش البيزنطية .

٤ ـــ كانت القوات البحرية تحت قيادة الدوق العظيم ، وفى أثناء غيابه كانت القوات تحت امرة نائبه العظيم Drungaire . واذا غاب حل محله الأمير أو الاميرال وهو اسم من أصل عربى ، ولكنه دخل فى جميع اللغات الأوربية الحديثة . ومن هؤلاء ومن كثيرين غيرهم ـــ من العبث احصـــاؤهم ـــ تكونت طوائف الموظفـــين المدنيين والعسكريين . وقد أنفق فى تحديد مراتبهم ومرتباتهم ، وأزيائهم ، وألقابهم والتحيات المتبادلة فيما بينهم ، وأسبقية كل منهم ، جهـــد دقيق أكثر مما ينفق فى دعم دستور أمة حرة . وكاد هذا النظام أن

يصل الى ذروة الكمال ، عندما دفن الى الأبد هـذا البنـاء الذى لا أساس له ، هذا الأثر من آثار الكبرياء والعبودية تحت أطـلال الامبراطورية .

ان خشيتنا من أناس لا يختلفون عنا فى طبيعتهم البشرية وتملقنا اياهم ، تقول ان هذا التملق وتلك الخشية قد دنستا واتهكتا حرمة أسمى الألقاب وأكثر الوقفات وداعة وتواضعا وخشوعا ، مما لا يجيزه التقى والورع الا لمقام الله سبحانه وتعالى . وقد نقل دقلديانوس عن العبودية الفارسية طريقة السجود على الأرض وتقبيـل أقدام الامبراطور . واستمرت وتضخمت حتى آخر عصور الملكية اليونانية. وباستثناء أيام الآحاد ، التى أبطلت فيها هذه المراسم لأسباب دينية ، فرض هذا الأسلوب المهين من التحية على جميع من يدخل الى الحضرة الملكية من أمراء يلبسون التيجان والحلل الأرجوانية ، وسفراء يمثلون ملوكا مستقلين ، مثل خلفاء آسيا ومصر وأسبانيا وملوك فرنسـا وايطاليا وأباطرة رومه القديمة من اللاتين . وقد أظهر ليوتبراند أسقف كريسونا فيما قام به من أعمال ، روح الفرنجة الحرة ، وحافظ على مقام سيده أوتو . ولكن اخلاصه لا يستطيع أن يخفى المذلة التى لحقته فى أول مرة مثل فيها بين يدى الامبراطور . فعندما اقترب من العرش أخذت طيور الشجرة الذهبية تصدح بأنغامها ، وصاحبهـا زئير الأسدين المصنوعين من الذهب . وأجبر ليوتبراند واثنان معه على الانحناء والسجود ، ومس الأرض بجبهته ثلاث مرات ، ثم نهض واقفا . وفى هذه الفترة القصيرة رفعت آلة العـرش من الأرض الى السقف ، وظهر الامبراطور فى حلة جديدة أعظم بهـاء ، تحف به

الكبرياء والجلال ، وانتهت المقابلة فى صمت . وفى هذه القصة الأمينة الغريبة يصف أسقف كريمونا مراسم البلاط البيزنطى : ولا تزال باقية فى الباب العالى . وقد حافظ عليها فى القرن الماضى أدواق موسكو أو روسيا . وبعد سفر طويل بالبر والبحر من البندقية الى القسطنطينية ، وقف السفير أمام الباب الذهبى حتى اقتاده الضباط المخصصون لذلك الى قصر الضيافة الذى أعد لاستقباله . ولكن هذا القصر كان سجنا . وقد منع حراسه الغيورون كل اتصال اجتماعى بينه وبين الأجانب أو الأهالى على السواء . وفى أول مقابلة قدم هدايا سيده ، وكانت تتألف من عبيد وأوان من ذهب وأسلحة ثمينة . وبدا لعينيه ، وهو يرى المرتبات العالية التى تدفع للضباط والجنود مبلغ ثراء الامبراطورية . وقد دعى الى وليمة ملكية حضرها سفراء الأمم ، واتخذ كل منهم مكانه تبعا لاحترام اليونانيين له أو احتقارهم اياه . وبعث الامبراطور من مائدته الخاصة ، كعلامة بينة على الرضا ؛ بصحاف خاصة كان قد تذوقها . ومنح المقربين منه عند انصرافهم أثوابا تكريما لهم . وفى كل صباح ومساء قام خدمه من المدنيين والعسكريين بواجبهم . وكانت مكافآتهم على جهودهم هى رؤية مولاهم ، وقد يحظون بابتسامة منه . وكان يعطى أوامره بايماءة أو باشارة . ولكن كل عظمة على ظهر الأرض كانت تقف صامتة خاشعة فى حضرته . وفى مواكبه العادية أو غير العادية التى تخترق العاصمة ، يسمح للعامة برؤية شخصه وارتبطت مراسم السياسة بطقوس الديانة . ونظمت أعياد التقويم اليونانى زياراته لأهم الكنائس . وفى تلك الأمسيات التى تسبق هذه المواكب أعلن البشير الرغبة الملكية الكريمة أو الورعة،

ومن ثم أخليت الطرقات وطهرت ، ونثرت الأزهار على الأرصـــفة ، وعرض أثمن الأثاث وصحاف الذهب والفضة والأسجاف الحريرية على النوافذ والشرفات ، وصمتت الألسنة بعد أن قضى النظام الصارم على صخب الشعب . وبدأ السير بتحرك الضباط العسكريين على رأس جنودهم يتبعهم فى خط طويل القضاة ووزراء الحكومة المدنية . وقام على حراسة شخص الامبراطور خصـــيانه وخدمه . وعند باب الكنيسة يتلقاه البطريق وقساوسته بكل تبجيل . ولم تترك الهتافات دون تنظيم لأصوات الجماهير الخشنة التى تنطلق تلقائيا . وخصصت أحسن الأماكن لوقوف فرق من طوائف السيرك الرمادية والخضراء وسكنت منازعاتهم الحامية التى كانت تهز العاصمة ، دون أن يشعر أحد ، وتحولت الى تنافس فى العبودية . ومن كلا الجانبين تردد فى نغمات متجاوبة مديح الامبراطور . ووجه شعراؤهم وموسيقيوهم جوقاتهم . وكان موضـــوع كل أغنيه الدعاء بالنصر وطول العمـــر للامبراطور . وترددت هـــذه الهتافات عينها فى المقـــابلات والولائم والكنائس . وكدليل على السلطان الذى لاحد له كررت باللغـــات اللاتينية والقوطية والفارسية والفرنسية ، وحتى بالانجليزية ، على ألسنة المرتزقة الذين مثلوا تلك الأمم حقيقة أو تصنعا . وقد جمع قلم قسطنطين بورفيرو جينتيوس هذا العلم ، علم المراسم والملق ، فى مجلد ضخم تافه . وأجاز غرور الأزمنة التالية اضافة ملحق واف له . ومع ذلك كان يستطيع أى أمير فى تأملاته الهادئة أن يتذكر أن هذه الهتافات قد وجهت الى كل شخص وكل حكم . واذا كان قد ارتقى من بين الصفوف الدنيا ، فقد يتذكر أن صوته كان أعلى الأصوات وأكثرها

حماسة فى اللحظة نفسهـا التى كان يحقد فيهـا على سلفه أو يتآمر على حيـاته .

يقول قسطنطين ان أمراء الشمال من الأمم التى لم تحظ بايمان أو مجد ، كانوا يتوقون الى خلط دمائهم بدم القياصرة بالزواج من عذراء من الأسرة المالكة ، أو بزواج بناتهم من أمير رومانى . ويكشف هذا الملك الهرم فى نصـائحه لابنه عن أسرار السياسة والكبـرياء ، ويشير الى أفضل الأسباب التى تبرر فى لباقة رفض هذه المطالب التى تجاوزت حد المعقول والمألوف . يقول هذا الملك الرزين ان كل حيوان تحفزه طبيعته الى أن يبحث عن قرينه من بين الحيوانات التى تنتسب لفصيلته . وقد وزعت الاجنـاس البشرية فى قبائل مختلفة باختلاف اللغة والدين والعادات . فالنظرة اللائقة الى نقاء السلالة تحفظ الانسجام فى الحياة العامة والخاصة . أما اختلاط الدم الأجنبى فهو مصدر النزاع والشقاق . وبهذا وأمثاله اهتدت على الدوام آراء الرومان العقـلاء وطبقوها فى سلوكهم . فحرم فقهاؤهم الزواج بين المواطنين والأجانب . وفى الأزمنة التى اتسمت بالحرية والفضيلة ، كان عضو مجلس الشيوخ يحتقر أن يزوج ابنته من أحد الملوك . وقـد دنس مجـد ماركوس أنطونيوس بزواجه من مصرية . واضـطر الامبراطور تيتوس تحت تأثير لوم الشعب أن يطرد بيرينيكى رغم انفه وأنفها [1] . وقد قوى من هذا التحريم الدائم موافقة قسطنطين العظيم

---

(١) سويتونيوس ، سـيرة تيتوس ، الفصـل السابع ، تخلى عن بيرنيكى Berenice مرغما وهى مرغمة . هل أشرت فيما سبق الى أن هذه اليهودية الجميلة كانت فى ذلك الوقت قد بلغت من العمر أكثر من خمسين سنة ؟ وقد كان حكيما من راسين أنه أغفل ذكر سنها ووطنها .

الخرافية . وقد وجه تحذير خطير لسفراء الأمم ولاسيما أمم الكفار أن مثل هذا الزواج الغريب قد حرمه مؤسس الكنيسة والمدينة . وقد نقش هذا القانون الخالد على مذبح أياصوفيا . وتقرر أن يحرم الأمير الملحد الذى قد يدنس جلال الرداء الأرجوانى من حقوق الرومان المدنية والكنسية . ولو أن اخوة زائفين لقنوا السفراء شيئا من التاريخ البيزنطى ، لأمكنهم أن يشيروا الى ثلاثة أمثلة جديرة بالذكر خولف فيها هذا القانون الذى لا وجود له الا فى الخيال ، وهذه الحالات الثلاث هى : زواج ليو أو بالأخرى أبيه قسطنطين الرابع من ابنة ملك الخزاريين Chazars ، وزواج حفيدة رومانوس بأمير البلغار ، وزواج بيرتا ، وهى أميرة فرنسية أو ايطالية من رومانوس الشاب وهو ابن قسطنطين بورفيروجينتوس نفسه .

نسيان اللغة اللاتينية

أصدر كراكلا مرسومه المشهور ، الذى خول رعاياه من بريطانيا الى مصر ، الحق فى حمل اسم الرومان والتمتع بامتيازاتهم ، ونص فيه على أن مليك الشعب يجوز أن يتخذ مقره الدائم أو المؤقت فى أية ولاية من الوطن المشترك . وعند قسمة الامبراطورية الى شرقية وغربية احتفظ فى شىء من الارتياب بوحدة مثالية ، ففى ألقابهم وقوانينهم ودساتيرهم أعلن خلفاء أركاديوس وهونوريوس أنهم زملاء فى المرتبة نفسها لا يفصل بينهم شىء ، وأنهم حكام مشتركون على العالم الرومانى كله ، وكذا على مدينة رومه ، اللتين تحدهما القيود نفسها . وبعد سقوط المملكة الغربية، استقرت مهابة الحلة الأرجوانية فى

أمراء القسطنطينية وحدهم . ومن بين هؤلاء ، وبعد فرقة دامت ستين سنة ، كان جستنيان أول من استعاد سلطانه على رومه القديمة ، وأكد بحق الفتح لقبه المقدس الا وهو امبراطور الرومان . وقد حفز الغرور أو السخط أحد خلفائه وهو كونستانز الثانى الى أن يهجر البسفور التراقى ، وأن يعيد الى التيبر مجده القديم . ويقول مؤرخ بيزنطى فى خبث : أنها لمغامرة جريئة مسرفة ، فكأنه قد سلب عذراء جميلة ناضرة ليضفى بهاء ورواء على قبح عجوز شمطاء أو بالأحرى ليفضحه. ولكن اللومبارديين شهروا سيوفهم فى وجهه وحالوا دون استقراره فى ايطاليا ، فدخل رومه ، لا منتصرا ، بل لاجئا . وبعد زيارة قصيرة امتدت اثنى عشر يوما نهب عاصمة العالم القديم وهجرها الى الأبد .
وقد اشتعلت الثورة فى ايطاليا وتم انفصالها نهائيا بعد قرنين تقريبا من فتح جستنيان ، الذى يمكننا أن نرجح نسيان اللغة اللاتينة بالتدريج الى زمانه . فهذا المشرع وضع كتابه المسمى « بالمبادىء » وقانونه وتعليقاته بلغة شاد بها على أنها اللغة الحقيقية والعامة للحكومة الرومانية ، اللغة المقدسة للقيصر والسناتو فى القسطنطينية لغة المعسكرات ودور القضاء في الشرق . ولكن هذه اللهجة الغريبة كان يجهلها أهل الولايات الأسيوية وجنودها ، ولم يكن يجيد فهمها أكثر شراح القانون ووزراء الدولة . وبعد نزاع قصير تغلبت الطبيعة والعادة على النظم التى فرضها البشر . وحرصا على نفع رعاياه ، نشر جستنيان مؤلفاته باللغتين اللاتينية واليونانية وترجمت على التوالى أجزاء كثيرة من فقهه . ثم نسى الناس الأصول ودرسوا الترجمة ، وحظيت اللغة اليونانية التى تستحق الصدارة لميزاتها

الأصيلة بمركز قانونى وشعبى فى المملكة البيزنطية . وقد باعد مولد الأمراء الذين جاءوا بعد ذلك ومقارهم ، بينهم وبين اللاتينية . وقد اعتبر العرب تيبريوس ، واعتبر الايطاليون موريس ، أول القياصرة اليونانيين ، وأنهما أسسا أسرة جديدة وامبراطورية جديدة . وقد تمت هذه الثورة الصامتة قبل موت هرقل . غير أنه تخلفت بقايا من اللغة اللاتينية فى مصطلحات الفقه وفى مراسم القصر . وبعد أن استعاد شارلمان وآل أوتو الامبراطورية الغربية اكتسبت لفظتا « فرنجة » ، « ولاتين » دلالة واحدة ، وأطلقتا على نفس الرقعة من الأرض ، وأكد هؤلاء المتبربرون المتغطرسون — وقد يكون لهم بعض الحق — دعواهم العريضة فى أنهم أصحاب لغة رومه وممتلكاتها . لقد عابوا على أجانب المشرق أنهم خلعوا عنهم لباس الرومان ولغتهم . ويبرر هذا التصرف المعقول كثرة اطلاق اسم « انيونانيين » عليهم . ولكن هذا الاسم الشائن رفضه الأمير والشعب الذى سمى به . ومهما كانت التغييرات التى أتى بها مر القرون ، فقد تمسك أباطرة المشرق بانحدارهم من أوغسطس وقسطنطين ، وادعوا أن الملك فيهم لم ينقطع . وفى أحط فتره من فترات الانهيار بقى اسم « الرومان » لصيقا ببقايا الامبراطورية الشرقية .

وبينما كانت اللاتينية هى لغة الادارة فى حكومة المشرق ، كانت اليونانية لغة الفلسفة والأدب . ولم يكن فى الامكان اغراء أصحاب هذه اللغه الفنية الجميلة بالحقد على علم مستعار منهم أو على ذوق تلاميذهم الرومان الذى جاء نتيجة التقليد والمحاكاة . وبعد اندثار الوثنية وضياع سوريا ومصر ، وفناء مدارس الاسكندرية وأثينا ، تسللت الدراسات اليونانية الى بعض الأديرة ، وفوق كل شىء الى

الكلية الملكية بالقسطنطينية ، التى أحرقت فى زمن ليو الأيسورى .
وكان رئيس هذه المدرسة يسمى بالأسلوب الأجوف الذى ساد فى ذلك العصر « شمس العلوم » وكان زملاؤه الاثناعشر ، وهم أساتذة العلوم فى الكليات المختلفة ، يطلق عليهم أسماء البروج الاثنى عشر . وكانت المكتبة ، وهى تحوى ستة وثلاثين ألفا وخمسمائة مجلد ، مفتحة الأبواب لأبحاثهم ، وكانوا يستطيعون أن يطلعوا الزائر على مخطوط قديم لهوميروس ، على بكرة من الرق طولها مائة وعشرون قدما . وقيل انها أمعاء ثعبان ضخم . ولكن القرنين السـابع والثامن كانا فترة نزاع وظلام ، فأحرقت المكتبة وأغلقت الكلية ، ودمغ محطمو الأيقونات بأنهم أعداء الحضارة القديمة . وقد حط من قدر أمراء الأسرتين الهرقلية والأيسورية جهلهم الشائن بالآداب واحتقارهم لها .

إحياء العلوم اليونانية

نستطيع أن نتتبع فى القرن التاسع أول خيوط لفجر احياء العلوم . فبعد أن هدأت حدة التعصب عند العرب ، تطلع خلفاء المسلمين الى غزو فنون الامبراطورية ، لا ولاياتها . وأشعل تلهفهم الشديد على الاطلاع روح المنافسة فى الاغريق من جديد ، ونفض الغبار عن مكتباتهم القديمة ، وعلمهم كيف يقدرون ويكافئون الفلاسـفة الذين كانت جهودهم الى تلك اللحظة لا تلقى من جزاء غير لذة الدرس وبذل الجهد فى طلب الحقيقة . وكان قيصر بارداس ، عم الامبراطور ميخائيل الثالث، حاميا كريما للآداب . وهذا هو اللقب الوحيد الذى خلد ذكراه وغفر له طموحه . ولقد تحول فى بعض الأحيان جزء ضئيل جدا من خزائن ابن أخيه عن خدمة الرذيلة والطيش . وفتحت مدرسة فى قصر ماجنورا

Magnaura . وألهب وجود بارداس نفسه حمية المدرسين والطلبة . وكان على رأسهم الفيلسوف ليو ، رئيس أساقفة سالونيكا . وكانت براعته الهائلة فى الفلك والرياضيات موضع اعجاب الأجانب الوافدين من الشرق . وزاد من قيمة هذا العلم الذى تكتنفه الأسرار ، سذاجة العامة وسرعة تصديقهم ، حيث يذهب بهم الظن فى تواضع الى أن كل علم ارتفع عن مستوى علمهم لابد أن يكون الهاما أو سحرا ، وتحت الحاح الامبراطور وتوسلاته هجر صديقه فوتيوس المشهور حرية الحياة المدنية ، حياة الجد والدرس ، واعتلى كرسى البطريق ، ولكنه طرد من حظيرة الكنيسة ، ثم رد اليه اعتباره فى مجامع الشرق والغرب . وباعتراف الأعداء من القساوسة ، أنفسهم ، لم يكن أى فن أو علم ، خلا قرض الشعر ، غريبا على هذا الباحث الذى أحاط بكل شىء علما. وكان عميقا فى تفكيره لا يمل القراءة ، فصيحا فى خطابته وفى أسلوبه. وبينما كان فوتيوس يشغل وظيفة بروتوسباثير، أعنى قائد الحرس، أرسل سفيرا الى خليفة بغداد ، فكانت تسليته فى الساعات المملة التى قضاها فى المنفى ، أو قل فى هذا الحبس ، هى أن يؤلف بطريقة سريعة كتابه « المكتبة » ، « وهو أثر خالد لسعة الاطلاع والنقد ، استعرض فيه مائتين وثمانين من الكتاب والمؤرخين والخطباء والفلاسفة وعلماء اللاهوت ، دون أى نهج منظم . وهو يختصر كتاباتهم أو نظرياتهم ويقيم أساليبهم وشخصياتهم ويصدر حكمه ، حتى على آباء الكنيسة ، فى حرية مهذبة كثيرا ما تتخطى حدود الخرافة أو العقيدة فى تلك الأيام . وقد عهد اليه الامبراطور باسيليوس الذى كان يندب قصور تعليمه ، بتربية ابنه وخليفته ليو الفيلسوف . وكان حكم هذا الأمير وحكم ابنه قسطنطين بورفيروجنيتوس من بعده ، من أفضل الفترات

فى تاريخ الأدب البيزنطى ، وبفضل سخائهما أودعت كنوز العصور القديمة فى المكتبة الامبراطورية ، وبفضل أقلامهما أو أقلام أنصارهما، نشرت هذه الكنوز فى مقتطفات ومختصرات يمكن أن تشبع حب الجمهور للاطلاع ، دون أن تكدر راحته أو خموله وفضلا عن مجموعة القوانين Basilics ، نشرت بالقدر نفسه من الجد مؤلفات فى الزراعة والحرب ، وفى فن تغذية الجنس البشرى وفن اهلاكه ، واختصر تاريخ رومه وبلاد اليونان فى ثلاثة وخمسين فصلا أو عنوانا لم ينج منها من عوادى الدهر سوى اثنين فقط ، (عن السفارات وعن الفضائل والرذائل) . ويستطيع القراء من كل الطبقات أن يتأملوا صور العالم القديم ، وأن يطبقوا المواعظ أو التحذيرات الواردة فى كل صحيفة ، وأن يتعلموا كيف يعجبون ، أو ربما يقلدون ، نماذج عصور أكثر اشراقا . ولست أريد الافاضة فى الحديث عن مؤلفات اليونانيين فى العصر البيزنطى ، أولئك الذين استحقوا الى حد ما ، بانكبابهم على دراسة القدامى ، أن يذكرهم المحدثون وأن يعرفوا لهم فضلهم وجميلهم . ومن الممكن أن يستمتع الباحثون فى عصرنا هذا بالفائدة التى يجنيها المرء من كتاب ستوبايوس Stobaeus وهو كتاب عادى فى الفلسفة ، ومن معجم سويداس Suielos النحوى والتاريخى ، ومن ألفيات تزتزيس Tzetzes التى تحوى ستمائة قصة تتألف من اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، ومن تعليقات يوستاثيوس Eustathlus رئيس أساقفة سالونيكا على هوميروس . وأخرج لنا يوستاثيوس هذا ، بفضل غزارة علمه وسعة اطلاعه ، أسماء أربعمائة

كاتب ومراجعهم . ومن هؤلاء الأصلاء ومن ذاك العدد الوفير من الشراح والنقاد يمكن أن نكون فكرة عن قيمة الثروة الأدبية التى وجدت فى القرن الثانى عشر . فقد كانت القسطنطينية تزدان بعبقرية هوميروس وديموستين وأرسطو وأفلاطون . ومهما كان استمتاعنا بثروتنا الحالية أو اهمالنا لها ، فعلينا أن نغبط الجيل الذى كان فى مقدوره بعد أن يقرأ تاريخ ثيوبومپوس وخطب هيبريديس وقصص ميناندر الهزلية ، وأناشيد ألقايوس وسافو . وتشهد الجهود القيمة التى بذلها الشراح ، لا على وجود المؤلفات الكلاسيكية اليونانية فقط ، ولكن على شغف الناس بها أيضا . ويمكن أن نستدل على المعارف العامة فى ذلك العصر من مثالين لسيدتين عظيمتين عالمتين هما الامبراطورة يودوكيا **Eudocia** والأميرة أناكومنينا **Anna Comnena** . فعلى الرغم من أنهما كانتا ترفلان فى الدمقس وفى الحرير ، فانهما بذلتا جهدا فى تعلم الفلسفة وعلوم البلاغة . وكانت اللهجة السائدة فى المدينة همجية خشنة ، ولكن أحاديث القصر والكنيسة ، أو على الأقل لغة الانشاء فيهما ، استخدمت أسلوبا أصح وأكثر دقة ، الى حد القول فى بعض الأحيان ، بأنها تحاكى نماذج أتيكا فى نقائها . ،

فساد الذوق

تتطلب مناهج تعليمنا الحديث الالمام بلغتين لم تعودا حيتين ، وهو عمل شاق ولو أنه ضرورى ، وقد يستنفد وقت الطالب الشاب ويطفىء جذوة حماسه . وقد بقى الشعراء والخطباء ردحا طويلا من الزمن

سجناء لهجات أسلافنا الغربيين المتبربرة التى ينقصها الانســـجام والرشاقة ، ولما لم يكن لديهم مبادىء أو قواعد ينهجون عليها أو أمثلة يقتدون بها ،فقد أســـلموا عبقريتهم لقوى خيالهم واجتهادهم الفجة المحلية . ولكن اليونانيين فى القسطنطينية ، بعد أن طهروا لغتهم العامية مما ألم بها من شوائب ، حظوا باستعمال لغتهم القديمة فى طلاقة ، كما نعموا بأفضل ما دبجه الفن البشرى ، وبالاطـــلاع على آثار المعلمين الأجلاء الذين أسعدوا الأمم الأولى أو علموها . ولكن هذه المزايا تحمل على المزيد من لوم الشعب المنحل وجلب العار عليه . لقد وضعوا أيديهم الميتة على كنوز آبائهم دون أن يرثوا الروح التى أبدعت ذاك التراث المقدس وتقحته.لقد قرأوا وقرظوا وجمعوا ، ولكن أرواحهم المتداعية بدت عاجزة عن التفكير والعمل سواء بسواء . لقد توالت عشرة قرون دون أن يتم كشف واحد يرفع من كرامة الجنس البشرى ، أو يزيد من سعادته . ولم تضف فكرة واحدة الى المذاهب الفكرية فى العالم القديم . وتعاقبت طائفة من التلاميذ الصابرين الذين أصبحوا بدورهم معلمين للجيل التالى الذليل . ولم ينج من زوايا النسيان والاهمال ، كتاب واحد فى التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، بفضل جمال أسلوبه أو أصالة خياله أو دقة شعوره ، أو حتى النجاح فى محاكاته . أما فى النثر فقد يعفى من اللوم أقل كتاب بيزنطة ازعاجا ، بسبب بساطتهم الهزيلة المتواضعة . ولكن الخطباء ، وهم يظنون فى غرورهم أنهم وصلوا ذروة الفصاحة ، فانهم أضحوا أبعد ما يكونون عن النماذج التى يزعمون أنهم يحاكونها . وفى كل صحيفة يؤذى ذوقنا ويسىء الى عقولنا اختيارهم كلمات مهجورة ، وتعبيرات جامدة

معقدة ، وصور متنافرة ، واستخدام صبيانى للمحسنات الزائفة أو غير الملائمة ، ومحاولتهم المضنية للسمو بأنفسهم كى يثيروا دهشة القارىء ، ويغلفوا معنى تافها بدخان من الابهام والمبالغة . ان نثرهم ليرتفع الى حد التكلف المعيب فى الشعر ، وان شعرهم لينحط الى ما دون تفاهة نثرهم وفتوره . لقد صمتت ربات Muse التراجيديا والملاحم والشعر الغنائى ، ولم تحظ بأى مجد . وقلما سما شعراء القسطنطينية فوق لغز أو ملحمة شعرية أو مديح أو قصة . لقد نسوا حتى قواعد العروض . ومع أن أنغام هوميروس كانت لا تزال تشنف آذانهم، فقد خلطوا بين جميع الأوزان والمقاطع فى أغنياتهم الهزيلة التى أطلق عليها اسم « الشعر السياسى » أو « شعر المدينة » . لقد كانت عقول اليونانيين مكبلة بأغلال الخرافة الوضيعة القاسية التى طوقت بسلطانها دائرة العلوم الدنسة « غير المقدسة » . وكان الجدل الميتافيزيقى قد أربك أذهانهم . وفى ايمانهم بالأحلام والمعجزات ضيعوا كل مبادىء الأخلاق ، وأفسدت أذواقهم عظات الرهبان ، وهى خليط سمج من الخطابة والكتاب المقدس . بل انّ هذه الدراسات الحقيرة لم يعد يرفع من شأنها سوء استغلال العبقريات السامية ، حيث قنع رؤساء الكنيسة اليونانية ، فى ضعة ، بالاعجاب بوحى العصر القديم وتقليده . ولم تخرج المدارس أو منابر الكنائس من ينافس أثناسيوس وكريسستوم (ومعناه فم الذهب) فى شهرتهما . وفى كل نواحى الحياة العملية والفكرية يعتبر تنافس الدول والأفراد أقوى منبع للجهود التى تبذل فى سبيل رقى الجنس البشرى . وكانت مدن اليونان القديمة خليطا سعيدا من الاتحاد والاستقلال . وقد تجدد ذلك على نطاق

أوسع ، ولكن فى شكل أقل تماسكا ، بين أمم أوربا الحديثة . فالاتحاد فى اللغة والدين والعادات يبعثهم على التأمل فى جدارة كل منهم ، والحكم على اتتاجه ، واستقلال الحكومات واختلاف المصالح يؤكدان حرية كل منهم على حدة ، ويحفزانهم الى بذل الجهد للارتقاء الى قمة المجد . وكان وضع الرومان أقل ملاءمة ، ومع ذلك ففى العصـــور الأولى للجمهورية ، تلك التى أكدت الطابع القومى ، اشتدت منافســة شبيهة بتلك بين ولايتى لاتيوم وايطاليا ، وفى الفنون والعلوم كان الرومان يؤملون فى الوصول الى مستوى أساتذتهم اليونان ، أو التفوق عليهم . ولا ريب فى أن امبراطورية القياصرة عطلت نشاط العقـــل البشرى وعاقت تقدمه . وربما أفسح اتساع الامبراطورية حقا بعض المجال للمنافسة الداخلية ، ولكن عندما اقتصرت الامبراطورية تدريجيا على الشرق أولا ، وفى النهاية على بلاد اليونان والقسطنطينية ، انتاب مزاج رعايا بيزنطة الوهن والانحطاط ، وهذه هى النتيجة الطبيعية لحالة العزلة والانفصال . وضغط عليهم من الشمال قبائل لا أسماء لها من المتبربرين ، قل أن أدرجهم اليونانيون فى عداد البشر . أما العرب وهم أكثر صقلا ، فقد كانت لغتهم ودينهم عقبة كأداء فى سبيل أى اختلاط اجتماعى . وكان غزاة أوربا اخوانا لهم فى المسيحية . ولكنهم كانوا يجهلون لغة الفرنجة أو اللاتين ، كما كانت أخـــلاق هؤلاء الغزاة وصلاتهم فى الحرب والسلم تكاد تكون منقطعة ، مع خلفاء هرقل . ان اليونان وحدهم فى هذا الكون ، هم الذين لم ينل من فخرهم واعتزازهم بأنفسهم أية مقارنة بين فضلهم وفضل غيرهم من الأجانب وجدارتهم ، ومن ثم فلا عجب أنهم أخفقوا فى السباق ،

حيث لا منافس يحفزهم على الاسراع فى الخطى ، ولا حكم يصدر الحكم بفوزهم . لقد اختلطت أمم أوربا وآسيا فى الحملات الصليبية على الأراضى المقدسة . وفى زمن أسرة كومنين اشتعلت مرة أخرى فى الامبراطورية البيزنطية ، روح منافسة هزيلة فى المعرفة وفى الفضائل الحربية .

* * *

فى الفصل الرابع والخمسين يصـف جيبون ظهور طائفة Paulicians (٦٠٠ – ٨٨٠ م) واضطهادهم . وهى فئة من الغنوصيين . ويشير الى أن أفكارهم ، كانت تؤذن بطريقة ما بآراء رجال الاصلاح الدينى . وفى الفصل الخامس والخمسين يصف جيبون استقرار البلغار والكروات والمجريين فى ولايات الدانوب القديمة ، كما يصف أصل الملكية الروسية ، واعتناق الروس والأوروبيين فى الشمال للديانة المسيحية.

الفصل السادس والخمسون
(٨٤٠-١٠٨٥)

الصدام بين العرب والفرنجة واليونانيين فى ايطاليا •
مجىء النورمان : فتوحات روبرت جيزكارد •

تلاقت أمم العالم الثلاث العظمى : اليونانيون والعرب والفرنجة ، على مسرح ايطاليا . وكانت الولايات الجنوبية التى تؤلف الآن مملكة نابلى ، خاضعة فى أكثر الأحيان لأدواق لومبارديا وأمراء بنفنتوم ، الذين بلغوا ، من القوة الحربية حدا مكنهم من أن يصدوا لفترة ما عبقرية شرلمان ، ومن السخاء فى وقت السلم ما أتاح لهم أن يحتفظوا فى عاصمتهم بأكاديمية تضم اثنين وثلاثين من النحاة والفلاسفة . وخلق تقسيم هذه الدولة المزدهرة ثلاث دويلات : فى بينيفينتوم وساليرنو وكابوا ، وشجع طموح هؤلاء المتنافسين أو انتقامهم الأعمى — شجع العرب على تدمير ميراثهم المشترك . وطوال فترة من الكوارث امتدت مائتى عام تعرضت ايطاليا لطعنات متكررة لم يستطع الغزاة علاجها بالوحدة والهدوء اللذين قد يتيحهما غزو كامل . وانطلقت سفنهم من ميناء باليرمور مرارا وفى كل سنة تقريبا ، ورحب بها المسيحيون فى نابلى . بل ان عرب الأندلس أحيانا كانوا يغرون بمساعدة المسلمين الذين يختلفون معهم فى المذهب ، أو بمقاومتهم . وعلى تعاقب أحداث البشر اختفى كمين جديد فى الشعاب الكودية[1] وانتثر الدم الأفريقى

---

(١) Caudine Forks : ممران جبليان فى كمبانيا بايطاليا •

مرة أخرى على حقول كاناى [١] وهاجم ملك رومه ، أو دافع مرة ثانية ، عن أسوار كابوا وتارينتوم . وكانت هناك مستعمرة عربية قد انشئت فى بارى التى تتحكم فى مدخل الأدرياتيك . وأثارت أعمال السلب والنهب التى لم يميزوا فيها بين فريق وآخر ، غضب الامبراطورين وألفت بينهما وحثتهما على الاتحاد . فعقد حلف هجومى بين باسيليوس المقدونى سيد قومه وبين لويس ابن حفيد شرلمان ، وأكمل كل فريق ما كان من نقص عند حليفه . وربما كان من خرق الرأى أن يزحزح له ملك بيزنطة قواته المرابطة فى آسيا من مكانها ، من أجل القيام بحملة فى ايطاليا ، كما أن قوات اللاتين لم تكن لتكفى ، لو لم تحتل بحريته المتفوقة مدخل الخليج . فطوق حصن بارى من كل جانب بمشاة الفرنجة وخيالة اليونانيين وغلايينهم . وبعد دفاع دام أربعة أعوام استسلم الأمير العربى لرحمة لويس الذى كان يقود بنفسه عمليات الحصار . وقد تم هذا الفتح الهام بفضل اتفاق الشرق والغرب . ولكن سرعان ما كدرت صفو مودتهم الجديدة شكاواهم المتبادلة التى أثارها الحقد والكبرياء . فادعى اليونانيون أن لهم وحدهم فضل الفتح ومجد النصر ، وشادوا بعظمة قواتهم ، وتظاهروا بالسخرية من عدم ضبط النفس والتراخى اللذين أظهرهما حفنة من البرابرة حاربوا تحت لواء الأمير الكارلوفنجى . وجاء رد ذلك الأمير متسما بالبلاغة التى يثيرها السخط والصدق . يقول ابن حفيد شرلمان » .

---

(١) Cannae : فى جنوب شرقى ايطاليا ، معركة هزم فيها هانيبال الرومان ، ٢١٦ ق.م . (الترجمة)

« انا نقر ضخامة معداتكم . فقد كانت جيوشكم حقا كأسراب جراد الصيف التى تحجب ضوء النهـار مثـل السحب ، وبعد أن تقطع مســـافة قصيرة وهى تخفق بأجنحتها تهوى الى الأرض فى اعياء وقد تقطعت أنفاسها . وكذلك أنتم قد سقطتم الى الثرى بعد مجهود هزيل . لقد هزمكم جبنـــكم ، وانسحبتم من ميدان القتال لتعملوا السـلب والنهب فى رعايانا المسيحيين على شـــاطىء سكلافونيا . وكنا نحن فئة قليلة ، ولكن لم كنا كذلك ؟ لأنى بعـد أن مللت انتظار وصـولكم سرحت جيشى ، واستبقيت فرقة منتقاة من المحاربين لتواصل حصار المدينة . فاذا كانوا قد انهمكوا فى ولائمهم السخية فى وجه الخطر والموت ، فهل أنقصت هذه الولائم من قدرتهم على القتال؟ هل كان صيامكم هو الذى هدم أسوار بارى ؟ ألم يكن هؤلاء الفرنجة الشجعان ، بعد أن نقص عددهم من الاعياء والضعف والكلال ، هم الذين سدوا الطريق فى وجه ثلاثة من أقوى أمراء العرب وهزموهم ؟ وألم تكن هزيمتهم هى التى عجلت بسقوط المدينة ؟ لقد سقطت الآن بارى . وان تارينتوم لترتجف ، وستنجو كالابريا . ولو كان لنا السيادة على البحر فلربما أنقذت صقلية من أيدى الكفار . أى أخى ، (وهو لفظ يسىء الى غرور اليونانيين أشـــد اساءة) أسرع فى ارســـال نجداتك البحرية ، واحترم حلفاءك ، ولا تثق فى متملقيك » .

لقد خبت جذوة هذه الآمال العراض بموت لويس وانحلال أسرة كارلوفنجيان . ومهما يكن من أمر ذلك الذى يستحق أمجاد النصر ، فقد نعم الامبراطوران اليونانيان باسيليوس وابنه ليو بمزايا اخضاع باري . واقتنع الايطاليون فى أبوليـــا وكالابريا ، أو أجبروا على الاعتراف بسيادتهما . وترك خط تصورى ، يمتد من جبل جارجانوس الى خليج ساليرنو ، الجزء الأكبر من مملكة نابلى تحت سلطان الامبراطورية الشرقية . وفيما وراء ذلك الخط ابتهجت جمهوريتا أو دوقيتا أمالفى ونابلى اللتان لم تودعا قط ولاءهما الاختيارى ، بمجاورتها لمليكهما الشرعى . وأثرت أمالفى من تزويدها أوربا بمنتجات آسيا ومصنوعاتها. ولكن الأمراء اللومبارديين فى بينيفنتوم وسالرنو وكابوا حيل بينهم ، على رغمهم ، وبين الاختلاط بالعالم اللاتينى ، وكثيرا ما نكثوا فى ايمانهم على قبول الخضوع ودفع الجزية . أما مدينة بارى فقد ارتفع شأنها ، وزادت ثروتها كعاصمة لولاية لومبارديا العسكرية ، ومنح حاكمها العــــام لقب البطريق Patrician ثم أطلق عليه بعد ذلك اســم فريد هــو كاتابان Catapan . وجرت سياسة كل من الكنيسة والحكومة على الخضـــوع التام لعرش القسطنطينية . وطالما كان الصولجان موضع نزاع بين أمراء ايطاليا ، فان جهودهم بقيت ضعيفة وعدائية . وقاوم اليونانيون أو تفادوا قوات ألمانيا التى هبطت من جبال الألب يرفرف عليها علم الأباطرة من أسرة أوتو . واضطر أول هؤلاء الأمراء السكسون وأعظمهم الى أن يتخلى عن حصار بارى ، وهرب الثانى بشرفه ، بعد أن فقد أقوى أساقفته وباروناته ، من ميدان القتال الدامى فى كروتونا . وفى ذاك اليوم قلبت شجاعة العرب

ميزان الحرب ضد الفرنجة ، لقد طردت حقـا الأساطيل البيزنطية هؤلاء القراصنة من قلاع ايطاليا وشواطئها . ولكن الشعور بالمصلحة كان أقوى من العقيدة أو الكراهية ، فأرسل والى مصر أربعين ألفا من المسلمين لمعاونة حليفه المسيحى . وعلل خلفاء باسيليوس أنفسـهم بأن غزو لومبارديا قد تحقق ، وأنهم ما زالوا يحتفظون بهـا بفضـل قوانينهم ومناقب وزرائهم ، وعرفان شـعب أنقذوه من الفوضى والظلم . ولكن ربما ألقت سلسلة من الثورات شعاعا من الضوء على الحقيقة حتى تتكشف لقصر القسطنطينية . فاتضح خداع المتملقين بما أحرزه المغامرون النورمان من نجاح سريع ميسور .

وخرج تقلب الأحداث والعصور فى أبوليا وكالابريا بفارق أسيف بين عصر فيثاغورس وبين القرن العاشر المسيحى ، ففى الفترة الأولى كان شاطىء اليونان الكبرى (كما كانت تسمى آنئذ) يزخر بمدن حرة غنية آهلة بالجنود والفنانين والفلاسفة . ولم تكن قوة تارينتوم أو سيباريس أو كروتونا الحربية أقل من مثيلتها فى أية مملكة قوية . أما فى الفترة الثانية فقد خيم الجهل على هذه المدن التى كانت يوما مزدهرة . كما أفقرها الطغيان ، وأقفرت من سكانها بسبب الحرب الوحشية . ولا يمكن أن نغالى فى اتهام أحد المعاصرين بالمبالغة فى أن أقليما آية فى الحسن والسعة أضحى مقفرا كدنيانا هذه بعد الطوفان العام . ومن بين الأعمال العدوانية التى نشبت بين العرب والفرنجة واليونانيين فى جنوب ايطاليـا ، سأختار قصتين أو ثلاثا تعبر عن عاداتهم الوطنية :

١ ـــ كان مما يدخل البهجة والسرور على قلوب العرب أن يدنسوا الكنائس والأديرة ، وأن ينهبوها سواء بسواء . ففى حصار سالرنو وضع زعيم مسلم فراشه على مائدة القرابين ، وفى كل ليلة افترع على هـذا المذبح بكارة راهبة مسيحية . وبينما كان يراود فى عنف احدى العـذارى عن نفسهـا ، وهى تقاومه ، سقطت قطعة من خشب السقف ، وكأنما سددت بمهارة الى رأسه فصرعته . وقد نسب موت هـذا الأمير الشهوانى الى غضب المسيح ، الذى ثار فى النهاية للدفاع عن عروسه الوفية .

٢ ـــ حاصر العرب مدينتى بنفنتوم وكابوا . وبعـد أن اسـتغاث اللمبـارديون سدى بخلفـاء شرلمان ، تضرعوا سائلين رحمة امبراطور اليونان وعونه . وهبط مواطن جرىء من الأسوار واخترق الخنادق ونفذ ما عهد به اليه ، ولكنه سقط فى أيدى المتبربرين بينما كان عائدا يحمل الأخبـار السارة ، فأمروه أن يعاونهم فى تنفيذ مشروعهم وأن يخدع مواطنيه ، وأكدوا له أن الثراء والأمجاد ستكون ثواب غدره . أما اذا ظل على ولائه فلن يكون عقابه الا الموت الزؤام . فتظاهر بالاذعان ، ولكنه عنـدما أصبح على مسمع من اخـوانه المسيحيين فى الحصن صاح بأعلى صوته : « أصدقائى واخوانى ، رابطـوا وصابروا ، اعتصموا بمدينتكم ، لقد علم مليككم بمحنتكم . وأصبحتم قاب قوسين أو أدنى من النجاة . انى أعرف مصيرى وانى لأترك زوجى وأولادى فى رعايتكم » ، وقد أيدت سورة غضب العرب صدق روايته . فاخترقت مائة حربة جسد هـذا

المواطن الفـدائى ، انه ليسـتحق أن يعيش فى ذاكرة ذوى الفضيلة والفضـل ، ولكن تكرار القصة نفسهـا فى العصور القديمة والحديثة قد يلقى على حقيقة هذا العمل المجيد ظلالا من الشك [1] .

٣ ـــ وقد يثير سرد الحادث الثالث ابتسامة وسط أهوال الحرب . ذلك أن تيوبولد ، مركيز كاميرينو وسـبوليتو عاون ثوار بينيفنتوم ، ولم تكن قسوته الوحشية مناقضة لأخلاق البطولة فى ذلك الزمان . فخصى دون رحمة أسراه من الأمة اليونانية أو الطائفة اليونانية ، وزاد على هـذه الفعلة النكراء دعابة ثقيلة قاسية ، قائلا انه أراد أن يقـدم للامبراطور عددا من الخصيان ، وهم أحسن زينة فى البـلاط البيزنطى . وقامت حامية احدى القلاع بهجوم خارج الحصن ، ولكنهـا هزمت فحكم على الأسرى باجراء العملية المعتادة . ولكن التضحية أوقفت باقتحام امرأة هائجة دامية الوجنتين شعثاء الشـعر ، جاءت تولول وتصرخ ، مما أجبر المركيز على الاصـغاء الى شكواها . فصرخت قائلة : « أهكـذا أيها الأبطـال العظماء

---

(١) فى سنة ٦٦٣ يصف بول الشماس عين المأساة تحت أسوار مدينة بينفنتوم نفسها ، ولكن الأشخاص مختلفون ، والجرم منسوب الى اليونانيين أنفسهم ، وهو ما تنسبه النسخة البيزنطية الى العرب . وفى الحرب الأخيرة مع ألمانيا يقال أن م . داساس M.d'Assas وهو ضابط فرنسى من كتيبة أوفيرن استشهد على النهج نفسه . ويعتبر سلوكه أكثر بطولة لأن العدو الذى قام بأسره لم يكن يتطلب غير الصمت . (فولتير ، عصر لويس الخامس عشر ، الفصل الثالث والثلاثون) .

تشنون حربا ضد النساء ! ضد نســاء لم يسئن اليكم قط ، وكل سلاحهن المغزل والنول ؟ » . وأنكر ثيوبولد الاتهام ، واحتج بأنه منذ عصر « الأمازونات »[١] لم يسمع قط بحرب النساء . فصاحت في ثورة عارمة : « بأي سبيل آخر أشــد وأنكى ، يمكنكم النيل منا ؟ وأنى لكم أن تطعنونا في موضع أكثر حيوية ، من سلب أزواجنا أعز ما لدينا من مصدر بهجتنا وأمل ذريتنا ؟ لقــد احتملت في صمت ودون تململــل نهب ماشيتنا وقطعاننا . أما هذه الاساءة القاتلة ، هــذه الخسارة التي لا تعوض ، فقد نفد من أجلها صبري ، وجعلتني استصرخ من أجلهــا عدالة السماء والأرض ! » . وقوبلت فصاحتهــا بعاصفة من الضحك ، وأهاج يأسها الساخر ، وان كان معقولا ، مشاعر الفرنجة الغلاظ الأكباد الذين لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلوبهم . وبانقاذها الأسرى ردت اليها بضاعتها . وبينما هي عائدة عودة المظفر الى القلعة ، لحق بها رسول من قبل ثيوبولد يسألها عن العقوبة التي يجب أن توقع على زوجها لو قبض عليه مرة أخرى حاملا ســلاحا ، فأجابت دون تردد : ان اتفق أن اقترف هذا الاثم واتتابه سوء الطالع ، فان له عينين وأنفا ويدين وقدمين ، وهذه الأعضــاء ملك خاص به ، وقد يستحق أن يفقدها ان ارتكب جريمة ما ، وليتفضل مولاي بالابقاء على ما تدعى أمته الصغيرة أنه ملكها الشرعي الخاص بها [٢] .

---

(١) Amazons في الأساطير اليونانية ، نساء محاربات من سكيذيا بالقرب من البحر الأسود .

(٢) ليوتبراند ، اذا نوقشت الاباحية والفجور في هذه القصة =

مجيء النورمان

ان استقرار النورمان فى مملكتى نابلى وصقليه حدث رومانتيكى جدا فى أصله ، وعلى أعظم جانب من الأهمية فى نتائجه ، لكل من ايطاليا والامبراطورية الشرقية على السواء . كانت الولايات اليونانية واللومباردية والعربية الممزقة المتداعية معرضــة لكل غاز أو فاتح ، وقد شن القراصنة الاســـكندنافيون الذين امتازوا بروح المغامرة ، غاراتهم فى البحر والبر ، وبعد أن أعملوا السلب والنهب والقتل أمدا طويلا ، قبل نورمان فرنسا رقعة واسعة طيبـــة من الأرض واحتلوها وأطلقوا عليها اسمهم . ونبذوا عادة آلهتهم ليعبدوا اله المسيحيين . وأعلن أدواق نورمانديا أنفسهم أتبــاعا لخلفاء شرلمان وهيوكابت (ملك فرنسا ٩٨٧ — ٩٩٦) . وقد هذب الجو الدافىء من عنفهم الوحشى الذى جلبوه معهم من جبال النرويج التى يغطيها الجليد ، ولكنه لم يفسده . واختلط رفاق رولو Rollo ، على غــير وعى منهم ، بأهل البلاد ونهلوا من عادات الفرنسيين ولغتهم وكياستهم . وفى عصر اشتهر بالحروب ، كان من الممكن أن يدعى النورمان أن لهم القدح المعلى فى الشجاعة والمآثر المجيدة . ومن بين خرافات العصر السائدة احتضنوا فى حماس ، الحج الى رومة وايطاليــا والأراضى المقدسة . وانتعشت أجسامهم وعقولهم بممارسة هذا النشاط الدينى .

= فيمكننى أن أصرخ مع ستيرن Sterne المسكين أنه من القســـوة ألا يسمح لى بأن أنقل فى حذر ما يستطيع أسقف أن يكتب دون تردد . وماذا يقول القارىء اذا كنت قد نقلت بقية القصة وما فيها من فحش وألفاظ مكشوفة فاضحة . (أوردها جيبون باللاتينية ، ولم نر ضرورة لاثباتها) .

وكان ركوب المخاطر هو حافزهم ، كما كان الاطلاع على كل جديد جزاءهم الأوفى . وزخر العالم أمامهم بكل ما يدعو الى الاعجاب ويستوجب التصديق ويملأ النفس بالأمل والطموح . ودخلوا فى أحلاف للدفاع المتبادل . وكثيرا ما أنزل سلاح المحارب العقاب بلصوص الألب الذين خدعهم ثوب الحاج . وفى احدى هذه الزيارات الورعة الى غار فى جبل جارجانوس فى أبوليا قدسه شبح ميكائيل رأس الملائكة ، ابتدرهم أجنبى يرتدى لباسا يونانيا . ولكن سرعان ما كشف عن هويته ، على أنه ثائر هارب ، وعدو لدود للامبراطورية اليونانية ، وكان اسمه ميلو Melo . وكان من مواطنى بارى النبلاء . وقد اضطر بعد قيامه بثورة فاشلة ، الى البحث عن حلفاء جدد يثأرون لوطنه . وقد أحيا مظهر البسالة فى النورمان آماله ، وحثه على البوح بأسراره ، واستمع النورمان الى شكوى هذا المواطن الغيور ، وأصغوا أكثر من ذلك الى وعوده . وكان دليلهم على عدالة قضيته تأكيده على الثروة . وتطلعوا الى الأراضى الخصبة التى يشيع فيها الطغاة المخنثون الظلم على أنها تراث الشجعان . ولدى عودتهم الى نورمانديا أوقدوا نار المغامرة ، وتعاهدت فئة قليلة ، ولكنها جريئة منهم ، بمحض اختيارهم ، على انقاذ أبوليا . وسلك كل منهم طريقا مختلفا فى شعاب جبال الألب . وتنكر كل منهم فى زى حاج . ولكن زعيم بارى رحب بهم على مشارف رومه وأمد المعوزين منهم بالخيول والأسلحة ، وقادهم الى ميدان العمل . وقد تغلبت شجاعتهم فى أول صدام ، غير أنه فى الالتحام الثانى تكاثرت عليهم جموع اليونانيين ودكتهم آلات الحرب اليونانية ، فتراجعوا ساخطين مولين وجوههم

نحو العدو . وأنهى ميلو المنكود حياته ضارعا متوسلا فى البلاط الجرمانى . أما حلفاؤه من النورمان الذين قطعوا عن أوطانهم ، وحيل بينهم وبين الأرض الموعودة فانهم هاموا على وجوههم فى تلال ايطاليا وأوديتها يكسبون قوت يومهم بسيوفهم . والى هذه السيوف الرهيبة لجأ أمراء كابوا وبنيفينتوم وساليرنو ونابلى ، كل بدوره ، فى منازعاتهم الداخلية . وقد ضمنت روح النورمان العالية ودقة نظامهم ، النصر للجانب الذى انحازوا اليه . ولحظت سياستهم الحذرة ميزان القوى حتى لا تزداد قوة أى من الدول المتنافسة فتجعل عونهم أقل أهمية وخدماتهم أقل ربحا . وكان مستقرهم الأول معسكرا قويا وسط مستنقعات كامبانيا ، ولكن سرعان ما من عليهم سخاء دوق نابلى بملجأ أعظم رخاء وأكثر استقرارا . فعلى بعد ثمانية أميال من قصره ، وكقلعة قوية ضد كابوا شيدت بلدة أفيرسا Aversa وحصنت لاقامتهم . وتمتعوا بالغلال والثمار ، والمراعى والآجام فى تلك البقعة الخصبة كملك خاص لهم ، وقد جذبت أخبار نجاحهم أفواجا جديدة من الحجاج والجنود كل عام ، حيث حفزت الحاجة الفقراء ، ودفع الأمل الأغنياء ، ولم يصبر أولئك الذين امتازوا بالشجاعة والنشاط فى نورماندى على حياة الدعة ، وتاقوا الى الشهرة والمجد . وضمنت راية أفيرسا المستقلة ملجأ وتشجيعا لطريدى الولاية ، ولكل لاجىء هرب من ظلم سادته أو من عدالتهم . وسرعان ما اندمج هؤلاء الرفاق الأجانب فى عادات مستعمرة الغال هذه ولغتها . وكان أول زعيم للنورمان هو الدوق راينولف Rainulf . وفى نشأة المجتمع كان السمو فى المرتبة هو الجزاء الأوفى للجدارة الفائقة وشاهدها .

ومنذ فتح العرب لصقلية كان أباطرة اليونان يتوقون الى استعادة تلك الدرة الثمينة . ولكن عاق جهودهم ، مهما كانت قوية ، بعد الشقة والبحر . وكم أضافت أسلحتهم الغالية الثمن ، بعد ومضة من النجاح ، صفحات جديدة من الكوارث والخزى ، الى حوليات التاريخ البيزنطى . فقد هلك عشرون ألفا من أحسن جنودهم فى حملة واحدة . وسخر المسلمون المظفرون من سياسة أمة لا تعهد الى الخصيان بحراسة نسائها فحسب ، ولكن بقيادة رجالها أيضا . وبعد حكم دام مائتى سنة دمرت الانقسامات العرب . وحدث أن رفض الأمير سيادة ملك تونس وثار الناس ضد الأمير . واغتصب الزعماء السلطان فى المدائن . واستقل كل ثائر وضيع بقريته أو قلعته . وخطب أضعف الأخوين المتنافسين ود المسيحيين . وفى ساعة العسرة كان النورمان على أهبة الاستعداد للخدمة ، وكان لهم نفعهم . وأفلح أردوين Arduin نائب اليونانيين وترجمانهم فى تجنيد خمسمائة من الفرسان أو المحاربين الخيالة تحت لواء مانياكيس Maniaces حاكم لومباردى . وقبل رسو سفنهم ، كان الخلاف بين الأخوين قد سوى . وعاد اتحاد صقلية وأفريقية وأقيمت حراسة على الجزيرة حتى حافة اليم . وقاد النورمان الطليعة ، وأحس عرب مسينا بشجاعة عدو لم يخبروا بعد قوته . وفى الصدام الثانى أسقط أمير سرقسطه من فوق جواده ، واخترق جسمه سيف وليم دى أوتفيل . وفى كرة ثالثة تغلبت جرأة رفقاء هذا الأخير على جيش من العرب بلغ ستين ألفا ، ولم يتركوا لليونانيين سوى جهد المطاردة . لقد كان نصرا باهرا ، ولكن قد يقتسم قلم المؤرخ مجده مع حراب النورمان . والحق أن عملهم الأساسى كان

معاونة مانياكيس على الانتصار ، وقد أخضع مانياكيس ثلاث عشرة مدينة والجزء الأكبر من صقليه لطاعة الامبراطور . غير أن شهرته الحربية دنسها نكران الجميل والطغيان . ففى قسمة الأسلاب أهملت استحقاقات قواته المساعدة . ولم يستطع جشعهم أو كبرياؤهم أن يصبر على هذه المعاملة السيئة . فرفعوا عقيرتهم بالشكوى على لسان ترجمانهم . ولكن أهملت شكواهم ، وضرب ترجمانهم ، فاحتمل الآلام وحده . وكانت الاهانة والسخط من نصيب أولئك الذين عبروا عن مشاعرهم ، ومع ذلك أخفوا شعورهم حتى دبروا أو اغتصبوا وسيلة تنقلهم فى أمان الى البر الايطالى . وشاركهم فى سخطهم اخوانهم فى أفيرسا . فغزوا ولاية أبوليا رهنا لدينهم . وبعد مرور عشرين عاما من هجرتهم الأولى سار النورمان الى القتال بجيش لا يزيد على سبعمائة من الخيالة وخمسمائة من المشاة . وبعد سحب الكتائب البيزنطية من الحرب فى صقلية ، تضاعف عدد جنود بيزنطة حتى بلغ ستين ألفا . وخير الرسول اليونانى النورمان بين الحرب والتقهقر . وصاح النورمان فى صوت واحد : « الحرب » . وألقى واحد من أقوى محاربيهم بضربة واحدة من قبضته جواد الرسول اليونانى الى الأرض . غير أنهم سمحوا له بالعودة على جواد آخر . وأخفيت الاهانة عن جنود الامبراطور ، ولكنهم عرفوا معرفة اليقين جرأة أعدائهم فى معركتين متواليتين . وفى سهول كاناى هرب جنود آسيا أمام المغامرين الفرنسيين ، وأخذ دوق لومبارديا أسيرا . وأذعن أهل أپوليا لسلطان جديد ونجت أربع مدن فقط ، هى بارى وأتراتنو وبرنديزى وتارنتوم من الدمار الذى نزل باليونانيين . ومن هذه الفترة يمكن أن تؤرخ استقرار سلطان النورمان

الذى سرعان ما أزرى بالمستعمرة الناشئة فى أفيرسا . ووقع الاختيار فى انتخاب عام على اثنى عشر دوقا . وكان السن والمحتد والجدارة هى دعائم هـــذا الاختيار . وخصصت الجزية المفروضة على كل بقعة للانفاق عليها . وشـــيد كل دوق قلعة وسط أراضيه ، وعلى رأس أتباعه . وفى مركز الولاية احتفظ بالمقر العام فى ملفى Melphi ليكون عاصمة الجمهورية وقلعتها . وخصص فيها لكل دوق من هؤلاء الاثنى عشر منزل وحى منفصل . وتولى هذا الســـناتور العســـكرى تدبير الشئون الوطنية وأضفى على أولهم رئيس جمهوريتهم وقائدهم لقب دوق أبوليا . وحظى بهذا الشرف وليم « ذو الذراع الحديدية » . وقد وصف فى لغة ذلك العصر بأنه أسد فى القتال ، وحمل فى المجتمع، وملاك فى المجلس . وقد وصف مؤرخ مواطن معاصر عادات مواطنيه وصفا جيدا . يقول مالاترا Malaterra : « ان النورمان شـــعب خداع وانتقام . ويبدو أن الفصاحة والرياء من صفاتهم الوراثية . وفى مقدورهم أن يتمسكنوا ليتمكنوا ، فاذا لم يوجد قانون يحـــد من شكيمتهم ، انغمسوا فى اباحية الطبيعة والهوى ، ويتظاهر أمراؤهم بامتداح البر العام ، ولكن الشعب يحافظ على التوسط ، أو بالأحرى يؤلف بين النقيضين : الجشع والاسراف . وفى تعطشهم المتلهف الى الثروة والسلطان يحتقرون كل ما فى أيديهم أيا كان ، ويؤملون فى الحصول على ما يشتهون . ومتعة النورمان فى الأسلحة والخيـــول والثياب المترفة ورياضة القنص والصيد بالباز ، ولكنهم عند الشدائد يستطيعون ، فى صبر لا يصـــدق ، احتمال قسوة المناخ ، ومشـــاق الحياة العسكرية » .

واستقر نورمان أبوليا على حدود امبراطوريتين . وطبقا لسياسة العصر ، تقبلوا اقطاعيات الأراضى من ملوك ألمانيا والقسطنطينية . ولكن أقوى حقوق هؤلاء المغامرين كان حق الفتح ، فلم يحبوا أحدا قط ولم يثقوا فى أحد قط ، ولم يثق فيهم أحد قط ، ولم يحبهم أحد قط . وامتزج احتقار الأمراء بالخوف ، واختلط خوف الأهالى بالحقد والسخط . وأثار كل شيء مرغوب فيه ، كالحصان والمرأة والبستان ، جشع هؤلاء الغرباء وأرضاه . وتلون جشع زعمائهم بلون جميل براق ، فسمى طموحا ومجدا . وقد اشترك الاثنا عشر دوقا فى بعض الأحيان فى عصبة للظلم والعسف . وفى منازعاتهم الداخلية انصب شقاقهم على تقسيم أسلاب الشعب . وقد ووريت التراب فضائل وليم معه فى قبره . وكانت مميزات أخيه وخلفه دروجو Drogo تؤهله لتوجيه شجاعة أقرانه ، أكثر مما تؤهله للحـد من عنفهم . وفى أثناء حكم قسطنطين مونوماخوس حاول البلاط البيزنطى ، تحفزه السياسة أكثر من حب الخير ، أن يخلص ايطاليا من هذا الشر المقيم ، وهو أشد ضررا من حملة من البرابرة ، ولهـذا الغرض منح أرجـيروس بن ميلو أسمى الألقاب وأوسع السلطات . فقد تشفع له ذكرى أبيه لدى النورمان ، كما سـبق له أن استخدمهم بمحض اختيارهم للقضـاء على ثورة مانياكيس والانتقام للأضرار الخاصة والعامة التى لحقت بهم . وكان هدف قسطنطين أن ينقل هذه المستعمرة المحبة للحروب من الولايات الايطاليـة الى حرب الفـرس ، فوزع ابن ميلو ذهب اليـونانيين ومصنوعاتهم على الزعماء كباكورة العطـاء الامبراطورى ، ولكن احساس فاتحى أبوليا وروحهم أفسدتا عليه خططه ، فرفضوا هباته

أو على الأقل مقترحاته ، وأبوا جميعا التخلى عن ممتلكاتهم وآمالهم من أجل أمل بعيد فى الحصول على ثروات آسيا . وبعد أن فشلت وسائل الاقناع قرر أرجيروس أن يجبر أو يدمر ، فالتمس من القوات اللاتينية أن تعاونه ضد العدو المشترك . وعقد حلف هجومى بين البابا وبين امبراطورى الشرق والغرب . وكان يجلس على عرش القديس بطرس وقتئذ ليو التاسع ، وهو قديس ساذج يؤهله طبعه الى درجة كبيرة لخداع نفسه وخديعة العالم . فكانت شخصيته الوقورة لا تمانع فى أن يقدس باسم التقوى أكثر الوسائل بعـدا عن الدين . وتأثرت روحه الانسانية بشكاوى شعب مكلوم ، أو ربما بافتراءاته . وانقطع هؤلاء النورمان الذين لا يعرفون الورع عن دفع العشور . ومن ثم يكون من الجائز شرعا أن يسل سيف السلطة الزمنية لانزال العقوبة بهؤلاء اللصوص الذين انتهكوا الحرمات الدينية ، وأصموا آذانهم ضد تقريع الكنيسة لهم . وبوصفه ألمانيا من أصل نبيل ومن أقرباء الامبراطور ، فقـد كانت أبواب البلاط مفتحة أمامه ، ونال ثقـة الامبراطور هنرى الثالث . وفى بحثه عن أسلحة وحلفاء ، حمله حماسه المتأجج من أبوليا الى سسكونيا ، ومن نهر الألب الى نهر التيبر . وفى أثناء هذه الاستعدادات العدائية ، أفرغ أرجيروس همه فى استخدام أسلحة سرية واجرامية . فوقع عدد من النورمان ضحايا الانتقام الخاص أو العام ، وقتل دروجو الشجاع فى احدى الكنائس . ولكن روحه عاشت بعده فى أخيه همفرى ، الدوق الثالث لأبوليا . وحل العقاب بالقتلة ، وطرد ابن ميلو من ميدان القتال ، بعـد أن هزم وجـرح ، ليخفى عاره وراء أسـوار بارى ولينتظر نجدة حلفائه ، التى أبطـأ وصولها اليـه .

ولكن الحرب مع الأتراك كانت سببا فى تشتيت قوة قسطنطين .
وكان هنرى ذا عقل ضعيف لا يستقر له قرار . أما البابا ، فانه بدلا من أن يعبر الألب فى عودته ومعه جيش ألمانى ، اصطحب فقط حرسا مؤلفا من سبعمائة من السوابيين وبعض المتطوعين من اللورين . وفى تقدمه الذى استغرق زمنا طويلا من بلدة ماتتوا الى تارينتوم ، انضوى تحت الراية المقدسة جمع مهوش شرير من الايطاليين . فنام القسيس واللص فى الخيمة نفسها . واختلطت الحراب بالصلبان فى المقدمة .
وكرر هذا القديس المحارب دروسا كان قد تلقنها فى شبابه ، عن نظم السير واقامة المعسكرات والقتال . ولم يكن نورمان أبوليا يستطيعون أن يجمعوا أكثر من ثلاثة آلاف من الخيالة وحفنة من المشاة ، للاشتراك فى القتال . وقد اعترض ارتداد المواطنين سبيل وصول المؤن اليهم ، وعوق تراجعهم . وثبط من هممهم التى لا تعرف الخوف، ما غشيهم ، لأمد قصير ، من رهبة دينية . وما ان اقترب ليو بخيله ورجله ، وهو يريد بهم سوءا ، حتى ركعوا دون خزى ولا تحرج أمام أبيهم الروحى . ولكن ليو أبى فى اصرار وعناد أن يصفح عنهم .
وتظاهر جنوده الألمان طوال القامة بازدراء قامات خصومهم القصيرة .
وأبلغ النورمان أن لهم الخيرة بين الموت أو النفى . ولا ثالث لهما ، ولكنهم احتقروا الفرار . ولما لم يكن الكثيرون منهم قد تذوقوا الطعام طيلة ثلاثة أيام ، فانهم استمسكوا بفكرة موت محقق أكثر يسرا وشرفا . فصعدوا تل كيفيتيلا Civitella ثم هبطوا الى الوادى ، وهاجموا جيش البابا من جهات ثلاث . والى اليسار وفى الوسط هاجم رينشارد دوق أفيرسا وروبرت جيزكارد الشهير الحشود

الايطالية ، ونجحا فى هزيمتهم وتشتيتهم ومطاردتهم . وكان الايطاليون يحاربون دون نظام ، وفروا دون استحياء . ومنيت شجاعة دوق همفرى الذى قاد الخيالة فى الجناح الأيمن بتجربة أقسى . ووصم الألمان بعدم المهارة فى استخدام الخيل والحراب ، ولكنهم شكلوا ، كمشاة ، صفا قويا لا يمكن اختراقه ، ولم يقو انسان أو حصان أو سلاح على مقاومة سيوفهم الطويلة ذوات المقبضين . وبعد صدام شديد ، أحاطت بهم الفرق التى عادت من عملية المطاردة ، فماتوا فى أماكنهم يحف بهم حسن تقدير أعدائهم وبهجة الأخذ بالثأر . وأغلقت أبواب كيفيتيلا فى وجه البابا فى فراره ، وقد لحق به المنتصرون الأتقياء الذين قبلوا قدميه ، وتضرعوا اليه أن يمنحهم بركته ، وأن يغفر لهم ذنوبهم التى جناها عليهم هذا النصر الأثيم . ورأى الجنود أن عدوهم وأسيرهم هو نائب المسيح . ورغم أننا قد تتحسس هنا سياسة الزعماء أو الرؤساء ، فانه من المحتمل أن عدوى الخزعبلات الشعبية قد سرت الى الجنود . وفى هدأة خلوه الى نفسه ، رثى البابا ذو النية الحسنة لسفك الدم المسيحى الذى يجب أن يحتمل هو وزره . وشعر أنه كان سببا فى هذه الآثام والمخازى . ولما كانت حملته قد باءت بالفشل فقد انطلقت الألسنة تندد بحمله السلاح واشتراكه فى الحرب ، وتقول ان ذلك لم يكن يليق به . وتحت تأثير أمثال هذه الخواطر أصغى الى اقتراح بعقد معاهدة نافعة . فهجر حلفا كان قد دعا اليه باسم قضية الله ، وأقر فتوحات النورمان فى الماضى والمستقبل . ومهما يكن من أمر غاصبى مقاطعتى أبوليا وكالابريا من قبل ، فقد صارتا جزءا من هبة قسطنطين وأملاك القديس بطرس وقد ثبتت المنحة

والقبول مزاعم كل من البابا والمغامرين . وقد وعد كل من الفريقين بأن يساعد الطرف الآخر بالأسلحة الروحية والزمنية . وحددت فيما بعد ضريبة أو جزية أو « بدل خدمة » مقدارها اثنا عشر بنسا ، عن كل قطعة من الأرض يستطيع ثمانية من الثيران حرثها فى عام . ومنذ هذا الاتفاق المشهود بقيت مملكة نابلى أكثر من سبعمائة عام اقطاعية تابعة للكرسى البابوى .

فتوحات روبرت جيزكارد

ثار خلاف حول ارجاع نسب روبرت جيزكارد الى الفلاحين أو الى دوق نورماندى . فأرجعته الأميرة اليونانية ، غرورا وجهلا ، الى طبقة الفلاحين ، وسما به رعاياه الايطاليون ، جهلا وملقا الى طبقة النبلاء . ويمكن ارجاع نسبه الحقيقى الى الطبقة الثانية أو الطبقة الوسطى من النبلاء المحليين . نشأ فى فئة Valvassors أو Bannerets فى أبرشية كوتانسس Coutances فى نورمانديا السفلى . وكانت قلعة أوتفيل مقرهم الكريم . وكان أبوه تانكرد Tancred شخصية بارزة فى بلاط الدوق وجيشه . وكان يقوم على خدمته العسكرية عشرة جنود أو فرسان . وتزوج مرتين ، وفى كلتا المرتين كانت زوجه جد جديرة بمرتبته . ومن هذين الزواجين ولد له اثنا عشر ابنا . وقد ربوا فى داره تحت رعاية زوجه الثانية ، التى لم تكن وقتها تعرف التفرقة . ولكن ماله القليل لم يكن يكفى العدد الكبير من الأبناء الذين امتازوا بالجرأة . انهم تلفتوا فيما حولهم فلم يروا غير شرور الفقر والتنافر ، ومن ثم عقدوا العزم على

أن يلتمسوا فى الحروب الخارجية تراثا أعظم وأمجد . وبقى اثنان منهم للمحافظة على أسرتهم من الانقراض ولرعاية والدهم فى شيخوخته . أما الأخوة العشرة ، فما ان اشتد عود الواحد منهم واكتملت رجولته حتى غادر القلعة ، وعبر جبال الألب وانضم الى معسكر النورمان فى أبوليا . وكانت الروح الوطنية حافز الاخوة الأكبر سنا ، وكان الاخوة الثلاثة الأكبر سنا وهم : وليم ودروجو وهمفرى ، جديرين بأن ينتزعوا قومهم ، وأن يؤسسوا الجمهورية الجديدة . وكان روبرت هو أكبر أبناء الزوجة الثانية وعددهم سبعة . وأضفى عليه ثناء أعدائه الذى لم يأت قط طواعية أو عن طبيب خاطر ، مناقب الجندى ورجل الدولة . وكانت قامته الطويلة تعلو على أطول قامة فى جيشه . وامتازت أطرافه بالقوة والرشاقة فى تناسب صحيح . واحتفظ حتى أخريات أيام حياته بنضارة الصحة وقوة الشخصية . وكان لون بشرته يضرب الى الحمرة ، وكتفاه عريضتين ، وشعر رأسه ولحيته طويلا يميل الى الصفرة ، وعيناه تقدحان شررا ، وكان صوته ، كصوت أخيل Achilles يستطيع أن يفرض الطاعة ويزرع الفزع وسط صخب القتال . وفى أيام الفروسية الأولى لم تكن عين الشاعر أو المؤرخ لتخطىء مثل هذه الصفات . وكان فى مقدورهما أن يلحظا أن روبرت كان يستطيع فى وقت واحد أن يستل سيفه بيمينه ويقبض على الحربة بيساره ، وأنه فى موقعة كيفيتلا طرح ثلاث مرات عن صهوة جواده ، وأنه فى ختام ذلك اليوم المشهود أجمعت الآراء على أنه قد انتزع جائزة الشجاعة من بين محاربى الجيش . وكان طموحه الذى لا حد له يرتكز على شعوره بجدارته الفائقة . وفى جريه وراء العظمة لم تقف قط فى طريقه

محاذير العدالة ، وقلما حركته مشاعر الانسانية ، رغم أنه كان دقيق الحس فيما يمس السمعة والشهرة . وكانت مصلحته العاجلة هى وحدها التى تحدد اختياره للوسائل السرية أو العلنية . وقد أطلق على رب الحكمة السياسية هذا لقب جيزكارد ، وكثيرا ما اختلطت هذه الحكمة السياسية باستخدام أفانين النفاق والخداع . وقد أثنى شاعر أبوليا على روبرت لأنه بزيوليسيس فى المكر وشيشرون فى الفصاحة . ومع ذلك فقد كانت هذه الأفانين تستقر وراء مظهر الصراحة العسكرية . وبعد أن بلغ أسمى المراتب ، لم يوصد أبوابه دون رفاقه الجنود ، وكان كيسا لطيف المعشر معهم . وبينما أغضى عن أهواء وحزازات رعاياه الجدد ، تراه تكلف فى لباسه وعاداته وسلوكه ، الاحتفاظ بالطراز العتيق فى بلده . وقد سلب ونهب بيد جشعة ، حتى يوزع بيده الأخرى، كرما منه وسخاء . وقد علمته أيام عوزه الأولى الاقتصاد والتدبير . ولم يغفل أن يوجه التفاته الى أرباح التجارة . وقد عذب أسراه عذابا بطيئا فى قسوة وحشية لاجبارهم على الكشف عن كنوزهم الدفينة . وقد ذكرت المصادر اليونانية أنه ترك نورمانديا بصحبة خمسة أتباع من الخيالة وثلاثين من الرجالة . بل ان هذا التقدير ليبدو سخيا أو مبالغا فيه . وعبر الابن السادس لتنكرد دى أوتفيل جبال الألب مرتديا لباس الحجاج ، وجند فرقته العسكرية الأولى من بين المغامرين الايطاليين . وكان اخوته ومواطنوه قد اقتسموا الأراضى الخصبة فى أبوليا ، وحافظ كل على نصيبه بروح من الحقد يمليه الجشع . فأجبر هذا الشاب الطموح على التقدم نحو جبال كالابريا . وفى مغامراته الأولى ضد اليونانيين والأهالى ، ليس من السهل تمييز البطل

من اللص . وكان الهجوم المفاجىء على قلعة أو دير ، أو نصب شرك لرجل غنى ، و سلب القرى المجاورة للحصول على القوت الضرورى — تلك كلها كانت الجهود الغامضة التى شكلت ودربت قواه الذهنية والجسدية . وانضوى المتطوعون من نورمانديا تحت لوائه ، وتحت قيادته اتخذ فلاحو كالابريا اسم النورمان وأخلاقهم . .

وسمت عبقرية روبرت كلما واتاه الحظ ، فأثار هذا حقد أخيه الأكبر . وفى نزاع عابر . هدد هذا الأخ الأكبر حياة روبرت وحد من حريته . وبعد موت همفرى حال صغر سن أبنائه دون توليهم مقاليد الأمور . وزج بهم طموح وصيهم وعمهم الى ضيعة خاصة . ورفع جيزكارد على ترس ونودى به « كونت » أبوليا وقائدا للجمهورية . وبازدياد سلطانه وقوته شرع ثانية فى فتح كالابريا . وسرعان ما راوده الأمل فى أن يحظى بمرتبة تعلو به الى الأبد فوق رءوس قرنائه . وقد جلب على نفسه قرارا بابويا بالحرمان لارتكابه بعض أعمال النهب وانتهاك حرمات الدين . غير أن نيقولا الثانى اقتنع بسهولة بأن الشقاق بين الأصدقاء لابد أن ينتهى الى الاضرار بكل منهم . وأن النورمان هم حماة الكرسى الرسولى الأمناء ، وأنه من الأسلم أن تثق فى حلف مع أمير ، من أن تطمئن الى نزوات الارستقراطية . وانعقد فى ميلفى مجلس مؤلف من مائة أسقف ، وأوقف الكونت مشروعا هاما من أجل حماية الحبر الرومانى وتنفيذ قراراته . واقتضت سياسته واعترافه بحسن صنيع روبرت أن يمنحه وذريته من بعده لقب دوق ، مع اقطاعه أبوليا وكالابريا ، وكل أرض فى ايطاليا أو فى صقلية ، يمكنه أن يستخلصها من أيدى اليونانيين المنشقين أو العرب الكفار .

وربما كان قرار البابا يبرر حروب جيزكارد ، ولكن طاعة شعب حر منتصر لا يمكن أن تستخلص على غير رضا منه . وأخفى جيزكارد نبأ ترقيته حتى كللت الحملة التالية بفتح كسترا ورجيو . وفى ساعة النصر جمع جيشه وطلب الى النورمان أن يؤكدوا قرار نائب المسيح بالتصويت عليه . وحيا الجنود بصيحات الفرح دوقهم الشجاع ، وأقسم الكونتات قرناؤه السابقون ، يمين الولاء وعلى شفاههم ابتسامة جوفاء وفى قلوبهم حقد دفين . وبعد أن تقلد منصبه رسميا فى هذا الحفل ، لقب روبرت نفسه : « بفضل الله والقديس بطرس ، دوق أبوليا وكالابريا ، وصقلية فيما بعد » . وقد استغرقت جهوده عشرين سنة حتى يكون أهلا لهذه الألقاب الضخمة ويحققها . وربما بدا أن مثل هذا التقدم البطىء فى مساحة ضيقة لا يليق بكفاية الزعيم وروح الأمة . ولكن عدد النورمان كان قليلا ، ومواردهم ضئيلة ، وخدماتهم اختيارية ومزعزعة . وكان يقف فى وجه أجرأ مشروعات الدوق فى بعض الأحيان قرار حر يصـــدر من برلمانه المؤلف من البارونات . وقد تآمر الاثنا عشر دوقا الذين وقع الاختيار عليهم فى انتخاب عام ضد نفوذه . وطالب أبناء همفرى بالقصاص والانتقام من عمهم الخائن . وكشف جيزكارد بسياسته وقوته مؤامرتهم وأخمـد ثورتهم ، وعاقب المجرمين بالموت أو النفى . غير أنه فى هذه المنازعات الداخليه مرت سنوات دون جدوى وضاعت سدى جهود قومية. وبعد هزيمة أعدائه فى الخارج وهم اليونانيون واللومبارديون والعرب ، تراجعت قواتهم المحطمة الى المدن القوية الزاخرة بالسكان على ساحل البحر . وكانوا متفوقين فى وسائل التحصين والدفاع . أما النورمان فقد

ألفوا القتال على ظهور الخيل . ولم تكن محاولاتهم البدائية لتنجح لولا المثابرة على الشجاعة . وصمدت ساليرنو على المقاومة أكثر من ثمانية أشهر . ودام حصار بارى قرابة أربع سنوات . وفى أثناء هذه الأعمال كان الدوق النورماندى فى المقدمة عند كل خطر . وكان آخر من ينال منه التعب ، كما كان أكثر الجنود جلدا وصبرا . وبينما كان يضيق الخناق على ساليرنو هشم حجر ضخم ألقى من الحصن احدى آلاته الحربية ، وجرحته شظية فى صدره . وأقام أمام بارى فى كوخ حقير أو ثكنة من أغصان جافة مسقوفة بالقش : وهـــذا مكان محفوف بالخطر ، معرض من كل جانب لقسوة الشتاء وحراب العدو .

وتتفق فتوحات روبرت فى ايطاليا مع حدود مملكة نابلى الحالية . ولم تستطع ثورات سبعمائة من السنين أن تفصل بين الأقطار التى وحدها سيفه . وكانت المملكة تتألف من ولايتين يونانيتين : همـا أبوليا وكالابريا ، ومن امارة لومباردية فى ساليرنو ، ومن جمهورية أمالفى ، ومن الأجزاء الداخلية من دوقية بينيفنتوم العتيقة الواسعة . ولم يستثن من قاعدة الخضوع التام الا ثلاثة أقسام ، أعفى الأول الى الأبد والآخران حتى منتصف القرن التالى . ونقل امبراطور ألمانيا الى الحبر الرومانى ، اما على سبيل الهبة أو التبادل ، مدينة بينيفنتوم وما يجاورها . وعلى الرغم من أن هـــذه الأرض المقدسة تعرضت للغزو فى بعض الأحيان ، فان اسم القديس بطرس كان فى النهاية أقوى من سيف النورمان . وأخضعت مستعمرتهم الأولى فى أفيرسا حكومة كابوا ، وسيطرت عليهـا ، واضطر أمراؤها الى التسول أمام قصر آبائهم . واحتفظ دوق نابلى ، وهى العاصمة الحالية ، بالحرية التامة

فى ظلال شبح الامبراطورية البيزنطية . وثمة أشياء جديدة مما أحرزه جيزكارد ، قد تستوقف انتباه القارىء المتلهف لحظـــة ، ليستعرض علوم ساليرنو وتجارة أمالفى .

١ ـــ ان ظهور الفقه ، كأحد العلوم العقلية ، انما يعنى أن القوانين والملكية كان لهما وجود سابق مستقر ، كما أن اللاهوت قد يغنى عنه كمال نور العقل والدين . ولكن الساذج والحكيم كليهما لابد أن يلتمسا العون من علوم الطب والعلاج . واذا كان الترف يزيد من أمراضنا نحن ، فربما كان أذى الضربات والجروح ، أبلغ فى عصـــور المجتمع التى هى أكثر بداوة . وقـــد حملت كنوز الطب اليونانى الى المستعمرات العربية فى أفريقية وأسبانيا وصقلية . وفى أثناء الاتصالات التى حدثت فى السلم وفى الحرب ، ظهر قبس من نور المعرفة ، تعهدته ساليرنو ، وهى مدينة لامعة ، اشتهر رجالها بالأمانة ونساؤها بالجمال . وخصصت مدرسة لفن العلاج ، وهى أول مدرســـة قامت فى ظلام القرون الوسطى فى أوربا . وقد طابت نفوس الأساقفة والرهبان بهذه المهنة الناجعة المربحة . واستدعى عدد كبير من المرضى من أعلى المناصب ومن أقصى الأرض أطباء ساليرنو أو زاروهم . وكان هؤلاء الأطباء ينعمون بحماية الفاتحين من النورمان . ورغم أن جيزكارد نشأ ن
استطاع أن يتبين فضل الفيلسوف و
استغرق تسعا وثلاثين سنة ، عاد قسد
أفريقية) من بغداد بعد أن أتقن لغة

ساليرنو بأعمال تلميذ ابن سينا فى العلاج وبدروسه ومؤلفاته. وظلت مدرسة الطب زمنا طويلا تحت اسم جامعـــة . ولكن تعاليمها اختزلت فى سلسلة من الحكم والأمثال التى جمعت فى الأشعار الليونينية (١) أو الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر .

٢ ـــ وعلى مسافة سبعة أميـــال الى الغـــرب من ساليرنو ، وثلاثين ميلا الى الجنوب من نابلى ، كشفت بلدة أمالفى المغمورة عن قدرتها على الجد فى العمل ، وعما لقيت من جزاء وفاق لهذا الجد ، وكانت الأرض فيها خصبة ، الا أنها ضيقة الرقعة . ولكن البحر كان قريب المنال مفتح الأبواب . وكان أهلوها أول من احترف جلب مصنوعات الشرق ومنتجاته الى العالم الغربى . وكانت هذه التجارة المربحة مصدر ثرائهم وحريتهم . وكانت حكومتها شعبية ، يدير شئونها الدوق ، تحت سيادة الامبراطور اليونانى . وضمت أسوار أمالفى خمسين ألفا من المواطنين . ولم تكن هناك مدينة أخرى تفوقها فيما زودت به من الذهب والفضة وأدوات الترف الثمينة . ونبغ البحـــارة الذين جاءوا أفواجا الى مينائها ، نظريا وعمليا ، فى فنـــون الملاحة والفلك . ويرجع كشف البوصلة التى فتحت أقطـــار الكرة الأرضـــية الى عبقريتهم أو حسن حظهم . وقد امتدت

---

(١) Leonine Verse ـــلون من الشعر الخماسى أو السداسى التفاعيل ، كان سائدا فى العصور الوسطى ، يكون فيـــه المقطع الأوسط والمقطع الأخير من البيت ، من قافية واحدة . ولم يتفق الرأى على أصل هـــذه التسمية . (الترجمة)

تجارتهم الى سواحل ، أو على الأقل الى بضائع ، أفريقية وبلاد العرب والهند . وحظيت جالياتهم فى القسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية بامتيازات المستعمرات المستقلة . وبعد ثلثمائة سنة من الرخاء أنهكت أسلحة النورمان أمالفى ، ودفعت الغيرة بيزا الى نهبها . لكن الأطلال الباقية من الترسانة والكاتدرائية وقصور التجار التى كانت أشبه بقصور الملوك ، تضفى ظلالا من المجد على ألف من صائدى الأسماك .

وبقى روجر ، وهو الثانى عشر والأخير من أبناء تانكرد ، زمنا طويلا حبيسا فى نورمانديا ، نظرا لصغر سنه وكبر سن أبيه . ولكنه بعد ذلك قبل الدعوة الكريمة ، وسارع الى معسكر أبوليا ، وحظى فى البداية بتقدير أخيه الأكبر ، الا أنه استشعر منه الحقد والحسد فيما بعد ، وكان الأخوان من حيث الشجاعة والطموح على قدر سواء . ولكن شباب روجر وجماله وأناقة سلوكه اجتذبت محبة الجنود والشعب ، محبة خالصة مجردة ، وكانت النفقة التى سمح بها له ولأربعين تابعا معه ، من الضآلة بحيث انحدر من الفتح والغزو الى السلب ، ومن السلب الى سرقة الدور . وكانت مفاهيم الملكية آنذاك مائعة فضفاضة ، الى حد أنه اتهم بقلم مؤرخه الخاص ، وبأمر خاص منه ، بسرقة خيل من اصطبل فى ميلفى . من هنا ترى أن روحه انبثقت وسط العوز والعار . ولكنه من هذه الأعمال الحقيرة سما حتى أصبح كفئا لشن حرب مقدسة ، جديرا بأن يحظى بمجدها . وكان حماس أخيه جيزكارد وسياسته يشجعان غزو صقليه . فبعد أن تقهقر اليونانيون ، استرد من عبدة الأوثان — كبرت كلمة قذف تخرج من

أفواه الكاثوليك — خسائرهم وممتلكاتهم . ولكن انقاذ هـذه الجزيرة ، الذى حاولته عبثا قوات الامبراطورية الشرقية ، ثم فى النهاية على يد عصبة صغيرة خاصة من المغامرين . وفى أول محاولة له ، واجه روجر ، فى قارب مكشوف ، أخطارا جساما . ونزل الى البر على شاطىء معاد ، ومعه ستون جنديا فقط ، وطارد العرب حتى أبواب مسينا ، ورجع سالما يحمل أسلاب الريف المجاور . وفى حصن ترانى Trani تجلت كذلك شجاعته وصموده . وفى أيام شيخوخته روى فى سرور بالغ ، أنه فى أثناء المحنة التى حلت بهم بسبب الحصار ، لم يبق له ولزوجته الكونتيس ، الا عبـاءة واحـدة كانا يتناوبان ارتداءها ، وأنه فى هجوم على الحصن قتل جواده ، وقذف العرب بروجر بعيدا ، وأنه مدين بنجاته الى سيفه ، حيث استطاع أن ينسحب وهو يحمل السرج فوق ظهـره حتى لا يبقى أى شىء ولو تافه فى أيدى هؤلاء الأشرار ، رمزا لانتصارهم . وفى حصار ترانى قاوم ثلثمائة من النورمان قوات الجزيرة وصدوها عن الحصن . وفى معركة كيراميو Ceramio هزم مائة وستة وثلاثون جنديا مسيحيا — دون أن ندخل فى حسابنا القديس جورج الذى حارب على ظهر جواد فى الصفوف الأمامية — خمسين ألفا من الخيالة والمشاة . وبعد المعركة احتفظ لخليفة القديس بطرس بالرايات التى أخذت ، وبأربعة من الابل . ولو أن هذه الأسلاب البربرية عرضت فى الكابيتول ، لا فى الفاتيـكان ، لأعادت ذكرى الانتصار فى الحرب البونية . ومن المحتمل جـدا أن أعداد النورمان هـذه ، وهى غير كافية ، تشـير فقط الى فرسانهم والى المحاربين ذوى المراتب العالية النبيلة ، وكان يحيط بكل منهم فى

ميدان القتال خمسة أو ستة من الأتباع . ومع ذلك ، ومع الاستعانة بهذا التفسير ، وبعد أن ندخل فى حسابنا كل ما تستطيع البسالة والأسلحة والسمعة الطيبة أن تفعل ، فان هزيمة أمثال هذه الألوف المؤلفة لا تترك للقارىء الحصيف الا أن يختار بين التصديق بالمعجزة أو بالخرافة . وكثيرا ما تلقى عرب صقلية نجدات قوية من مواطنيهم فى أفريقية . وفى حصار باليرمو كانت سفن بيزا الحربية تساعد خيالة النورمان ، وقد سما تحاسد الأخوين فى ساعة الجد الى مباراة كريمة يتعذر فيها قهرهما . وبعد حرب استمرت ثلاثين عاما حظى روجر بلقب الكونت الأعظم ، وارتقى عرش أكبر جزر البحر المتوسط وأكثرها خصوبة . وأظهر فى ادارته روحا كريمة مستنيرة ، أعلى بكثير من المألوف فى زمانه ، والمأمول من تعليمه . واحتفظ للمسلمين بحرية ممارسة دينهم والتمتع بممتلكاتهم . وألقى فيلسوف طبيب مسلم من مازارا خطبة رنانة أمام الفاتح ، فدعاه الى البلاط ، وترجم وصفه للأقاليم السبعة الى اللغة اللاتينية ، وفضل روجر كتاب الجغرافى العربى بعد أن تصفحه فى جد ، على مؤلفات بطلميوس اليونانى . وكانت هناك بقية مسيحية ساعدت على انتصار النورمان ، فكان جزاؤها انتصار الصليب ، فأعيدت الجزيرة الى سلطان الحبر الرومانى ، الذى بادر الى تعيين أساقفة جدد فى المدن الرئيسية ، وقنع رجال الدين بالأموال الوفيرة الموقوفة على الكنائس والأديرة . ولكن هذا البطل الكاثوليكى أكد حقوق الحاكم المدنى . وبدلا من التنازل عن المناصب ذوات الرواتب فى الكنيسة ، استغل المزاعم البابوية استغلالا بارعا لمصلحته . ووطد سيادة التاج التى زاد منها قرار بابوى غريب يعلن أن أمراء صقلية نواب دائمون للكرسى الرسولى .

ان فتح صقليه أتى لروبرت جيزكارد بمجد أكبر وبخير أقـل . وكانت أبوليا وكالابريا لا تتسعان لطموحه ، فقرر أن ينتهز أو يخلق أول فرصـة لغزو ، وربما لاخضـاع ، الامبراطورية الرومانية فى المشرق . وقد طلق زوجته الأولى ، شريكة حياته المتواضعة ، معتذرا بصلة الدم ، وقدر لابنهما بوهمند أن يحـاكى أباه اللامع الذكر ، لا أن يخلفـه . وكانت زوجه الثانيـة سليلة أمراء ساليرنو . ورضى اللومبارد بتوريث ابنهما روجر ، بحكم القرابة الدموية . وحظيت بناتهما الخمس بالزواج من أبناء الأشراف . وكانت احداهن مخطوبة، منذ صغرها ، لقسطنطين وهو شاب وسيم ، وابن الامبراطور ميكائيل وولى عهده . غير أن ثورة هزت عرش القسطنطينية ، واحتجزت الأسرة المالكة — أسرة دوكاس — فى القصر أو فى أحـد الأديرة . وحزن روبرت وغضب للعـار الذى لحق بابنته ولطرد حليفـه . وسرعان ما ظهر فى ساليرنو يونانى يسمى نفسه بوالد قسطنطين (ميكائيل) ، وروى قصة مغامراته فى سقوطه وهـربه . واعترف الدوق بهـذا الصديق المنكود الحظ ، وأحاطه بمظاهر الأبهة ، وخلع عليه الألقاب اللائقة بمكانة الامبراطور . وفى تقدمه المظفر فى أبوليا وكالابريا حيا الناس ميكائيل هـذا بدموعهم وهتافاتهم . وحث البابا جريجورى السابع الأساقفة على الوعظ ، والكاثوليك على الحرب ، للمعاونة فى هذا العمل الورع ، وهو اعادته الى عرشه ، وكانت أحاديثه مع روبرت كثيرة وصريحة ، وكانت شـجاعة النورمان وكنـوز المشرق تبرر وعودهما المتبادلة . وكان ميكائيل هـذا — باعتراف اليونانيين واللاتين — طبلا أجوف ودجالا ، فهو اما راهب فر من دير ، أو خادم

من خدم القصر ، وقد ابتدع هذه الخدعة جيزكارد الماكر الذى اعتقد أنه بعد أن يضفى هذا المطالب بالعرش على جيوش جيزكارد صفة لائقة ، سينزل الدجال من عليائه ، باشارة من الفاتح ، الى حضيض حياته المغمورة السابقة . ولكن الانتصار هو الحجة الوحيدة التى تحدد ايمان اليونانيين ، وكان حماس اللاتين أقل بكثير من سذاجتهم ، وقد رغب قدماء المحاربين من النورمان فى التمتع بثمار جهودهم ، وارتعد الايطاليون الذين لا يحبون الحروب فرقا من أضرار الحملات البحرية المعروفة وغير المعروفة ، وفى حشوده الجديدة حاول روبرت تجربة أثر الهدايا والوعود ، وفظائع السلطان المدنى والدينى . وربما بررت بعض أعمال العنف ما وجه اليه من لوم ، من أن المسنين وصغار السن قد أجبروا دون تمييز ، على خدمة أغراض أميرهم الذى لا يلين ولا يرحم . وبعد سنتين من الاعداد المتواصل اجتمعت القوات البرية والبحرية فى أوترانتو فى أقصى الجنوب من ايطاليا . واصطحب روبرت زوجته التى حاربت الى جانبه ، وابنه بوهمند ، وممثلا للامبراطور ميكائيل . وقد كون عصب الجيش ألف وثلثمائة فارس من النورمان أو ممن دربوا على نهجهم . وربما وصل فى مجموعه الى ثلاثين ألفا من الأتباع من كل ملة . وقد حمل الرجال والخيل والأسلحة والآلات الحربية والقلاع الخشبية التى تكسوها الجلود على ظهر مائة وخمسين سفينة . وقد صنعت سفن النقل فى موانى ايطاليا ، أما زوارق الحرب فقد أمدتهم بها جمهورية راجوسا بناء على تحالف بينهما .

وفى مدخل الأدرياتيك يقترب شاطئا ايطاليا وأبيروس كل منهما من الآخر . فلا تزيد المسافة بين برنديزى ودورازو ــ الممر الرومانى ــ

على مائة ميل ، وفى أقصى نقطة من أوترانتو تضيق حتى تصل الى خمسين ميلا . وهذه المسافة القصيرة هى التى أوحت الى بيروس (ملك أبيروس ٢٩٥ ـــ ٢٨٢ ق م) وبومبى بالفكرة السليمة أو المتطرفة ـــ ألا وهى فكرة تشييد قنطرة . وقبل أن يتم صعود الجنود على ظهر السفن أرسل الدوق النورماندى ابنه بوهمند ومعه خمس عشرة ســـفينة حربية ، ليستولى على جزيرة كورفو أو يهددها ، وليرتاد الشـــاطىء المقابل ، ويختار فى جوار فالونا ، ميناء صالحا لانزال الجنـــود . ومر النورمان وأنزلوا جنودهم دون أن يروا أحدا من الأعداء . وقد أظهرت هذه التجربة الناجحة اهمال قوة اليونان البحرية وانحلالها . وخضعت أبيروس والمدن الساحلية لأسلحة أو لاسم روبرت الذى قاد بنفسه جيشه وأسطوله من جزيرة كورفو (انتى أستعمل الاسم الحديث) الى حصار دورازو وهى مفتاح الامبراطورية من الغرب ، وكانت تحف بها شهرة قديمة وتحميها تحصينات جديدة أقامها جورج باليولوغوس ، وهو من سلالة الأشراف ، وكان قد أحرز النصر فى حروب المشرق ـــ الى جانب حامية كبيرة من الألبانيين والمقدونيين الذين احتفظوا فى كل عصر وزمن بأخلاق الجنود . وفى تنفيذ مشروعه هذا ، تآمرت على شجاعة جيزكارد كل ألوان الخطر وسوء الطالع . ففى أحسن فصل فى السنة ، وبينما كان أسطوله بمحاذاة الساحل ، هبت فجأة عاصفة ثلجية ، وتلاطم الأدرياتيك بريح الجنوب الهائجة ، وأكد تحطيم السفن من جديد سوء سيرة الصخور الأكروكيرونية فى العالم القديم . ومزقت الأشرعة والصوارى والمجاديف أو انتزعت وألقيت بعيدا . وغطى البحر والشاطىء ببقايا السفن والأسلحة وجثث الموتى . وغرق أكبر جزء من المؤن أو تلف . وأنقذ الزورق الحربى الذى

كان يستقله الدوق من براثن الأمواج بعد جهد جهيد . ومكث روبرت سبعة أيام على الرأس المجاور ليجمع شتات خسائره ويرفع من روح جنوده المعنوية . فلم يعد النورمان هم البحارة الشجعان المدربين الذين كشفوا المحيط من الجزيرة الخضراء الى جبال أطلس ، والذين ابتسموا أمام الأخطار الصغيرة فى البحر المتوسط . وكم ذرفوا الدمع أثناء العاصفة ، وأزعجهم اقتراب البنادقة الذين استمالهم البلاط البيزنطى بالرجاء والوعود . ولم تكن نتيجة اليوم الأول غير ذات جدوى لبوهمند الشاب الأمرد الذى قاد قوات أبيه البحرية . وبقيت زوارق الجمهورية طيلة الليل فى مراسيها على شكل هلال . وأحرز النصر فى اليوم التالى براعة حركاتها ومواضع الرماة فيها وثقل حرابهم والعون الذى أسعفتهم به النار اليونانية . فهربت سفن أبوليا وراجوسا الى الشاطىء ، وقطع المنتصرون حبال سفن كثيرة وجروها وراءهم . وأعمل المهاجمون من البلدة السلب والقتل ، وأشاعوا الذعر واليأس فى خيام دوق النورمان . وتدفقت الى دورازو نجدات جاءت فى وقتها المناسب . وما أن فقد المحاصرون السيطرة على البحر ، حتى رفضت المدن الساحلية والجزر امداد المعسكر بالمال والمؤن . وسرعان ما أصاب المعسكر مرض وبائى . فهلك خمسمائة من الفرسان فى ميتة غير كريمة . وبلغ عدد من دفنوا (ان كان كل ميت حظى بدفن لائق) عشرة آلاف شخص . ووسط هذه النكبات بقى عقل جيزكارد وحده قويا لا يقهر . وبينما كان يجمع قوات جديدة من أبوليا وصقلية ، كان يحلم أن يتسلق أسوار دورازو أو يدك أساسها . ولكن جده وشجاعته قوبلتا بشجاعة مساوية وجد أعظم . واندفع

أحد الأبراج وبه خمسمائة جندى على عجلات حتى وصل الى أسفل الحصن . الا أن نزول الباب أو الجسر المتحرك عطلته قطعة خشب ضخمة ، وأحرقت النار اليونانية البرج على الفور .

وبينما كانت الامبراطورية يهاجمها الأتراك من الشرق والنورمان من الغرب ، تنازل خلف ميكائيل لكبر سنه عن الصولجان ، وأسلمه الى ألكسيوس ، وهو ضابط لامع ، وهو الذى أسس أسرة كومنينوس . وتلاحظ الأميرة آن ، وهى ابنته ومؤرخته ، فى أسلوبها المتكلف أن هرقل نفسه لم يكن كفوا لهذه الحرب فى جبهتين . وتطبيقا لهذا المبدأ ، توافق على صلح سريع عقده أبوها مع الأتراك ، حتى يستطيع التفرغ لتخليص دورازو بنفسه . وعند ارتقائه العرش وجد ألكسيوس المعسكرات خاوية من الجنود ، والخزانة خالية من الأموال . ومع ذلك كانت خطواته من النشاط والقوة ، ما مكنه أن يجمع فى ستة أشهر جيشا من سبعين ألف مقاتل ، وأن يقطع مسافة خمسمائة ميل . وقد حشد جنوده فى أوربا وآسيا من المورة الى البحر الأسود . وظهر جلاله وبهاء ملكه فى الأسلحة الموشاة بالفضة والزخارف الثمينة التى ازدانت بها فرق الحرس من الخيالة . وأحاطت بالامبراطور حاشية من النبلاء والأمراء خلع على بعضهم الرداء الأرجوانى فى تناوب سريع ، ونعموا فى غمرة ذلك اللين والرفق ، برغد العيش والقوة . وكان من الممكن أن تلهب حماسهم الشاب حمية الجماهير ، ولكن حبهم للهو ونفورهم من الخضوع كانا ينذران بالشر والفوضى . وكانت المطالبة فى غير أوانها بعمل سريع حاسم من دواعى بلبلة وتشتيت فكر ألكسيوس الذى كان فى استطاعته أن

يحاصر جيش العدو وأن يقتله جوعا . ويقتضينا تعداد الولايات عقد مقارنة حزينة بين حدود العـــالم الرومانى فى الماضى والحاضر . وحشدت فرق المجندين بسرعة وفى فزع ، واشتريت حامية الأناضول أو آسيا الصغرى باخلاء مدن احتلها الأتراك فى التو . وتألفت قوة الجيش اليونانى من الفارانجيين ، أى الحرس الاسكندينافى الذى زادت فى أعداده فيما بعد أفواج من المنفيين والمتطوعين جاءوا من الجزيرة البريطـانية تولى Thule . ورزح الدنماركيون والانجليز سويا تحت نير الفاتح النورماندى فأدى ذلك الى اتحادهم . وصممت عصبة من الشباب المغامر على هجر أرض العبودية ، وكان البحـــر مفتوحا أمامهم ، وفى طوافهـم الطويل زاروا كل شاطىء بعث الى نفوسهم أملا فى الحرية والانتقام . الى أن التحقوا بخدمة امبراطور اليونان . وكان مستقرهم الأول فى مدينة جديدة على الشـــاطىء الآسيوى . ولكن سرعان ما استدعاهم ألكسيوس لحراسة شخصه والدفاع عن قصره . وقد ترك ولاءهم وشجاعتهم ميراثا لخلفائه من بعده . وقد أثار اسم الغازى النورماندى فى نفوسهم ذكرى ما ارتكبوا من أخطاء ، فجدوا السير لملاقاة هذا العدو القومى . ولهثوا ليستعيدوا فى أبيروس ما فقدوا من مجد فى معركة هيستنجز وكان يعاون الفارانجيين بعض الفرق من الفرنجة واللاتين . وتاقت نفوس الثوار الذين فروا الى القسطنطينية من طغيان جيزكارد الى اظهار غيرتهم واشباع انتقامهم . وفى هذه الظروف الحرجة لم يحتقر الامبراطور العون المدنس الذى عرضـــته طائفـــة Paulicians أو اتباع مانى فى تراقية وبلغاريا . وكان هؤلاء الهراطقـــة يجمعون بين صبر الشـــهداء وبين النظـام

والبسالة الحقة . وبمقتضى المعاهدة التى عقدت مع الأتراك جيء بعدة آلاف من الجنود العثمانيين . وكانت سهام الخيالة الذين جاءوا من سكيذيا تقف فى وجه حراب الخيالة النورمان . وعند ورود الأخبار عن هذه الأعداد الرهيبة ، رغم أنها لم تكن قد اقتربت بعد ، عقد روبرت مجلسا شهده أكبر ضباطه ، وقال لهم : « انكم ترون ما يحدق بكم من خطر داهم لا مفر منه . فالتلال مغطاة بالأسلحة والرايات . وامبراطور اليونان قد ألف الحروب والانتصار . وفى الطاعة والاتحاد سلامتنا ونجاتنا . وانى على استعداد أن أترك القيادة لقائد أكثر جدارة » . فأكدت له أصواتهم وهتافاتهم ، حتى من أولئك الذين يضمرون له العداء ، أنه فى ساعة العسرة هذه حائز على تقديرهم وثقتهم . فاستطرد الدوق يقول : « فلنثق فى ثمار النصر ولنقطع على الجبناء سبيل الفرار . فلنحرق سفننا وأمتعتنا ولنحارب فى هذه البقعة كأنها مسقط رءوسنا وقبورنا معا » . وقد نال هذا الاقتراح موافقة اجماعية . ودون أن يحصر نفسه فى خطوطه ، انتظر جيزكارد وهو متأهب للقتال اقتراب العدو ، وكان يحمى مؤخرته نهر صغير ، وقد امتد جناح جيشه الأيمن الى البحر ، كما امتد الأيسر الى التلال . وربما لم يكن يدرك أنه فى هذه البقعة عينها تنازع قيصر وبومبى قديما حكم العالم .

وقرر ألكسيوس ، ضد نصيحة أعقل ضباطه . أن يخاطر بكل شيء فى موقعة عامة وحرض حامية دورازو على المعاونة فى انقاذهم بهجوم يحسنون توقيته من البلدة . وقسم جيشه الى فرقتين ، وسار بهما ليفاجيء النورمان قبيل الصبح فى جبهتين مختلفتين . وانتشرت خيالته الخفيفة

فى السهل ، وكون الرماة الخط الثانى . وحظى الفارانجيون بشرف الوقوف فى المقدمة . وفى أول صدام بين الجيش قتلت فؤوس الأجانب كثيرا من جيش جيزكارد الذى تناقص الى خمسة عشر ألف رجل . وولى اللومبارد وجنود كالابريا الادبار فى ذلة وهوان ، فرارا الى النهر والبحر. ولكن القنطرة كانت قد هدمت لتعطل أى هجوم تقوم به الحامية . وكان الساحل مغطى ببوارج البنادقه الذين أعملوا آلاتهم فى هذا الزحام المهوش . وأنقذهم ، وهم على حافة الدمار ، روح زعمائهم وسلوكهم. وقد صور اليونانيون جايتا Gaita زوجة روبرت فى صورة «الأمازونية» المقاتلة ، أو بلاس Pallas أخرى ، أقل مهارة فى الفنون من تلك الالهة الأثينية ولكنها ليست أقل ارهابا فى الحروب . ومع أنها قد أصيبت بسهم فانها ثبتت فى مكانها وجاهدت بما ضربت من مثل ، وبما بذلت من نصح وحض وتحذير ، أن تجمع شتات الجنود الفارين . وقد عاون صوتها النسائى الضعيف صوت دوق النورمان وذراعه القوية ، وكان هادئا وسط المعمعة كما كان عظيما فى المجلس . صاح بصوت مدو : « أين أين ، المفر ؟ ان عدوكم لا يرحم ، والموت أقل ايلاما من العبودية » . وكانت اللحظة الفاصلة . فعندما تقدم الفارانجيون الى خط القتال أدركوا أن جناحيهم عاريتان . وقد وقفت قوة الدوق الأساسية وهى تتألف من ثمانمائة فارس ثابتة لم تمس ، وقد سددت حرابها . ويصف اليونانيون فى أسى عميق نزال الخيالة الفرنسية الوحشى ، الذى لا يقاوم . ولم يقصر الكسيوس فى أداء واجبه كجندى وكقائد ، ولكنه سرعان ما رأى الفارانجيين يذبحون والأتراك يهربون حتى احتقر رعاياه ، ويئس من حظه . ولم يكن فى مقدور الأميرة التى ذرفت الدمع

على هذا الحادث المحزن الا أن تثنى على قوة جواد أبيها وسرعته ، وعلى نضال والدها القوى ، وقد كادت ضربة من حربة حطمت خوذة الامبراطور أن تلقيه من فوق حصانه . وفى شجاعة يائسة اخترق صفوف فرقة من الفرنجة كانت تعترض سبيل فراره . وبعد أن هام على وجهه يومين وليلتين فى الجبال وجد بعض الراحة لجسده لا لعقله فى داخل أسوار ليخنيدوس Lychnidus وقد عاب روبرت المنتصر المطاردة البطيئة الضعيفة التى سمحت لهذه الفريسة الثمينة أن تهرب . ولكنه تعزى عن هذا الأمل الضائع بالأسلاب ورايات القتال وثراء المعسكر البيزنطى وترفه ، وبمجد هزيمة جيش يزيد فى العدد على خمسة أمثال جيشه . لقد سقط عدد كبير من الايطاليين ضحايا خوفهم ، ولكن ثلاثين فقط من فرسانه قتلوا فى هذا اليوم المشهود . وفى الجيش الرومانى بلغت خسارة اليونانيين والأتراك والانجليز خمسة آلاف أو ستة . واصطبغ سهل دورازو بالدم النبيل والملكى ، وكانت نهاية ميكائيل المحتال أشرف من حياته .

ومن المرجح أن جيزكارد لم يحزن لفقد هذا المحتال الثمين الذى استحق ازدراء اليونانيين وسخريتهم . لقد ثابروا بعد هزيمتهم على الدفاع عن دورازو . وحل قائد من البنادقة محل جورج باليولوجوس الذى أخرج من منصبه ، وكان من الحمق اخراجه . وقد تحولت خيام المحاصرين الى ثكنات لرد قسوة الشتاء ، وفى رده على تحدى الحامية أشار روبرت الى أن صبره كان على الأقل مساويا لعنادهم . وربما كان قد وثق فى المراسلات السرية التى كانت تدور بينه وبين أحد نبلاء البندقية الذى باع المدينة بزواج من عروس غنية نبيلة . وفى سكون الليل تدلت من الأسوار حبال على شكل سلم . فتسلق أهل كالابريا،

وهم خفاف الأجسام ، فى صمت . واستيقظ اليونانيون على اسم الفاتح وأبواقه . ومع ذلك فقد دافعوا عن الشوارع ثلاثة أيام ضد عدو أصبح سيد الحصن . ومر ما يقرب من سبعة أشهر بين بدء الحصار واستسلام البلدة نهائيا . وتقدم دوق النورمان متوغلا فى قلب أبيروس أو ألبانيا . فعبر أول جبال فى تساليا ، وفاجأ ثلثمائة من الانجليز فى مدينة كاستوريا ، واقترب من سالونيك ، وألقى الرعب فى القسطنطينية . وقد أوقف واجب أكثر الحافا تنفيذ مشروعاته الطموحة . فقد نقص عدد جيشه حتى أصبح ثلث عدده الأصلى ، نتيجة تحطم السفن والوباء والسيف . وبدلا من حشد مجندين من ايطاليا ، أنبأته رسائل حزينة تفيض بالشكوى بالأضرار والأخطار التى نجمت عن غيابه ، مثل ثورة المدن وبارونات أبوليا ، وقلق البابا ، واقتراب هنرى ملك ألمانيا أو هجومه . وكان يثق كل الثقة فى أن وجوده كاف لاشاعة الاطمئنان العام . فعبر البحر عائدا فى قارب صغير واحد وترك بقية جيشه تحت قيادة ابنه والأدواق النورمان . وحث بوهمند على احترام حرية قرنائه ، وحث الكونتات على الامتثال لسلطة قائدهم . وحذا ابن جيزكارد حذو والده . حتى لقد قارن اليونانيون بين هذين المخربين وبين اليسروع والجرادة ، حيث تقضى الأخيرة منهما على من ينجو من أسنان الأول . وبعد أن انتصر فى موقعتين ضد الامبراطور ، هبط الى سهل تساليا وحاصر لاريسا ، مملكة أخيل الخرافية ، وكانت تحوى خزائن المعسكر البيزنطى ومستودعاته . ومع ذلك ينبغى ألا نضن بالثناء العادل على ثبات ألكسيوس وحصافته ، حيث كان يناضل بشجاعة ضد نكبات الزمان.

ونظرا لفقر الدولة اجتـــرأ على أن يقترض مقتنيات الكنائس التى لا نفع فيها . وحلت بعض قبائل مولدافيا محل المانيين Manichaeans الذين فروا . وحلت نجدة مؤلفة من سبعة آلاف من الأتراك محـــل اخوانهم الذين فقدوا ، واتنقموا لفقدهم . ودرب الجنود اليونانيون على ركوب الخيل ، ورمى القوس ، وعلى العمل اليومى ونصب الكمائن والتحركات . وعرف ألكسيوس من تجاربه أن خيالة الفرنجة الرهيبة لا تصلح للقتال على الأقدام ، وتكاد تكون حينئذ غير قادرة على الحركة . فأمر رماة السهام فى جيشه بأن يسددوا سهامهم الى الخيل لا الى الرجال . ونثر أنواعا مختلفة من الحراب والشباك على الأرض التى يتوقع أن يحدث عليها هجوم . وطال أمد الحرب حول لاريسا: يوم لك ويوم عليك . وكانت شجاعة بوهمند ظاهرة بارزة وكثـــيرا ما حالفه التوفيق ، ولكن معسكره نهب نتيجة خدعة من اليونانيين . وكانت المدينة منيعة . وهجر الكونتات المرتشـــون أو الساخطون رايته ، وخانوا الأمانة واندمجوا فى سلك الجيش الامبراطورى . وعاد الكسيوس الى القسطنطينية بفوائد النصر لا بشرفه . وأبحر ابن جيزكارد الى ايطاليا بعد الجلاء عن الفتوحات التى لم يعد فى استطاعته الدفاع عنها ، فاحتضنه أبوه الذى قدر كفايته ورثى لكارثته .

ومن بين أمراء اللاتين حلفاء ألكسيوس وأعداء روبرت ، كان أكثرهم نشاطا وقوة هو هنرى الثالث أو الرابع ملك ألمانيا وايطاليا وامبراطور الغرب فيما بعد . وتفيض رسالة ملك اليونان الى أخيه بأحر تعبيرات الصداقة وبأشد الرغبة واللهفة على تقوية حلفهما بكل الروابط العامة والخاصة . وهو يهنىء هنرى بنجاحه فى حرب عادلة

تتسم بالتقوى والورع . ويشكو من اضطراب الأمور فى الامبراطورية من جراء مشروعات روبرت النورماندى الجريئة . وينم ثبت هداياه عن عادات ذاك العصر — تاج من الذهب المتوهج ، صليب محلى باللؤلؤ ليعلق على الصدر ، صندوق من مخلفات القديسين وقد كتب عليها أسماء القديسين وألقابهم ، اناء من البللور ، واناء من العقيق ، وبعض العطور من مكة على الأرجح ، ومائة قطعة من الثياب الأرجوانية . وثمة هدية أكبر قيمة ، هى مائة وأربعة وأربعون ألف قطعة بيزنطية من الذهب ، ومعها توكيد بدفع مائتين وستة عشر ألف قطعة بمجرد دخول جيوش هنرى مناطق أبوليا ، وقطع المواثيق على التحالف ضد عدوهما المشترك . وكان ملك ألمانيا فى ذلك الوقت قد دخل لومبارديا على رأس جيش وحلف ، ولهذا قبل هذه الهدايا الكريمة وسار الى الجنوب . وخفف من سرعته صوت المعركة حول دورازو . ولكن أسلحة روبرت أو اسمه حين تعجل العودة الى الميدان ، كان لها الأثر نفسه الذى أحدثته الرشوة اليونانية . وكان هنرى خصما لدودا للنورمان حلفاء جريجورى السابع وتابعيه ، وهو عدوه الذى يلين ولا ينثنى . وكان طموح هذا القس المتعجرف وحماسه قد اشعلا منذ وقت قريب ذاك النزاع الطويل بين العرش والقلنسوة . وقد حقر الملك والبابا كل منهما من شأن الآخر . وأجلس كل منهما منافسا على عرش خصمه الروحى أو الزمنى . وبعد هزيمة زعيم الثورة السوابى وموته ، هبط هنرى الى ايطاليا ليضع تاج الأباطرة على هامته ، وليطرد من الفاتيكان طاغية الكنيسة . ولكن الشعب الرومانى التف حول جريجورى ، وكان يشد من أزرهم ويقوى من عزائمهم

مدد من المال والرجال يأتيهم من أبوليا ، وفشل ملك ألمانيا ثلاث مرات فى حصار مدينة رومة . وفى السنة الرابعة اشـــترى بذهب بيزنطة ، على ما يقال ، نبلاء رومة الذين كانت مزارعهم وقلاعهم قد دمرت بسبب الحرب . فوضعت تحت تصرفه البوابات والقنـــاطر وخمسون من الرهائن . ورسم كليمنث الثالث ، عدو البابا ، فى قصر اللاتيران ، وتوج هذا الحبر المعترف بالجميل ، حاميه فى الفاتيكان . واتخذ الامبراطور هنرى مقره فى الكابيتول كخليفة شرعى لأوغسطس وشرلمان . وكان ابن أخ أو ابن أخت جريجـــورى لا يزال يدافع عن بقـــايا « النـــافورة » Seprtizonium ، أما البـــابا نفســـه فقـــد فقد حوصر فى قلعـــة القديس أنجيلو St. Angelo . وكان يضـــع أمله الأخير فى بسالة تابعـــه النورماندى وولائه . وكانت القطيعـــة قد دبت بين هذين الصديقين بسبب اساءات وشكاوى متبادلة . ولكن فى هذا الظرف الملح كان جيزكارد مدفوعا بضرورة البر بقسمه وبالجرى وراء مصلحته ، وهذه أقوى من أى قسم ، وبحبه للشهرة ، وبعدائه للامبراطورين . فرفع الراية المقدسة وصمم على أن يسارع الى نجدة أمير الرسل . فاجتمع له توا أكبر جيش مؤلف من ستة آلاف من الخيالة وثلاثين ألفا من المشاة . ولقى مسيره من ساليرنو الى رومه تشجيعا واستحسانا عاما ووعدا بالعـــون الالهى . وارتعد لقدومه هنرى . وهو الذى خرج ظافرا فى ست وستين معركة . فتذكر أن أمورا لا يمكن اغفالها تستدعى وجوده فى لومبارديا ، وحث الرومان على الثبات على ولائهم ، وتراجع بسرعة قبل وصول النورمان بأيام ثلاثة . وفى أقل من ثلاثة أعوام استمتع ابن تانكرد دى أوتفيـــل بالمجد الذى واتاه من انقاذ البابا واجبار اثنين من الأباطرة فى الشرق

والغرب على الفرار أمام جيوشه المظفرة . ولكن نكبات رومه كدرت صفو النصر الذى أحرزه روبرت . ذلك أن الأعداء نقبوا الأسوار أو تسلقوها ، بمساعدة أصدقاء جريجورى فى رومه ، ولكن حـزب الامبراطور كان لا يزال قويا نشيطا . ففى اليوم الثالث هب الأهالى فى شغب عارم . وكانت كلمة بدرت من المنتصر فى غير روية ، دفاعا عن نفسه أو انتقاما من أعدائه ، هى المؤذنة باشعال الحرائق والسلب والنهب . وانتهز عرب صقلية ، رعايا روجر ، والقوات المسـاعدة لأخيه ، هذه الفرصة الذهبية لنهب مدينة المسيحيين المقدسة وتدنيسها . فتعرض الألوف من المواطنين تحت بصر أبيهم الروحى ، وبأيدى حلفائه للاعتداء أو الأسر أو الموت . والتهمت الحرائق حيا شاسعا من أحياء المدينة يمتد من اللاتيران الى الكوليزيوم ، وأضحى قفرا الى الأبد . وتراجع جريجورى عن تلك المدينة التى أصبح فيها بغيضا ، لا يخشاه أحد بعد اليوم ، ليقضى بقية أيامه فى قصر ساليرنو . وربما تملق الحبر الماكر جيزكارد ممنيا اياه بأمل الحصول على التاج الرومانى أو التاج الامبراطورى . ولكن هذه الخطوة الجرئية التى كان من الممكن أن تلهب طموح النورمان ، كان من المحتوم أن تغضب الى الأبد أكثر أمراء ألمانيا ولاء .

* * *

يلخص جيبون فى الجزء الباقى من هذا الفصل المنازعات الأخرى التى نشبت بين النورمان وبين الشرق والغرب ٠ وغزا روجر ملك صـقلية بلاد اليونان وأنقذ لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٤٦ ٠ وفى مقابل ذلك صد الامبراطور عمانويل النورمان وقام بهجوم على أبوليا وكالابريا (١١٤٨ ـ ١١٥٥) ٠ ولم يتقـدم خطـوة أخرى بمشروعه لاسترداد امبراطورية الغرب ٠ وفى سنة ١١٩٤ فتح الامبراطور هنرى السادس صقلية ولم يأت عام ١٢٠٤ حتى كانت قوة النورمان فى منطقـة البحر المتوسط قد زالت ٠



الفصل السابع والخمسون
(١٠٧٤ - ١٠٩٦)

مملكة الروم • فتح الأتراك بيت المقدس

« كان الأتراك السلاجقة أول من ظهر من الأمم التى قدر لهـــا أن تقضى نهائيا على الامبراطورية الرومانية • وبعـد القيـــام بحملات على هندستان واخضاع فارس هاجموا الولايات الآسيوية • ففى سنة ١٠٧١ وتحت قيادة الب أرســلان هزموا الرومان وأسروا الامبراطور رومانوس ديوجنيس • وفى الســنوات العشرين التالية بلغ ازدهار امبراطورية السلاجقة ذروته فى عهد ابن أرســلان المســمى ملك شاه • أما الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى فقـــد خضعت لسليمان ، وهو من سلالة سلجوق • »

مملكة الروم

منذ الفتوحات الأولى التى تمت فى زمن الخلفاء ، يعتبر استقرار الترك فى الأناضول أو آسيا الصغرى ، أفدح خســـارة يؤسف لها لحقت بالكنيســـة والامبراطورية . وكان سليمان أهلا لأن يلقب بالغازى ـــ البطل المقدس ـــ لنشره الدين الاسلامى . وقد أضيفت مملكته الرومانية أو الرومية الشرقية الجديدة الى جداول الجغرافية فى المشرق . وكانت تمتد من الفرات الى القسطنطينية ، ومن البحر الأسود الى حدود سورية . وكانت غنية بمناجم الفضة والحـديد والشب والنحاس ، وذات انتاج وفير من الحبوب والكروم ، زاخرة بالماشية

والخيول الأصيلة . وكانت ثروة ليديا وفنـــون اليونان وبهاء عصر أوغسطس ، تقبع جميعها فى بطون الكتب وفى الأطلال التى أحاط بها الغموض نفســـه فى أعين الفاتحين الســـكوذيين . وعلى الرغم من انحطاط الأناضول الآن فلا يزال بها بعض المدن الغنية الآهلة بالسكان. وكانت فى العصر البيزنطى أكثر ازدهارا فى العدد والحجم والغنى . ووقع اختيار السلطان على نيقيا ، عاصمة بيثينيا ، لبناء قصره وقلعته . وكان مقر أسرة الروم السلاجقة يبعد مائة ميل عن القسطنطينية . ولم يعترفوا بألوهية المسيح ، بل سخروا منها فى المعبد نفسه الذى أقرها فيه أول مجمع كاثوليكى عام . وبشر فى المساجد بوحدانية الله ورسالة محمد ، ودرست العلوم العربية فى المدارس ، وحكم القضاة وفقا لأحكام القرآن ، وسادت عادات الأتراك ولغتهم فى المدن . وأقيمت المعسكرات التركمانية هنا وهناك فى أرجاء الأناضـــول ، سهولها وجبالها . وتحت شروط قاسية من الجزية والعبودية كان اليونانيون المسيحيون يستطيعون أن يتمتعوا بممارسة دينهم . ولكن أقدس كنائسهم دنست كما أهين قسسهم وأساقفتهم . وأكرهوا على احتمال فوز الوثنية وردة اخوانهم . وكانت مدية الختان تترك علامتها أو أثرها على ألوف كثيرة من أطفالهم . وخصص الآلاف من الأسرى لخدمة سادتهم أو لملاذهم . وبعد سقوط آسيا الصغرى بقيت أنطاكية على ولائها الأول للمسيح وقيصر . ولكن الولاية المنفردة ظلت بعيدة عن كل عون رومانى ، وأحيطت من جميع الجهات بقوى اسلامية . واســتعد فيلاريتوس Philaretus حاكم أنطـاكية ، فى غمـــرة اليأس ، للتضحية بدينه وولائه ، لولا أن ابنه حال بينه وبين الوقوع

فى هذا الاثم . وسارع الابن الى قصر نيقيا وعرض أن يسلم هذه الغنيمة الثمينة الى سليمان . فامتطى السلطان الطموح صهوة جواده وفى اثنتى عشرة ليلة ، (لأنه كان يستريح بالنهار) — قطع رحلة تبلغ ستمائة ميل . وبوغتت أنطاكية بالسرعة التى نفذ بها هـــذا المشروع وبالسرية فيه . ونهج على مثال العاصمة جميع المدن التابعة من اللاذقية الى أرباض حلب . فامتدت فتوحات سليمان وحكمه من اللاذقية الى البسفور التراقى أو « ذراع القديس جورج » ، فبلغ طولها مسيرة ثلاثين يوما ، وعرضها مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ، بين صخور ليكيا والبحر الأسود . وضمن جهل الترك بالملاحة ، لبعض الوقت ، سلامة الامبراطور ، وهى سلامة تتسم بالعار ، ولكن سرعان ما بنى أسطول يتألف من مائتى سفينة بأيدى الأسرى من اليونانيين . فارتعد ألكسيوس فرقا وراء أسوار عاصمته ، وانتشرت رسائله فى جميع أنحاء أوربا ، تستدر عطف اللاتين ، وتصور الخطر المحدق بمدينة قسطنطين ، كما تصور ضعفها ، وتصف ثراءها .

فتح الأتراك بيت المقدس

ولكن أهم فتح للأتراك السلاجقة كان الاســـتيلاء على بيت المقدس الذى سرعان ما أصبح مسرح الأمم ، وعند تسليم المدينـــة الى الخليفة عمر بن الخطـاب اشترط سكان بيت المقدس تأمينهم على دينهم وأملاكهم . ولكن هذه الشروط فسرها سادة كان من الخطر الدخول فى نزاع معهم . وفى السنوات الأربعمائة من حكم الخلفاء كان

الجو السياسى فى بيت المقدس معرضا لتقلبات العواصف والأيام . وكان من الممكن أن يبرر انتزاع ثلاثة أرباع المدينة بزيادة السكان وكثرة من اعتنقوا الدين الاسلامى . ولكن كان هنـــاك حى خاص احتفظ به للبطريق ورجال الكنيسة وشعبها . وكان ثمن هذه الحماية جزية من قطعتين من الذهب . وقد ترك قبر المسيح وكنيسة القيامة فى أيدى أتباعه . وكان الجزء الأكبر عددا والأعظم اعتبارا من هؤلاء الأتباع غرباء فى بيت المقدس . وقد حفز الفتح العربى على الحج الى الأراضى المقدسة بدلا من ابطاله . وقد غذى هذه الحماسة التى دعت الناس الى تحمل مشاق هذه الرحلات الخطيرة انفعالان متجانسان هما الحزن والغضب . ودأبت أفواج من الحجاج من الشرق والغرب على زيارة القبر المقدس والأضرحة المجاورة ، ولا سيما فى عيد الفصح . وكان اليونانيون واللاتين ، والنساطرة واليعاقبة ، والأقباط والأحباش ، والأرمن والجورجيون ـــ كان كل أولئك يتحملون نفقات الكنائس الصغيرة والقساوسة والفقراء ، كل فى طائفته أو جاليته الخاصة . وربما صور الانسجام فى صلاة تقام فى عدد كبير من اللغات المختلفة . وفى عبادة يؤديها مثل هذا العدد الغفير من الأمم فى معبد مشترك ـــ صور منظرا يهذب النفوس ويبعث فيها الطمأنينة ولكن روح العداء وشهوة الانتقـــام زادتا من مرارة الغـــيرة بين الطوائف المسيحية . وفى مملكة المسيح الذى عـــذب والذى عفا عن أعـــدائه ، كان كل فريق يتطلع الى السيطرة والغلبـــة واضـــطهاد اخـــوانه الروحيين . وقد فاز بهـــذا التفوق الفرنجـــة بفضـــل روحهـــم وكثرة عـــددهم . وكان فى عظمة شرلمان حمـــاية للحجيج من اللاتين وكاثوليك المشرق .

وقد خفف هذا الامبراطور الورع بصدقاته من فقر قرطاجه والاسكندرية وبيت المقدس . فشيد وجدد ، من كريم بره ، كثيرا من الأديرة فى فلسطين . وأكبر هارون الرشيد ، أعظم خلفاء العباسيين ، فى زميله المسيحى سموا مماثلا فى العبقرية والقوة . وقوى من صداقتهما تبادل الهدايا والأسرى . ودون تنازل عن سلطانه الفعلى قدم الخليفة الى الامبراطور مفاتيح القبر المقدس ، وربما مفاتيح بيت المقدس أيضا.
وعند انحطاط الملكية الكارلوفنجية شجعت جمهورية أمالفى Amalphi المصالح التجارية والدينية فى المشرق . فنقلت سفنهم الحجاج من اللاتين الى شواطىء مصر وفلسطين . واستحقوا بما يجلبون من البضائع النافعة رضاء الفاطميين ومحالفتهم . فأقيم مولد عام كل سنة على جبل الجلجثة [1] وأسس التجار الايطاليون فى بيت المقدس دير القديس يوحنا ومستشفاه وهو مهد طائفة الرهبان والمحاربين التى حكمت منذ ذاك الوقت جزيرة رودس ومالطة . ولو أن حجاج المسيحيين قنعوا بتبجيل قبر المسيح بوصفه رسولا ، لحاكاهم المسلمون فى ورعهم بدلا من التنديد بهم . ولكن المؤمنين بوحدانية الله ايمانا لا هوادة فيه ساءهم أيما اساءة ، أن يمثل دين ما ولادة الله وموته وبعثه . فدمغت أيقونات الكاثوليك باسم الأصنام . وتبسم المسلمون فى حنق وسخرية من اللهب المعجز الذى يشتعل ليلة عيد الفصح فى القبر المقدس . وظهرت هذه الخدعة التى تتسم بالتقوى لأول مرة فى القرن التاسع واحتضنها فى ورع اللاتين الصليبيون وهى تتكرر كل سنة على يد قساوسة اليونان والأرمن والقبط الذين يخدعون النظارة

(١) Mount Calvary موضع صلب المسيح (المترجم) .

السذج لمصلحتهم الخاصة ولمنفعة طغاتهم . ألست ترى فى كل عصر أن الشعور بالمصلحة يدعم مبدأ التسامح ! وقد ازدادت موارد الأمير والولاة بما ينفقه الحجاج كل عام ، وبما تقدم هذه الألوف الغفيرة من الأجانب من رسوم .

وكانت الثورة التى نقلت الصولجان من العباسيين الى الفاطميين غنما أكثر منها غرما ، للأراضى المقدسة . فالملك المقيم فى مصر يكون أكثر احساسا بأهمية التجارة المسيحية ، كما يكون أمراء فلسطين أو ولاتها أقرب الى عدالة العرش وقوته . ولكن ثالث الخلفاء الفاطميين وهو « الحاكم » الشهير كان شابا متهورا جرده الحاده وطغيانه من خشية الله والخوف من الناس . فكان حكمه خليطا سمجا من الرذيلة والجهالة . ودون نظر الى العادات المصرية القديمة ، فرض على النساء خدرا مطلقا . وأهاج هذا القيد صراخ كل من الجنسين . ولكن هذه الصيحات أثارت جنونه . واشتعلت الحرائق فى جزء من القاهرة القديمة . واشتبك الحراس والأهالى أياما كثيرة فى صراع دموى . وفى البداية أعلن الخليفة عن نفسه أنه مسلم متحمس . فأسس المساجد والكليات وفاض خيره عليها . وكتب ألف ومائتان وتسعون نسخة من القرآن بحروف من ذهب على نفقته . وأزيلت بأمر منه جميع كروم العنب فى الوجه القبلى . ولكن غروره سرعان ما أوحى اليه بالأمل فى احداث دين جديد . وتطلع الى شهرة تفوق شهرة أى نبى ، وأطلق على نفسه « الصورة المرئية للاله الأعلى » الذى ظهر للمرة العاشرة على الأرض فى شخصه الملكى (ظهر تسع مرات قبله !) . وعند النطق باسم الحاكم سيد الأحياء والأموات سجد الناس تقديسا له ، وقد

أقيمت طقوسه السرية على جبل بالقرب من القاهرة .. ووقع ستة عشر ألفا ممن آمنوا به وثيقة ايمانهم . وهناك ـــ حتى اليوم ، شعب محارب قوى الشكيمة ، وهم دروز جبل لبنان ، الذين يؤمنون فى خـــلود طاغية مجنون وألوهيته . وفى صورته القدسية الجديدة كره الحاكم اليهود والنصـــارى كعباد لآلهة تنافسه الربوبية ، بينما كانت هناك بقايا من التعصب تدافع عن شريعة محمد ، وفى كل من مصر وفلسطين حظى اضطهاده القاسى الغشوم ببعض الضحايا أو الشهداء وبكثيرين ممن آمنوا به . وأغفلت الحقوق العامة والامتيازات الخاصة لأتباع المذاهب المختلفة على حد سواء وصدر قرار عام حرم عبادة الأهالى والأجانب . فهدم من أساسه معبد العالم المسيحى بأسره ، وأعنى به كنيسة القيامة ، وعطلت المعجزة الضوئية فى عيد الفصح ، وأنفق جهد كبير دنس فى تدمير الغار المنحوت فى الصخر ، والذى يكون حقـــا القبر المقدس . وعندما حمل الى أوربا هذا الخبر الأثيم أصاب أمم أوربا الذهول والأسى . وبدلا من حمل الســـلاح للدفاع عن الأرض المقدسة ، قنعوا باحراق اليهود أو نفيهم ، على زعم أنهم المستشارون السريون لهـــذا الزنديق المتبربر . ولكن الكوارث التى حلت ببيت المقدس خفف منها الى حد ما تقلب الحاكم نفســـه ، أو ندمه على ما جنت يداه . وكان القرار الملكى باعادة الكنائس قد وقع ، حين قتل هذا الطاغية على يد رجال أرسلتهم أخته للقضاء عليه . أما الخلفاء الذين أتوا بعده فقد جددوا مبدأ التسامح الدينى والسياسى . فعـــاد التسامح المطلق ثانية . وبمعونة من امبراطور القسطنطينية الورع أعيد بناء القبر المقدس من بين الأطلال والخرائب . وبعـــد فترة من

الانقطاع عاد الحجاج بشغف أكبر الى المائدة الروحية . وفى الرحلة البحرية الى فلسطين كانت الأخطار كثـيرة ، وفرص النجاة نادرة . ولكن اعتناق المجر للدير المسيحى فتح طريقا آمنا بين ألمانيا وبـلاد اليونان . وقد خفف القديس ستيفن St. Stephen ، رسول مملكته ببره واحسانه ، على اخوانه المرتحلين وكان لهم خير مرشد فى رحلتهم. ومن بلغراد الى أنطاكيـة قطعوا ألفا وخمســمائة ميل من الأراضى المسيحية وساد الحماس للحج بين الفرنجة أكثر مما كان فى العصور الأولى . فغصت الطرق بجماهير الرجال والنســاء من كل طبقة ، من أولئك الذين أعلنوا أحتقارهم للحياة حين قبلوا قبر مخلصهم . ونبذ الأمراء والبطارقة العناية بممتلكاتهم . وكانت الأعداد الغفيرة من قوافل الأتقياء مقدمة للجيوش الجرارة التى سارت فى العصر التالى تحت لواء الصليب . وقبل أول حــرب صليبية بنحو ثلاثين سنة ، قام رئيس أساقفة منتز Mentz وأساقفة أترخت وبامبرج وراتيسبون بهـذه الرحلة الشاقة من نهر الرين الى نهر الأردن . وقد بلغ عدد أتباعهم سـبعة آلاف شخص . وفى القسطنطينية أكرم الامبراطور وفادتهم . ولكنهم تفاخروا باظهار ثرواتهم ، فحفز ذلك العرب الجفاة الغلاظ على مهاجمتهم ، فاستلوا سيوفهم بعد تردد يمليه الشك ، واحتملوا الحصار فى قرية « كفرنعوم » [1] Capernaum حتى أنقـذهم الوالى الفاطمى بعد أن اشتروا حمايته . وبعـد زيارة الأماكن المقدسـة أبحروا الى ايطاليا . ولكن بقية يائسة من ألفى نفس هى التى عادت الى أوطانهما سالمة . وكان انجولفوس Ingulphus أحد أمناء وليم الفاتح ، أحد

(١) « موضع قديم فى منطقة الجليل فى فلسطين » .

أولئك الذين اشتركوا فى هذه القافلة . وهو يلاحظ أنهم عندما خرجوا من نورماندى كانوا ثلاثين فارسا هماما كامل العدة . ولكن أولئك الذين عبروا الألب منهم فى عودتهم كانوا عشرين متسولا ، يتوكأ كل منهم على عكازته ويحمل مخلاته على ظهره .

وبعد هزيمة الرومان ، كدر الأتراك صفو الهدوء الذى نعم به الخلفاء الفاطميون ، واتجه أحد نواب ملك شاه واسمه أتسيز Atsiz الخوارزمى الى سوريا على رأس جيش قوى وأخضع دمشق بالسيف والمجاعة . أما حمص والمدائن الأخرى فكانت تدين بالولاء لخليفة بغداد وسلطان فارس . وتقدم هذا الأمير المظفر دون مقاومة الى ضفاف النيل. وكان الفاطميون يعدون العدة للفرار الى قلب أفريقية ، ولكن زنوج الحرس وسكان القاهرة قاموا بهجوم مستميت صدوا فيه الأتراك عن حدود مصر . وأطلق هذا القائد ، فى تقهقره ، لجنوده العنان فى اعمال السلب والنهب والقتل ، ودعى قاضى بيت المقدس وأعيان المدينة الى معسكره ، فلقوا حتفهم ، وأعقب ذلك القضاء على ثلاثة آلاف من المواطنين . وقد لقيت قسوة أتسيز أو هزيمته جزاءها على يد السلطان توكوش Toucush أخى ملك شاه الذى أعلن سيادته على سوريا وفلسطين ، وكان يحمل لقبا أعلى ويقود قوات أكبر . وقد حكم السلاجقة حوالى عشرين سنة فى بيت المقدس . ولكن السلطان الوراثى فى المدينة المقدسة ومنطقتها وضع فى يد الأمير أورتوك Ortok أو ترك له ، وهو رئيس احدى القبائل التركمانية . وقد أسس أولاده — بعد طردهم من فلسطين — أسرتين على حدود أرمينية ، وآشور ، وقد حزن المسيحيون الشرقيون والحجاج اللاتين لهذا التغيير الذى وضع على رقابهم نيرا حديديا ، وأخضعهم لهؤلاء الأجانب الوافدين

من الشمال ، بدلا من الحكم النظامى والحلف القديم المعقود مع خلفاء الفاطميين . وكان السلطان العظيم قد أخذ فى بلاطه ومعسكره بفنون الفرس وعاداتهم الى حد ما ، ولكن أكثرية الأمة التركية ولا سيما القبائل الرعوية ، كانت لا تزال موصومة بوحشية البادية . فمن نيقيا الى بيت المقدس كانت أقطار غربى آسيا مسرحا للمشاحنات الخارجية والداخلية . ولم يكن لدى رعاة فلسطين الذى كان لهم سلطان مزعزع على حدود مشكوك فيها — لم يكن لديهم فسحة من الوقت أو القدرة على انتظار الثمار البطيئة لحرية التجارة أو حرية العقيدة . أما الحجاج الذين وصلوا الى بيت المقدس بعد اجتياز أخطار لا حصر لها ، فقد وقعوا فريسة النهب على يد الأفراد ، أو الظلم من جانب الحكومة ، وكثير ما سقطوا صرعى الجوع والمرض قبل أن يسمح لهم بالوقوف أمام القبر المقدس . وقد دفعت روح الهمجية البدائية أو الحماسة الجديدة التركمان الى اهانة رجال الدين من كل مذهب . ولقد سحب البطريق من شعر رأسه على افريز الطريق ، وألقى به فى قبو مظلم لانتزاع فدية عنه باثارة الشفقة فى قلوب أتباعه . وكثيرا ما عطلت العبادة المقدسة فى كنيسة القيامة نتيجة لوحشية سادة البلاد . وحفزت هذه القصة المثيرة للشفقة الملايين من أهل المغرب للسير تحت لواء الصليب لانقاذ الأرض المقدسة . ومع ذلك فما أتفه كل هذه المساوىء والشرور ، اذا قيست بسيئة واحدة مما اقترفه الحاكم بأمر الله واحتمله المسيحيون اللاتين فى صبر وجلد ! لقد أهاجت سيئة أقل اثارة غضب أبنائهم الذين كانوا أسرع منهم الى الغضب . ولقد انبثقت روح جديدة من الفروسية الدينية وتسلط البابوية . وقد مس وتر من أوتار الاحساس المرهف ، وظل هذا الوتر يتردد حتى اهتز له قلب أوربا .

الحروب الصليبية

الفصل التاسع والخمسون

(١٢٤٨ - ١٢٩١)

القديس لويس والحربان الصليبيتان السادسة والسابعة .
ضياع أنطاكية . ضياع عكا والأرض المقدسة .

أهاج استيلاء الأتراك على بيت المقدس الحماس الديني والدنيوى معا فى غرب أوربا ، مما أشعل الحروب الصليبية . وفى عام ١٠٩٩ استرد جودفرى دى بويون بيت المقدس ، وأقيمت مملكة هناك . وفى سنة ١١٨٧ فتح صلاح الدين بيت المقدس وقضى على هذه المملكة . وباء بالفشل ما تلا ذلك من جهود لاستعادة هذه المدينة .

يبدأ جيبون وصفه للحروب الصليبية فى الفصل الثامن والخمسين . وهو يؤجل الى فصل تال (الفصل الستون) وصفه للحرب الصليبية الرابعة لما لها من أثر مباشر على مصير الامبراطورية الرومانية . وقد أثبتنا هذا الفصل كاملا .

القديس لويس والحربان الصليبيتان السادسة والسابعة

من بين الحروب الصليبية السبع ، شن لويس التاسع ملك فرنسا الحربين الأخيرتين . وفقد هذا الملك حريته فى مصر وحياته على ساحل أفريقية . وبعد مضى ثمان وعشرين سنة على وفاته رفع الى مصاف القديسين فى رومه ، وعثر له بسهولة على خمس وستين معجزة ،

وأقسم الشهود أغلظ الأيمان على صحتها ، لدعم مركز هذا القديس الملكى . ويقدم صوت التاريخ شهادة أعظم شرفا اذ يقول بأنه جمع الفضائل كلها بوصفه ملكا وبطلا ورجلا .وبأن حبه للعدالة الخاصة والعامة خفف من روحه العسكرية ، وبأن لويس كان أبا لشعبه ، وصديقا لجيرانه ، ومصدر رعب للكفرة . الا أن الخرافات وحدها بما لها من قوة جبارة أفسدت عقله وقلبه . ولقد دفعه ورعه الى الاعجاب برهبان القديس فرانسيس والرهبان الدومينيكان المتسولين ومحاكاتهم . وطارد فى حماس قاس أعمى أعداء الدين . ونزل أفضل ملك عن عرشه مرتين لينصرف الى مغامرات فارس متدين متجول . ولو كان من يؤرخ له من الرهبان ، لقنع بأن يكيل الثناء لأجدر خلق فيه بالازدراء . ولكن جوانفيل Joinville النبيل الشهم الذى شارك القديس لويس فى أسره وكان صديقه الحميم ، رسم صورة حقيقية واقعية طبيعية لفضائل القديس لويس ونقائصه على السواء . ومن هذه المعلومات الموثوق بها قد تتعلم الارتياب فى الأفكار السياسية التى رمى بها مرارا أولئك الذين قاموا بحملات صليبية من الملوك ، من رغبة فى الحد من سلطان تابعيهم العظام . ولقد جاهد لويس التاسع أكثر مما جاهد أمراء القرون الوسطى ليسترد امتيازات التاج وكللت جهوده بالنجاح . غير أن ذلك تم فى أرض الوطن ، لا فى بلاد المشرق حيث حظى بتلك الامتيازات لنفسه ولذريته من بعده . وكان النذر أو العهد الذى قطعه على نفسه نتيجة لحماسه ومرضه . واذا كان هو المحرك لهذا الحماس الجنونى المقدس فانه كذلك وقع فريسة له وجردت فرنسا من جنودها وكنوزها توطئة لغزو مصر . لقد زخر بحر

قبرص بألف وثمانمائة من المراكب ، مع خمسين ألف رجل ، على حد قول أكثر الاحصاءات تواضعا . واذا كان لنا أن نثق فى اعترافاته ، كما يرويها الغرور الشرقى ، فانه أنزل الى البحر تسعة آلاف وخمسمائة من الخيالة ومائة وثلاثين ألفا من المشاة ، قصدوا الى الحج تحت لوائه .

وكان لويس أول من قفز الى البحر بكامل سلاحه ، ترفرف أمامه رايته المقدسة . وعند أول هجوم على دمياط هجر المسلمون وهم يرتعدون فرقا المدينة المنيعة التى كلفت سلفه حصارا دام ستة عشر شهرا . ولكن دمياط كانت أول فتوحه وآخرها معا . ، ذلك أنه فى الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة أدت نفس الأسباب فى البقعة نفسها الى كوارث مماثلة . وتتيجة للبطء القاتل ظهر الوباء فى المعسكر . ثم تقدم الفرنجة من شاطىء البحر الى عاصمة مصر ، وجاهدوا جهادا كبيرا فى التغلب على فيضان النيل الذى جاء فى غير أوانه والذى كان يعترض طريق تقدمهم . وتحت بصر مليكم الجرىء أظهر نبلاء فرنسا وفرسانها احتقارهم للخطر وللنظام . فاقتحم أخو الملك ، كونت دارتوا ، بلدة المنصورة فى شجاعة لا تبالى . وأعلن الحمام الزاجل الى سكان القاهرة أن كل شىء انتهى . ولكن جنديا انتزع الصولجان فيما بعد ، ضم صفوف الفارين . وكان الجزء الأكبر من جيش المسيحيين متخلفا كثيرا جدا عن مقدمته . فهزم دارتوا وذبح . وصبت النيران اليونانية دون انقطاع على الغزاة . وكانت السفن المصرية تتحكم فى النيل والأعراب يتحكمون فى الأراضى المنبسطة . وقطعت كل المؤن . وزاد كل يوم يمر من خطر المرض والجوع . وبدا التقهقر ضروريا متعذرا فى الوقت نفسه . ويعترف كتاب المشرق

بأنه كان من الممكن أن يهرب القديس ، لو أنه أراد التخلى عن رعاياه فأخذ أسيرا كما أسر الجزء الأكبر من نبلائه . وقتل دون رحمة أو شفقة كل من لم يستطع أن يشترى حياته بخدمة أو فدية . وزينت أسوار القاهرة برءوس القتلى المسيحيين ، وكبل ملك فرنسا بسلاسل وأغلال ثقيلة . ولكن القائد الكريم المظفر ، وهو حفيد لأخ من أخوة صلاح الدين أرسل لأسيره الملكى ثوبا فاخرا من ثياب الأشراف واشترى لويس سلامته وسلامة جنوده برد دمياط ودفع أربعمائة ألف قطعة من الذهب . وفى أحضان الترف والنعيم اللذين عاش فيهما الأبناء المنحلون لرفقاء نور الدين وصلاح الدين كانوا غير قادرين على الوقوف أمام زهرة فرسان أوربا . لقد انتصروا بأسلحة عبيدهم أو مماليكهم التتار الأشداء الذين كانوا قد اشتروهم وهم فى نضارة الصبا من التجار السوريين ، ثم دربوا فى المعسكرات وفى قصر السلطان . ولكن سرعان ما قدمت مصر مثلا جديدا لخطر العصابات البريتورية . وقد ثار غضب تلك الوحوش الضارية ، التى قد أطلقت ضد الأجانب ، لتلتهم ولى نعمتها الذى أحسن اليها ، فقتل توران شاه ، وهو آخر أسرته ، وهو يحمل اكليل النصر ، ودخل أكثر السفاحين جرأة غرفة الملك الأسير بسيوف مسلولة وأيديهم ملطخة بدم مليكهم . ولكن حزم لويس فرض عليهم احترامه . وتغلب جشعهم على قسوتهم وحماستهم ، فنفذت المعاهدة وسمح لملك فرنسا وبقية جيشه بأن يبحروا الى فلسطين . وقد أضاع لويس أربع سنوات داخل أسوار عكا عاجزا عن زيارة بيت المقدس ، غير راغب فى العودة الى أرض الوطن دون أن يحقق مجدا .

وبعد ست عشرة سنة من الحكمة والدعة حفزت ذكرى الهزيمة

لويس الى أن يقوم بالحملة السابعة والأخيرة من الحروب الصليبية . وكانت ماليته قد انتظمت ، ورقعة مملكته قد اتسعت ، كما شب جيل جديد من المحاربين ، ومن ثم تجددت فى نفسه الثقة فأبحر على رأس ستة آلاف من الخيالة وثلاثين ألفا من المشاة . وقد حفزه ضياع انطاكية الى القيام بهذه الحملة . وأغراه أمل زائف فى اعتناق ملك تونس المسيحية ، بالتوجه الى الشاطىء الأفريقى . وقد هونت قصة كنز طائل على عسكره تأجيل رحلتهم الى الأرض المقدسة . وبدلا من أن يجد ملكا يعتنق المسيحية ، قابله حصار طويل ، قضى فيه الفرنسيون نحبهم وهم يلهثون على الرمال المحرقة . ولفظ القديس لويس أنفاسه الأخيره فى خيمته . وفور وفاته أصدر ابنه وخليفته الأمر بالتقهقر . وفى ذلك يقول كاتب رشيق : « هكذا قضى ملك مسيحى نحبه على مقربة من أطلال قرطاجة ، وهو يشن حربا على أتباع محمد فى بلد كانت ديدو[1] قد أدخلت اليه معبودات سوريا » .

ضياع أنطاكية

لا يمكن أن يبتدع دستور أظلم أو أسخف من ذلك الذى يقضى على أهل البلاد بالعبودية الدائمة فى ظل سلطان مطلق متعسف لشرذمة من الأجانب والعبيد . ومع ذلك فتلك ، أو شىء منها ، كانت حال مصر طيلة أكثر من خمسمائة عام . فقد ارتقى أشهر السلاطين من أسرتى

(١) Dido فى الأساطير الرومانية ، أميرة من صور أسست مدينة قرطاجه وأصبحت ملكة عليها . ويقول فرجيل فى الأنيادة انها رحبت بأنياس عندما قدم الى قرطاجه بعد سقوط تروادة ، وانها وقعت فى غرامه ، وانها قتلت نفسها حين غادرها . (الترجمة)

المماليك البحرية والبرجية من بين عصابات التتـــار والقوقاز . وكان يخلف البكوات الأربعة والعشرين ، أى الرؤساء العسكريين ، على الدوام ، لا أبناؤهم ، ولكن خدمهم أو مواليهم . وكانوا يبرزون صك حريتهم الأعظم ، وأعنى معاهدتهم مع السلطان سليم الأول . ولا يزال امبراطور تركيا يكتفى من مصر باعتراف هزيل بالخضوع والجزية . وباستثناء فترات متقطعة من السلام والنظـــام ، تميز حكم هاتين الأسرتين بالسلب والنهب وسفك الدماء . ولكن عرشهم على الرغم من اهتزازه كان يعتمد على دعامتين من النظام والشجاعة . وامتـــد سلطانهم على مصر والشام وبلاد العرب والنوبه . وزاد عدد مماليكهم من ثمانمائة الى خمسة وعشرين ألفا من الفرسان . وزاد عدد جيوشهم بفرق محلية بلغت مائة وسبعة آلاف من الرجالة ، يعاونهم بين الحين والحين ستة وستون ألفا من الأعراب . وأمراء هذا مبلغهم من القوة والحيوية لا يستطيعون أن يحتملوا زمنا طويلا وجود دولة مستقلة من أعدائهم على شواطئهم . واذا كان مصير الفرنجة قد تأخر حوالى أربعين سنة ، فهم مدينون بذلك الى عدم استقرار حكم المماليك والى غزو المغول ، والى معاونة كانت تأتيهم بين الفينة والفينة من حجاج محاربين . وسيلحظ القارىء الانجليزى بين هؤلاء اسم الملك ادوارد الأول الذى حمل الصليب فى حياة والده هنرى . وفك الحصـــار عن عكا على رأس ألف من الجنود . وسار هذا الأمير الذى قدر له فيما بعد أن يفتح ويلز واســكتلنده ، حتى بلغ النـــاصرة على رأس جيش مؤلف من تسعة آلاف . وكان ينافس عمه رتشارد شهرته . وانتزع بشجاعته هدنة مدتها عشر سنين . ولكنه نجا بجرح خطير من

خنجر قاتل متعصب . أما أنطاكيه التى كان موقعها أقل تعرضا لكوارث الحرب المقدسة ، فقد احتلها وخربهـا نهائيا البندقدار ، أو بيبرس سلطان مصر وسوريا ، وقضى على الدويلة اللاتينية التى كانت أول مستقر للمسيحية . وكاد سكانها ينقرضـون بعد قتل سبعة عشر ألفا وأسر مائة ألف منهم . أما البلاد الواقعة على السـاحل مثل اللاذقية وجبلة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور ويافا والقـلاع الحصينة التابعة لفرسان « الاسبتارية » والمعبد فقد سقطت كلها تباعا . وانحصر وجود الفرنجة فى بلدة عكا وفى مستعمرة القديس يوحنا ، فى هـذه البلدة التى كانت تسمى فى بعض الأحيان باسمها الكلاسـيكى : Ptolemais

ضياع عكا والأرض المقدسة

بعد سقوط بيت المقدس أصبحت عكا وهى على بعد سبعين ميلا من القدس ، عاصمة اللاتين المسيحيين . وازدانت بالمبانى القـوية الفخمة وقنوات المياه وميناء صناعية وسور مزدوج . وزاد فى عـدد سكانها سيل لا ينقطع من الحجاج واللاجئـين . وفى الفتـرات التى هدأت فيها أعمال العدوان ، اتجهت تجارة الشرق والغرب الى هذه المحطة الملائمة . وكان يمكن لسوقها أن تقدم انتاج كل مناخ . وكان بها مترجمون لكل لسان . ولكن فى هذا المجتمع الذى التقت فيه كل الأمم انتشرت كل الرذائل بين أتباع عيسى ومحمد . فكان أهـل عكا من النساء والرجال يعتبرون أكثر الخلق فسادا . ولم يكن من المستطاع أن يصلح سلطان القانون من سوء استخدام الأديان . وكان

بهذه البلدة ملوك كثيرون ، ولكن لم تكن بها حكومة . فملوك بيت المقدس وقبرص ، وأمراء بيت لوسيجنان وأمراء أنطاكية ، وكونتات طرابلس وصيدا ، والرؤساء العظام كفرسان البيمارستان والمعبد ، ورهبان التيوتون ،وجمهوريات البندقية وجنوه وبيزا ، ومندوبو البابا وملوك فرنسا وانجلترا — كان لكل منهم سلطان مستقل . وكانت هناك سبع عشرة محكمة تتحكم فى رقاب العباد . ووجد كل مجرم الحماية فى الحى المجاور . وكثيرا ماتفجرت الأحقاد الدفينة بين الأمم فى أعمال العنف وسفك الدماء . وأشبع بعض المغامرين الذين دنسوا الصليب حاجتهم الى المال بنهب القرى الاسلامية ، لما لم يتقاضوا أجورهم .

وقد سلب المسيحيون تسعة عشر تاجرا من سوريا كانوا يتجرون فى ظل الثقة المتبادلة ، وشنقوهم . وقد برر رفض القيام بالترضية الواجبة هجوم السلطان خليل الذى سار ضد عكا فى ستين ألفا من الفرسان ومائة وأربعين ألفا من الرجالة . وكانت مدفعيته (ان صح هذا التعبير) ضخمة وثقيلة . فقد حملت أجزاء آلة واحدة على مائة عربة . وخدم المؤرخ الملكى أبو الفداء فى فرق حماه فكان شاهد عيان لهذه الحرب المقدسة . ومهما كانت مساوىء الفرنجة فقد اشتعلت شجاعتهم حماسة ويأسا . غير أن الشقاق الذى دب بين السبعة عشر رئيسا مزق شملهم ، وتغلبت عليهم قوى السلطان من كل جانب . وبعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما اقتحم المسلمون السور المزدوج . واستسلمت القلعة الرئيسية لمدافعهم . وقام المماليك بهجوم عام . وسقطت البلدة عنوة . وكان القتل أو الأسر هو مصير ستين ألفا من

المسيحيين . وصمد دير ، أو بالأحرى ، قلعة فرسان المعبد ثلاثة أيام أخرى . ولكن سهما أصاب الرئيس الأعلى ، وبقى على قيد الحيـــاة عشرة فقط من خمسمائة فارس . وكان هؤلاء العشرة أتعس حظـــا من ضحايا السيف ، حيث امتدت حياتهم حتى لقوا حتفهم على المقصلة فى ذاك العمل الظالم القاسى ، ألا وهو اهـــدار دم كل الطائفة . وقد استطاع ملك بيت المقـــدس والبطريق والرئيس الأعلى لرهبـــــان البيمارستان أن يشقوا طريقهم الى الشاطىء . ولكن البحر كان هائجا والسفن غير كافية ، فغرق عدد كبير من الفارين قبل أن يصلوا الى جزيرة قبرص التى قد تخفف من ألم لوسيجنان لفقد فلسطين . وقد هدمت بأمر من السلطان كنائس المسيحيين وحصون المدن اللاتينية . ولكن حافزا من الخوف أو الجشع ما زال يفتح الطـريق الى القبر المقدس أمام بعض الحجاج الأتقياء العزل . وخيم صمت حزين موحش على الشاطىء الذى كان لفترة طويلة حديث العالم أجمع .



الفصل الستون

(٨٧٥ - ١٢٠٤)

انشقاق اليونانيين واللاتين وعداؤهم . الحرب الصليبية الرابعة . تحالف الفرنسيين والبنادقة وسيرهم الى القسطنطينية . فتح القسطنطينية ونهبها على يد اللاتين .

جاء انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة اللاتينية فى أعقاب اعادة شرلمان للامبراطورية الغربية مباشرة . ولا يزال ثمة عداء دينى وقومى يفرق بين أكبر جماعتين فى العالم المسيحى . وعجل انشقاق القسطنطينية ــ حيث أبعدت أكثر حلفائها نفعا واستفزت أعظم أعدائها خطرا ــ باضمحلال الامبراطورية الرومانية فى الشرق وسقوطها .

وفى خلال هذا التاريخ ، كثيرا ما تبدت كراهية اليونانيين للاتين واضحة جلية . وقد نشأت الكراهية فى الأصل من ازدراء العبودية ، ثم أذكاها بعد عصر قسطنطين ، غرور المساواة أو السلطان . وفى النهاية ضاق صدرهم بايثار رعاياهم المتمردين التحالف مع الفرنجة . وكان اليونانيون يفاخرون فى كل عصر بتفوقهم فى المعارف الدنيوية والدينية . وبأنهم كانوا السابقين فى تلقى نور المسيحية . وبأنهم أعلنوا قرارات المجامع السبعة العامة ، وبأنهم وحدهم أصحاب لغة الكتاب المقدس والفلسفة . وما كان ينبغى للمتبربرين التائهين فى ظلام الغرب أن يدعوا أنهم يقوون على الجدل فى القضايا العويصة الخفية فى علم اللاهوت . ولكن هؤلاء المتبربرين احتقروا بدورهم طيش أهل الشرق

المقرون بالخبث والقلق ، كما احتقروا فيهم أنهم مبدعو أفانين الهرطقة ، على حين حمدوا فى أنفسهم البساطه التى جعلتهم يقنعون بتقاليد الكنيسة الرسولية . ومع ذلك ففى القرن السابع أصلحت مجامع أسبانيا ومن بعدها مجامع فرنسا ، أو أفسدت ، مذهب نيقيا فى ذلك الموضوع الغامض الخاص بالاقنوم الثالث فى الثالوث . ففى الجدال الطويل الذى ثار فى الشرق حددت بدقة طبيعة المسيح ومولده ، والعلاقة المعروفة بين الآب والابن ، فى صورة باهتة أمام العقل البشرى . وكانت فكرة الولد أقل تماثلا « مع الروح القدس » الذى لم ير فيه الكاثوليك هبة أو صفة الهية ، ولكنهم اعتبروه مادة ، وشخصا ، والها . وهو لم يولد ، ولكنه انبثق على حد التعبير الارثوذوكسى . ولكن هل انبثق من الآب فقط ، أو ربما كان ذلك بوساطة الابن ؟ أو من الآب والابن ؟ وتمسك اليونانيون بالرأى الأول وقال اللاتين بالرأى الثانى وأشعلت اضافة كلمة (وابنه Filioque) الى عقيدة نيقيا نار الخلاف بين الكنائس الشرقية والغالية . وفى بداية النزاع تظاهر الأحبار الرومان بالتزام جانب الحياد والاعتدال ، وشجبوا تلك البدعة ، ولكنهم أذعنوا لمشاعر اخوانهم فيما وراء الألب . وكانوا على ما يبدو ، يودون أن يسدلوا ستارا من الصمت والرفق على هذا البحث الذى لا ضرورة له . وفى الرسائل المتبادلة بين شرلمان وليو الثالث أظهر البابا تسامح السياسة وهبط الامبراطور الى أهواء القساوسة وتعصبهم . ولكن عقيدة رومه القويمة استسلمت تلقائيا لدوافع سياستها الزمنية . ونقشت فى رمز الفاتيكان كلمة « وابنه » التى رغب ليو فى محوها ورتلت فى صلواته . واعتبرت

عقيدة أثناسيوس وعقيدة نيقيا هى العقيدة الكاثوليكية التى لا خلاص لأحد الا اذا آمن بهـا . ويتلقى كل من أتبـاع البابا والبروتستانت اللعنات ، كما يلعنون اليونانيين الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الآب ومن الابن سواء بسواء . ولا تقبل أركان العقيدة هـذه شيئا من المهادنة . ولكن قواعد النظام لابد أن تختلف فى الكنائس البعيدة المستقلة . وقد يجيز منطق رجال الدين أنفسهم أن الخـلاف لا مفرمنه ولا ضرر فيه . وقد فرض الخداع أو الخرافة فى رومه على قساوستها وشمامستها عـدم الزواج كواجب مقـدس . ولكن بين اليونانيين اقتصر عدم الزواج على الأساقفة . ولكن يعوض المركز السـامى عن هذه الخسارة أو يقضى عليها التقدم فى العمر . ورجال الدين فى الأبرشيات — وهم الذين يطلق عليهم اسم الآباء — ينعمون بصحبة زوجاتهم اللائى دخلوا بهن قبل دخولهم فى سلك الوظائف الدينية . وقد ثار جدل عنيف فى القرن الحادى عشر حول موضـوع القربان المقـدس وقد افترض فى الشرق والغرب أن جوهر القـربان المقدس يتوقف على استعمال الخبز المخمر وغير المخمر . أيجوز لى ، فى تاريخ جدى ، أن أذكر اللوم العنيف الذى وجه الى اللاتين الذين وقفوا أمدا طويلا موقف الدفاع ؟ لقد أهملوا ، طبقا للارادة الرسولية، الامتناع عن المنخنقة وعن الدم ، وصاموا — وهذه عادة يهودية — يوم السبت من كل أسبوع . وأباحوا فى الأسبوع الأول من الصوم الكبير استعمال اللبن والجبن . وسمح لرهبانهم الضعفاء بتذوق اللحوم . واستعمل دهن الحيوان بدلا من الزيوت النباتيه لقلتها . واختص الأساقفة باستعمال الزيت المقدس أو المسح به فى التعميد . وتحلى

الأساقفه بالخواتم بوصفهم أعراس كنائسهم . وقد حلق القساوسة لحاهم وعمدوا بالغطاس مرة واحدة . هذه الجرائم وأمثالها هى التى أهاجت غيرة بطارقة القسطنطينية ، والتى بررها بنفس الحماس علماء الكنيسة اللاتينية .

ان التعصب والكراهية القومية عاملان قويان فى احتدام كل نزاع . ولكن يمكن أن نتتبع السبب المباشر لانشقاق اليونانيين ، فى المنافسة التى دبت بين الزعماء الدينيين الذين قالوا بتفوق العاصمة القديمة ، وسموها على ما عداها ، وبين الذين قالوا بسيادة العاصمة الحاكمة وبأنها لا تقل مكانة عن أية عاصمة أخرى فى العالم المسيحى . فحوالى منتصف القرن التاسع ، رقى فوتيوس ، وهو رجل علمانى طموح وضابط فى الحرس والأمين الأول — رقى لكفايته وحظوته الى وظيفة بطريق القسطنطينية ، وهذا مركز مرغوب فيه . لقد تفوق فى العلم ، حتى فى علم الكنيسة على رجال الدين فى عصره . وكانت طهارة أخلاقه فوق كل اتهام . ولكن تنصيبه حدث فى عجلة ، وشاب رفعه الى هذا المنصب بعض الشوائب . كما أن سلفه المعزول ، اجناتيوس ، كان يؤيده عطف الجماهير عليه وعناد أتباعه الذين لجئوا الى تحكيم نقولا الأول وهو س أشد الأحبار الرومان كبرياء وطموحا ، وقد انتهز الفرصه المواتية ليقضى فى أمر منافسه فى الشرق وليصدر حكما بادانته .وزاد فى مرارة هذا النزاع تخاصم آخر على من تكون له الولاية على ملك البلغار والأمة البلغارية . فاعتناق البلغار المسيحية منذ وقت قريب لم يكن ذا قيمة فى نظر أى من الحبرين ، الا اذا استطاع أن يعد المؤمنين الجدد بين رعاياه الخاضعين لسلطانه . وقد

انتصر البطريق اليونانى بمعونة من البلاط الملكى ، ولكنه فى هذا الصراع العنيف كان بدوره قد خلع خليفة القديس بطرس وأشرك الكنيسة اللاتينية فى تهمة الهرطقة والانشقاق . ولقد ضحى فوتيوس بسلام العالم فى مقابل حكم قصير مؤقت مزعزع . فسقط بسقوط حاميه القيصر بارداس : وقام باسيليوس المقدونى باجراء عادل ، فأعاد اجناتيوس الذى لم يحظ سنه ومركزه باحترام لائق . ومن ديره أو سجنه استدر فوتيوس بشكاياته المثيرة للشفقة وتملقه الماكر عطف الامبراطور . وقل أن أغمض منافسه عينيه حين أعيد ثانية الى كرسى القسطنطينية . وبعد موت باسيليون عانى فوتيوس من تذبذب البلاط ومن جحود تلميذه الملكى . فعزل البطريق مرة ثانية ، وربما ندم فى الساعات الأخيرة من حياته ، وهو فى عزلته ، على ما كان ينعم به من حرية فى حياته العادية الجادة . وفى كل ثورة تقبل رجال الدين فى خضوع ، همس الامبراطور واشارته . وكان ثمة مجمع يتألف من ثلثمائة من الأساقفة على استعداد دائم للترحيب بانتصار فوتيوس القديس أو التنديد بسقوط فوتيوس اللعين . أما البابوات فقد أغراهم وعد خادع بنجدة أو مكافأة ، بأن يتقبلوا هذه التصرفات المتباينة . وحظيت مجامع القسطنطينية بموافقتهم عن طريق رسائلهم أو على أيدى نوابهم . ولكن البلاط والأهالى واجناتيوس وفوتيوس وقفوا وقفة رجل واحد ضد مزاعم البابوات : فأهين قساوستهم أو سجنوا ، ونسى الروح القدس ، وضمت بلغاريا الى الأبد الى العرش البيزنطى . وطال أمد الانشقاق ، لأنهم أنحوا بأشد اللائمة على تنصيب بطريق عدة مرات على نهج غير سليم . وقطع ظلام القرن العاشر وفساده كل صلة بين

الأمتين ، ولكنـــه لم يمح ما فى النفوس . ولكن عنـــدما أعاد سيف النورمان كنائس أبوليا الى حظيرة رومه ، أنذرت رسالة وقحة من بطريق اليونان ، رعاياه النازحين من أبوليا بأن يتجنبوا أخطاء اللاتين ويمقتوها . ولم يعد جلال رومه فى صعوده يستطيع أن يحتمل بذاءة ثائر ما ، فأصدر نواب البابا فى قلب القسطنطينية قرارا بحـــرمان ميخائيل كيرولاريوس من الكنيسة . وبعد أن استراحوا من وعثاء السفر . وضعوا على مذبح أيا صوفيا قرارا قاسيا باللعنة والحرمان ، يعدد الهرطقات السبع المهلكات التى يعتنقها اليونانيون ، وتلقى الى الأبد بالمعلمين الآثمين وبأتباعهم الأشقياء فى حظيرة الشيطان وأعوانه . وتبعا لحاجة الكنيسة أو الدولة أعيدت أحيانا الصلات الحســـنة . فاستخدمت أحيانا لغة التسامح والوفاق ، ولكن اليونانيين لم يرجعوا قط عن أخطائهم ، ولم يبطل البابوات قط حكمهم وقرارهم . وبهـــذه الصاعقة يمكن أن نؤرخ وصول الشقاق الى ذروته . وقد زادت كل خطوة طموحة قام بها أحبار رومه من هذه الفرقة . وخجل الأباطرة وارتعدوا من المصير الحقير الذى لاقاه اخوانهم ملوك ألمانيا ، وساء الناس ما لرجال الدين فى الكنيسة اللاتينية من ســـلطة زمنية ، وما تتسم به حياتهم من روح حربية .

عداء اليونانيين واللاتين

أذكت الحملات الثلاث الأولى الى الأرض المقدسة روح الكراهية بين اليونانيين واللاتين ، فغدت البغضـــاء ســـافرة واضحة . واحتال ألكسيوس كومنينوس لكى تتغيب على الأقل العصبة أولو القوة من

الحجاج ، وتآمر خليفتاه عمانويل واسحق أنجيلوس مع المسلمين بغية القضاء على أعظم أمراء الفرنجة . وقد عاونهم فى سياستهم الشريرة المعوجة كل فئات رعاياهم فى طاعة جادة راضية . ويمكن ارجاع جزء كبير من هذا المزاج العدائى الى الاختلاف فى اللغة واللباس والعادات ، وهى التى تفرق بين أمم العالم وتباعد بين بعضها بعضا . وأصاب كبرياء الملك وحذره جرح عميق لاقتحام جيوش أجنبية مملكته ، وادعائهم حق المرور فى ممتلكاته وعبور أسوار عاصمته . وقد أهين رعاياه ونهبوا ، سلبهم الأجانب المتوحشون القادمون من الغرب . وزاد من شدة الكراهية التى يضمرها اليونانيون ذوو النفوس الضعيفة حسدهم الدفين لمشروعات الفرنجة الجريئة الورعة . ولكن هذه الأسباب الدنيوية للعداء القومى دعمها وألهبها سم الحماس الدينى . وبدلا من أن يستقبلهم اخوانهم المسيحيون فى الشرق بمظاهر المودة والعطف والكرم ، درب كل لسان على أن يردد اسم المنشق والهرطيق ، وهى كلمات أقسى على أذن المؤمن صحيح الايمان ، من لفظتى الوثنى والكافر . وبدلا من الشعور بالمحبة نحوهم ، لاتفاقهم فى الدين والعبادة بصفة عامة ، أظهروا لهم البغضاء لاختلافهم فى بعض القواعد التنظيمية أو المسائل اللاهوتية ، مما يمكن أن يختلفوا فيه هم أو معلموهم عن الكنيسة الشرقية . ففى الحرب الصليبية التى قام بها لويس السابع ، غسل رجال الكنيسة اليونانية مذابحهم وطهروها ، لأن قسا فرنسيا دنسها بتقديم قربان عليها . وقد شكا رفاق فردريك بارباروسا مما احتملوا من اساءات على أيدى اليونانيين وألسنتهم بسبب الحقد الغريب الذى أظهره الأساقفة والرهبان

اليونان الذين أثارت دعواتهم وعظاتهم الأهالى ضـــد المتبربرين الملحدين . وقد اتهم البطريق بأنه أعلن أن المؤمنين يستطيعون أن يحظوا بغفران جميع ذنوبهم بالقضاء على المنشقين قضاء مبرما . وقد أهاج متحمس اسمه دوروثيوس Dorotheus مخـاوف الامبراطور واستعاد ثقته بنبوءة أكد فيها أن المنشق الجرمانى بعد أن يهاجم أبواب بلاخرناى Blachernae سيصبح مثـلا فريدا للانتقـام الالهى . وكان مرور هذه الجيوش الضخمة أمرا نادرا وخطيرا ، غير أن الحرب الصليبية خلقت كثيرا من الصلات الودية بين الأمتين ، وزادت من معرفة بعضهم بعضا ، دون أن تقلل من الحزازات بينهم . وقد تطلب ثراء القسطنطينية وترفها جلب منتجات جميع الأمم والأجواء اليها . وأحدث دهاء سكانها العديدين وجهودهم توازنا بين هذه الواردات . وكان موقع القسطنطينية يجتذب تجارة العالم . وكانت تجارتها فى كل فترات وجودها فى أيدى الأجانب . وبعد انهيار أمالفى أقام أهـل البندقية وبيزا وجنوه مصانعهم وجالياتهم فى عاصمة الامبراطورية . وقد كوفئت خدماتهم بألقاب الشرف وبالحصانة . فحصلوا على حق ملكية الأراضى والدور وتكاثرت أسرهم بالزواج من سكان البلاد . وبعد السماح للمسلمين ببناء مسجد ، أصبح من المحال منع قيام كنائس تمارس الطقوس الرومانية . وكانت زوجتا عمانويل كومنينوس من الفرنجة : كانت الأولى أختا لزوجة الامبراطور كونراد ، وكانت الثانية ابنة أمير أنطاكية . وقد زوج ابنه ألكسيوس من ابنة فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، كما تفضل بتزويج ابنته من مركيز مونتفرات الذى تعلم فى قصر القسطنطينية وحظى فيه على ألقاب الشرف . لقد

واجه اليونانى أسلحة الغرب وتطلع الى امبراطوريته . وكان لشجاعة الفرنجة اعتبارها عنده ، وقد وثق فى أمانتهم . ولكن عبقريتهم العسكرية لقيت جزاء غير مناسب باسناد المناصب المريحة اليهم ، كوظائف القضاة ورؤساء الخزانة . وقد طلب عمانويل الى البابا عقد حلف بينهم ، ولكن أصوات الشعب اتهمته بالانحياز الى أمة اللاتين والى دينهم . وفى أثناء حكمه وحكم خليفته ألكسيوس من بعده ، تعرض اللاتين فى القسطنطينية للقذف كأجانب وهراطقة ومحظوظين . ولقد كفروا عن هذا الجرم المثلث أشد تكفير فى الاضطراب الذى أعلن عودة أندرونيكوس واستيلاءه على العرش . حيث قام الأهالى بثورة مسلحة . وأرسل لهم الطاغية من ساحل آسيا جنوده وسفنه لمعاونتهم على الانتقام الوطنى . ولم تؤد مقاومة الأجانب البائسة الا الى اثارة جنون السفاحين وشحذ خناجرهم . ولم يكن فى استطاعة السن أو الجنس أو صلات الصداقة أو القرابة أن تنقذ ضحايا الكراهية القومية والجشع والحماس الدينى . فذبح اللاتين فى بيوتهم وفى الطرقات ، وتحول حيهم الى رماد ، وأحرق رجال الدين منهم فى كنائسهم ، والمرضى فى مستشفياتهم ويمكن تقدير عدد القتلى اذا عرفنا عدد الذين شملتهم الرأفة فبيعوا الى الأتراك كرقيق ، وكان عددهم يقرب من أربعة آلاف . وكان القساوسة والرهبان أكثر الناس صخبا ونشاطا فى القضاء على المنشقين . وكانوا يرتلون صلاة الشكر لله عندما تفصل رأس كاردينال رومانى ، نائب للبابا ، عن جسده وتربط الى ذيل كلب وتجر فى طرقات المدينة وسط السخرية الوحشية. أما أكثر الأجانب يقظة وانتباها ، فقد تراجعوا الى سفنهم عند أول

انذار ، وهربوا من مشهد الدم مخترقين البسفور . وفى أثناء فرارهم أحرقوا وسلبوا مائتى ميل من الساحل ، وأنزلوا انتقاما قاسيا برعايا الامبراطورية الأبرياء ، واختصوا القساوسة والرهبان بأشد الانتقام . وعوضوا عن فقدان أملاكهم وأصدقائهم بما جمعوا من أسلاب . وعند عودتهم أظهروا ايطاليا وأوربا على ثروات اليونانيين وضعفهم ، وعلى خياناتهم وشرهم ، وصوروا مساوئهم على أنها أخلاق الهراطقة المنشقين الأصيلة . لقد أضاعت وساوس الصليبيين الأولين أجمل فرصة لفتح الطريق الى الأرض المقدسة بالاستيلاء على القسطنطينية ، والآن دعت ثورة داخلية الفرنسيين والبنادقة ، بل تكاد تكون قد أجبرتهم ، على غزو الامبراطورية الرومانية فى المشرق .

وفى استعراضى لسلسلة الأمراء البيزنطيين ، كشفت عن رياء أندرونيكوس وطموحه وطغيانه وسقوطه . وأندرونيكوس هذا هو آخر رجل حكم القسطنطينية من أسرة كومنينوس . وقد أنقذت العرش تلك الثورة التى ألقت بأندرونيكوس على أم رأسه ، ورفعت من شأن اسحق أنجيلوس ، وهو من سلالة بنات هذه الأسرة الملكية عينها . وربما وجد من جاء بعد طاغية مثل نيرون الطريق معبدا لأن يكون أهلا لاحترام رعيته ومحبتهم . وكان لهم الحق أحيانا فى أن يحزنوا على ادارة أندرونيكوس . وكان فى استطاعة الطاغية ذى العقل السليم القوى أن يدرك ارتباط مصلحته بالمصلحة العامة . وبينما أرهب كل من أثار مخاوفه ، فانه كان فى مقدور الأهالى الآمنين والولايات البعيدة أن يباركوا عدالة مولاهم التى لا تلين . ولكن من جاء بعده ، امتلأ قلبه غرورا وحقدا على السلطة العليا ، وكانت تنقصه

الشجاعة والقدرة على الاضطلاع بها . فكانت مساوئه ضارة مؤذية للبشر ، وفضائله (ان كانت له فضائل) لا خير فيها لأحد . وقد أبى اليونانيون الذين أرجعوا الى تقصيره جميع الكوارث التى حلت بهم ، أن ينسبوا اليه أى نفع عابر أو أى خير طـــارىء فى تلك الأيام . وغط اسحق فى سبات عميق على عرشه ولم يكن يوقظه الا صـــوت اللهو . وقد استمتع فى أوقات فراغه بالممثلين الهزليين والمهرجين . وحتى فى نظر هؤلاء كان الامبراطور موضع سخرية واحتقار . وقد فاقت مبانيه وولائمه نماذج الترف الملكى . وبلغ عدد خصيانه وخدمه عشرين ألفا . وقد ترتفع نفقة قصره وموائده اليومية وهى أربعة آلاف رطل من الفضة ، فتبلغ أربعة ملايين من الجنيهـــات الانجليزية فى السنة . وقد أعانه السلب والنهب على التخفيف من فقره . واشـــتد السخط العام بالقدر نفسه على ما شاب جمع الدخل وطرق انفاقه من شوائب . وبينما كان اليونانيون يعدون أيام عبوديتهم ، تنبأ له رجل متملق كافأه برفعه الى كرسى البطريق ، بحكم طويل مظفر يمتد الى اثنين وثلاثين عاما ، يمتد فيه سلطانه الى جبال لبنان والى ما وراء الفرات . ولكن الخطوة الوحيدة التى قام بها لتحقيق هذه النبوءة هى ارسال بعثة فخمة تبعث على الخجل الى صلاح الدين تطلب اليه اعادة القبر المقدس ، وتعرض على عدو المسيحية حلفا دفاعيا هجوميا . وتحطمت بقايا الامبراطورية اليونانية وأصبحت خرابا يبابا فى أيد حقيرة غير جديرة ، مثل أيدى اسحق وأخيه . فاغتصب أمير يحمل الاسم نفسه من عائلة كومنينوس جزيرة قبرص التى يثير اسمها معانى الرشاقة والسرور . وقد أدى ارتباط غريب للحوادث الى أن سيف

أميرنا الانجليزى ريتشارد منح هذه الجزيرة الى بيت لوسيجنان تعويضا لهم عن فقد بيت المقدس .

وقد أصيب شرف المملكة فى الصميم ، وهددت سلامة العاصمة ، بسبب قيام البلغار وأهل ولاشيا بثورة . فمنذ انتصار باسيليوس الثانى احتملوا أكثر من مائة وسبعين سنة ، حكم أمـــراء بيزنطة المائع . ولم تتخذ خطوات جدية لفرض سلطان القانون والأخلاق على هذه القبائل المتوحشة . وسيقت قطعانهم وماشيتهم ، وهى مورد رزقهم الوحيد بأمر من اسحق لتزيد فى أبهة الزواج الملكى . ونفد صـــبر محاربيهم الأشداء لانعدام المساواة فى الجيش . فيما يتعلق بالرتب والرواتب . وتمسك بطرس وأسان Asan وهمـــا اثنـــان من رؤسائهم الأقوياء ومن سلالة الملوك القدامى ، بحقوقهما الخاصـــة وبالحرية القومية . وأذاع دجالوهم المشعوذون على الملأ أن حاميهم المجيد القديس ديمتريوس قد تخلى الى الأبد عن اليونانيين . واندلعت نيران الثورة من شواطىء الدانوب الى تلال مقدونية وتراقيا . وبعد مقاومة ضئيلة أذعن اسحق أنجيلوس وأخوه لاستقلالهم . ودب اليأس الى قلوب جنود الامبراطورية عندما رأوا عظام زملائهم وقد تناثرت فوق ممرات جبل هاموس . ووطدت دعائم مملكة بلغاريا الثانية بفضل أسلحة جون أو جوانيس وسياسته . وأرسل ذلك المتبربر الماكر بعثة الى البابا أنوسنت الثالث لتعلن أنه ابن أصيل لرومه من جهة النسب والدين . وتسلم فى خشوع من البابا الأذن بصك النقود وحمل ألقاب الملك ، وتعيين رئيس أساقفة أو بطريق من اللاتين . وفاخر الفاتيكان بهذا الفتح الروحى فى بلغاريا ، وقد كان ذلك أول بوادر الانشقاق .

ولو أن اليونانيين كان فى مقدورهم المحافظة على الامتيازات للكنيسة ، لكانوا تخلوا فى سرور عن حقوق الملكية .

وكان البلغار من الخبث لدرجة أنهم كانوا يدعون بطول البقـــاء لاسحق أنجيلوس ، أقوى ضمان لحريتهم ورخائهم . ومع ذلك فقد نظر رؤساؤهم بعين الاحتقار الى أسرة الامبراطور وشعبه . دون تمييز بينهما . قال أسان لجنوده : « فى جميع اليونانيين ينتج عن المنـــاخ والخلق والتربية نفس الثمار » . وأضاف هذا المحارب : « انظروا الى حربتى والى الرايات التى ترفرف فى الهواء . انهما مختلفان فى اللون فحسب ، ولكنهما مصنوعتان من الحرير عينه ، وهما من ابداع الصانع نفسه . وليس للخط الأرجوانى أى ثمن أعلى أو قيمة أكبر من قيمة نظرائه » . وقام فى أثناء حكم اسحق عدد من أدعياء الملك ، ولكنهم سقطوا الواحد تلو الآخر . وقد اضطر أحد القواد الى شق عصا الطاعة وجلب الدمار على نفسه ، وكان قد وقف فى وجه أساطيل صقليه ، بسبب انكار الامبراطور لجميله وعدم اعترافه بفضله . وأثارت دعة الامبراطور المترفة المؤامرات السرية والمظاهرات الشـــعبية . وقد أنقذت الصدفة الامبراطور ، أو أنه مدين بنجاته لخدمه . وفى النهاية قضى عليه طموح أخيه الذى أنساه الأمل فى الحصول على تاج مؤقت، أواصر القربى والولاء وروابط الصداقة . فبينما كان اسحق فى أودية تراقيا يتابع لهوه البرىء الذى لا خير فيه ، وأعنى به الصيد والقنص ، لبس أخوه ألكسيوس أنجيلوس التاج باجماع أصوات المعسكر . ورضخت العاصمة ورجال الدين لهذا الاختيـــار . ودفع الغرور الامبراطور الى رفض اسم آبائه ليحمل اسم أسرة كومنينـــوس ،

وهو اسم ملكى رفيع . لقد استنفدت ألفاظ الاحتقار فى وصف أخلاق
لسحق الحقيرة . ويمكننى أن أضيف أنه فى أثناء حكم دام ثمان سنوات
دأبت رذائل زوجته يوفروسينى Euphrosyne المترجلة على معاونة
ألكسيوس وكان أحقر من أخيه . وكان أول نبأ تلقاه الامبراطور
المخلوع عن سقوطه هو تألب الحرس عليه ومطاردتهم له ، حيث لم
يعودوا موالين له . ففر أمامهم أكثر من خمسين ميلا حتى وصل
الى بلدة ستاجيرا فى مقدونية . ولكن قبض على هذا الهارب
دون هدف أو أتباع ، وحمل الى القسطنطينية ، وسملت عيناه ،
وسجن فى برج قصى ، مع زاد يسير من الخبز والماء . وفى
الوقت التى شبت فيه هذه الثورة كان ابنه ألكسيوس ، الذى
رباه أبوه ليحمل التاج ، فى الثانية عشرة من عمره . ولكن
لم يمسه أذى . وهبطوا به الى مرتبة التابع الذى يسير فى ركاب
النصر والسلم على السواء . ولكن بينما كان الجيش يعسكر على
شاطىء البحر ، يسرت سفينة ايطالية لهذا الأمير الشاب سبيل الهرب .
وفى زى بحار عادى أفلت من عيون أعدائه ، وعبر الدردنيل ، ووجد
ملجأ أمينا فى جزيرة صقليه . وبعد أن أدى فروض التحية لمقر الرسل
وطالب بحماية البابا انوسنت الثالث ، قبل ألكسيوس دعوة كريمة من
أخته ارين Irene زوجة فيليب السوابى ، ملك الرومان ،
ولكن بينما كان يخترق ايطاليا سمع أن زهرة فرسان الغرب قد
احتشدوا فى البندقية لانقاذ الأرض المقدسة . فلمع فى صدره بريق
من الأمل ، لعله يتمكن من استخدام سيوفهم التى لا تقهر فى اعادة
والده الى عرشه .

الحرب الصليبية الرابعة

بعد انقضاء نحو عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة على ضياع بيت المقدس ، ارتفع صوت « رسول » أو داعية ثالث يهيب بنبلاء فرنسا أن ينفروا الى الحرب المقدسة . وربما كان هذا الداعية أقل تطرفا من بطرس الناسك ، غير أنه كان أقل قدرا بكثير من القديس برنار ، كخطيب وكسياسى . لقد هجر قسيس أمى فى ضواحى باريس يدعى فولك‌دى نيللى ، واجباته الكنسية ليقوم بعمل ذى طابع أكثر جاذبية ألا وهو عمل مبشر شعبى متجول . وذاعت شهرة قدسيته وكراماته فى أنحاء البلاد . وكان قاسيا ، عنيفا فى خطبه ضد رذائل العصر واستمالت عظاته التى كان يلقيها فى شوارع باريس قلوب اللصوص والمرابين والمومسات ، بل وكبار رجال الجامعة وطلابها . وسرعان ما اعتلى البابا انوسنت‌الثالث كرسى القديس بطرس حتى أعلن فى ايطاليا وألمانيا وفرنسا وجوب القيام بحرب صليبية جديدة . وقد أطنب هذا الحبر الفصيح فى وصف خراب بيت المقدس وانتصار الوثنية والعار الذى ألحق بالعالم المسيحى. واقترح ، كرما منه وفضلا ، غفران الذنوب ، ومحو جميع السيئات ، لكل من خدم فى فلسطين سنة بنفسه أو سنتين عن طريق نائب عنه ، وكان فولك‌دى نيللى من بين مندوبى البابا وخطبائه — أكثر الذين نفخوا فى البوق المقدس صخبا وتوفيقا ، وكانت ظروف أعظم ملوك أوربا تقف حائلا دون الاستجابة الى هذه الدعوة المقدسة : كان الامبراطور فردريك الثانى لا يزال طفلا ، وكانت مملكة ألمانيا تتنازعها أسرتان متنافستان فى برنزويك وسوابيا ، أعنى الحزبين الشهيرين حزب

الويلف والجبلين . أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد سبق له النهوض بهذه المهمة ، وكان من العسير اغراؤه بأن يلقى بنفســه الى التهلكة من جديد . ولكن طموحه الى الحمد والثناء لم يكن أقل من طموحه الى القوه والسلطان . فخصص فى سرور وانشراح مبلغا دائما من المال للدفاع عن الأرض المقدسة . أما ريتشارد ملك انجلترا فقد نهل حتى ارتوى من المجد والكوارث التى أصابته فى مغامرته الأولى ، واتخذ موقف السخرية من دعوة فولك دى نيللى الذى لم يكن يستشعر الحياء فى حضرة الملوك . وقال له بلاتتاجينت[1] : « انك تنصحنى بأن أطرد بناتى الثلاث : الكبرياء والجشع والانقياد للشهوة . انى أوصى بها الى أكثر الناس جدارة بها . انى أوصى بكبريائى لفرسان المعبد ، وبجشعى الى رهبان سيستو Cisteaux (وهم فرع من رهبــان البندكت) وبحب الشهوة للقساوسة » . ولكن الوعظ وجد أذنا صاغية لدى كبار التابعين وأمراء الطبقة الثانية . كان ثيوبالد Theobald الباسل ، كونت شامبانيا ، سباقا فى هذا الزحف المقدس . لقد تشجع هذا الشاب الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره بنماذج فريدة من تاريخ أسرته . فقد اشترك أبوه فى الحرب الصليبية الثانية . وقضى أخوه الأكبر نحبه فى فلسطين بعد أن حمل لقب ملك بيت المقدس . وتعاهد ألفان ومائتان من الفرسان على الولاء له والعمل تحت لوائه . وقد تفوق نبلاء شمبانيا فى كل فنون الحرب . ومكنه زواجه من وارثة عرش ناقار من أن يجند فرقة من أبناء غسقونيا الأشداء من جانبى جبال البرانس . وكان رفيقه فى

---

(١) Plantagenet • اسم الأسرة المالكة فى انجلترا من ١١٥٤ ـ ١٣٩٩ أو أى فرد من أفرادها ـ المقصود هنا ريتشارد • (الترجمة)

الحرب لويس ، كونت بلوا وشارتر . وكان لويس من سلالة ملكية كذلك ، لأن هذين الأميرين كانا من أبناء عمومة ملكى انجلترا وفرنسا ، فى وقت معا . ومن بين العدد الغفير من القساوسة والأمراء الذين حذوا حذو هذين الأميرين ، امتاز فى رأيى مولدا وجدارة ، ماثيو من مقاطعة منتمورنسى وكذا سيمون دى منتفورت الشهير ، وهو الذى صب العذاب على طائفة الهراطقة الألبجوا Albigeois ، ونبيل مقدام هو جفرى من فيليهاردوين ، وهو مارشال شامبانيا الذى تفضل فكتب أو أملى فى أسلوب بلده وعصره الذى ينقصه الصقل ، وصفا أصيلا للمجالس والأعمال التى اشترك فيها بنصيب يذكر . واتشح بالصليب فى الوقت نفسه بلدوين ، كونت فلاندرز الذى كان قد اقترن بأخت تيوبولد . وكذلك فعل أخوه هنرى وأشهر فرسان هذه الولاية الغنية المجدة ومواطنيها .
وأوفى الرؤساء فى المباريات العسكرية بكل العهود التى أعلنوها فى الكنائس ونوقشت العمليات الحربية مرارا فى اجتماعات كبيرة قرروا فيها محاولة انقاذ فلسطين من مصر ، وهى قطر أشرف على الدمار بسبب القحط والحروب الداخلية منذ موت صلاح الدين . غير أن المصير الذى لقيه عدد كبير من الجيوش الملكية كان خير شاهد على المشاق والأخطار التى تكتنف الحملات البرية . واذا كان « الفلمنج » يسكنون على شاطىء المحيط ، فان بارونات فرنسا لم يكن لديهم السفن ، كما كانوا يجهلون الملاحة . ولهذا وافقوا على القرار السليم باختيار ستة نواب أو ممثلين ، كان من بينهم فيليهاردوين ومنحهم سلطة توجيه التحركات العسكرية وضمان ذمة الأحلاف ، بالطرق التى يرونها وفق تقديرهم . وكانت الحكومات البحرية فى ايطاليا هى الوحيدة التى تملك وسائل نقل

المحاربين المقدسين وأسلحتهم وخيولهم . فسافر النواب الستة الى البندقية ليطلبوا العون من تلك الجمهورية القوية باثارة نوازع التقوى أو حوافز المصلحة .

وذكرت فيما سلف أنه عند غزو أتيلا لايطاليا ، هرب من المدن التى سقطت فى يد أتيلا فى القارة ، أولئك البنادقة الذين شيدوا مدينة البندقية واختبئوا فى سلسلة من الجزر الواقعة عند رأس الادرياتيك. وفى وسط هذه المياه وهم أحرار فقراء ، مجدون ممتنعون فى مواقعهم. انحاز بعضهم بالتدريج الى بعض ليكونوا جمهورية ، ووضع أول حجر فى تأسيس مدينة البندقية فى جزيرة ريالتو . ثم خلق منصب دائم ، هو وظيفة دوق أو دوج ، بدلا من اختيار اثنى عشر تريبيونا كل عام . ومع أن البنادقة يقيمون على حدود امبراطوريتين ، فانهم فاخروا فى ثقه بأن استقلالهم الدائم يرجع الى نشأة مدينتهم . فحريتهم العتيقة قررها السيف ضد اللاتين ، وقد يبررها القلم . وقد أغضى شرلمان نفسه عن أى ادعاء يفرض سلطانه على جزر خليج الادرياتيك . وهزم ابنه ببين Pepin فى هجومه فى « اللاجون » Lagunas أو القنوات ، حيث كانت عميقة بدرجة تعوق اجتياز الفرسان لها ، على حين أنها ضحلة الى حد يحول دون دخول السفن اليها . وطوال عصر القياصرة الجرمان تميزت أراضى الجمهورية بوضوح عن مملكة ايطاليا . ولكن أهل البندقية اعتبروا أنفسهم واعتبرهم الأجانب ، كما اعتبرهم سادتهم وحكامهم ، جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية اليونانية. وعلامات خضوعهم لليونان فى القرنين التاسع والعاشر كثيرة لا تقبل الجدل . فالألقاب الجوفاء والأمجاد الذليلة ، التى سادت فى بلاط بيزنطة والتى جرى وراءها فى طموح شديد حكام البندقية ، كانت

كلها تحط من قدر حكام أى شعب حر . ولكن أغلال هــذه التبعية التى لم تكن قط مطلقة أو قاسية ، تراخت دون أن يشعر بها أحــد بسبب طموح البندقية وضعف القسطنطينية . فخفت فروض الطاعة حتى أضحت مراسم احترام ، وسما الامتيــاز فأضحى حقا ، ودعم استقلال الممتلكات الخارجية حرية الحكومة الداخلية . فطأطأت مدينتان ساحليتان هما استريا ودالماتيا ، الرأس لسادة الأدرياتيك . وعنــدما حمل البنادقة السلاح ضد النورمان دفاعا عن ألكسيوس ، لم يكن الامبراطور يهيب بهم بوصفهم رعايا ينبغى عليهم أداء واجبهم نحوه ، ولكن بوصفهم حلفاء أوفياء يستضرخ كرمهم وعرفانهم للجميل . وكان البحر الادرياتيكى ارثا خاصا بهم . والحق أن البنادقة تركوا الأجزاء الغربية من البحر المتوسط من تاسكانيا الى جبل طارق لمنافسيهم من سكان بيزا وجنوه . ولكنهم حصلوا من قديم على حصة مجزية من تجارة اليونان ومصر . وزاد ثراؤهم بازدياد الطلب عليها فى أوربا . ويرجع تاريخ مصنوعاتهم الحريرية والزجاجية ، وربما نظام مصارفهم كذلك ، الى زمن سحيق جدا . وقد استمتعوا بثمار جدهم فى رفاهية حياتهم الخــاصة والعامة . ولتوطيــد مكانة رايتهم ، والانتقــام لما يصيبهم ، ولحماية حرية الملاحة ، كانت جمهورية البندقية تستطيع أن تقذف الى البحر بأسطول مكون من مائة سفينة حربية مجهزة بالرجال والعتاد . وكم واجهت قواتها البحرية اليونان والعرب والنــورمان . كما عاونوا الفرنجة فى سوريا على اخضاع الشاطىء . ولكن حماسهم لم يكن نزقا أعمى ، ولم يكن دون هدف ، فعند فتح صور اشتركوا فى حكم هذه المدينة التى كانت تعتبر أول مركز للتجارة فى العالم .

وكانت سياسة البندقية تتميز بجشع الدولة التجارية وغطرسة الدولة البحرية . ولكن طموحها كان يتسم بالحزم والرزانة ، ولم تنس قط أنه ان تكن السفن الحربية نتيجة لعظمتها وضمانا لتلك العظمة ، فان السفن التجارية هى سبب تلك العظمة ومعينها الذى لا ينضب . وفى عقيدتها الدينية تجنبت البندقية انشقاق اليونان دون أن تخضع خضوعا ذليلا لحبر رومه . ويبدو أن اتصالاتهم الحرة مع الكفار فى كل مكان ، خففت منذ البداية من غلواء الخرافة أو العقيدة . وكانت حكومتها فى البداية مزيجا غير محكم من الديمقراطية والملكية . وكانت الجمعية العمومية هى التى تنتخب الدوج . وطالما كان الدوج محبوبا وموفقا فانه تمتع بجلال الأمير وسلطانه ، غير أنه فى الثورات المتكررة كان يخلع أو ينفى أو يقتل نتيجة لظلم الجماهير أو عدالتها . وفى القرن الثانى عشر نشأت الطبقة الأرستقراطية الحاقدة التى أحاطت الدوج بجلال أجوف ، وسلبت الشعب كل نفوذه .

تحالف الفرنسيين مع البنادقة

عندما وصل السفراء الستة للحجاج الفرنسيين الى البندقية ، أكرم وفادتهم ، فى قصر سان مارك ، الدوج الذى كان يتربع فى دست الحكم آنذاك ، وكان اسمه هنرى داندولو ، وقد لمع فى أخريات حياته ، كواحد من أبرز الشخصيات فى عصره . وعلى الرغم مما ناء به من عبء السنين وفقدان البصر ، احتفظ داندولو بقواه العقلية سليمة وبشجاعته ورجولته . وكان يحمل بين جنبيه روح البطل الطموح التواق الى تمييز عصره ببعض المنجزات التى تبقى على الزمن ، كما كان يتحلى بحكمة المحب لوطنه ، الذى يود أن يبنى

شهرته على مجـد الوطن ومصلحته . فأثنى على حماس البـارونات ومبعوثيهم ، وشجاعتهم وثقتهم الكريمة ، قائلا انه لو كان فردا عاديا لتمنى أن ينهى حياته فى الدفاع عن مثل هذه القضية ، مع مثل هؤلاء الرفاق ، ولكنه خادم الجمهورية ولابد من بعض التروى لاستطلاع رأى زملائه فى مشروع خطير كهذا . وعلى الفور ناقش المقترحات الفرنسية الحكماء الستة الذين كانوا قد عينوا حديثا للاشراف على الادارة فى حكومة الدوج . ثم اطلع عليها الأربعون عضوا فى مجلس الدولة . وفى النهاية أحيلت الى الجمعية التشريعية المؤلفة من أربعمائة وخمسين ممثلا ينتخبون سنويا من الأحياء الستة فى المدينـة . وكان الدوج لا يزال الرئيس الأعلى للجمهورية فى الحرب والسلم . وكانت شهرة داندولو وشخصيته تدعمان سلطته الشرعية . ونوقشت فى هذا الاجتماع ووزنت حججه المتعلقة بالمصلحة العامة وتمت الموافقة عليها. وفوض فى ابلاغ المبعوثين بالشروط التالية للمعاهدة : وهى أن يجتمع المحاربون الصليبيون فى البندقية فى يوم عيد القديس يوحنا فى السنة المقبلة ، على أن تعد سفن ذات قاع مستو لنقل أربعة آلاف وخمسمائة جواد وتسعة آلاف تابع ، وأن يجهز عدد كاف من السفن لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرين ألفا من المشاة . وفى مدى تسعة أشهر يزودون بالمؤن ، وينقلون الى أية جهـة تقتضيها خدمة الرب والعالم المسيحى . وعلى جمهورية البندقية أن تشترك بحملة مكونة من خمسين سفينة حربية . كما اشترط أن يدفع الحجاج قبل ابحارهم خمسة وثمانين ألفا من الماركات الفضية . وأن تقسم جميع الفتوحات فى البحر والبر بالتساوى بين الحلفاء . كانت الشروط قاسية ولكن

الظروف ملحة . وكان استعداد البارونات الفرنسيين لبذل المال لا يقل عن استعدادهم لبذل الدم . وعقدت الجمعية العمومية اجتماعا للموافقة على المعاهدة ، واحتشد عشرة آلاف من المواطنين فى كنيسة سان مارك الفخمة وفى الميدان ، ولقن المندوبون النبلاء درسا جديدا فى التواضع أمام جلال الشعب وعظمته . وقال مارشال شامبانيا : « أيها البنادقة العظام ، لقد أوفدنا أعظم بارونات فرنسا وأكثرهم قوة لنرجو عون سادة البحر لانقاذ بيت المقدس . وقد أمرونا أن نخر ساجدين تحت أقدامكم ولن نرفع رءوسنا عن الأرض حتى تعدونا بأن تنتقموا معنا لما لحق المسيح من اساءات » . وقد قوبلت فصاحة المبعوثين ودموعهم وبزتهم العسكرية وضراعتهم ، باستحسان تام وصياح عام ، وصفه جيفرى بأنه كان أشبه شيء بهزة زلزال . واعتلى الدوج المبجل المنصة ليستحث الموافقة على مطلبهم ، مرددا دوافع الشرف والفضيلة ، التى تليق بمقام جمعية شعبية . وكتبت المعاهدة على رق ووثقت بالأيمان والاختام وقبلها الجانبان ، ممثلو فرنسا وممثلو البندقية ، ودموع الفرح تنهمر من عيونهم . وأرسلت الى رومه لتنال موافقة البابا انوسنت الثالث . واقترض ممثلو البندقية من التجار ألفين من الماركات لدفع النفقات المبدئية للحملة . وعاد اثنان من المبعوثين عبر جبال الألب ليعلنا نجاح الوفد . أما رفقاؤهم الأربعة فبقوا للقيام بمحاولة عقيمة لاثارة روح الحماس والمنافسة فى جمهوريتى بيزا وجنوه .

ولقى تنفيذ المعاهدة عقبات وتأجيلات غير متوقعة . وطوق تيبوت كونت شامبانيا الذى وقع عليه الاختيار بالاجماع ليكون قائدا عاما

للحلفاء ـــ طوق المارشال بذراعيه ، وأقر كل ماتم . ولكن صحة ذاك الأمير الشجاع كانت قد بدأت فى الانحلال . وسرعان ما فقد الأمـل فى شفائه . وكان يرثى مصيره الذى جاء قبل أوانه ، وبدلا من أن يستشهد فى ميدان القتال ، حكم عليه بالموت على فراش المرض . وقام هذا الأمير ، وهو يجود بروحه ، بتوزيع كنوزه على أتباعه العديدين الشجعان ، الذين أقسموا فى حضرته على الوفاء بنذره ونذورهم ، ولكن المارشال يقول ان بعضهم قبل الهدايا وحنث فى يمينه . وعقد أولو العزم من أبطال الصليب اجتماعا فى سواسون لاختيار خلف له . وبلغ انعدام الكفاية أو التحاسد أو العزوف والتراخى بين أمراء فرنسا حدا لم يخرجوا معه برجل يجمع بين المقدرة والرغبة فى تحمل عبء قيادة الحملة . فرضـــوا باتتخاب أجنبى هو بونيفـــاس ، مركيز مونتفيرات ، وهو من سلالة الأبطال ، وقد برزت شهرته فى الحروب والمفاوضات فى تلك الأيام . ولم يملك هذا الأمير الايطـالى لورعه أو طموحه الا أن يقبل هذه الدعوة النبيلة . فبعد أن زار البــلاط الفرنسى حيث استقبل كصديق وقريب اتشح فى كنيسة ســواسون بصليب الحجاج وتسلم عصا القيادة وعبر فى التوجبال الألب للاستعداد لهذه الحملة البعيدة فى المشرق . وقبيل عيد العنصره رفع رايته وتقدم نحو البندقية على رأس الايطاليين . وسبقه ، أو جاء بعده ، كونت فلاندرز وكونت بلوا وأبرز بارونات فرنسا . وزاد فى أعدادهم انضمام الحجاج الألمان الذين شاركوهم فى الهدف والبواعث . وقد وفى أهــل البندقية بتعهداتهم ، بل زادوا عليها . فشــيدت اصطبلات للخيول وثكنات للجنود ، وامتلأت المخازن بوفرة من المؤن والعلف . وكان

الأسطول المعد لنقلهم من سفن وزوارق حربية على أهبة الاستعداد للابحار حالما تتسلم جمهورية البندقية الأسلحة وأجور النقل . ولكن هذا الأجر جاوز الى حد كبير طاقة الصليبيين المجتمعين فى البندقية . فالفلمنج الذين كانت طاعتهم لحكامهم اختيارية ومزعزعة أبحروا على سفنهم لقطع الرحلة الطويلة فى المحيط والبحر المتوسط . وآثر كثيرون من الايطاليين والفرنسيين القيام برحلة أقل نفقة وأعظم راحة من مرسيليا وأبوليا الى الأرض المقدسة . وربما شكا كل حاج من أنه بعد أن قدم كل ما طلب منه ، قد بات كذلك مسئولا عن النقص الذى حدث بسبب غياب اخوانه فى الدين . وكانت الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة والتى قدمها الزعماء بسخاء الى خزانة سان مارك تضحية كريمة ، ولكنها غير كافية . وبعد بذل كل تلك الجهود بلغ النقص فى الأجر المتفق عليه أربعة وثلاثين ألفا من الماركات . وقد ذلل الدوج بسياسته ووطنيته هذه العقبة . فاقترح على البارونات أنهم ان اشتركوا فى اخضاع بعض مدن ألمانيا الثائرة فانه سوف يسافر هو نفسه للاشتراك فى الحرب المقدسة ، وسيحصل لهم من الجمهورية على تأجيل طويل الأمد ،حتى يتاح فتح يأتى بمال وفير يكفى لسداد هذا الدين . وبعد شك وتردد كبير فضلوا قبول الاقتراح بدلا من احباط المشروع كله . ووجهت أول أعمال عدائية قام بها الأسطول والجيش ضد زارا Zara ، وهى احدى المدن الحصينة على شاطىء سكلافونيا . وكانت قد طرحت ولاءها للبندقية وطلبت الحماية من ملك المجر . وحطم الصليبيون السلاسل التى تغلق الميناء ، وأنزلوا خيلهم وجنودهم وآلاتهم الحربية على الشاطىء ، وأجبروا السكان بعد

دفاع دام خمسة أيام على التسليم بلا قيد أو شرط وقد أبقى الصليبيون على حياتهم ولكنهم عاقبوهم على ثورتهم بنهب دورهم وهدم أسوار مدينتهم . وكان فصل الشتاء قد أقبل ، فقرر الفرنسيون والبنادقة قضاءه فى مرفأ أمين وقطر يعمه الرخاء . غير أن منازعات قومية صاخبة بين الجنود والبحارة عكرت صفو راحتهم . ذلك أن الاستيلاء على زارا بذر بذور الشقاق والشعور بالخجل . حيث دنست أسلحة الحلفاء منذ البداية بدم المسيحيين ، لا بدم الكفار . ودخل ملك المجر ورعاياه الجدد تحت راية الصليب . وزاد من شكوك الأتقياء خوف الحجاج المترددين وتقاعسهم . وأصدر البابا قرارا بحرمان الصليبيين الزائفين الذين نهبوا وقتلوا اخوانهم المسيحيين . ولم ينج من هذه الصاعقة الروحانية غير مركيز بونيفاس وسيمون دى مونتفورت ، الأول لغيابه عن الحصار ، والثانى لرحيله نهائيا من المعسكر . وكان من الممكن أن يعفو انوسنت عن الفرنسيين ، وأن يقبل توبتهم وخضوعهم. ولكن عنت أهل البندقية والأسباب التى أبدوها أثارت ثائرته ، فقد رفضوا الاعتراف بخطئهم كما أبو قبول عفوه ، أو السماح لقسيس أن يتدخل فى شئونهم الدنيوية .

وقد أحيا حشد له مثل هذه القوة الرهيبة برا وبحرا آمال ألكسيوس الشاب ، فتوسل فى البندقية وفى زارا ، الى جيوش الصليبيين أن تعمل على عودته ، وعلى انقاذ والده . وأوصى فيليب ملك ألمانيا خيرا بهذا الأمير الشاب . وأثارت ضراعته وحضوره شفقة المعسكر . وتبنى قضيته وتولى الدفاع عنه مركيز مونتيفرات ودوج البندقية . وربط حلف مزدوج ، كما ربطت مكانة قيصر ، بين أسرة

الامبراطور وبين أكبر أخوين لبونيفاس ، وكان ينتظر أن يحظى بمملكة جزاء هذه الخدمة الهامة . وكان طموح داندولوا أكثر نبلا ، فقد تاق الى الحصول على فوائد تجارية ضخمة لوطنه ، وعلى ممتلكات تزيد من قوة البندقية . واستطاع نفوذهما أن يحقق استقبالا كريما لسفراء ألكسيوس . وأثارت ضخامة مقترحاته بعض الشك ، ولكن استطاعت البواعث والجوائز التى عرضها أن تبرر أى تأخير لهذه القوات وتوجيهها وجهة أخرى ، وهى المخصصة أصلا لتخليص بيت المقدس . وتعهد ألكسيوس ، باسمه واسم أبيه ، وبمجرد جلوسهما ثانية على عرش القسطنطينية ، بانهاء شقاق اليونانيين الذى طال أمده، وباخضاع شخصهما وشعبهما لسلطان الكنيسة الرومانية الشرعى ، كما وعد بأن يدفع فورا مائتى ألف من الماركات الفضية لقاء المتاعب التى يحتملها الصليبيون ، وأن يسافر معهم بشخصه الى مصر ، أو — اذا رأوا أن ذلك مما يعود عليهم بفائدة أكبر — أن يدفع طوال سنة كاملة نفقات عشرة آلاف رجل ، وأن يخصص طوال حياته خمسمائة فارس للخدمة فى الأرض المقدسة . وقبلت جمهورية البندقية هذه الشروط المغرية . واستمال الدوج المركيز بفصاحته كونت فلاندرز وكونت بلوا وكونت سان بل St. Pol مع ثمانية من بارونات فرنسا الى قبول الاشتراك فى هذا المشروع المجيد . فعقدت معاهدة هجومية دفاعية تم توثيقها بأيمانهم وأختامهم . وكان يسيطر على كل فرد فيهم ، تبعا لمركزه وخلقه ، الأمل فى الحصول على فائدة عامة أو خاصة بما يحرز من شرف العمل على اعادة ملك منفى ، وسيطر على آخرين وكانوا مخلصين ، أنه من المحتمل أن جهودهم فى فلسطين قد تكون

عقيمة لا طائل تحتها ، وأن الاستيلاء على القسطنطينية يجب أن يسبق وأن يمهد لاسترداد بيت المقدس . ولكن هؤلاء كانوا رؤساء أو قرناء لفريق قوى من الأحرار والمتطوعين الذين يفكرون ويتصرفون وفقا لمصلحة أنفسهم . أما الجنود ورجال الدين فقد كانوا منقسمين ، ولو كانت ثمة أغلبية كبيرة تقر التحالف ، فان عدد المعارضين كان عظيما ، وحججهم قوية لها اعتبارها . لقد روع أكثرهم جرأة واقداما بما سمعوا من قوة القسطنطينية البحرية ومنعتها . ولكن مخاوفهم استترت أمام العالم ، وربما أمام أنفسهم ، وراء اعتراضات أكثر وقارا واحتراما ، أملاها الدين والواجب . فاعتذروا بقدسية نذورهم التى جعلتهم يتركون أوطانهم وأسراتهم لانقاذ القبر المقدس . ولا يجوز أن تغير سياسة البشر ونصائحهم الغامضة الملتوية ، من وجهة مسعى تتيجته النهائية فى يد الله سبحانه وتعالى . وقد لاقوا من وخز الضمير ولوم البابا ، جزاء خطيئتهم الأولى فى هجومهم على زارا . ومن ثم لا يجوز أن يغمسوا أيديهم مرة ثانية فى دم اخوانهم المسيحيين . لقد أعلن الحبر الرسولى فى رومه رأيه . ولا يجوز أن ينتزعوا حق الانتقام بالسيف ، من اليونان لانشقاقهم أو بسبب الاغتصاب المشكوك فيه لعرش بيزنطة . وبناء على ذلك انسحب من المعسكر كثيرون من الحجاج ممن امتازوا بالشجاعة والورع . وكان تراجع هؤلاء أقل ضررا من المعارضة السافرة أو الخفية لفريق من المخالفين جاهدوا فى كل فرصة أن يشيعوا الفرقة فى الجيش وأن يحبطوا المشروع .

وعلى الرغم من هذا الانقسام ألح أهل البندقية بشدة على ابحار الأسطول والجيش . وكان تحمس البنادقة لخدمة الأمير الشاب يخفى كراهية عادلة لأمته وأسرته . لقد شق عليهم ايثار بيزا عليهم منذ عهد قريب ، وهى التى تنافسهم فى الميدان التجارى . وكان لديهم رواسب قديمة من الاساءات يريدون تصفيتها مع بلاط بيزنطه . ولم يحاول داندولو أن يحد من انتشار القصة التى سارت على ألسنة الناس ، من أن الامبراطور عمانويل سمل عينيه مرتكبا بذلك جريمة الخيانة والاعتداء على حرمة سفير . ولم يكن أحد قد رأى منذ قرون حملة مماثلة تبحر فى بحر الادرياتيك ، مكونة من مائة وعشرين سفينة من ذوات القاع المستوى لنقل الخيل ، ومائتين وأربعين ناقلة حملت رجالا وأسلحة ، وسبعين سفينة تحمل المؤن ، وخمسين سفينة ضخمة من زوارق الحرب قد أعدت اعدادا هائلا لملاقاة الأعداء . وبينما كانت الريح رخاء والسماء صحوا والماء أملس ناعما شخصت كل عين عجبا وسرورا بمنظر البهاء الحربى والبحرى الذى انتشر على اليم . ونسقت دروع الفرسان ، وهى زينة وعدة للدفاع فى وقت معا ، على جوانب السفن . ورفرفت أعلام الأمم والأسر فى المؤخرة . وحل محل مدفعيتنا الحديثة ثلثمائة آلة لالقاء الأحجار ورمى السهام . وخففت أنغام الموسيقا من متاعب الطريق . وارتفعت روح المغامرين بالتأكيد المتبادل بأن أربعين ألفا من أبطال المسيحيين كفو لفتح العالم بأسره . وكانت رحلة الأسطول من البندقية وزارا موفقة تحت اشراف مرشدين من

البنادقة بلغـوا الذروة فى المهـارة والخبرة . ونزل الحلفـاء أولا فى دورازو فى نقطة داخل حدود الامبراطورية اليونانية . وقدمت لهم جزيرة كورفو مستقرا ومقاما للراحة . وطافوا دون أن يمسـهم أذى حول رأس ماليا الخطر ، وهو أقصى نقطة فى المورة . وهبطوا على جزيرتى نجروبونت وأندروس . ورست سـفنهم فى أبيدوس على الشاطىء الأسيوى للدرنيل . وكانت مقـدمات الفتح هـذه سهلة ، وتمت دون سفك للدماء ، حيث تغلبت على اليونانيين فى الولايات ، الذين كانت تعوزهم الشجاعة أو الوطنية ، قوى لا قبل لهم بمقاومتها . وربما برر امتثالهم وجود ولى العهد الشرعى . ولقى هذا الامتثـال جزاءه فى تواضع اللاتين ودقة نظامهم . وعندما توغلوا داخل الدردنيل انحصرت قواتهم البحرية فى قناة ضيقة ، وأظلم سطح الماء لكثرة الأشرعة التى تجل عن الحصر . ثم انتشرت سفنهم مرة أخرى فى بحر مرمرة . فعبروا هذا البحر الهادىء حتى اقتربوا من الساحل الأوربى عند كنيسـة القديس ستيفن على بعد فراسـخ ثلاثة الى الغرب من القسطنطينية . وقد حذرهم الدوج الرزين من الانتشار فى أرض معادية آهلة بالسكان . ولما كانت مؤنهم قد نقصت فقد قرروا أن يملئوا سفن التموين فى وقت الحصاد من الجزر الخصبة فى بحر مرمرة . وبناء على هذا القرار اتخذوا طريقهم ، ولكن عاصفة شديدة بالاضافة الى قلقهم ومللهم ، ألقت بهم الى جهة الشرق ، فاقتربوا من الشاطىء ومن المدينة ، الى حد التراشق بالحجارة والسهام بين السفن والحصن . وعنـدما سـاروا بمحاذاة المدينة حدقوا النظر فى اعجاب بعاصـمة الشرق ، أو الأحرى أن نقول ، بعاصمة العالم ، وهى ترتفع من تلالها السبعة

وتطل من عليائهـــا على قارتى أوربا وآســــيا ، وقد كست الشـــمس بأشـــعتها الذهبيـــة القباب الضـــخمة والمنـــارات العـــالية لخمســـمائة قصر وكنيســـة ، وانعكست صـــورها على صفحة الماء . وقد ازدحم الجنود والنظارة على الأسوار . وعندما رأى الصليبيون أعداءهم ، وكانوا يجهلون طباعهم ، حل الفزع بكل قلب ، وأدركوا أنه منذ بدء الخليقة لم يقم مثل هذا العدد القليل من المحاربين بمثل هذا المشروع . ولكن الأمل والشجاعة طردا هذا الخوف المؤقت . ويقول مارشال شامبانيا ان كل رجل ركز بصره على سيفه أو حربته التى كان عليه أن يستخدمها بعد وقت قصير فى النزاع المجيد. وألقى اللاتين مراسيهم أمام خلقدونية . وترك البحارة وحدهم على السفن ، ونزل الجنود والخيل والأسلحة فى أمان الى البر . وفى أحد القصور الامبراطورية المترفة ذاق البارونات أول ثمار نجاحهم . وفى اليوم الثالث تحرك الأسطول والجيش الى ناحية اسـكدار ، ضاحية القسطنطينية فى آسيا . وفاجأ ما يقرب من ثمانين فارسا من الفرنسيس فرقة مؤلفة من خمسمائة خيال من اليونانيين وهزموها . وفى فترة اقامتهم التى دامت تسعة أيام ، فاض المعسكر بكمية كبيرة من المؤن والعلف .

وقد يبدو غريبا فى وصفى لغزو امبراطورية عظيمة أنى لم أتعرض لذكر العقبات التى كان يجب أن تقف فى وجه هؤلاء الأجانب وأن تحول دون نجاحهم . والحق أن اليونانيين لم يكونوا أهل حرب ، ولكنهم كانوا أثرياء مجدين خاضعين لارادة رجل واحد ، اذا كان لهذا الرجل أن يتوجس خيفة من عدوه البعيد عنه ، أو يجد فى نفسه الشـــجاعة لملاقاة هذا العدو اذا اقترب من شخصه . لقد قابل ألكسيوس الغاصب

أول نبأ عن تحالف ابن أخيه مع الفرنسيس والبنادقة بالسخرية ، وقد أقنعه متملقوه أنه فى احتقاره هذا شجاع ومخلص . وفى ختام الوليمة كل مســاء كان يعلن ثلاثا ، خيبة فأل برابرة الغرب . وكان هؤلاء البرابرة قد أزعجتهم حقا أخبار بحريته . وكان من المستطاع حشــد أسطول من قوارب الصيد الألف وستمائة فى القسطنطينية لاغراقهم فى الأدرياتيك أو منعهم من دخول الدردنيل . ولكن أية قوة يمكن أن تكون غير ذات وجود أو قيمة ، نتيجة اهمال الأمير وفســـاد وزرائه وارتشائهم . الحق ان الدوق أو الأمـــيرال العظيم عرض للبيع فى مزاد شائن يكاد يكون علانية ، الأشرعة والصوارى والحبال، واحتفظ بالغابات الملكية لغرض أكثر أهمية ، ألا وهو الصيد . ويقول نيكتاس Nicetas ان الخصيان كانوا يحرسون الأشجار كأنها آجام مقدسة للعبادة . وقد أيقظ حصار زارا وسرعة تقدم اللاتين ألكسيوس من أحلام كبريائه . وما ان رأى الخطر محدقا ، حتى أدرك أنه لا مفر منه ، وتلاشى غروره وكبرياؤه فى يأس وقنوط ذليل . لقد احتمل أن يعسكر هؤلاء البرابرة المحتقرون على مرأى من قصره . واختبأ فزعه تحت ستار رقيق من الأبهة التى أحاطت ببعثة ضـــارعة أوفدها الى الأعداء ، ومن تهديدها لهم . انه أمر سفراءه أن يقولوا : « لقد أذهل مظهر الأجانب العدائى ملك الرومان . فان كانوا حجاجا مخلصين فى نذرهم انقاذ بيت المقدس ، فانه يمتدح هذا الهدف الورع ، ويفتح خزائنه للمعاونة على تحقيقه . ولكن ان تجاسروا أن يقوموا بغارة على حرم الامبراطورية وقصبتها ، فلن تحميهم جموعهم ولو كانت عشرة أمثال عددهم الحالى ، من غضبه العادل » . وكان رد الدوج

والبارونات بسيطا عظيما يتسم بعلو الهمة : « اننا دفاعا عن الشرف والعدالة نحتقر غاصب اليونان وتهديداته ومقترحاته . فصداقتنا — وولاؤه — ينبغى أن يوجها الى ولى العهد الشرعى ، الى الأمير الشاب الذى يجلس بيننا ، والى أبيه الامبراطور اسحق الذى فقد صولجانه وحربته وعينيه على يد أخ عاق . فليعترف هذا الأخ بخطئه ، وليطلب الصفح ، وسنشفع له نحن أنفسنا حتى يسمح له بأن يقضى بقية عمره فى رخاء وطمأنينة . ولا يسيئن الينا بارسال رسالة أخرى ، فسيكون جوابنا على أسنة الرماح فى قصر القسطنطينية » .

وفى اليوم العاشر لاقامة معسكرهم فى اسكدار ، أعد الصليبيون أنفسهم كجنود وكاثوليك لعبور البسفور . وكانت حقا مغامرة محفوفة بالأخطار . كان المجرى واسعا وسريعا . وفى حالة سكون الهواء قد يحمل تيار البحر الأسود نيران اليونانيين السائلة والتى لا يمكن اطفاؤها . وكان يدافع عن الشاطىء الأوربى المقابل سبعون ألفا من الخيالة والرجالة يؤلفون صفوفا متراصة فى ترتيب رهيب . وفى هذا اليوم المشهود ، وقد اتفق أن سطعت شمسه ورق هواؤه ، وزع اللاتين فى ست فرق أو أقسام ، القسم الأول أو المقدمة كان يقوده كونت فلاندرز وهو من أكثر الأمراء المسيحيين قوة ومهارة وكان معه عدد كبير من رماة القوس . وكان يقود الأقسام الأربعة التالية من الفرنسيس أخوه هنرى وكونت سان بل وكونت بلوا وماثيو منتمورتسى ، وقد شرف هذا الأخير ، بخدمة مارشال شامبانيا ونبلائها تحت لوائه طواعية واختيارا . وكان القسم السادس أو المؤخرة واحتياطى الجيش ، يقوده مركيز مونتفيرات على رأس الجرمان واللومبارديين . وأسرجت خيول

الحرب وجرجرت جللها على الثرى وحملت على السفن ذات القاع المستوى . ووقف كل فارس الى جانب جواده وقد ارتدى سلاحه كاملا ، فخوذته على رأسه وحربته فى يده . واحتلت حاشيتهم الكبيرة من جاويشية ورماة سفن النقل وربطت كل منها الى احدى الزوارق الحربية تجرها بقوتها وسرعتها . وعبرت الأقسام الستة البسفور دون أن تقابل عدوا أو عقبة . وكان كل قسم بل كل جندى يتوق الى أن يكون أول من ينزل الى البر ، وصمم كل فرد على الانتصار أو الموت . ولهفا على اقتحام المخاطر فى ذروتها قفز الفرسان فى كامل عدتهم الثقيلة الى الماء الذى وصل الى موضع الحزام من كل منهم . وقد بعثت شجاعتهم روحا فى الجاويشية والرماة . وقاد الأتباع الخيل الى الشاطىء بعد أن أنزلوا كبارى السفن ذات القاع المستوى . وقبل أن يمتطى كل فارس جواده ويلحق بصفه ويسدد حربته اختفى السبعون ألف يونانى ، ولم يعد يراهم أحد . وقد ضرب ألكسيوس الرعديد المثل لجنوده . ولم يعرف اللاتين أنهم كانوا يحاربون ضد الامبراطور الا عند نهب ايواناته الغنية . وفى بدء الاضطراب الذى أعقب هرب العدو قرر الحلفاء أن يقوموا بهجوم مزدوج لاقتحام مدخل المِيناء . فهاجم الفرنسيون قلعة غلطة فى ضاحية البيرة Pera واستولوا عليها عنوة ، بينما حاول البنادقة أن يقوموا بعمل أشد مشقة وهو قطع السلسلة التى تمتد من القلعة الى شاطىء بيزنطه . وبعد بضع محاولات عقيمة ، كللت فى النهاية مثابرتهم وجرأتهم بالنجاح . فأغرقت أو أسرت عشرون سفينة حربية هى البقية الباقية من البحرية اليونانية . وقصت حلقات الحديد الضخمة العديدة بالجلم (المقص) ، أو هشمت تحت

ثقل السفن الحربية . ورسا أسطول البندقية آمنا منتصرا فى مرفأ القسطنطينية . وبعد هذه الأعمال الجريئة طالبت بقية من عشرين ألفا من اللاتين السماح لها بمحاصرة عاصمة تضم أكثر من أربعمائة ألف ، ممن يقوون على حمل السلاح دفاعا عن وطنهم ، ولكنهم لا يرغبون فى ذلك . ومثل هذا التقدير يفترض طبعا أن عدد سكان القسطنطينية كان يقرب من مليونين . ولكن مهما كان التخفيض الذى يجب اجراؤه لانقاص عدد اليونانيين ، فان ضعف ايمانهم كان يتناسب عكسيا مع قوة الروح المعنوية لمهاجميهم الذين لم يكونوا يعرفون الخوف .

استيلاء اللاتين على القسطنطينية

وعند اختيار طريق الهجوم اختلف الفرنسيون مع البنادقة ، شأنهم فى حياتهم وفى حروبهم . وعلى حين أكد البنادقة فى صدق أن أيسر طريق للاستيلاء على القسطنطينية كان من جهة البحر والميناء ، كان من حق الفرنسيين أن يقرروا فى أمانة واخلاص أنه يكفيهم أنهم عهدوا مدة طويلة بحياتهم وثرواتهم الى سفن ضعيفة وعنصر غير مأمون ، ويلحون بأعلى أصواتهم يريدون تجربة من تجارب الفروسية على أرض ثابتة ، وهجوما عن كثب على ظهور الخيل أو على الأقدام . وتم الاتفاق على حل وسط رزين ، وهو أن يسند الى كل من الأمتين ما يناسب طباعها وعاداتها فى البحر والبر ، شريطة أن يغطى الأسطول الجيش . فأصلحت بسرعة قنطرة النهر المشيدة من الحجر ، وأقامت الأقسام الفرنسية الستة معسكراتها فى مواجهة العاصمة فى قاعدة المثلث التى امتدت أربعة أميال من الميناء حتى بحر مرمرة . وعلى حافة حفرة واسعة وفى أسفل

حصن عال كان لديهم متسع من الوقت لتدبر صعوبات مشروعهم . وفتحت البوابات الواقعة على يمين معسكرهم الضيق والى يساره ليندفع منها سيل من الخيالة والمشاة ذوى الأسلحة الخفيفة ، يقتلون المتخلفين ، ويستولون على المؤن فى الريف ، وينشرون الرعب خمس مرات أو ستا فى اليوم الواحد . وبذا اضطر الفرنسيون الى اقامة سور من الأوتاد وخندق حول معسكرهم لحمايتهم بطريقه عاجلة . وفيما يخص المهمات والناقلات فاما أن البنادقة كانوا مقتصدين جدا أو أن الفرنسيين كانوا نهمين جدا ، فترددت الشكوى المعتادة من الجوع والشح . وربما شعر الجنود بذلك ، وكان لديهم من الدقيق ما يكفيهم ثلاثة أسابيع فقط . وفى نفورهم من اللحم المملح راودتهم فكرة تذوق لحوم خيولهم . وكان يعاون المغتصب الجبان زوج ابنته ثيودور لاسكاريس وهو شاب شجاع كان يتطلع الى أن ينقذ وطنه ويحكمه . ونسى اليونانيون وطنهم ، ولكنهم استيقظوا للدفاع عن عقيدتهم . وانعقدت أقوى آمالهم على شجاعة وروح الحرس الفارانجى المؤلف من دنمركيين وانجليز كما كان يسميهم كتاب ذاك العصر . وبعد عشرة أيام من الجهود المتواصلة سويت الأرض وردمت الحفرة وعبدت الأماكن التى يتقدم فيها المحاصرون ، وأقيمت مائة وخمسون الة من آلات الهجوم بدأت تجرب قواها المختلفة ، فى دك الحصن وهدم الأسوار وتقويض دعائمها . وبمجرد أن ظهرت فتحة ، وضعت سلالم الصعود . لكن صدت كثرة المدافعين عن هذه البقعة المرتفعة اللاتين المغامرين وتغلبت عليهم . ولكنهم أعجبوا بعزيمة خمسة عشر من الفرسان

والجاويشـــية الذين اســتطاعوا التســـلق والاحتفاظ بموقعهم الخطر حتى ألقى بهم من أعلى ، أو أسرهم الحرس الامبراطورى .
وفى جانب الميناء كان الهجوم البحرى الذى قام به البنادقة أكثر نجاحا .
وقد استخدم هذا الشعب المجد كل حيلة كانت معروفة ومســتعملة قبل اختراع البارود . وشكلت البوارج الحربية والسفن الأخرى صفا مزدوجا ، على مسافة ثلاث رميات من الأمام وقد عاونت سرعة السفن الأولى ثقل البوارج الحربية وارتفاعها وكانت ظهورها ومؤخراتهـا وصواريها مستقرا للآلات الحربية التى أرسلت قذائفها من فوق رءوس الصف الأول . ووضع الجنود الذين قفزوا من البوارج الحربية الى الشاطىء سلالم الصعود توا وتسلقوا عليها ، بينما تقدمت البوارج الضخمة ببطء أكثر فى تلك الفرج الفاصلة ، وأنزلت قناطرها طريقا فى الهواء من الصوارى الى الحصن . وفى وسط هذا الصدام وقف الدوج وهو شخصية مبجلة بارزة ، يرتدى لباسه الحربى كاملا فى مقدمة بارجته الحربية . وقد ارتفعت راية القديس مرقص الكبرى أمامه . وهو يحث المجدين على الجد بوعيده ووعده وتحريضه . وكانت بارجته أول سفينة رست على البر وكان داندولو أول من قفز الى الشاطىء . وقد أعجبت الأمم بشهامة هذا البطل الأعمى العجوز ، دون أن يفكر أحد أن كبر سنه وعاهته قد قللتا من قيمة حياتهوزادتا من قيمة مجدهالخالد . وفجأة ثبت علم الجمهورية على الحصن بيد لم يرها أحد (وربما كان حامل العلم قد قتل) . واحتلوا بسرعة خمسا وعشرين قلعة ، وأبعدت النيران وهى أداه قاسية ــــ اليونانيين عن الحى المجاور . وكان الدوج قد بعث بأخبار نجاحه ، عندما أوقف الخطر المحدق بحلفائه ، جهوده.وبعد

أن أعلن فى نبل ، وشرف أنه يفضل الموت مع الحجاج على أن يحظى بنصر فيه هلاكهم ، ترك داندولو ثمرة نجاحه واستدعى عسكره وأسرع الى ميدان القتال . فوجد أن الأقسام الفرنسية الستة المنهوكة والهزيلة قد أحاط بها ستون فرقة من خيالة اليونان . وكانت أقل فرقه منها أكثر عددا من أكبر الأقسام الفرنسية . فقد دفع العار واليأس ألكسيوس الى القيام بهجوم عام خارج الأسوار كآخر مجهود حربى ممكن . الا أن نظام اللاتين القوى ومظهر الرجولة فيهم أصاباه بالفزع . فسحب جنوده قرب الماء بعد قيامه ببعض المناوشات فى مكان بعيد . وزاد من مخاوفه صمت الليل أو صخبه . وبعد أن جمع من الكنوز ما يزيد على عشرة آلاف رطل من الذهب ، ترك هذا الغاصب الرعديد زوجته وأمته وثروته ، وألقى بنفسه فى قارب صغير عبر فيه البسفور خفية ، ونزل البحر فى أمان مزر شائن فى مرفأ غير معروف من موانى تراقية .وسرعان ما عرف النبلاء بهربه حتى لجئوا الى زنزانة اسحق حيث كان هذا الامبراطور الأعمى ينتظر زيارة الجلاد فى كل لحظة ، يطلبون الصفح والسلام . لقد أنقذته ورفعت من شأنه مرة أخرى تصاريف الحظ فوضع الأسير على العرش بعد أن ارتدى حلة الأباطرة ، وأحاط به عبيد سجد لم يكن فى مقدوره أن يرى فزعهم الحقيقى أو فرحهم المصطنع.وأوقفت الاشتباكات الحربية فى فجر ذاك اليوم . ودهش زعماء اللاتين عندما تلقوا رسالة من الامبراطور الشرعى الجالس على العرش ، الذى كان يتحرق شوقا الى احتضان ابنه ومكافأة منقذيه الكرماء .

ولكن هؤلاء المنقذين الكرماء كانوا لا يريدون اطلاق سراح رهينتهم حتى يتسلموا من أبيه أجرهم . أو على الأقل وعدا بدفع

تعويض لهم . فوقع الاختيار على أربعة من السفراء : ماتيو من مقاطعة موتتمورنسي ، ومؤرخنا مارشال شامبانيا ، واثنين من البنادقة لتهنئة الامبراطور . ففتحت الأبواب على مصاريعها لاستقبالهم واصطفت على جانبي الطرق فرق الحرس الدنماركي والانجليزي ، وفي أيديهم فؤوس الميدان وتلألأ بهو العرش بالذهب والجواهر ، وهي البديل الزائف للفضيلة والقوة . وجلست الى جوار اسحق الأعمى زوجته ، أخت ملك المجر . وقد جذب ظهورها سيدات اليونان النبيلات من خدورهن فاختلطن بأعضاء السناتو وبالجنود . وتكلم سفراء اللاتين بلسان المارشال كرجال يعرفون قدرهم ، ولكنهم يحترمون عملهم . وأدرك الامبراطور بوضوح أن تعهدات ابنه للبندقية والحجاج يجب أن يوافق عليها دون تردد أو ابطاء . فانسحب الامبراطور الى غرفة خاصة ومعه الامبراطورة وأحد الأمناء والترجمان والسفراء الأربعة ، واستفسر والد ألكسيوس في قلق عن طبيعة شروط ابنه. ورد السفراء بأنها تتلخص في : خضوع الامبراطورية الرومانية الشرقية لسلطان البابا وانقاذ الأرض المقدسة ، ودفع مائتي ألف مارك من الفضة الآن . وجاء الرد الرزين : « هذه الشروط ثقيلة . من العسير قبولها ، ومن الصعب تنفيذها ، ولكن لا يمكن أن توجد شروط تفوق قيمة خدماتكم ، وما تستحقون » . وبعد هذا التوكيد المرضي ، امتطى البارونات صهوة خيولهم وقدموا وريث عرش القسطنطينية الى المدينة والى القصر . وقد جذب شبابه ومغامراته العجيبة كل قلب الى حبه . وتوج ألكسيوس في جلال مع والده تحت قبة أيا صوفيا . وفي الأيام الأولى من حكمه ابتهج الشعب وقد أضحى ينعم بعودة الرخاء والسلام ، وبالخاتمة السارة للمأساة . وغطى على سخط النبلاء

وأسفهم ومخاوفهم غشاء مهذب من السرور والولاء . ولما كان اختلاط أمتين مختلفتين فى المشارب فى العاصمة نفسها قد يكون مليئا بالشرور والخطر ، فقد خصصت ضاحية غلطه أو البيرة لاقامة الفرنسيين والبنادقة . غير أنه سمح بحرية التجارة والاختلاط الودى بين هذه الأمم الصديقة . وأغرى الحجاج كل يوم دافع التقوى أو الفضول بزيارة كنائس القسطنطينية وقصورها . وربما كانت عقولهم غير المهذبة لا تحس روعة الفنون الدقيقة الجميلة ، ولكن أذهلتها على أية حال المناظر الخلابة . وزاد فقر بلدانهم الأصلية من دهشتهم لكثرة سكان عاصمة أوربا المسيحية الأولى وثرواتها . ونزل الشاب ألكسيوس من عليائه وحملته مصلحته أو الاعتراف بالجميل الى أن يكثر من تردده على حلفائه من اللاتين ، وفى رفع الكلفة أو الحرية المألوفة نسى مرح الفرنسيين البهيج الاحترام الواجب لامبراطور المشرق . وفى مؤتمراتهم الجدية تم الاتفاق على أن اتحاد الكنيستين ينبغى أن يأتى كنتيجة للصبر والزمن . ولكن الجشع كان أصعب قيادا من الحماس . فدفع مبلغ ضخم فى التو لقضاء بعض حاجات الصليبيين واسكات الحافهم . واشتد فزع ألكسيوس كلما اقتربت ساعة رحيلهم .وربما أعفاه غيابهم من الالتزام الذى لم يكن حتى الآن قادرا على الوفاء به ، ولكن رحيل أصدقائه يتركه أعزل وحيدا أمام نزوات شعب خائن ، وفريسة لحقده . فأراد أن يشترى اقامتهم بالرشوة ، ورغب اليهم فى أن يؤجلوا رحيلهم سنة كاملة ، ووعد بأن يحتمل نفقاتهم وأن يتكفل عنهم بدفع أجور سفن البنادقة . وثار جدل عنيف حول هذا العرض فى مجلس البارونات ، وبعد تكرار مناقشاتهم وشكوكهم رضخت أغلبية من الأصوات ، وأذعنت لنصيحة الدوج

واستجابت لتوسلات الامبراطور الشاب . ولقاء ألف وستمائة رطل من الذهب استمال مركيز مونتفيرات ليصحبه مع جيش فى جولة فى الولايات الأوربية ليوطد سلطانه ويطارد عمه ، بينما أفزع القسطنطينية وجود بلدوين وحلفائه من الفرنسيين وأهل فلاندرز . وقد توجت الحملة بالتوفيق . وابتهج الامبراطور الأعمى لنجاح جيوشه ، وأصغى الى تنبؤات متملقيه من أن العناية الربانية نفسها التى رفعته من سجنه الى العرش ستشفى مرضه بالنقرس ، وسترد اليه بصره ، وتسهر على حفظ الرخاء الطويل فى حكمه . ولكن عقل هذا الرجل الهرم الشكاك عذبه صعود مجد ابنه . ولم يكن اعتزازه بمجد ابنه ليخفى حسده وحقده من أنه بينما الهتافات باسمه كانت خافتة مرائية متخاذلة ، فان هذا الشاب الملكى كان موضع ثناء عام تلقائى .

وأيقظ الغزو الحديث اليونانيين من حلم دام تسعة قرون ، ومن الادعاء الكاذب بأن عاصمة الامبراطورية من المنعة الى حد أن الجيوش الأجنبية لا تقوى على غزوها . لقد دنس الأجانب الذين أتوا من الغرب مدينة قسطنطين ومنحوا صولجانه لمن يريدون، وسرعان ما أصبح عملاؤهم الامبراطوريون بغيضين مثلهم . وقد صيرت عاهات اسحق رذائله المعروفة أكثر مدعاة للاحتقار . وصبت الكراهية على رأس ألكسيوس كمرتد نبذ عادات وطنه وتخلى عن دينه . أما ميثاقه السرى مع اللاتين فاما أنه أذيع ، أو تطرق الى الناس شك فى وجوده . وقد تعلق الشعب ولا سيما رجال الدين ، فى ورع وتقى بعقيدتهم وخرافتهم . وردد كل دير وكل حانوت الخطر المحدق بالكنيسة كما تحدثوا عن طغيـــان البابا . ومن الصعب على خزينة خاوية أن تسد مطالب الترف الملكى والاستنزاف الأجنبى . ورفض اليونانيون أن يفرضوا ضريبة عامة لدرء

أخطار العبودية والنهب التى كانت تهددهم . وأثار ظلم الأثرياء استياء شخصيا أشد خطرا . واذا كان الامبراطور قد لجأ الى صهر أوانى الكنيسة أو سلب صورها ، فيبدو أنه كان فى هذا ، ما يبرر الشكوى من هرطقته وانتهاكه للحرمات المقدسة . وفى أثناء غيـــاب مركيز بونيفاس وتلميذه الامبراطور حلت بالقســـطنطينية كارثة يمكن أن تنسب بحق الى جماس الحجاج الفلمنكيين وحمقهم . ففى احـــدى زياراتهم للمدينة هالهم أن يروا مسجدا أو بيعة يعبد فيها اله واحد لا شريك له ولا ولد . وكانت طريقتهم المثلى فى جدالهم هى قتـــل الكفار بالسيف والقاء النار على مساكنهم . ولكن الكفار وبعض المسيحيين من جيرانهم هبوا يدافعون عن حياتهم وممتلكاتهم . وقضت هذه اللهب التى أشعلها التعصب ، على أكثر المنشئات براءة وأسلمها عقيدة . وطوال ثمانية أيام وثمان ليال انتشرت النيران أكثر من فرسخ الى الأمام ، من الميناء الى بحر مرمرة ، فى مناطق من أشـــد الأماكن ازدحاما بالسكان فى المدينة . وليس من السهل احصــــاء الكنائس والقصور الفخمة التى أضحت خرائب ينبعث منها الدخان ، أو أن تقدر البضائع التى دمرت فى الشوارع التجارية ، أو أن نعد الأسر التى شملها الدمار العام . وبهذا العدوان الذى تظاهر الدوج والبارونات عبثا بأنهم لا صلة لهم به ، أصبح اسم اللاتين أشد مقتا . وآثرت الجالية التى تنتسب الى تلك الأمة ، وعددها يزيد على خمســـة عشر ألفا ، السلامة ، فانسحبت بسرعة للاحتماء بعلم أمنتهم فى ضاحية البيره . وعاد الامبراطور ظافرا منتصرا . ولكن أية سياسة مهما كانت درجة الحزم والبراعة فيها ، لم تكن تكفى لتوجيههم وسط تلك العاصفة

التى طوحت بهذا الشاب التعس وحكومته . ذلك أن ميوله الخاصة ونصيحة أبيه ربطت بينه وبين من أحسنوا اليه . ولكن ألكسيوس وقف مترددا بين حبه لوطنه وبين عرفانه للجميل ، بين خوفه من رعاياه وخوفه من حلفائه ، ففقد احترام الطرفين كليهما ، وثقتهم به ، لضعف مسلكه وتقلبه . وبينما دعا مركيز مونتفيرات الى احتلال القصر ، تغافل عن مؤامرة النبلاء وتسلح الشعب لانقاذ وطنه . ودون نظر الى موقفه المؤلم ، كرر زعماء اللاتين مطالبهم واستاءوا لتباطئه ، وشــــكوا فى نواياه ، وطالبوا برد حاسم : اما الحرب واما السلم . وقام بتسليم مطالبهم المتعجرفة ثلاثة من فرسان الفرنسيين وثلاثة من منــدوبى البنادقة ، تمنطقوا جميعا بسيوفهم وامتطوا جيادهم واخترقوا صفوف الجمهور الغاضب ، ودخلوا دون خوف ولا وجل الى القصر ، ومثلوا أمام امبراطور اليونان . وفى نبرات حازمة ذكروا فى ايجاز خدماتهم ، كما ذكروا تعهداته ، وأعلنوا فى جرأة أنه اذا لم تجب طلباتهم العادلة كلها توا فانهم لن يعتبروه بعد ذلك ملكا أو صديقا . وبعــد هــذا التحدى ، وهو أول تحد آذى سمع الامبراطور ، خرجوا دون أن تظهر عليهم أية أمارات للخوف . ولكن نجاة هؤلاء السفراء من قصر ذليل مستعبد ومدينة هائجة أدهشتهم هم أنفســهم . وكانت عودتهم الى معسكرهم ايذانا بالجفوة بين الجانبين .

ورجحت كفة الجمهور الغاضب المندفع أية سلطة وأية حكمة فى صفوف اليونان ، وهو جمهور ظن خطأ أن فورانه شجاعة ، وأن فى كثرته قوة ، وأن تعصبه عون ووحى من السماء . وبات ألكسيوس فى نظر الفريقين خائنا وحقيرا . ونبذ شعب القســطنطينية أسرة أنجلى

الدنيئة الدنسة فى احتقار سافر صاخب . وأحاط أهالى القسطنطينية بالسناتو مطالبين أعضـــاءه أن يختاروا لهم امبراطورا أكثر جدارة بمنصبه . وعرضوا الرداء الأرجوانى تباعا على كل عضو بارز من حيث المولد أو المركز ، ورفض كل عضو بدوره هذا الرداء القاتل . واستمر الشعب ثلاثة أيام . ويمكن أن نعرف من المؤرخ نكيتاس ، أحد أعضاء المجلس ، أن الخوف والضعف كانا يبقيان على ولائهم . وقد أعلن الجمهور شبحا اختفى فى زوايا النسيان ليكون امبراطورا على كره منه. ولكن محرك الثورة وقائد هذه الحرب كان أميرا من بيت دوكاس Ducas ولما كان اسمه ألكسيوس ، وكان هـذا اسما عاما فيجب أن يميز بلقب الأقرن Mourzoufle وهو لفظ يعنى فى اللغة الدارجة قرن حاجبيه الأشعثين الأسودين . وشرع مورزوفل الغادر ، وهو فى الوقت نفسه وطنى ، ومن موظفى البلاط ، كما لم يكن ينقصه المكر أو الشجاعة ، نقول شرع فى مناهضـة اللاتين قولا وعمـلا على حين أهاج مشاعر اليونانيين وأثار أحقادهم هم ، وتقرب الى ألكسيوس حتى شمله هذا بعطفه وأولاه ثقته ، ورفعه الى منصب الأمين الأول ، ولون حذاءه باللون الملكى . وما ان استقر له الأمر حتى سارع فى سكون الليل واقتحم غرفة النوم جزوعا صائحا أن الشعب قد هاجم القصر وأن الحرس قد خان الأمانة . وقام الأمير الذى لم يداخله الشك من فراشه ، وألقى بنفسه بين ذراعى عدوه الذى كان قد أعد لهربه سلما خاصا ، كان ينتهى الى سجن . وقبض على ألكسيوس وجرد من ثيابه وكبل بالأغلال . وبعد أن عانى أياما قساوة العذاب ورأى شـبح الموت يطوف به ، سقى السم أو خنق أو ضرب بالهراوات ، بأمر من

الطاغية وتحت سمعه وبصره . وسرعان ما لحق الامبراطور اسحق أنجيلوس بابنه فى القبر . وربما كان فى مقدور مورزوفل أن يتجنب ارتكاب جريمة تافهة ، جريمة التعجيل بالقضاء على الضعف والعمى .

نهب القسطنطينية

وغير موت الامبراطورين واغتصاب مورزوفل الحكم ، من طبيعة النزاع . فلم يعد خلاف بين حلفاء غالوا فى تقدير قيمـــة خدماتهم ، ولم يهملوا التزاماتهم . ونسى الفرنسيون والبنادقة شكواهم ضد ألكسيوس . وذرفوا الدمع على مصير رفيقهم قبل أوانه ، وأقسموا على الانتقام من هذه الأمة الغادرة التى توجت قاتله . ومع ذلك كان الدوج الحصيف الحذر يميل الى التفاوض . فطلب ، كدين أو معونة أو غرامة ، خمسين ألف رطل من الذهب (تساوى مليونين من الجنيهات الاسترلينية تقريبا) . وما كان المؤتمر لينفرط فجأة لو لم يرفض مورزوفل بسبب حماسه أو سياسته التضحية بالكنيسة اليونانية لانقاذ الدولة . وفى مقدورنا أن نتبين وسط السباب الذى يكيله له أعداؤه فى الداخل والخارج ، أنه لم يكن غير أهل للمركز الذى تبوأه ، ألا وهو بطل الشعب ، وكان الحصار الثانى للقسطنطينية أكثر مشـــقة من الأول ، وامتلأت الخزانة بالمال وأعيد النظام ، بعد التحقيق الصارم فى عيوب الحكم السالف . وكان مورزوفل يمسك بصولجان من حديد ويزور المراكز الحربية ، وكان يتكلف سمات المحارب ومظهره ، فكان مصدر رعب لجنوده على الأقل ، ثم لأقاربه . وقبل موت ألكسيوس وبعده ، قام اليونانيون بمحاولتين قويتين مدبرتين أحسن تدبير لاحراق

القوات البحرية فى الميناء . ولكن مهارة البنادقةوشجاعتهم صدت السفن التى تقذف باللهب . وذهبت النيران الضالة هباء فى البحر دون أن تؤدى غرضها . وفى هجوم ليلى خارج الأسوار هزم هنرى أخو دوق فلاندرز امبراطور اليونان . وزاد من عار اندحاره تفوق العدو فى العدد وفى القدرة على المفاجأة . ووجد ترسه فى ميدان القتال . وقدمت الراية الامبراطورية وفيها صورة مقدسة للسيدة العذراء ، تذكارا للنصر ، وأثرا من الآثار المقدسة ، لرهبان السسترسيان ، تلاميذ القديس برنار . ومرت ثلاثة أشهر ، بما فى ذلك أيام الصوم الكبير المقدسة ، فى مناوشات واستعدادات ، قبل أن يصبح اللاتين على أتم استعداد للقيام بهجوم عام ، أو قبل أن يقرروا القيام بهجوم عام . ذلك أنهم وجدوا أن التحصينات الأرضية منيعة ، وأن المرشدين من أهل البندقية قالوا بأن ارساء السفن على شاطىء بحر مرمرة غير مأمون ، وأن التيار يسوق السفن بعيدا الى مضيق الدردنيل ، وهذا ما كان يصبو اليه الحجاج الكارهون الذين التمسوا أية فرصة لتحطيم الجيش . ولهذا قرر المهاجمون أن يقوموا بالهجوم من الميناء . وكان المحاصرون يتوقعون أن يتم الأمر على هذا النحو . فأقام الامبراطور ايواناته الأرجوانية على تل مجاور ليوجه جهود جنوده ولينفث فيهم روحا عالية . وربما أبدى مراقب غير هياب — اذا استطاع عقله أن يستوعب فكرة الأبهة والفرح — اعجابه بصفين طويلين من جيشين على أهبة القتال ، امتدا أكثر من نصف فرسخ . الأول على السفن والبوارج ، والآخر على الأسوار والأبراج ، التى رفعت فوق المستوى العادى بطبقات عديدة من الأبراج المتحركة الصغيرة . وانقضت فورتهم الأولى

فى رمى السهام والقذف بالأحجار والنار من آلاتهم الحربية . ولكن الماء كان عميقا ، والفرنسيون ذوى جرأة ، والبنادقة مهرة ، فاقتربوا من الأسوار واحتدم نزاع يائس بالسيوف والحراب والفؤوس على القناطر التي تهتز وهى تربط بين المدفعية العائمة والمدفعية الثابتة . وشن الهجوم فى أكثر من مائة موضع ، وصمد المدافعون فى ثبات ، حتى كانت الغلبة فى النهاية ، لتفوق اليابسة على الماء ولكثرة العدد ، ونفخت أبواق اللاتين نفير التقهقر . وفى الأيام التالية تجدد الهجوم بشدة مساوية ونتيجة مماثلة . وفى الليل عقد الدوج والبارونات مجلسا ، وكلهم يتوجس خيفة من الخطر الداهم الشامل . ولم ينبس أحد بلفظة الهرب أو المعاهدة ، وراود كل محارب تبعا لطبعه ومزاجه ، الأمل فى النصر أو التحقق من ميتة كريمة . لقد تعلم اليونانيون من تجارب الحصار الأول ، ولكنه كذلك أثار حمية اللاتين . وكان ادراك أنه من الممكن الاستيلاء على القسطنطينية أجدى من الاحتياطات المحلية التى أوحت بها تلك الفكرة للدفاع عن المدينة . وفى الهجوم الثالث ربطت سفينتان معا لمضاعفة قوتهما . وهبت ريح شمالية قوية دفعت بالسفن الى الشاطىء . وكان فى المقدمة أسقف ترويس وأسقف سواسون . ودوت اللفظتان الميمونتان « الحاج » « والجنة » على طول الخط . ونصبت الرايات الأسقفية فوق الأسوار . ووعد كل من المغامرين الأولين بجائزة قدرها مائة مارك من فضة . فان حال الموت دون تسلم الجائزة ، فان أسماءهم ستخلد فى سجل المجد والشهرة . فتسلقوا أربعة أبراج . وحطموا ثلاث بوابات . وشعر الفرسان الفرنسيون الذين قد يرتعدون فرقا فى الأمواج ، أنه لا سبيل الى قهرهم وهم على ظهور

الخيل فوق أرض صلدة . هل لى أن أذكر الآن للقارىء أن الألوف التى كانت تحرس شخص الامبراطور هربت عند اقتراب أول محارب واحد وأمام حربة واحدة ؟ ان مواطنهم نيكيتاس ليشهد على هربهم الشائن ، وربما تخيلوا جيشا من الأشباح يسير مع البطل الفرنسى ، الذى عظم فى نظر اليونانيين حتى أضحى ماردا . وبينما تخلى الفارون عن مواقعهم وألقوا بسلاحهم ، دخل اللاتين المدينة تحت بنود قادتهم . وفتحت الطرقات والأبواب لمرورهم . واشـــتعل حريق ثالث عمدا أو اتفاقا ، فدمر فى ساعات قلائل مساحة تساوى ثلاثا من أكبر مدن فرنسا . وعند اقتراب المســاء كبح البارونات جماح جنودهم ، وحصنوا مواقعهم . لقد أزعجهم امتداد العاصمة وكثرة عدد سكانها ، مما يحتاج اخضاعه الى جهود تستمر شهرا كاملا ، اذا كانت الكنائس والقصور مدركة لقواتها الداخلية . غير أنه جاء فى الصباح موكب ضارع يحمل الصلبان والصور المقدسة ليعلن خضـــوع اليونانيين ويستعيذ من غضب الفاتحين . لقد هرب الغاصب من البوابة الذهبية . واحتل كونت فلاندرز ومركيز مونتفيرات قصرى بلاشيرناى Blachernae وبوكليون Boucoleon . وخضعت الامبراطورية التى كانت لا تزال تحمل اسم قسطنطين ولقب الرومان ، لأسلحة الحجاج اللاتين .

أخذت القسطنطينية عنوة . ولم تفرض قوانين الحرب اذ ذاك أية قيود على حرية المنتصرين ، اللهم الا المشاعر الدينية والانسانية . وكان بونيفاس مركيز مونتفيرات لا يزال يشغل منصب القائد العام . وقد سمع اليونانيون الذين مجدوا اسمه كمليكهم فى المســتقبل ، وهم يولولون فى صوت حزين : أيها المركيز الملك المقدس ، ارحمنا ! وقد

فتحت بفضل حصافته أو رأفته ، أبواب المدينة أمام الفارين . وحض هو جنود الصليب على الابقاء على حياة اخوانهم المسيحيين . وأما أنهار الدماء التى سالت فى صفحات نيكيتاس فقد يمكن حصرها فى مصرع ألفين من مواطنيه الجبناء . على أن العدد الأكبر من هؤلاء لم يقتله الأجانب ، وانما قتله اللاتين الذين كانوا قد طردوا من المدينـــة والذين ثأروا لأنفسهم كأى حزب انتصر . ومع ذلك فمن هؤلاء المنفيين من تذكر المنافع لا الاساءات . ونيكيتاس نفسه مدين بسلامته لكرم أحد تجار البندقية . ويتهم البابا انوسنت الثالث الحجـــاج بأنهم لم يحترموا فى نزواتهم السن أو الجنس أو رجال الدين . وهو يقول فى مرارة بأن أعمال الظلام والفسق والفجور والزنا وانتهاك الحرمات قد ارتكبت فى رابعة النهار . وان سيدات نبيلات وراهبات مقدسات دنسهن خدم الخيل فى المعسكر الكاثوليكى والقرويون فيه . والحق أن الاباحية التى تعقب النصر قد دفعت الى ارتكاب عدد كبير من الآثام وتسترت عليها . ولكن من المؤكد أن عاصمة المشرق كانت تضم عددا من النساء الجميلات بائعات الهوى أو الراغبات فيه ، يكفى لاشباع نزوات عشرين ألفا من الحجاج . ولم تعد الأسيرات خاضعات لحقوق العبودية المنزلية أو مساوئها . وكان مركيز موتنفيرات حاميا للنظام والآداب . كما كان كونت فلاندرز مرآة للعفة والطهر ، وقد حرما ، كجريمة عقوبتها الاعدام ، اغتصاب الزوجـــات أو العذارى أو الراهبات . واستشهد المقهورون فى بعض الأحيان بهـــذا البلاغ ، واحترمه المنتصرون . وخفف من القسوة والانهماك فى الشـــهوات نفوذ الزعماء وشعور الجنود . اننا لا نصف الآن اقتحـــام قوم

متوحشين من أهل الشمال . ومهما بدا أنهم قساة غلاظ ، فقد هذب الزمن والسياسة والدين من أخلاق الفرنسيين ، وهذب أكثر من أخلاق الايطاليين . غير أنه قد أطلق العنان دون حدود لجشعهم الذى أشبع ، حتى فى الأسبوع المقدس ، بأسلاب القسطنطينية . وصادر حق الفتح الذى لم يقيده وعد أو معاهدة ثروة اليونان الخاصة والعامة . وكانت كل يد تبعا لحجمها وقوتها يمكنها شرعا أن تنفذ الحكم وأن تستولى على ما صودر . ووجدت للمبادلات وسيلة سهلة عامة ، فى الذهب والفضة المسكوك منهما وغير المسكوك . وكل من استولى على شيء منهما يمكنه أن يستبدل به فى الداخل والخارج أشياء تلتئم مع مزاجه ومركزه . ومن بين الكنوز التى جمعتها التجارة والترف ، كان الحرير والقطيفة والفراء والمجوهرات والتوابل والأشياء المنقولة الثمينة ، أكبرها قيمة ، لأنه لم يكن من المستطاع الحصول عليها بالمال فى بلدان أوربا التى لم تكن الحضارة قد دخلتها بعد . ووضع نظام للسلب ، ولم يترك نصيب كل فرد لجده أو حظه . وتحت طائلة عقوبة الحنث الرهيبة ، وهى الحرمان من الكنيسة والاعدام ، كان على اللاتين أن يسلموا كل ما سلبوا الى الخزانة العامة . وقد وقع الاختيار على ثلاث كنائس لايداع الأسلاب وتوزيعها . ومنح الجندى من المشاة سهما واحدا . وأعطى الجاويش من الخيالة سهمين ، وأخذ الفارس أربعة ، وخصص للبارونات والأمراء أنصبة أكبر تبعا لمركزهم وكفايتهم . وبسبب مخالفة هذا العهد المقدس شنق أحد فرسان كونت سان بول ووضع ترسه وقميصه الزردى حول عنقه . وقد جعل هذا المثال المجرمين الآخرين أكثر حيلة وحيطة . ولكن الجشع كان أقوى من الخوف . ومن المعتقد بصفة عامة أن

الاسلاب التى أخفيت أكثر بكثير من الأسلاب التى سلمت . ومع ذلك فقد زادت ضخامة الجائزة على كل ما عرف الناس أو توقعوه ، فبعد قسمة جميع الأسلاب بالتساوى بين الفرنسيين والبنادقة ، أخذ خمسون ألف مارك لسداد ديوان الفرنسيين وتلبية مطالب البنادقة . وبقى للفرنسيين ما يقرب من أربعمائة ألف مارك من الفضة ، أى نحو ثمانمائة ألف من الجنيهات الاسترلينية . وانى لا أستطيع أن أحدد قيمة ذلك المبلغ فى المعاملات العامة والخاصة فى العصر ، بأحسن من القول بأنه سبعة أمثال الايراد السنوى لملكة انجلترا .

اننا نستمتع فى هذه الثورة العارمة بسعادة فريدة ، فى مقارنة روايات فيلاهاردوين — ونيكيتاس ، والمشاعر المضادة لمارشال شمبانيا وعضو الشيوخ البيزنطى . ولأول وهلة قد يبدو أن ثروة القسطنطينية قد انتقلت فقط من أمة الى أخرى ، وأن خسارة اليونانيين وأحزانهم تعادل تماما سرور اللاتين وفوائدهم . وفى حساب الحرب المنكودة لا يعدل الغنم الغرم ، ولا السرور الألم ، ألبتة . وكانت ابتسامات اللاتين عابرة خداعة . أما اليونانيون فقد ظلوا يبكون على وطنهم . وزاد فى كوارثهم الفعلية انتهاك حرمة مقدساتهم والسخرية منهم . أى نفع جناه المنتصرون من ثلاثة حرائق ذهبت بجزء كبير من مبانى المدينة وثروتها؟ وأى قدر من تلك الأشياء التى لا يمكن استعمالها أو نقلها قد دمر لسوء الطبع عن خبث وعمد أو لمجرد الهوى واللهو ؟ كم كنز ضاع عبثا فى القمار والفجور والاسراف ؟ وكم من أمتعة ثمينة عرضت للبيع بثمن بخس لعدم صبر الجنود أو لجهلهم ، أولئك الجنود الذين حرمهم آخر اليونانيون باحتياله الحقير من جائزتهم ؟ وربما استفاد من الثورة أولئك

الذين لم يكونو يملكون شيئا ليفقدوه ، أما بؤس الطبقات العليا من المجتمع فقد صورته أروع تصوير مغامرات نيكيتاس نفسه . فحين تحول قصره الفخم الى رماد فى الحريق الثانى ، وجد عضو الشيوخ واسرته وأصدقاؤه ملجأ متواضعا فى دار أخرى يملكها بالقرب من كنيسة أيا صوفيا . وقام صديقه ، أحد تجار البندقية ، حارسا فى زى جندى على باب هذا المسكن الحقير . حتى استطاع نيكيتاس ، بتعجله الفرار أن يحافظ على بقايا ثروته ويصون شرف ابنته . ففى زمهرير الشتاء رحل هؤلاء اللاجئون الذين نشأوا فى أحضان الرخاء على أقدامهم ، وكانت زوجه حاملا . وقد اضطروا ، لتخلى عبيدهم عنهم الى أن يحملوا أمتعتهم على أكتافهم . وحثوا نساءهم اللائى وضعوهن فى الوسط على اخفاء جمالهن تحت الأوساخ بدلا من ابرازه بالأصباغ والجواهر . وكانوا فى كل خطوة معرضين للاهانة والخطر . وكانت تهديدات الأجانب أقل ألما من سخرية الغوغاء الذين أصبحوا آنذاك مساوين لهم . ولم يتنفس المنفيون فى أمان قبل أن تنتهى رحلتهم الحزينة فى سيلمبريا Selym-bria على بعد أكثر من أربعين ميلا من العاصمة . وفى طريقهم ، أدركوا البطريق دون أتباع ، ويكاد يكون دون ثياب رسمية ، يركب حمارا وقد صار الى حالة من الفقر تشبه حياة الرسل ، ولو أنه اختار هذا الزهد بمحض ارادته ، فربما استحق حسن المثوبة . وفى تلك الأثناء كانت كنائسه المهجورة قد دنست نتيجة اباحية اللاتين وتحزبهم . فبعد أن انتزعوا الجواهر واللآلىء ، استخدموا أقداح القداس كئوسا للشراب . وكانت الموائد التى قامروا وأولموا عليها مغطاة بصور المسيح والقديسين . ووطئوا بأقدامهم أقدس الأدوات المستعملة فى

العبادات المسيحية . وفى كاتدرائية أيا صوفيا مزق النقاب العريض الذى يغطى الحرم للاستيلاء على الأهداب الذهبية . وحطم المذبح ، وهو أثر من الآثار الفنية الثمينة ، الى قطع تقاسمها الغزاة . وحملت بغالهم وخيولهم بالفضة المزخرفة والنقوش المذهبة التى انتزعوها من الأبواب ومن المنبر . فاذا ناءت بحملها دوابهم ، طعنها سائقوها الذين انتابهم الضجر ، وجرت دماؤها النجسة على الأرصفة المقدسة . وأجلست مومس على عرش البطريق . وغنت ابنة ابليس هـــذه ، كما كانوا يسمونها ، ورقصت فى الكنيسة ، للســـخرية من ترانيم الشرقيين ومواكبهم . ولم تكن قبور الملوك بمنجاة من العدوان والانتهاك . وفى كنيسة الرسل نهبت مقابر الأباطرة . ويقال انه بعد ستة قرون وجدت جثة جستنيان دون أثر للانحلال أو التعفن . وفى الطرقات ارتدى الفرنسيون والفلمنك أنفسهم وكسوا خيولهم ثيابا مصورة وأغطيـــة مدلاة للرأس من التيل . وأساء اسرافهم القبيح فى ولائمهم الى اعتدال الشرقيين الكريم . وللسخرية من أسلحة شعب من الكتبة والباحثين ، تصنعوا عرض قلم ودواة وصحيفة من الورق ، دون أن يدركوا أن أدوات العلم والشجاعة ، سواء بسواء ، كانت ضعيفة وغير مجدية فى أيدى اليونانيين الحديثين .

غير أن شهرتم ولغتهم شجعتاهم على احتقار جهل اللاتين واغفـــال تقدمهم . وكان اختلافهم القومى فى حب الفنون لا زال واضـــحا حقيقيا . وقد حافظ اليونانيون على أعمال أجدادهم فى تبجيـــل واحترام ، وان لم يستطيعوا محاكاتهـــا . ويدفعنا تدمير تماثيـــل القسطنطينية الى الاشتراك مع المؤرخ البيزنطى فى شكواه وسبابه .

وقد رأينا كيف زين تلك المدينة الناشئة الامبراطور الذى أسسها فى غروره وطغيانه . وفى القضاء على الوثنية نجا بعض الآلهة والأبطال من بطش العقيدة . وازدانت السوق وحلقة السباق ببقايا عصر أفضل . وقد وصف نيكيتاس عددا من هذه التماثيل فى أسلوب منمق متكلف . ومن وصفه سأنتقى بعض التماثيل الشائقة .

١ ـــ تماثيل سائقى العربات الفائزين : صنعت من البرونز على نفقتهم أو نفقة الدولة . ووضعت فى حلبة السباق وهى مكانها الملائم . وقد وقفوا مرفوعى الرأس ، وسط عرباتهم وهى تمر حول الهدف . وأعجب النظارة بسمتهم ، واستطاعوا أن يحكموا على دقة الشبه بين التمثال وصاحبه . وربما أحضر أجمل هذه التماثيل من الملعب الأولمبى .

٢ ـــ أبو الهول وفرس النهر والتمساح ، وهى تدل على مناخ مصر ومصنوعاتها ، وأسلاب تلك الولاية القديمة .

٣ ـــ أنثى الذئب وهى ترضع روميلوس وريموس. وهذا موضوع يسر قدماء الرومان ومحدثيهم سواء بسواء . غير أنه يندر أن يقلد الا فى عصر انحطاط النحت عند اليونان .

٤ ـــ نسر يمسك بمخلبه ثعبانا ويمزقه . وهو أثر خاص بالبيزنطيين الذين لا ينسبونه الى فنان بشرى . ولكنهم يقولون بأن الذى أوجده بقوة سحره ، هو الفيلسوف أبولونيوس الذى حفظ المدينة من أمثال تلك الزواحف السامة ، بفضل هذا الطلسم .

٥ ـــ حمار وسائقه . أقامه أوغسطس فى مستعمرته فى نيقوبوليس، احياء لذكرى فأل شفوى تنبأ له بالنصر فى معركة أكتيوم .

٦ — تمثال رجل على حصان . ورد على ألسنة العامة أنه يشوع الفاتح اليهودى ، مادا يده ليوقف الشمس فى مسيرها الى الغروب . ولكن رواية أكثر قدما ترى فيهما بيليروفون وبيجاسوس ، وتدل وقفة الحصان فى حرية على أنه يطأ الهواء لا الأرض .

٧ — مسلة مربعة عالية من النحاس عليها رسوم بارزة تمثل مناظر رائعة ريفية متنوعة : طيور تشدو ، قرويون يعملون أو يترنمون على الأرغول ، شياه تثغو ، وحملان تقفز ، والبحر ، ومنظر السمك وصيد السمك . وآلهة حب صغيرة عارية تضحك وتلهو ويرمى بعضها بعضا بالتفاح ، وعلى القمة تمثال امرأة يدور مع أقل ريح ، ولهذا « سميت تابعة الريح » .

٨ — راعى فريجيا وهو يقدم الى فينوس جائزة الجمال ، تفاحة الشقاق .

٩ — تمثال هيلانه الذى لا يوجد له نظير . وصفه نيكيتاس فى ألفاظ تنم عن الاعجاب والحب : قدماها المنحوتتان فى اتقان بالغ ، وذراعاها فى بياض الثلج ، وشفتاها الورديتان ، ابتساماتها الساحرة وعيناها السابحتان ، وحاجباها المقوسان ، وانسجام أعضائها ، وخفة ثيابها وخصلات الشعر المتدلية التى تتماوج مع الريح — جمال كان من الجائز أن يحرك قلوب أولئك البرابرة الذين دمروا التمثال ، اشفاقا أو ندما .

١٠ — تمثال هرقل على شكل انسان أو اله ، كما أعاده الى الحياة ليسيبوس بيده القادرة . وكان من الضخامة بحيث أن ابهامه كان يساوى فى حجمه وسط الرجل العادى ، وقدمه يبلغ طولها طول قامة الرجل العادى . كان صدره كبيرا ، وكتفاه عريضتين ، وأعضاؤه قوية

نامية ، وشعره أجعـد ، وكان مهيب الطلعة . ودون قوس أو جعبة أو هراوة ، ألقى جلد الأسد على كتفه دون عناية ، وأجلس فى سلة من أغصان الصفصاف ، وامتدت رجله اليمنى وذراعه الايمن الى آخر مداهما ، وانحنت ركبته اليسرى لتسند مرفقه ، واعتمد رأسه على يده اليسرى . أما محياه فغاضب غارق فى التفكير .

١١ — تمثال ضخم للالهة يونو Juno ، كان فى يوم ما يزين معبدها فى ساموس ، وقد جرت أربعة من الثيران فى مشقة ، العربة التى حملت الرأس الضخم الى القصر .

١٢ — تمثال ضخم لبلاس أو مينرقا . ارتفاعه ثلاثون قدما ، يمثل فى حيوية عجيبة صفات هذه العذراء المحاربة وشخصيتها .

وقبل أن تتهم اللاتين ، قد يكون من الانصـاف ان نلاحظ أن تمثال بلاس هذا حطمه اليونانيون أنفسهم بعد الحصار الأول بدافع من الخوف والعقيدة . أما التماثيل الأخرى المصنوعة من النحاس والتى سبق ذكرها ، فقد هشمهـا ، دون احسـاس ، جشع الصليبيين . ثم صهروها ، وضاعت نفقتها والجهد الذى بذل فى صنعها فى لحظات . وتطايرت روح العبقرية مع الدخان ، وصك المعدن الخسيس الذى تبقى فأصبح عملة نقدية لدفع رواتب الجنود . فالبرونز ليس بأكثر الآثار بقاء . أما الأعمال التى صاغها فيدياس وبراكسيتيلس Praxiteles من الرخام فقد أشاح اللاتين بوجوههم عنها فى احتقار غبى . واذا لم تكن هذه الآثار قد تهشمت بمحض الصدفة ، فقد بقيت قائمة آمنة على قواعدها كأحجار لا فائدة منها . واستخدم أكثر الأجانب استنارة ، الذين سموا فوق مطالب مواطنيهم الحمقاء الخسيسة ، حق الفتح على

نهج أكثر ورعا فى البحث عن بقايا القديسين والاستيلاء عليها . وقد جلب من الشرق عدد ضخم من الرءوس والعظام والصلبان والصور وزعتها هذه الثورة على كنائس أوربا . وقد كثر عدد الحجيج وزادت الهبات الى حد أنه ربما لم تكن هناك أسلاب أكثر ربحا ، مما جيء به من الشرق . ولقد ضاع الآن أكثر المؤلفات القديمة التى كانت لا تزال محفوظة فى القرن الثانى عشر . ولم يكن ثمة ميل لدى الحجاج لانقاذ أو نقل المجلدات التى كتبت بلسان يجهلونه . ولا يمكن حفظ الورق أو الرق ، وهى مواد سهلة الفناء ، الا بالأكثار من النسخ . وقد كادت الآداب اليونانية تتركز فى العاصمة . ودون احصاء لمدى الخسارة التى أصابتنا ، يمكننا أن نذرف الدمع على المكتبات التى هلكت فى الحرائق الثلاثة التى شبت فى القسطنطينية .

الفصل الحادى والستون

(١٢٣٧ - ١٢٦١)

بلدوين الثانى واكليل الشوك المقدس •
استرداد اليونانيين للقسطنطينية •
النتائج العامة للحروب الصليبية •

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ استقر الأمر فى تلك المدينة لمن يسمون بالأباطرة اللاتين ، وهم بلدوين الأول وخلفاؤه الأربعة • وفى الوقت نفسه أقام اليونانيون المطالبون بعرش الامبراطورية فى نيقيا وطرابزون • ووصم حكم الاباطرة اللاتين بالعجز والضعف ، وجلب معه على البلاد الكوارث • ووجه آخرهم ، بلدوين الثانى ، نداء عاما الى الغرب لمعاونته •

بلدوين الثانى وإكليل الشوك المقدس

لم يحدث قط الا فى عصر الفروسية أن استطاعت البسالة أن ترقى بشخص ذى مكانة عادية الى عرش بيت المقدس والقسطنطينية . لقد آل لقب ملكة بيت المقدس الى مارى ابنة ايزابلا وكنراد دى مونتفيرات، وحفيدة ألمريك أو أمورى ، التى زوجت من جون دى بريين وهو من أسرة نبيلة فى شمبانيا ، بناء على طلب الرأى العام ، وحكمة فيليب أوغسطس الذى قال عن جون بالذات انه خير بطل للأرض

المقدسة . وفى الحرب الصليبية الخامسة قاد جون مائة ألف من اللاتين لفتح مصر ، وعلى يده تم حصار دمياط . أما الفشل الذى تلا ذلك فقد نسب بحق الى كبرياء النائب البابوى وجشعه . وبعد زواج ابنته من فردريك الثانى ، حفزه جحود الامبراطور لفضله الى أن يقبل قيادة جيش الكنيسة . وعلى الرغم من كبر سنه وانتزاع الملك منه ، فقد كان سيف جون « دى برين » وروحه لا تزالان على استعداد لخدمة المسيحية . ولم يكن بلدوين أوف كورتيناى خلال السنوات السبع التى حكمها أخوه قد شب عن طوق الطفولة بعد . وشعر بارونات رومانيا بالحاجة الملحة الى وضع الصولجان فى يد رجل وبطل . ولما كان ملك بيت المقدس العجوز قد يأنف من اسم الوصى ووظيفته ، فانهم اتفقوا على منحه لقب الامبراطور وامتيازاته لمدة حياته على شرط واحد هو أن يتزوج بلدوين من ابنته الثانية ، وأن يجلس على عرش القسطنطينية عندما يبلغ سن الرشد . وقد اشتعل الأمل فى صدور اللاتين واليونانيين على السواء لشهرة جون دى برين ووقوع الاختيار عليه ووجوده بينهم ، فأعجبوا بمنظره الحربى ، ونضارته وحيويته مع أن سنه كانت قد جاوزت الثمانيين ، وبحجم جسمه وقامته الفارعة التى فاقت كل قامات البشر . ولكن يظهر أن الجشع وحب الدعة خففا من حماسه للمشروع فسرح جنوده ، وانقضت سنتان دون عمل أو مجد ، حتى أيقظه حلف خطير عقد بين فاتاكيس امبراطور نيقيا وآزان ملك بلغاريا ، اللذين حاصرا القسطنطينية برا وبحرا بجيش مؤلف من مائة ألف رجل ، وأسطول يتألف من ثلثمائة سفينة حربية . بينما انكمشت قوات امبراطور اللاتين الى مائة وستين فارسا

وأعداد قليلة من الجاويشية والرماة . وانني لتعروني هزة الفزع عندما أقول بأنه بدلا من أن يدافع ذاك البطل عن المدينة ، قام بهجوم خارج أسوارها على رأس خيالته ، وأنه من ثمان وأربعين فرقة من الاعداء لم ينج من سيفه البتار الذى لا يقهر أكثر من ثلاث فرق . وقد آلهب هذا المثل الذى ضربه ، كلا من المشاة والمواطنين فصعدوا الى السفن التى كانت راسية بالقرب من الأسوار وسحبوا بوصفهم منتصرين ، خمسا وعشرين سفينة الى ميناء القسطنطينية . وبناء على دعوة الامبراطور تسلح الاتباع والحلفاء للدفاع عن القسطنطينية ، واقتحموا كل عقبة قامت فى طريقهم ، وفى السنة التالية أحرزوا نصرا ثانيا على الأعداء أنفسهم . وقارن شعراء ذاك العصر البسطاء جون دى برين بهيكتور Hector ورولاند Roland ويهوذا المكابى Judas Macebaeus غير أن صمت اليونانيين ينقص الى حد ما من فضلهم ومن مجده . وسرعان ما فقدت الامبراطورية آخر حماتها . وكان كل مطمع هذا الملك وهو على فراش موته أن يدخل الجنة فى زى راهب فرانسيسكانى .

ولست بمستطيع أن أعثر ، فى انتصار جون دى برين ، على اسم أو منجزات تلميذه بلدوين ، الذى كان قد بلغ سن الخدمة العسكرية، والذى خلف أباه بالتبنى على عرش القسطنطينية بعد موته . لقد عهد الى الأمير الشاب بمهمة أقرب الى طبعه ، فأرسل به فى زيارة لملوك الغرب ، ولا سيما البابا وملك فرنسا ، ليثير فى قلوبهم الشفقة بمنظره البرىء وضائقته وليحصل على مدد من الرجال أو الأموال لنجدة هذه الامبراطورية المنهارة الغارقة . وكرر زيارات التسول هذه

ثلاث مرات . وكان فى كل مرة يطيل اقامته ويؤجل عودته . ومن حكم دام خمسا وعشرين سنة قضى الجزء الأكبر فى الخارج ، لا فى وطنه ، ولم يعتبر الامبراطور نفسه فى أى بلد أقل حرية وأمنا عنه فى وطنه الأصلى وفى عاصمته . وفى بعض المناسبات العـــامة ربما أرضى غروره لقب أوغسطس ، والشرف الذى تسبغه عليه الحلة الأرجوانية . وفى مجمع ليون العام بعد أن حرم فردريك الثانى من الكنيسة وعزل ، اتخـذ مع زميله امبراطور المشرق مجلسه على يمين البابا . ولكن كم من مرة أذل الاحتقار المنفى الشريد والامبراطور الشحاذ وجرح كبرياءه ، وصغر شأنه فى عينيه هو نفسه وفى أعين الأمم !! وفى أول زيارة له لبريطانيا قوبل فى دوفر بتوبيخ قاس بأنه تجاسر على أن يدخل دون اذن مملكة مستقلة . ولكن بعـد شىء من المراوغة سمح لبلدوين بأن يستمر فى رحلته ، واستقبل استقبالا فاترا ، وان يكن مهذبا ، ثم رحل شاكرا بهدية مقدارها سبعمائة مارك . ولم يستطع أن يحظى من جشع رومه الا باعلان حرب صليبية ، وكنز من صكوك الغفران : وهى عملة انحطت قيمتها لسوء استعمالهـا بكثرة ودون تمييز . وقرب مولده ومصائبه بينه وبين ابن عمه الملك الكريم لويس التاسع . ولكن الغيرة الحربيـة عنـد هذا القـديس اتجهت الى مصر وفلسـطين لا الى القسطنطينية . وخفف من فقر بلدوين الخاص والعام ، لفترة ما ، التنازل عن مقاطعتى نامور وكورتيناى ، وكانتا البقية الباقية من ميراثه وبهذه الوسائل المخربة المخزية عاد ثانية الى رومانيا بجيش مؤلف من ثلاثين ألف جندى ، تضاعف عددهم فى خيال اليونانيين نتيجة لفزعهم . وكانت رسائله الأولى الى فرنسا وبريطانيا تعلن عن انتصاراته وآماله.

لقد أخضع الريف المحيط بالعاصمة الى مسيرة ثلاثة أيام ، واذا هو حالفه التوفيق أمام مدينة هامة لم يذكر اسمها (وأغلب الظن أنها خيورلى Chiorli) ، لأصبحت الحدود آمنة والمرور ميسرا . ولكن هذه الأمانى (ان كان بالدوين مخلصا) تبددت بسرعة كأنها حلم . واختفى جنود فرنسا وكنوزها من بين يديه لافتقاره الى الحنكة والمهارة . وتولى حماية عرش امبراطور اللاتين حلف شائن مع الأتراك والكومان Comans . وارضاء للأتراك وافق على أن يزوج ابنة أخيه من سلطان كوجنى Cogni وهو كافر ، ولارضاء الفريق الثانى وافق على الاشتراك فى طقوسهم الوثنية فقدم كلب قربانا بين الجيشين ، وتذوق الطرفان المتعاقدان كل منهما دم الآخر كضمان لولائهما واخلاصهما . وفى قصر أو سجن القسطنطينية ، هدم خليفة أوغسطس الدور الخالية للحصول على وقود يدفع به برد الشتاء . وانتزع الرصاص من الكنائس لدفع نفقات أسرته اليومية . وعقد مع تجار ايطاليا بعض القروض الربوية الضئيلة . وأودع فيليب ابنه وولى عهده رهينة لسداد دين فى البندقية . ان العطش والجوع والعرى شرور واقعية ، أما الثراء فأمر نسبى . ولو كان الأمير فى مركز شخصى عادى لأصبح فى عداد الأثرياء ، ولكنه تعرض نتيجة لتزايد مطالبه وحاجاته الى ما يورثه الفقر من قلق وضيق ومرارة .

ولكن وسط هذا الضيق والبؤس ، كان الامبراطور والامبراطورية لا يزالان يملكان كنزا مثاليا استمد قيمته الخيالية من عقيدة العالم المسيحى . لقد انتقصت قيمة الصليب الأصلى الحقيقى بكثرة توزعه . ولما كان قد بقى فتره طويلة أسيرا فى أيدى الكفار ، فقد يعكس ذلك

بعض الشك على الأجزاء التى وجدت فى الشرق والغرب . ولكن أثرا آخر من آثار صلب المسيح كان محفوظا فى الكنيسة الامبراطورية بالقسطنطينية ، هذا هو اكليل الشوك الذى وضع على رأس المسيح ، والذى كان قيما ثمينا قدر ما كان حقيقيا . وكان من عادة المدينين فى مصر القديمة أن يودعوا موميـــاء آبائهم كضمان لقروضهم ، وهم مضطرون حفاظا على شرفهم ودياتنهم ، الى استرداد رهائنهم . وعلى النهج نفســه وفى غياب الامبراطور ، اقترض بارونات رومانيا مبلغ ثلاثة عشر ألفا ومائة وأربعا وثلاثين قطعــة ذهبية بضمان التـــاج المقدس . ولما عجزوا عن تنفيذ عقدهم تعهــد تاجرغنى من تجـــار البندقية ، اسمه نيقولا كويرينى Querini أن يدفع عنهم ديونهم لدائنيهم القلقين الذين نفد صبرهم ، شريطة أن يودع الأثر (التاج المقدس) فى البندقية ، وأن يصبح ملكا خالصا له ان لم يدفع له دينه فى وقت قصير محدد . وأخطر البارونات مليكهم بهــذا العقد القاسى والخســارة التى توشـــك أن تلحق بهم . ولما كانت الامبراطورية لا تستطيع أن تدفع تعويضا قدره سبعة آلاف من الجنيهات الاسترلينية، بات الملك متلهفا على انتزاع هذه الدرة الثمينــة من البنـــدقية ، وايداعها ، فى شرف أكبر وربح أوفر ، فى يد أعظم ملوك المسيحية تمسكا بدينه . ولكن المفاوضات اكتنفها شىء من الدقة والحرج . ففى شراء الأثر ، ربما كان لزاما أن يبدأ القديس بالتحدث عن اثم الاتجار بالأشياء المقدسة ، ولكنه اذا غير نهج الحديث ، كان عليه قانونا أن يدفع الدين ويتقبل الهدية ، ويعترف بالجميل . فبعث بسفيريه ، وهما اثنان من رهبان الدومينيكان ، الى البندقية ليستخلصا ويتسلما

التاج المقدس الذى كان قد نجا من أخطار البحر ومن سفن فاتاكييس الحربية . وعند فتح الصندوق الخشبى تعرفا على أختام الدوج والبارونات التى وضعت على خزانة من الفضة ، وضع بداخلها هذا الأثر من آثار صلب المسيح فى وعاء من الذهب . وهنا خضع البنادقة كارهين للعدالة والقوة . وتفضل الامبراطور فردريك فسمح بحرية المرور فى أرضه مع مظاهر التكريم والتشريف . وتقدم بلاط فرنسا حتى بلغ ترويس فى شمبانيا ليستقبل فى ورع هذا الأثر الذى لا يقدر بثمن . وحمله الملك نفسه ، وهو عارى القدمين ، مرتديا قميصا ، وسار به فى طرقات باريس فى موكب كمواكب النصر . وتعزى بلدوين عن فقده ، بمنحة كريمة قدرها عشرة آلاف مارك من الفضة . وقد أغرى نجاح هذه الصفقة امبراطور اللاتين أن يقدم فى كرم مماثل الأشياء الباقية فى كنيسته الصغيرة : جزءا كبيرا أصيلا من الصليب الحقيقى ، ثوبا من الكتان لابن الله وهو طفل ، والحربة والاسفنجة والسلسلة التى استعملت فى صلبه ، عصا موسى ، وجزءا من جمجمة القديس يوحنا المعمدان . ولاستقبال هذه الكنوز الروحية أنفق القديس لويس عشرين ألف مارك على تشييد مبنى فخم ألا وهو كنيسة باريس المقدسة وقد اسبغت عليها عبقرية بوالو Boileao الشعرية خلودا مضحكا . وينبغى على كل من يؤمن بالمعجزات التى أتت بها هذه الآثار العتيقة أن يسلم بأنها آثار حقيقية ، ولو أن أصالتها لا يمكن اثباتها بأى شاهد بشرى . وفى منتصف القرن الماضى تقريبا ، شفيت قرحة مزمنة بفضل وخزة أو لمسة خفيفة من التاج المقدس . وقد شهد على صدق هذه المعجزة أتقى المسيحيين فى فرنسا وأكثرهم تنورا . وليس من السهل دحض هذه الواقعة الا على من تسلحوا بترياق مضاد للسذاجة الدينية .

استرداد اليونانيين للقسطنطينية

كان لاتين القسطنطينية محاصرين ومضيقا عليهم الخناق من جميع الجهات . وكان أملهم الوحيد أو آخر أمل لهم فى الافلات من الهلاك يتمثل فى انقسام يدب بين أعدائهم اليونانيين والبلغاريين . ولكن حرمهم هذا الأمل تفوق فاتاكيس امبراطور نيقيـا فى الأسلحة والسياسة . وكانت آسيا ، بين بحر مرمرة وشواطىء بامفيليا الصخرية ، يعمـها السلام والرخاء فى ظل حكمه . وانتشر نفوذه فى أوربا بفضل نتائج غزواته . وأنقذت المدن القوية فى تلال مقدونيه وتراقيه من البلغار ، وحددت مملكتهم بحدودها الحالية الصحيحة التى تمتد على طـول الشاطىء الجنوبى لنهـر الدانوب . ولم يستطع امبراطور الرومان الوحيد أن يصبر على وجود لورد فى أبيروس ، وهو أمير من أسرة كومنينوس من الغرب ، يجرؤ على منازعته أو مشاركته شرف الحلة الأرجوانية . فغير ديمتريوس المتواضع لون حذائه وتقبل شاكرا لقب «طاغية» Despot . وقد هال رعاياهأنفسهم ذلته وعدم كفايته . فالتمسوا حماية سيدهم الأعلى . وبعد مقاومة يسيرة ضمت مملكة سالونيك الى امبراطورية نيقيا . وحكم فاتاكيس دون منافس من حدود تركيـا الى بحر الأدرياتيك . وقد احترم أمراء أوربا جدارته وقوته . ولو أنه اعتنق عقيدة سليمة أرثوذكسية لبدا من الجائز أن يتخلى البابا عن العرش اللاتينى فى القسطنطينية طواعية واختيـارا . ولكن موت فاتاكيس وحكم ابنه ثيودور القصير الذى زخر بالأحداث ، وطفولة حفيده جون البائسة ، عطلتا عودة اليونانيين . وفى الفصـل التـالى

سأشرح ثوراتهم الداخلية ، ويكفينى هنا أن ألاحظ أن الأمير الصغير أرهقه طموح وصيه وزميله ، ميكائيل بالايولوجوس الذى كشف عن فضائل مؤسس أسرة جديدة ورذائله . وخدع الامبراطور بلدوين نفسه بأنه قد يتمكن من استرداد بعض الولايات والمدن بمفاوضات يسيرة . ولكن طرد سفراؤه من نيقيا فى سخرية وازدراء . وكلما ذكروا مكانا ، قدم بالايولوغوس سببا خاصا يجعل من المكان موطنا عزيزا عليه ذا قيمة فى نظره . لقد ولد فى مكان ، وفى مكان آخر رقى أولا الى مناصب القيادة فى الجيش . وفى مكان ثالث تمتع ، ويأمل أن يستمتع ، لفترة طويلة بمباهج الصيد . فسأله السفراء الذين أصابهم الدهش : « وماذا اذن تقترح أن تعطينا ؟ » وأجاب امبراطور اليونان : « لا شيء ، لا شبر من الأرض ، واذا كان مولاكم يرغب فى السلام فليدفع كجزية سنوية ، المبالغ التى يحصل عليها من تجارة القسطنطينية وجماركها ، ومن ثم أسمح له بأن يستمر فى الحكم . فان أبى ، فهى الحرب . انى غير جاهل بفن الحرب ، وسأترك النتيجة لله ولسيفى » . وكانت الحملة التى وجهت ضد طاغية أبيروس أول عمل حربى قام به . فاذا كان النصر قد تلته هزيمة ، واذا كانت أسرة كومنينوس أو أنجيلوس قد اعتصمت وبقيت فى تلك الجبال رغم جهوده ، وبعد انقضاء حكمه ، فقد حرم وقوع فيلاهاردوين (أمير أخايا) فى الأسر ، اللاتين من أنشط أتباعهم وأشدهم قوة فى هذه المملكة المتداعية . وقد تنازعت البندقية وجنوة فى أول حرب بحرية بينهما السيادة على البحر وتجارة الشرق . وقد ربط الزهو والمصلحة بين البنادقة وبين الدفاع عن القسطنطينية ، على حين مال منافسوهم

الى تشجيع أهداف أعدائها ، فأثار حلف عقد بين أهل جنوة وبين الامبراطور المنشق ، غضب الكنيسة اللاتينية .

ولما كان الامبراطور ميكائيل مصرا على هدفه العظيم ، فانه زار بنفسه الجنود وقوى من روحهم المعنوية ، كما دعم حصون تراقيه . وطرد البقية الباقية من اللاتين من آخر ممتلكاتهم ، وهاجم دون جدوى ضاحية غلطه ، وراسل بارونا خائنا ، ثبت أنه لم يستطع أو لم يرغب فى فتح أبواب العاصمة . وفى الربيع التالى عبر قائده المحبوب ، ألكسيوس ستراتيجوبولس الذى كان قد كرمه بلقب قيصر ، الدردنيل ومعه ثمانمائة من الخيالة وبعض المشاة ، فى حملة سرية . وكانت أوامره تقضى بأن يقترب وأن يصغى وأن يراقب ، لكن دون أن يغامر بمشروع خطير أو مشكوك فيه ضد المدينة . وكان يزرع المنطقة المجاورة بين بحر مرمرة والبحر الأسود ، عنصر قوى من الفلاحين والهاربين من وجه العدالة ، مدرب على الحرب ، مشكوك فى ولائه ، ولكنهم منحازون بحكم اللغة والدين والمصلحة العاجلة الى الجانب اليونانى . ولقد أطلق عليهم اسم « المتطوعين » ، وبفضل خدماتهم الاختيارية زاد جيش ألكسيوس فبلغ عدده خمسة وعشرين ألفا من الرجال ، بما فيهم الجنود النظاميون الذين ينتمون الى تراقية وقوات الكومان المساعدة . وقد حفز المتطوعين حماسهم ، كمادفع هذا القيصر طموحه الشخصى الى مخالفة الأوامر الصريحة الدقيقة الصادرة اليه من مولاه ، واثقا — وهذا حق — من أن نجاحه سيحقق له العفو وحسن الجزاء . وكان ضعف القسطنطينية وكوارث اللاتين وفزعهم بارزا أمام أعين المتطوعين ، الذين رأوا أن هذه

أنسب فرصــة للمفاجأة والغزو . وأبحر شاب متهور ، وهو الحاكم الجديد لمستعمرة البندقية ، ومعه ثلاثون بارجة حربية وخيرة الفرسان الفرنسيين الى حملة جنونية على دافنوسيا ، وهى بلدة على البحـــر الأسود تبعد أربعين فرسخا . أما الباقون من اللاتين فلم يكن لديهم قوة ولم يساورهم شك . ولقد جاءهم خبر مرور ألكسيوس من الدردنيل ، ولكن مخاوفهم هدأت ، عندما لاحظوا قلة عدد قواته الأصـــلية ، ولم يفطنوا ــــ جهلا وغفلة منهم ــــ الى ازدياد عدد قواته فيما بعد ، فانه اذا كان قد ترك قواته الأساسية لتعاون عملياته وتدعمها ، فقد كان يمكنه أن يتقدم ليلا مع فرقة منتقاة دون أن يلحظه أحد . وبينما كان البعض يضـــع ســلالم التسلق على الأجزاء الســـفلى من الأسوار ، كانوا على ثقة من أن يونانيا عجوزا سيسمح لرفقائهم بأن يدخلوا داره بوساطة ممر تحت الأرض ، فاذا ما وجدوا أنفسهم داخل المدينة فسرعان ما يمكن أن يفتحوا طريقا يخترق البوابة الذهبيـــة التى كانت قد سدت منذ وقت طويل ، وسيكون الفاتح فى قلب المدينة قبل أن يشعر اللاتين بالخطر . وبعد بعض المناقشة ، استســـلم القيصر لولاء المتطوعين ، وكانوا أهلا للثقة ، ذوى جرأة ، موفقين . وفى وصفى للخطة قمت فعلا بشرح تنفيذها ونجاحها . ولكن ما ان وضع ألكسيوس قدمه على عتبة البوابة الذهبيـــة حتى ارتعد فرقا لتهوره واندفاعه ، وتوقف وبدأ يناقش ، الى أن استحثه المتطوعون المستبسلون على التقدم مؤكدين له أن فى التقهقر يكمن أعظم خطر محتوم . وبينما احتفظ القيصر بقواته النظامية فى تنظيم قوى ، تفرق الكومان فى كل جانب . وأدرك سكان القسطنطينية ما يحدق بهم من

خطر . وقد أجبر التهديد بالحريق والنهب المواطنين على اتخاذ قرار حاسم . وتذكر اليونانيون فى المدينـــة ملوكهم وحكامهم الوطنيين ، وذكر أهل جنوة تحالفهم الحديث وعداءهم للبنادقة . فحمل كل حى السلاح وردد الهواء هتافا واحدا : « الحياة والنصر لميكائيل وجون امبراطورى الرومان المعظمين » . أما منافسهما بلدوين فقد استيقظ على هذه الأصوات . ولم يستطع الخطر الماثل أمامه أن يحفزه الى أن يستل سيفه دفاعا عن المدينة التى ربما غادرها مسرورا أكثر منه آسفا . فهرب من القصر الى الشاطىء وهناك رأى على بعد أشرعة الأسطول الحبيبة وهو عائد من محاولة عقيمة ضد دافنوسيا . لقد ضـــاعت القسطنطينية الى غير رجعة . فأبحر امبراطور اللاتين والأسرات الكريمة على بوارج البندقية وتوجهوا أولا الى جزيرة يوبيا ، ثم بعد ذلك الى ايطاليا حيث استقبل البابا وملك صقليه الامبراطور اللاجىء بمزيج من الاحتقار والشفقة . ومنذ سقوط القسطنطينية الى يوم وفاته قضى ثلاث عشرة سنة يتوسل الى الدول الكاثوليكية أن تعاونه فى استعادة ملكه . ولكنه كان قد وعى هذا الدرس فى صغره . ولم يكن منفاه الأخير أشد فقرا وعارا من طوافه السابق ، عندما قدم ثلاث مرات على ملوك أوربا . وكان ابنه فيليب وارثا لامبراطورية مثالية . وقد انتقلت مزاعم ابنته كاترين الى زوجها شارل دى ڤالوا ، أخى فيليب الجميل ، ملك فرنسا . وقد لمع بيت كورتيناى من جهة النساء فى زيجات ناجحة متتالية ، حتى أصبح لقب امبراطور القسطنطينية أضخم وأكثر رنينا من أن يحمله اسم عادى ، فتوارى فى تواضع ، ولفه الصمت والنسيان .

النتائج العامة للحروب الصليبية

بعد وصفي للحملات التى قام بها اللاتين على فلسطين والقسطنطينية، لا أستطيع أن أترك الموضوع دون تدبر النتائج العامة على الأقطار التى كانت مسرحا لهذه الحوادث ، وعلى الأمم التى لعبت دور الممثلين فى هذه الحروب الصليبية المشهودة . وما ان انسحبت جيوش الفرنجه حتى عفت آثارها ، وان بقيت ذكراها ، فى البلدين الاسلاميين مصر وسوريا . وجدير بالذكر أن أتباع النبى الأوفياء لم تغرهم قط أية رغبة دنسة بدراسة قوانين المشركين ولغتهم ، ولم تتبدل بساطة أخلاقهم البدائية قط بسبب اختلاطهم فى السلم والحرب بهؤلاء الأجانب المجهولين الذين جاءوا من الغرب . أما اليونانيون الذين ملأهم الزهو والتعالى — ولكنه الغرور الأجوف — فقد كانوا ، الى حد ما ، أقل صلابة . ففى جهودهم لاسترداد امبراطوريتهم حاكى اليونانيون شجاعة خصومهم ونظامهم وخططهم الحربية . وربما جاز لهم، حقا وعدلا ، أن يزدروا أدب الغرب الحديث ، ولكن كان من الممكن أن تلقنهم روحه الحرة دروسا فى حقوق الانسان . فاقتبس اليونانيون من الفرنسيين بعض نظم الحياة الخاصة والعامة . وساعد تبادل الرسائل بين القسطنطينية وايطاليا على انتشار اللغة اللاتينية وشرفت مؤلفات عدد من آباء الكنيسة والكتاب الكلاسيكيين فى النهاية بترجمة يونانية . غير أن الاضطهاد أهاج الأحقاد القومية والدينية بين أهل الشرق ، وثبت حكم اللاتين جذور الفصل بين الكنيستين .

واذا قارنا ، فى الفترة التى نشبت فيها الحروب الصليبية ، بين اللاتين فى أوربا وبين اليونانيين والعرب ، بالنسبة لمستوى كل منهم فى المعرفة والصناعة والفن ، فان أجدادنا الأولين البسطاء يجب أن ينعموا بالمركز الثالث فى ترتيب الأمم . وربما جاز أن ينسب تحسن أحوالهم على مر الزمن وتفوقهم الحالى الى طاقة غريبة فى طباعهم والى روحهم النشيطة المحبة للمحاكاة التى لم يعرفها منافسوهم الذين كانوا أكثر منهم صقلا ، والذين كانوا قد وصلوا آنذاك الى نقطة ثابتة أو دخلوا دور الانتكاس . وفى هذا الظرف وبمثل هذه النزعة ، كان لزاما على اللاتين أن يتلقفوا المزايا الأساسية الأولى لسلسلة الأحداث التى فتحت أمام أعينهم آفاق العالم ومكنتهم من اختلاط طويل متكرر مع الأقاليم التى هى أكثر مدنية فى الشرق . وكان أول تقدم وأوضحه ، فى ميدان التجارة والصناعة ، فى تلك الفنون التى يدفع اليها ، بقوة ، التعطش الى الثروة ، والحاح الحاجة واشباع الحواس أو الغرور . فمن بين جمهور من المتعصبين المغلقة عقولهم ، كان فى مقدور أحد الأسرى أو الحجاج أن يلاحظ بعض الأحيان تفوق الذوق فى القاهرة والقسطنطينية . ان أول من أدخل طواحين الهواء أحسن ، ولا شك ، الى الناس . فاذا استمتعوا بأمثال هذه النعم دون اعتراف بجميل من أدخلها ، فان التاريخ قد تنازل فذكر أكثر المواد ترفا التى نقلت من اليونان ومصر الى ايطاليا مثل الحرير والسكر . أما احتياجات اللاتين الذهنية والفكرية ووسائل اشباعها فأمر جاء الاحساس به فى بطء أكبر . لقد اشتد الحماس لحب الاستطلاع الجاد فى أوربا ، نتيجة لأسباب مختلفة وحوادث أقرب

عهدا . ولكنهم فى زمن الحروب الصليبية ، نظروا فى لامبالاة طائشة الى آداب اليونان والعرب . وكان من الممكن أن تنتقل بعض المعارف الأولية فى الرياضيات والطب وفى الحياة العملية وفى الحساب ، كما أنه من الممكن أن تخلق الحاجة بعض المترجمين للمعاونة فى انجاز أعمال التجار والجنود ، وهى عمليات أضخم . ولكن تجارة المشرق لم تنشر دراسة لغاته ومعرفتها فى مدارس أوربا . فلو أن العقيدة الدينية هى التى أبعدتهم عن لغة القرآن ، لكان من الواجب أن تستثير فضولهم وتدفعهم الى دراسة النص الأصلى للانجيل ، وهنا كان من الميسور أن معرفة اللغة نفسها تظهرهم على معانى أفلاطون وجمال هوميروس . ومع ذلك ففى حكم دام ستين سنة ، احتقر اللاتين فى القسطنطينية لغة رعاياهم وعلمهم . وكانت المخطوطات هى الكنوز الوحيدة التى يمكن للأهالى أن يتمتعوا بها دون خوف من النهب أو الحسد . حقا كان أرسطو مصدر الوحى فى جامعات الغرب ، ولكنه لم يك نقيا . وبدلا من الصعود الى المنبع ، تقبل أتباع أرسطو من بين اللاتين ، فى تواضع ، ترجمات بعيدة عن الأصل ، وقد نالها التحريف من أقلام اليهود والعرب فى الأندلس . وكان المبدأ الذى أثار الحروب الصليبية هو التعصب الوحشى ، وكانت أكثر النتائج أهمية تلتئم مع السبب . وكان كل حاج يطمع فى أن يعود ومعه أسلابه المقدسة ، وهى البقايا المقدسة فى اليونان وفلسطين . وقد سبق كل أثر مقدس وأعقبة سلسلة من المعجزات والرؤى . ومن ثم أفسدت الخرافات الجديدة معتقدات الكاثوليك ، كما أفسد طقوسهم خزعبلات جديدة ، وسال من ينبوع الحرب المقدسة المشئوم ، انشاء محاكم التفتيش ، وطوائف الشحاذين

من الرهبان ورجال الدين ، وسوء استعمال صكوك الغفران فى آخر أشكالها ، وتقدم الوثنية فى النهـــاية . لقد أنهكت الروح اللاتينية النشيطة قوى عقولهم ودينهم . واذا كان القرنان التاسع والعاشر هما عصر الظلام ، فالقرنان الثالث عشر والرابع عشر هما زمن الســـخف والخرافة .

وفى اعتناق المسيحية ، وفى زراعة الأرض الخصـــبة ، اختلط الفاتحون الذين جاءوا من الشمال ، وغزوا الامبراطورية الرومانية ، مع سكان الولايات دون أن يشعر بذلك أحد ، وأضاءوا مرة أخرى شعلات الفنون التى كانت مضيئة فى العصور القديمة . وما كادت جالياتهم ومســـتعمراتهم حوالى زمن شرلمان تحظى ببعض النظام والاستقرار ، حتى اجتاحتهم أفواج جديدة من الغزاة مثل النورمان والعرب والمجريين الذين أعادوا أقطار غرب أوربا الى حالتها الأولى من الفوضى والهمجية . وحوالى القرن الحادى عشر كانت العاصفة قد هدأت ، بطرد أعداء المسيحية أو باعتناقهم لها . وبدأ مد الحضارة الذى كان قد انحسر لمدة طويلة ، فى الارتفاع فى مجرى منتظم سريع. وانفتح أمام آمال الجيل الصاعد وجهوده مجال أرحب وأجمل . وكانت الزيادة كبيرة والتقدم سريعا فى مائتى السنين التى استغرقتها الحروب الصليبية . وقد أشاد بعض الفلاسفة بالأثر الحسن لهذه الحروب المقدسة التى عطلت ، فيما يبدو لى ، نضوج أوربا ، ولم تدفعه الى الأمام [1] . وكان من الممكن استخدام حياة وجهود اللاتين الذين

(١) فى هذا الموضوع الهام ، أعنى تقدم المجتمع فى أوربا ، أضاء شعاع قوى من نور الفلسفة اسكتلنده فى زماننا هذا . وانى أكرر ذكر أسماء هيوم وروبرتسن وآدم سميث ، مع التقدير الخاص والعـــام على حـــد سواء .

دفنوا فى الشرق على نهج أفضل لتحسين قطرهم الأصلى . وكان من الممكن أن تغمر الكميات المختزنة من المصنوعات والثروات أسواق التجارة . وكان من الممكن أن يثرى اللاتين وأن يتثقفوا عن طريق الاتصال الودى البرىء مع بلاد الشرق . وفى ناحية واحدة أستطيع حقا أن أحس بأن عمليات الصليبيين الطارئة دفعت شرا ، وان هى لم تجلب خيرا . ذلك أن أكبر جزء من سكان أوربا كان مغلولا الى الأرض دون حرية أو ملكية أو معرفة . وكانت طائفتا النبلاء ورجال الدين ، مع أن عددهما قليل ، هما وحدهما اللتان تستحقان اسم المواطن والانسان ، وقد استند هذا النظام الظالم الى أفانين رجال الدين وسيوف البارونات . وعمل نفوذ القساوسة فى أظلم العصور على أن يكون ترياقا ناجعا . فحالوا دون انقراض الأدب انقراضا تاما ، وخففوا من وحشية تلك الأزمنة وآووا الفقير ، ومن لا ناصر له ، وحافظوا أو أحيوا السلام والنظام فى المجتمعات المدنية . أما استقلال لوردات الاقطاع ونهبهم وصراعهم فكان شرا لم يخالطه خير أو ما يشبه الخير . وكل أمل فى العمل الجاد أو التحسين حطمته الأرستقراطية العسكرية . ومن بين الأسباب التى دكت أسس البناء القوطى ، يجب أن نفسح مكانا ظاهرا للحروب الصليبية . فقد ضاعت مزارع البارونات هباء ، وكثيرا ما انقرض نسلهم فى هذه الحمـــلات الخطيرة ذات التكاليف الباهظة . وانتزع فقرهم من كبريائهم صكوك الحرية التى حطمت أغلال العبيد وأمنت الفلاح على مزرعته والصانع على حانوته ، وأعادت تدريجيا ، مادة وروحا ، الى جزء من المجتمع هو أكثرها عددا وأعظمها نفعا . ان الحريق الذى دمر الأشجار العالية التى لا تثمر ، قد سمح بالهواء ومجال النمو للنباتات الصغيرة المغذية التى تنبت على التربة .

في عام ١٢٦١ استرد اليونانيون القسطنطينية ووضعوا على عرشها ميكائيل باليولوجوس أول امبراطور في أسرة قدر لها أن تكون آخر أسرة في التاريخ البيزنطي • وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ضيق الغزاة من المغول عليها الخناق ، تحت قيادة خلفاء جنكيزخان • وعندما ضعفت قوة المغول استقر الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى ، ووضعوا أقدامهم في أوربا • ويصف جيبون هذه التطورات في الفصول الثلاثة التالية ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ •

نهاية الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس والستون
(١٤٢٢ - ١٤٤٨)

حصار مراد الثانى للقسطنطينية •

نظام الأتراك • اختراع البارود

فى سنة ١٤٠٢ خفف تيمورلنك الذى أسر السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، من الخطر المحدق بالقسطنطينية من جانب الأتراك العثمانيين ، ولكنهم استردوا قوتهم فى زمن مراد الثانى ، فتأكد مصير القسطنطينية •

حصار مراد الثانى القسطنطينية

كان أعقل الأتراك ، بل فى الحق مجموع الأمة ، فى غمرة هذه الصراعات ، يتمسكون أشد التمسك بوحدة الامبراطورية . وكانت الأناضول وبلاد الروم ، وكثيرا ما فرق بينهما الطموح الفردى ، تسيطر عليهما نزعة قوية غلابة الى التماسك والترابط . وكان من الممكن أن تلقن جهودهم ، القوى المسيحية درسا . فلو أنهم احتلوا مضايق غاليبولى بأسطول متحالف لقضى بسرعة على العثمانيين فى أوربا على الأقل . ولكن انشقاق الغرب ومنازعات بريطانيا وفرنسا وحروبهما حالت

بين اللاتين وبين هذا المشروع العظيم ، وتمتعوا بالهدوء أو الامهال الحالى دون أن يفكروا فى المستقبل . وكثيرا ما أغرتهم مصلحة عاجلة بخدمة عدو دينهم المشترك . وأثرت مستعمرة من أهل جنوة ، كانت قد أنشئت فى فوكايا على الشاطىء الأيونى ، بفضل احتكار تجارة الشب المربحة . وقد ضمن لهم دفع الجزية السنوية حياة هادئة فى ظل الامبراطورية التركية . وفى آخر حرب أهلية بين الأتراك ، انحاز أدورنو Adorno ، وهو حاكم المستعمرة ، من أهل جنوة ، وكان شابا جريئا طموحا — انحاز الى جانب مراد ، وتعهد بنقله من آسيا الى أوربا فى سبع بوارج قوية . فأبحر السلطان ومعه خمسمائة من الحرس على بارجة الأميرال التى كانت مزودة بثمانمائة من أشجع الفرنجه . وكانت حياته وحريته فى قبضتهم . ولسنا نستطيع عن رضا واختيار ، أن نمتدح ولاء أدورنو الذى ركع فى منتصف الرحلة أمام السلطان وتقبل شاكرا اعفاءه من متأخر الجزية . وقد نزلوا الى البر على مرأى من مصطفى وغاليبولى ، وصحب السلطان مرارا لفتح أدرنة ألفان من الايطاليين المسلحين بالحراب والفئوس . وسرعان ما لقيت هذه الخدمة المشتراة جزاءها ، فدمرت تجارة فوكايا والمستعمرة القائمة بها .

ولو أن تيمورلنك كان كريما فسار لنجدة امبراطور اليونان ، عندما طلب منه ذلك ، لاستحق من المسيحيين الثناء والاعتراف بالجميل . ولكنه لم يكن يستشعر الشفقة نحو عبدة الأصنام فى أوربا أو يميل الى نجدتهم ، وهو الذى حمل سيف الاضطهاد فى جورجيا ، ونظر بعين الاحترام الى الحرب المقدسة التى كان يشنها بايزيد .

واندفع التترى وراء طموحه ، وكان خلاص القسطنطينية نتيجة غير مقصودة . فعندما اعتزل عمانويل الحكم كان دعاؤه ، لا أمله ، أن يؤجل سقوط الكنيسة والدولة حتى تنتهى أيامه التعسة . وبعد أن عاد من زيارته للغرب . كان يتوقع فى كل ساعة أن يسمع أخبـــار الكارثة المحزنة . وفجأة أذهله وأطربه خبر تقهقر سلطان العثمانيين وهزيمته وأسره . فأبحر عمانويل لفوره من مودون فى بلاد المورة واعتلى عرش القسطنطينية وطرد منافسه الأعمى الى منفى سهل فى جزيرة ليسبوس. وسرعان ما مثـــل أمامه ســـفراء ابن بايزيد ، وقـــد حطم كبرياؤهم وتواضعت أو اعتدلت نبراتهم ، وقد خشوا حقا أن يفتح اليونانيون للمغول أبواب أوربا . وحيا سليمان الامبراطور بقوله «أيها الوالد» ، وتوسل اليه أن يمنحه حكما فى رومانيا أو أن يهبه اياها ، ووعد أن يعمـــل على مافيه رضـــاه ، فى مودة صادقة ، مع محـــاولة استرداد سالونيك وأهـــم البـــلاد الواقعة على شاطىء ستريمون Strymon وبحر مرمرة والبحر الأســـود . وتعرض الامبراطور لعـــداء موسى وانتقامه ، بعد عقده تحالفا مع سليمان . وظهر الأتراك أمام أبواب القسطنطينية فى كامل عدتهم ، ولكنهم ردوا على أعقـــابهم فى البر والبحر . ولو لم تكن هناك حامية من المرتزقة الأجانب تدافع عن المدينة، لدهش اليونانيون لانتصـــارهم هم أنفسهم . وبدلا من اطالة أمد الشـــقاق بين القوى العثمانية ، جنحت سياسة عمانويل أو هواه الى مساعدة أقوى أبناء بايزيد . فعقد معاهدة مع محمـــد ، الذى أوقف تقدمه حاجز غاليبولى الذى لا يمكن تخطيه . فنقل السلطان وجنوده عبر البسفور . واستقبل استقبالا كريما فى العاصمة . وكان هجومه

الموفق خارج الأسوار أول خطوة فى غزو رومانيا .وأوقف حزم الفاتح واعتداله خراب البلاد ، وقام بأداء ما وجب عليه فى أمانة وأنفذ تعهدات سليمان . واحترم قوانين السلام وقواعد الاعتراف بالجميل . وجعل من الامبراطور وصيا على ولديه الصغيرين ، يحدوه أمل عقيم فى انقاذهما من حقد أخيهما مراد وقسوته . ولكن أمله هذا باء بالفشل . وربما أساء تنفيذ وصيته الأخيرة الى شرفه القومى والى دينه . وقرر الديوان بالاجماع أنه لا ينبغى أن يترك الأميران الشابان تحت وصاية مسيحى ليقوم بتربيتهما . وقد انقسمت المجالس البيزنطية ازاء هذا الرفض ولكن عمانويل ، وهو الشيخ المسن الحذر الحريص تراجع أمام جرأة ابنه جون . فسل سلاحا خطرا من أسلحة الانتقام ، بتسريح مصطفى سواء كان هو مصطفى الحقيقى أم غيره ، وهو الذى احتجز مدة طويلة كأسير ورهينة ، وكانا يقبضان لقاء نفقات استضافته مبلغا سنويا قدره ثلثمائة ألف بارة (Asper عملة تركية قديمة) . وعلى باب سجنه وافق مصطفى على كل اقتراح . وكان تسليم مفاتيح غاليبولى أو بالأحرى مفاتيح أوربا هو الثمن المشترط لنجاحه . ولكنه سرعان ما جلس على عرش رومانيا حتى طرد السفراء اليونان بابتسامة احتقار ، معلنا فى صوت ورع أنه يفضل فى يوم القيامة أن يسأل عن حنثه فى يمينه بدلا من أن يسأل عن تسليم بلدة مسلمة لأيدى الكفار . فأصبح الامبراطور فى الوقت نفسه عدوا للخصمين المتنافسين اللذين أساءا اليه ، كما أساء هو اليهما . وتلا انتصار مراد ، فى الربيع التالى ، حصار القسطنطينية .

وجذب الجزاء الدينى الذى يناله من يشترك فى اخضاع مدينة

القياصرة ، من آسيا عددا ضخما من المتطوعين تاقوا لشرف الاستشهاد. وقد أشعل حماسهم الدينى وعد بأسلاب وفيرة و نساء جميلات . وشدد من طموح السلطان حضور « سيدى بشير » وتنبؤاته . وهو من أهل بيت النبى . وقد وصل الى المعسكر على بغل تتبعه حاشية مبجلة عددها خمسمائة من المريدين . ولكن كان عليه أن يستحى — ان كان هناك متعصب يعرف الحياء — لفشل توكيداته . فقد قاومت الأسوار جيشا من الأتراك يتألف من مائتى ألف ، وصد زحوفهم هجمات مباشرة خارج الأسوار قام بها اليونانيون والمرتزقة الأجانب . ووقفت وسائل الدفاع القديمة فى وجه آلات الهجوم الجديدة . وكان حماس الدرويش الذى رفع الى السماء ليتحدث الى محمد فى الرؤيا ، يقابله سذاجة المسيحيين الذين رأوا مريم العذراء فى ثوب بنفسجى تسير فوق الحصن لتلهب شجاعة الجنود . وبعد حصار دام شهرين استدعى مراد الى بورصة لتهدئة ثورة داخلية أشعلتها خيانة اليونانيين ، ولكنها أخمدت بسرعة بعد سفك دم أخ برىء . وبينما كان مراد يقود الانكشارية الى فتوحات جديدة فى آسيا وأوربا ، نعمت الامبراطورية البيزنطية بهدوء ذليل مؤقت لمدة ثلاثين سنة ، قضى أثناءها عمانويل نحبه ، وسمح لجون بليولوجوس بالحكم لقاء جزية سنوية مقدارها ثلثمائة ألف أسبر Asper ، مع التخلى عن كل شىء تقريبا فيما عدا ضواحى القسطنطينية.

نظام الأتراك

يجدر أن ينسب أول فضل فى تأسيس الامبراطورية التركية وفى استعادتها ، دون ريب ، الى صفات السلاطين الشخصية ، طالما درج البشر على أن تعتمد أهم المناظر فى حياتهم على شخصية ممثل واحد

بمفرده . وقد نستطيع تمييز بعضهم عن بعض بظـــلال من الحكمة والفضيلة . وباستثناء حالة وحيدة ، توالى تسعة من السلاطين فى فترة دامت مائتين وخمسا وستين سنة ، من ارتقاء عثمان الى موت سليمان ، فكانوا سلسلة فذة من الأمراء المحاربين الجادين الذين فرضوا على رعاياهم الطاعة وملأوا قلوب أعدائهم بالرعب والفزع . فبدلا من ترف الحريم وخموله ربى ورثة الملوك فى المجالس والميادين . ومنذ نعومة أظفارهم عهد اليهم آباؤهم بحكم الولايات وقيادة الجيوش . ولابد أن نظام الرجولة ، هذا الذى كثيرا ما جر فيما بعد الى حروب أهلية ، أسهم أساسا فى دعم نظام الملك وقوته . ولا يمكن أن يصف العثمانيون أنفسهم ، كما فعل الخلفـــاء من العرب ، بأنهم أهل بيت رسول الله أو خلفاؤه . ويبدو أن صلة القرابة التى يزعمون أنها تربطهم بأمراء التتار من بيت جنكيزخان أساسها الملق لا الصدق . فان أصلهم يحيط به الغموض ، أما حقهم المقدس ، والذى لا مطعن فيه ، ولا يمكن لزمان أن يمحوه ، ولا يستطيع أى عنف أن ينقضه ، فقد رسخ بسرعة، ودون بديل ، فى عقول رعاياهم . فقد يعزل سلطان ضعيف أو شرير ويقتل خنقا ، ولكن ميراثه ينتقل الى طفل أو معتوه . ولم يجرؤ أكثر الثوار تهورا على أن يعتلى عرش مليكه الشرعى . وعلى حين تجد أن الأسرات التى حكمت حكما عابرا فى آسيا ، قد أطاح بها وزير ماكر فى القصر أو قائد منتصر فى المعسكر ، نجد أن نظام توارث العرش العثمانى قد دعمته خبرة خمسة قرون ، حتى أضحى الآن أحد المبادىء الحيوية للأمة التركية .

ومهما يكن من أمر ، فانه قد ينسب الى روح هذه الأمة وبنيتها أثر

قوى فريد . كان رعايا عثمان الأولون هم الأربعمائة أسرة من التركمان المتجولين الذين جاءوا مع أجداده من نهر سيحون الى سنجار . ولا تزال سهول الأناضول مغطاة بخيام اخوانهم الريفيين السوداء أو البيضاء . ولكن هذه القطرة الأصيلة ذابت فى بحر ضخم من الرعايا ، جاء بعضهم طائعا مختارا وجاء البعض الآخر قهرا بحق الفتح ، وقد توحدوا تحت اسم الأتراك بروابط مشتركة من الدين واللغة والأخلاق ، وفى المدن من أرضروم الى بلغراد تطلق هذه التسمية القومية على جميع المسلمين ، وهم أقدم السكان وأشرفهم ، ولكنهم هجروا القرى ، على الأقل فى رومانيا ، وتركوا زراعة الأرض للفلاحين المسيحيين . وفى فترة ازدهار الحكم العثمانى ، كان الأتراك أنفسهم مبعدين عن الوظائف المدنية والعسكرية . وقد خلق نظام التربية طبقة مستعبدة مصنوعة ، لتطيع وتغزو وتحكم . ومنذ عصر أورخان ومراد الأول اقتنع السلاطين بأن حكومة السيف يجب أن تجدد فى كل جيل بعسكر جدد ، وأن هؤلاء الجنود يجب أن يبحث عنهم لا فى آسيا المخنثة ، ولكن بين سكان أوربا الأشداء المحبين للحروب . فأصبحت ولايات تراقية ومقدونية وألبانيا وبلغاريا والصرب المهد الدائم للجيش التركى . وعندما نقص نصاب الخمس فى الأسرى — وهو نصيب السلطان بحكم الفتح — فرضت جزية وحشية ، هى الابن الخامس ، أو ابن كل خمس سنوات ، وكانت تجبى بقسوة من الأسر المسيحية . ففى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، كان أقوى الشبان ينتزعون من والديهم ، وتدون أسماؤهم فى سجل . ومن هذه اللحظة كانوا يكسون ويعلمون ، ويدخرون للخدمة العامة . وتبعا لما كان يبشر به مظهر كل منهم ،

كانوا يختارون للمدارس الملكية فى بورصة والبيره وأدرنه ، أو يعهد برعايتهم الى الباشوات ، أو يوزعون على دور الريفيين فى الأناضول . وكان أول ما يعنى به سادتهم تعليمهم اللغة التركية . وقد دربت أجسامهم على جهد يحصن قواهم ، وتعلموا المصارعة والقفز والجرى ورمى القوس ، ثم استعمال البنادق فيما بعد ، الى أن يوزعوا على فرق الانكشارية حيث يدربون أدق تدريب على النظام العسكرى ، أو نظام الأديرة . وأدخل أولئك الشبان الذين امتازوا من جهة النسب أو العبقرية أو الجمال فى الفئة الدنيا المسماه « أغا أوغلان » أو الفئة التى هى أعلى مقاما « أيك أوغلان » وكانت الطائفة الأولى تلحق بالقصر ، أما الثانية فتقوم على خدمة شخص الأمير . وفى أربع دورات تعليمية متتالية ، وتحت عصا الخصيان البيض ، كان يجرى تدريبهم اليومى على فن ركوب الخيل والرماية . أما أولئك الذين أظهروا ميلا غريزيا الى البحث والدرس ، فقد تعلموا القرآن واللغتين العربية والفارسية ، وكلما أظهروا تفوقا وجدارة ، سمح لهم بشغل الوظائف العسكرية والمدنية وحتى الدينية . وعلى قدر بقائهم فى هذه الوظائف تنفتح أمامهم الآمال ، حتى يتاح لهم فى الوقت المناسب أن ينخرطوا فى سلك الأربعين « أغا » الذين يمثلون أمام السلطان ويرقون ، وفق ارادته ، الى مناصب الحكام فى الولايات والى أسمى وظائف الدولة . وتلتئم أمثال هذه النظم التئاما عجيبا مع الملكية المطلقة وروحها . كان الوزراء والقواد عبيد الامبراطور فى أدق معانى كلمة العبودية . فهم مدينون لكرمه بتعليمهم ورعايتهم وحياتهم . وعندما خرجوا من السراى وأطلقوا لحاهم رمزا الى تحررهم ، وجدوا أنفسهم فى مناصب عالية

دون أن يكون لهم حزب أو أصدقاء ، ودون أن يكون لهم آباء أو ورثة، يعتمدون على اليد التى رفعتهم من وهدة الثرى ، وتستطيع عند أقل غضب أن تسحق هذه التماثيل المصنوعة من الزجاج ، كما وصفهم المثل التركى بدقة . وفى مدارج التعليم البطيئة الشاقة ، تفتحت شخصياتهم ومواهبهم أمام كل عين نافذة . ووضع كل فرد ، وهو مجرد قائم بذاته وحده ، حيث تضعه صفاته وجدارته الشخصية . واذا كان لدى السلطان القدرة على الاختيار الحكيم ، فان أمامه حرية خالصة لا حد لها للاختيار . وكان المرشحون للوظائف فى تركيا يتدربون على فضائل الجد والعمل عن طريق ما درجوا عليه من التقشف وضبط النفس ، كما كانت عادات الخضوع تدربهم على فضائل القيادة والامارة. وقد انتشرت فى الجنود روح مماثلة ، وقد انتزع صمتهم ورصانتهم وصبرهم وتواضعهم ثناء أعدائهم المسيحيين كارهين . ولا يمكن أن يرتاب أحد فى النصر ، اذا قارنا نظام الانكشارية وتدريبهم بتفاخر الفرسان بنسبهم وحسبهم واستقلالهم ، وجهل الجنود الجدد ، وجنوح قدماء المحاربين الى التمرد ، وبرذائل الاسراف والفوضى التى دنست جيوش أوربا زمنا طويلا .

اختراع البارود

ربما كان الأمل الوحيد فى انقاذ الامبراطورية اليونانية والممالك المجاورة ، هو اختراع سلاح أقوى أو كشف وسيلة حربية تجعل لهم تفوقا حاسما على أعدائهم من الأتراك . وكان مثل هذا السلاح بين أيديهم ، وقد حدث مثل هذا الكشف فى اللحظة الحرجة التى كان

يتقرر فيها مصيرهم . فقد كان الكيميائيون فى الصين وفى أوربا ، قد وجدوا اما اتفاقا أو بعد تجارب دقيقة ، أن اتحاد نترات البوتاسيوم والكبريت والفحم النباتى يحدث انفجارا هائلا مع شعلة من النار ، وسرعان ما لوحظ أن هذه القوة التمددية اذا ضغطت فى أنبوبة متينة فان لها القدرة على أن تلقى بعيدا بكرة من الحجر أو الرصاص بسرعة مدمرة لا قبل لأحد بمقاومتها . ولا يمكننا أن نحدد بالدقة زمن اختراع البارود واستخدامه ، فهذه الفترة محوطة بروايات غامضة ، ويعبر عنها بلغة ملتبسة . ومع ذلك يمكن أن تتبين بوضوح أنه كان معروفا قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وأنه قبل انتهاء هذا القرن كان استخدام المدفعية فى الحرب والحصار بحرا أو برا مألوفا فى دول ألمانيا وايطاليا وأسبانيا وفرنسا وانجلترا . وجدير بالذكر أن السبق بين الأمم ذو أهمية ضئيلة . فلم تستطع احداها أن تحظى بفائدة اختصت بها وحدها بسبب معرفتها السابقة أو الفائقة . وفى مجال التحسين العام وقفوا جميعا على قدم المساواة فى القوة النسبية والعلوم العسكرية . ولم يكن من المستطاع حصر السر داخل الكنيسة . فاطلع عليه الأتراك بسبب خيانة المرتدين وسياسة المتنافسين وأنانيتهم . وكان لدى السلاطين من الذكاء ما جعلهم يقتبسون هذا الاختراع ، ومن المال ما مكنهم من مكافأة مهندس مسيحى على عبقريته . ولابد أن يتهم الجنويون الذين نقلوا مرادا الى أوربا بأنهم هم الذين أظهروه على هذا الاختراع . ومن المحتمل أن أيديهم هى التى صنعت المدفع ووجهته فى حصار القسطنطينية . وكانت أول تجربة حقا فاشلة . ولكن فى الحروب العامة فى ذاك الجيل ، كان الامتياز فى جانب أولئك الذين يقومون عادة

بالهجوم . وقد توقفت لفترة ما النسبة بين الهجوم والدفاع . ووجهت هذه المدفعية كالرعد ضد الأسوار والقلاع التى شيدت لتقاوم فقط آلات العصر القديم ، وهى أقل قوة . وقد نقل أهل البندقية استخدام البارود بلا حياء ولا خجل الى سلاطين مصر وفارس ، وهم حلفاؤهم ، ضد قوة العثمانيين . وسرعان ما انتشر السر حتى وصل الى أطـراف آسيا . وانحصرت فائدة الأوربى فى كسب انتصـــارات سهلة على المتوحشين فى العالم الجديد . واذا قارنا سرعة تقدم هذا الكشف السىء الخبيث ، بتقدم العقل والعلم وفنون السلم ـــ ذاك التقـدم البطىء الشاق ، فسيبكى الفيلسوف أو يضحك ، وفق هواه ومزاجه ، من جهالة البشرية وحمقها .

الفصل السادس والستون
(١٣٤٨-١٤٩٢)

استغاثة اليونانيين بالغرب • زيارة جون باليولوجوس لرومه • زيارة عمانويل لايطاليا وفرنسا وانجلترا • حملة باليولوجوس الثانى • اتحاد مؤقت بين اليونانيين واللاتين • احياء العلوم اليونانية فى ايطاليا • البابا نيقولا الخامس • الافادة من العلوم القديمة وسوء استخدامها •

فى القرون الأربعة الأخيرة من حكم أباطرة اليونان ، يمكن أن يعتبر عداؤهم أو صداقتهم للبابا واللاتين مقياس الرخاء أو الشدة لديهم ، أو ميزان قيام الأسرات المتبربرة وسقوطها . فعندما انتشر الأتراك من آل سلجوق فى ربوع آسيا وهـــددوا القسطنطينية ، رأينا فى مجمع بلاكنتيا سفراء ألكسيوس الضارعين يطلبون حماية الأب المشـــترك للمسيحيين جميعا . ولكن سرعان ما أجبرت أسلحة الحجاج الفرنسيين السلطان على الانتقال من نيقيا الى اكونيوم Iconium ، حتى عاد أمراء اليونان أو كشفوا عن كراهيتهم المتأصلة واحتقارهم للغرب المنشق الذى عجل بأول سقوط لامبراطوريتهم . ولقد أبرز جون فاتاكيس ، فى لغته الرقيقة المهذبة تاريخ الغزو المغولى . وبعد استعادة القسطنطينية أحاط الأعداء فى الداخل والخـــارج بعرش أول امبراطور من أسرة باليولوجوس ، وطالما كان سيف شارل مصلتا على رأسه ، طلب فى خشوع رضاء الحبر الرومانى عنه وضحى بعقيدته وفضيلته ومحبة

شعبه له . وعند موت ميكائيل أعلن الأمير والشعب استقلال كنيستهم ونقاء عقيدتهم : لم يخش أندرونيكوس الأكبر اللاتين ولم يحبهم . وفى أشد أوقات الضيق كانت كبرياؤه هى الحامية للعقيدة ، ولم يكن فى استطاعته ، فى سنه ، أن يتراجع على نهج يحفظ كرامته ، عن الاعترافات القويمة التى فاه بها فى شبابه . أما حفيده أندرونيكوس الأصغر فقد كان أقل عبودية فى طبعه وموقفه . وقد حفزه فتح الأتراك لبيثينيا الى أن يسعى الى عقد حلف زمنى وروحى مع أمراء الغرب . فبعد فرقة وصمت داما خمسين سنة أرسل الراهب بارلام فى مهمة سرية الى البابا بندكت الثانى عشر . ويظهر أن تعليماته الماكرة قد دبجت بقلم الأمين الأعظم ، فقد عهد اليه أن يقول : أيها الأب المقدس ، ان الامبراطور ليس بأقل من قداستكم رغبة فى أن يرى اتحادا بين الكنيستين . ولكنه فى هذا العمل الدقيق مضطر الى أن يحترم كرامته وأهواء شعبه . وهناك وسيلتان للاتحاد : القوة والاقناع . وقد جربت القوة فوجدت غير مجدية ، اذ أن اللاتين أخضعوا الامبراطورية اليونانية ، ولم يستطيعوا اخضاع عقول اليونانيين . أما الاقناع فعلى الرغم من أنه وسيلة بطيئة الا أنها مؤكدة ودائمة . وقد يتفق وفد من ثلاثين أو أربعين من علمائنا مع علماء الفاتيكان فى حب الحق ووحدة العقيدة . ولكن عندما يرجعون ما هى فائدة هذا الاتفاق وما هو جزاؤه ؟ احتقار اخوانهم ولوم أمة عمياء عنيدة . ولكنها أمة جرت على احترام المجامع العامة التى حددت بنود عقيدتها . فاذا كانوا يهاجمون قرارات ليون فذلك لأن الكنائس الشرقية لم يسمع صوتها ولم تمثل فى ذلك الاجتماع التعسفى . ولهذه الغاية الناجحة قد يكون من المناسب ، بل قد يكون من الضرورى أن

يوفد نائب يحسن اختياره الى بلاد اليونان ليدعو بطارقة القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس ، ويعد العدة بمعوتتهم لعقد مجمع عام حر . واستمر هذا الرسول الماكر فى حديثه : « ولكن الامبراطورية فى هذه اللحظة فى خطر من هجوم الأتراك عليها . وقد احتل الأتراك أربعا من أكبر المدن فى الأناضول . وقد عبر السكان المسيحيون عن رغبتهم فى العودة الى ولائهم ودينهم ، ولكن قوات الامبراطورية ومواردها لا تكفى لانقاذهم . ويجب أن يصحب المندوب الرومانى أو يسبقه جيش ، من الفرنجة يطرد الكفار ويفتح الطريق الى بيت المقدس » . واذا كان اللاتين المتشككون فى حاجة الى دليل مسبق على اخلاص اليونان ، فان بارلام كان واضحا معقولا فى اجاباته ، اذ قال :

١ ـــ يستطيع مجمع عام وحده أن يحقق الوحدة بين الكنائس ، ولا يمكن عقد هذا المجمع حتى يتحرر ثلاثة من بطارقة المشرق وعدد كبير من الأساقفة من النير الاسلامى .

٢ ـــ ان اليونانيين قد أبعدتهم سلسلة من الاضطهادات والاساءات، ويجب لاسترضائهم القيام بعمل يتسم بالحب والأخوة ، كنجدة فعالة تقوى سلطان الامبراطور وأصدقاء الوحدة وتدعم حججهم .

٣ ـــ فان استحالت معالجة بعض الاختلافات فى العقيدة أو الطقوس ، فان اليونانيين هم تلاميذ المسيح والأتراك هم العدو المشترك للعالم المسيحى . ان الأرمن والقبارصة وسكان رودس تتوالى عليهم الهجمات سواء بسواء ، ومن اللائق بتقوى الأمراء الفرنسيين أن يستلوا سيوفهم فى الدفاع عن الدين .

٤ — اذا كان الأمر يقتضى أن يعامل رعايا أندرونيكوس على أنهم أسوأ المنشقين ، والهراطقة ، والوثنيين ، فان السياسة الرشيدة تتطلب من قوى الغرب أن تضم حليفا نافعا ، وأن تساند امبراطورية متداعية ، وأن تحرس حدود أوربا ، وأن تنضم الى اليونانيين ضد الأتراك ، لا أن تتوقع اتحاد الجيوش التركية مع جنود بلاد اليونان الأسيرة وكنوزها .

وقوبلت الأسباب التى أدلى بها أندرونيكوس وعروضه ومطالبه باستهتار بالغ فاتر . وتجنب ملكا فرنسا ونابلى أخطار حرب صليبية كما رفضوا مجدها ، وامتنع البابا عن دعوة مجمع جديد ليحدد البنود القديمة فى العقيدة ، وحدت به رغبته فى مجازاة امبراطور اللاتين وقساوستهم على مزاعمهم البالية القديمة الى استخدام عنوان جارح : « الى وسيط [1] اليونانيين ، والى الأشخاص الذين يسمون أنفسهم بطارقة الكنائس الشرقية » . ولم يكن من الميسور ولا من اليسير اختيار زمان ولا شخصية أقل ملاءمة لمثل هذه المهمة ، فقد كان بندكت الثانى عشر فلاحا غبيا ، أفسدت الشكوك عقله ، منصرفا الى الخمول والخمر . وكان من الممكن أن تضيف كبرياؤه تاجا ثالثا فى القلنسوة البابوية ، ولكنه لم يكن ليصلح لمنصب الملكية أو البابوية .

وبعد موت أندرونيكوس ، وبينما كانت الحرب الأهلية تمزق كيان اليونانيين ، لم يكن من الممكن أن يجسروا على المطالبة باتحاد

---

(١) استخدم لفظة Moderator : أى القائم بالوساطة بين اليونان والبابا ... ولم يستعمل كلمة « امبراطور » .

عام يضم المسيحيين . ولكن حالما أخضع كانتاكوزين Cantacuzena أعداءه وعفا عنهم ، تاق الى أن يبرر دخول الأتراك الى أوربا ، وزواج ابنته بأمير مسلم أو على الأقل أن يخفف من أثرهما . فأرسل باسمه موظفين من موظفى حكومته ومعهما مترجم لاتينى ، الى البــــلاط الرومانى الذى كان قد انتقل الى أفنيون ، على شاطىء الرون لمدة سبعين سنة . فقاما بشرح الحاجة الملحة التى أدت به الى قبول التحالف مع الكفار ، وأوردوا بأمر منه هـــو نفســـه ذكر الاتحـــاد والحـــرب الصليبية . وهى كلمات براقة ورعة . وأكرم البابا كليمنت السادس الذى خلف بنديكت وفادتهم ، واستقبلهم بمظاهر التشريف معترفا ببراءة مليكهم ، والتمس له العذر فى المصائب التى نزلت به ، وشاد بمروءته ، وأظهر معرفة واسعة بحالة الامبراطورية اليونانية وثرواتها وكان قد حصل عليها من أنباء صادقة حملتها اليه سيدة من سافوى كانت من وصيفات الامبراطورة آن . وكان لكليمنت ، وان لم يحظ بفضائل القسيسين ، روح الأمراء وعظمتهم ، وكان جوادا يوزع بيده الكريمة الوظائف الكنسية والممالك بنفس القدر من السهولة واليسر . وفى أثناء حكمه كانت أفنيون مركز البهاء واللهو ، وتجاوزت اباحيته فى شبابه اباحية البارونات . وازدان قصره ، بل غرفة نومه ، أو دنست، بزيارة محظياته من النساء . وكانت حروب فرنسا وانجلترا لا تسمح بالقيام بهذا المشروع المقدس ، ولكن غروره سر بهذه الفكرة العظيمة . وعاد سفراء اليونان ، و فى صحبتهم اثنان من الأساقفة اللاتين من وزراء البابا . وعند وصولهما الى القسطنطينية تقارض كل من الامبراطور والرسولين الثنـــاء والاعجاب بتقوى صاحبه وفصـــاحته . وملئت

اجتماعاتهم المتكررة بالمديح والوعود المتبادلة التى ابتهج لها الطرفان ، ولكنهما لم يخدعا بها . قال كانتاكوزين الورع : « انى مسرور بمشروع حربنا المقدسة التى ستمنحنى مجدا شخصيا كما ستأتى بالنفع العميم على العالم المسيحى . وستقدم مملكتى ممرا حرا لجيوش فرنسا ، وسأقف جنودى وسفنى وكنوزى على خـــدمة الهـــدف المشترك ، وكم أكون سعيدا محظوظا لو أصبحت جديرا بتاج الشهداء وحظيت به . ان الألفاظ لا تكفينى للتعبير عن الغيرة التى تملكنى لجمع أشلاء المسيح المبعثرة . وان كان موتى يحقق ذلك ، فانى أقدم بكل سرور سيفى وعنقى . وان كان الطائر الروحانى يمكن أن يخرج من رماد جثتى ، فانى أجمع الكتل الخشبية وأوقد النيران بيدى » . ومع ذلك فان امبراطور اليونان تجرأ على أن يلاحظ أن بنود العقيدة التى قسمت الكنيستين أوجـــدها كبرياء اللاتين وتسرعهم . وأعلن عدم ارتباطه بالخطوات الذليلة التعسفية التى قام بها أول ملوك أسرة باليولوغوس ، وأعلن فى قوة أنه لن يخضع ضميره الا لقرارات مجمع حر . ثم أردف : « ان الأوضاع الراهنة لن تسمح لى بالاجتماع بالبابا سواء فى رومه أو القسطنطينية ، ولكن من الممكن اختيار احدى المدن الساحلية على حـــدود الامبراطوريتين ، لجمع الأساقفة وتوجيه المؤمنين فى الشرق والغرب » . وأظهر رسولا البابا أنهما راضيان عن هذا الاقتراح . ويتظاهر كنتاكوزين بالرثاء لآماله التى ذهبت أدراج الرياح ، والتى قضى عليها موت كليمنت بعد وقت قصير ، وتباين مزاج خليفته .

ولقد طالت سنى حياته ، ولكن فى أحد الأديرة . واذا صرفنا النظر عن صلواته ، فقد أصبح الراهب الذليل غير قادر على أن يوجه آراء تلميذه أو حكومته .

زيارة جون باليولوغوس لرومه

ومهما يكن من أمر ، فانه من بين جميع أمراء بيزنطة ، كان ذاك التلميذ جون باليولوغوس ، أكثرهم استعدادا لمعانقة راعي الغرب والايمان به والامتثال له . لقد عمدت أمه آن دي سافوى فى أحضان الكنيسة اللاتينية . وقد فرض عليها زواجها من أندرونيكوس أن تغير اسمها ولباسها وطقوس عبادتها ، ولكن قلبها بقى على ولائه لوطنها ودينها . ولقد شكلت طفولة ابنها وتحكمت فى الامبراطور حتى بعد أن أصبح عقله ، أو على الأقل قامته ، قدر عقلية الرجل أو قامته . وفى السنة الأولى من نجاته وعودته الى عرشه كان الأتراك لا يزالون يسيطرون على الدردنيل . وكان ابن كاتاكوزين يحمل السلاح فى أدرنة ، ولم يكن باليولوغوس يستطيع أن يعتمد على نفسه أو شعبه . وعملا بنصيحة أمه وأملا فى الحصول على عون خارجى تنازل عن حقوق الكنيسة والدولة سواء بسواء . وعهد سرا بوثيقة العبودية بعد أن وقع عليها بالحبر الأرجوانى ، وختمت بالخاتم الذهبى ، الى عميل ايطالى . ويحوى أول بند فى هذه المعاهدة يمين الولاء والطاعة لانوسنت السادس وخلفائه من بعده ، ولأحبار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . وتعهد الامبراطور أن يستقبل نوابهم ورسلهم بالاحترام اللائق بمقامهم ، وأن يخصص قصرا لاقامتهم ومعبدا لعباداتهم ، وأن يسلم ابنه الثانى عمانويل رهينة لولائه وصدقه . وهو فى حاجة لقاء هذه التنازلات الى نجدة سريعة تتألف من خمس عشرة بارجة حربية مع خمسمائة جندى مسلح وألف من الرماة ، لمقاتلة أعدائه من المسيحيين والمسلمين . ويتعهد

باليولوغوس بأن يفرض على رجال الدين وعلى الشعب هـذا القيد الروحى نفسه . ولكن ، لما كان يتوقع بحق مقاومة اليونانيين ، فانه يلجأ الى الوسيلتين اللتين تؤديان الى نتيجة محققة وهما الرشوة والتعليم . فسمح لنائب البابا بأن يوزع الوظائف الكنسية الشاغرة على من يوافق على مذهب الفاتيكان . وفتحت ثلاث مدارس لتعليم شباب القسطنطينية لغة اللاتين ومذهبهم . وسـجل اسم أندرونيكوس ، ولى عهـد الامبراطورية ، كأول تلميذ فيها . فان قدر لوسائله من الاقناع أو القوة أن تبوء بالفشل ، فان باليولوغوس يعلن أنه غير جدير بالحكم ، وينقل الى البابا كل سلطاته الملكية والأبوية ، ويفوض الى انوسينت سلطة كاملة فى ادارة شئون أسرته وحكومته وزواج ابنه وخليفته . ولكن هذه المعاهدة لم تنشر ولم تنفذ . فقد كانت البوارج الرومانية هباء وخيالا ، قدر ما كان خضوع اليونانيين . وكان كتمان السر هو الذى أنقذ مليكهم من عار هذا الذل الذى لا طائل تحته .

وسرعان ما أطبقت عليه الجيوش التركية . وبعد سقوط أدرنه ورومانيا أحيط به فى عاصمته كتابع لمراد المتكبر . وكان أمله اليائس هو أن يكون آخر ضحية يفترسها ذاك المتوحش . وفى حالته الذليلة تلك ، قرر باليولوغوس أن يبحر الى البندقية ، وأن يلقى بنفسه تحت قدمى البابا . وكان أول أمير بيزنطى زار تلك الأقاليم المجهولة فى الغرب . ومع ذلك ففيها وحدها قد يجد مواساة أو نجدة . ويمكنه ، مع امتهان أقل لكرامته ، أن يظهر فى المجمع المقدس ، خيرا من أن يظهر أمام الباب العالى . وكان البابا الرومانى قد عاد بعد غيبة طويلة من أفنيون الى شواطىء التيبر . وقد شجع اربان الخامس ، وكان ذا طبع

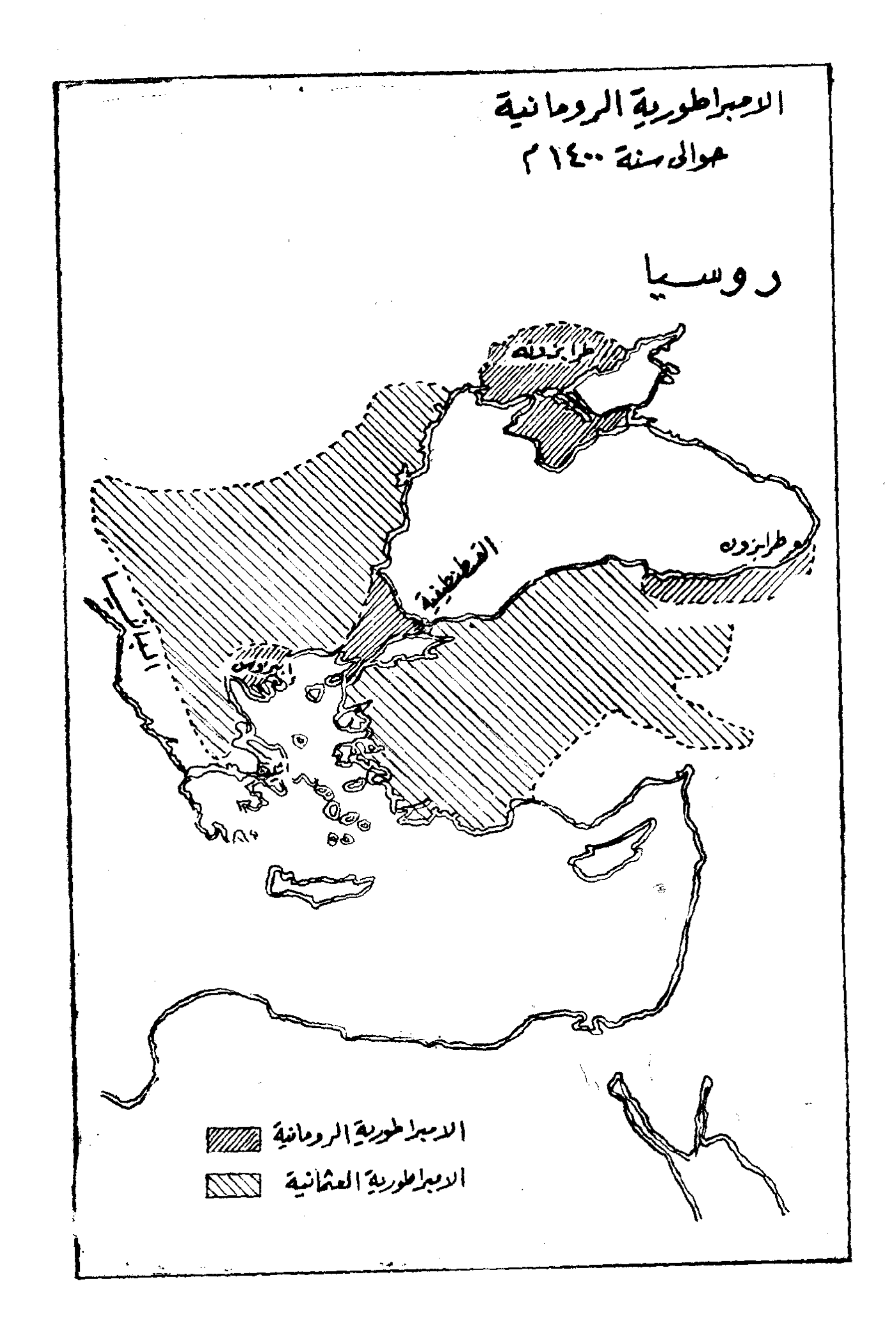
هادىء فاضل ، أو سمح بزيارة أمير اليونانيين له . وفى هذه السـنة نفسها حظى بشرف استقبال الشبحين الامبراطوريين فى الفاتيكان ، وكانا يمثلان عظمة قسطنطين وشرلمان . وفى زيارته الضـارعة قدم امبراطور القسطنطينية ، وقد أودت ضـائقته بغروره ، أكثر مما كان ينتظر من الألفاظ الجوفاء والخضوع الشكلى ، وفرض عليه أولا اختبار مقدم : فأقر أمام أربعة من الكرادلة بوصفه كاثوليكيا مخلصا ، سيادة البابا والانبثاق المزدوج للروح القدس . وبعد هذا التطهير قدم الى الشعب فى كنيسة القديس بطرس ، وجلس اربان على عرشه ، يحف به كرادلته . وبعد أن ركع أمامه ثلاث مرات ، قبل ملك اليونان فى خشوع قدميه ويديه ، وفى النهاية قبل فم الأب المقدس الذى قام بتقديم قداس كبير فى حضرته ، وسمح له بأن يمسك بلجام بغلته ، ثم أولم له وليمة فاخرة فى الفاتيكان . لقد استقبل باليولوغوس كصديق ، وقوبل بمظاهرات التكريم . ولكن فرقا واضحا ظهر لأعين الناس بين امبراطورى الشرق والغرب . فلم يكن للأول أن يتمتع بالميزة النادرة ، ميزة ترتيل الانجيل بوصفه شماسا . ورعاية لمن اعتنق المذهب الكاثوليكى على يديه ، جاهد اربان لاشعال حماس ملك فرنسا ودول أوربا الأخرى . ولكنه وجد أنهم قد انصرفوا عن الهدف المشترك ، ونشطوا فى منازعاتهم الداخلية وحدها . وتركز آخر أمل للامبراطور فى أحد المرتزقة من الانجليز . وكان جون هوكوود John Hawkwood ، أو أكوتو Acuto قد أعمل السلب والنهب مع فرقة من المغامرين ، « الاخوة البيضاء » فى ايطاليا من جبال الألب حتى كالابريا ، وباع خدماته للولايات المتعادية، وجلب على نفسه حرمانا عادلا من الكنيسة بتسديد سهامه الى القصر

البابوى . فأصدر البابا قرارا خاصا سمح فيه للامبراطور بالتفاوض مع هذا الطريد . ولكن قوات هوكوود أو جرأته لم تكن تكفى للقيام بهذا المشروع . وكان من صالح باليولوغوس أن يخيب أمله فى نجدة ستكون بلا شك غالية الثمن ، دون أن يكون لها أثر فعال وربما كانت محفوفة بالمخاطر . وفى قنوط أعد الامبراطور اليونانى العدة للعودة الى وطنه . ولكن حتى عودته وقفت فى طريقها عقبة شائنة جدا . فعند وصوله الى البندقية ، كان قد اقترض مبالغ ضخمة بفوائد ربوية باهظة . ولكن خزائنه كانت خاوية ، ودائنوه لا يصبرون فاحتجز شخصه كأحسن ضمان لدفع الدين . وألح على ابنه الأكبر ، ونائبه فى القسطنطينية ، أندرونيكوس ، مرارا أن يحاول بكل الوسائل ، ولو أدى الأمر الى سلب الكنائس ، انقاذ والده من الأسر والعار . ولكن هذا الشاب العاق لم يشعر بالعار ، بل اغتبط فى سره لأسر الامبراطور . كانت الدولة فقيرة ، ورجال الدين سادرين فى عنادهم ، ولم يكن ثمة افتقار الى شكوك دينية تبرر الاستهتار والتباطؤ . ولكن هذا الاهمال العاق لقى لوما شديدا من ورع أخيه عمانويل الذى باع أو رهن كل ما يملك ، وأبحر الى البندقية وأنقذ والده ، وجعل حريته الشخصية ضمانا لدفع الدين . وعند عودته الى القسطنطينية كافأ هذا الملك والوالد ابنيه ، كلا بما يستحق . ولكن ولاء باليولوغوس الخامل وأخلاقه لم يصبها تحسن بسبب حجه الى رومه . وسرعان ما نسى اليونانيون واللاتين ردته أو اعتناقه للمذهب الكاثوليكى ، حيث خلا هذا أو تلك من أية نتائج دنيوية وروحية .

زيارة عمانويل لإيطاليا وفرنسا وانجلترا

وبعد ثلاثين سنة من عودة باليولوغوس ، زار ابنه وخليفته ، عمانويل ، مرة أخرى ، ولكن على نطاق أوسع ، أقطار الغرب يحدوه حافز مشابه . وفى الفصل السابق رويت قصة عقده معاهدة مع بايزيد ، وانتهاك هذه المعاهدة وحصار القسطنطينية أو تطويقها ، والنجدة التى جاءته من فرنسا ، تحت قيادة بوسيكولت Boucicault الصنديد . وكان عمانويل قد طلب العون من القوى اللاتينية على لسان سفرائه ، ولكنه ظن أن وجود ملك مكروب مكتئب كفيل بأن يستدر الدمع والعون من أقسى المتبربرين قلوبا . وأعد المارشال الذى نصح بالسفر العدة لاستقبال أمير بيزنطة . وكان الأتراك يحتلون اليابسة ، ولكن الطريق البحرى الى البندقية كان آمنا ومفتوحا . وقد استقبلته ايطاليا كأول الأمراء المسيحيين أو على الأقل ثانيهم . وأشفق الناس على عمانويل كزعيم للعقيدة مقر بها . وقد منع وقار سلوكه هذه الشفقة من الانحدار الى حضيض الاحتقار . وتقدم من البندقية الى بادوا وباڤيا . ومنحه ، حتى دوق ميلان ، وهو حليف سرى لبايزيد ، ممرا آمنا ، وأحاطه بمظاهر التكريم حتى نهاية ممتلكاته . وعلى حدود فرنسا تولى الضباط الملكيون رعاية شخصه وشئون رحلته وتكفلوا بدفع نفقاته . وخرج لاستقباله ألفان من أغنى المواطنين يحملون سلاحهم ويمتطون ظهور جيادهم حتى وصلوا كارتنون ، بالقرب من باريس . وعلى أبواب باريس حياة رئيس الوزراء وأعضاء البرلمان . ورحب شارل السادس يحف به أمراؤه ونبلاؤه ، بأخيه وعانقه عناقا وديا . وكان خليفة قسطنطين يرتدى

لباسا من الحرير الأبيض ، ويمتطى صهوة جواد أشهب ، وهذا أمر ذو أهمية خاصة فى المراسيم الفرنسية ، لأن اللون الأبيض يعتبر رمز الملكية . وقد اضطر امبراطور ألمانيا فى زيارة متأخرة ، بعد طلب متعجرف ورفض متبرم ، أن يقنع بجواد أسود . وأقام عمانويل فى قصر اللوفر . وتوالت الولائم وحفلات الرقص . وتنوعت مباهج الولائم والصيد بمهارة وعبقرية ، تأدبا من الفرنسيين واظهارا لعظمتهم، وتخفيفا من أحزان عمانويل . وقد أطلقت له حرية العبادة فى كنيسته الخاصة . ودهش علماء السربون ، ان لم يكونوا صدموا ، للغة رجال الدين اليونانيين وطقوسهم ولباسهم ، ولكن أقل نظرة الى حال المملكة كانت كفيلة بأن تبعث الى قلبه اليأس من أية مساعدة فعالة . وعلى الرغم من أن شارل المنكود كان يحظى بفترات من الصحو ، الا أنه كان يعود باستمرار الى جنون هائج أو غبى ، وأمسك بمقاليد الحكم أخوه وعمه دوق أورليانز ودوق برجاندى ، كل بدوره . وقد مهدت منافستهما التحزبية الطريق لشرور الحرب الأهلية . وكان الأول شابا ماجنا أفنى نفسه فى الترف والحب . وكان الثانى والد جون ، كونت نيفير Nevers الذى افتدى منذ وقت قصير من أسر الترك . واذا كان الابن غير الهياب تواقا الى الانتقام لهزيمته ، فان ابن برجاندى وهو أكثر حزما ، كان قانعا بنفقات التجربة الأولى وأخطارها . وبعد أن أشبع عمانويل فضوله عند الفرنسيين أو أرهق صبرهم ، قرر القيام بزيارة للجزيرة المجاورة . وفى أثناء تقدمه من دوفر ، استقبله فى كانتربرى ، بما يليق بمقامه من مظاهر التبجيل ، رئيس دير القديس أوستن ورهبانه . وفى بلاكهيت حيا الملك هنرى


الامبراطورية الرومانية
حوالى سنة ١٤٠٠ م
روسيا
طرابزون
القسطنطينية
ابيروس
الامبراطورية الرومانية
الامبراطورية العثمانية

الرابع ومعه البلاط الانجليزى البطل اليونانى (هنا أنقل بالنص من مؤرخنا القديم) الذى أقام أياما طويلة فى لندن ، كان يعامل فى أثنائها كامبراطور الشرق . وكانت حالة بريطانيا لا تسمح بالتفكير فى حرب مقدسة . ففى السنة نفسها عزل الملك الذى ورث العرش عن آبائه وقتل . وكان الأمير الحاكم مغتصبا ناجحا ، وقد عوقب طموحه بالحقد والندم . ولم يكن هنرى أوف لنكستر بمستطيع أن يتخلى هو أو قواته عن الدفاع عن عرش تهتز قوائمه باستمرار نتيجة المؤامرات والثورات. لقد أبدى عطفه على امبراطور القسطنطينية وأثنى عليه ، وأولم له الولائم . ولكن اذا كان ملك الانجليز قد اتشح بالصليب فقد كان ذلك لتهدئة شعبه وربما لتهدئة ضميره بثواب هذه النية الورعة أو ما يشبهها . وعاد عمانويل الى باريس بعد أن حظى بما أرضاه من الهبات ومظاهر التكريم . وبعد أن أقام عامين فى الغرب شق طريقه مخترقا ألمانيا وايطاليا ليركب السفينة فى البندقية ، وانتظر فى صبر فى المورة لحظة نجاته أو هلاكه . ومع ذلك فقد نجا من عار الحاجة الى عرض عقيدته للبيع العام أو الخاص . كان الشقاق الكبير يمزق أوصال الكنيسة اللاتينية : ولقد توزع ولاء الملوك والأمم والجامعات فى أوربا بين رومه وبابا أفنيون . ولهذا امتنع الامبراطور ، رغبة منه فى كسب صداقة الطرفين ، عن مراسلة أى من المتنافسين المعدمين البغيضين . ووافقت رحلته عام اليوبيل . ولكنه اخترق ايطاليا دون أن يرغب أو يستحق الغفران التام الذى يمحو الاثم أو يعفى المؤمن من التكفير عن ذنوبه . فغضب بابا رومه لهذا الاهمال ، واتهمه باحتقار ممثل المسيح ، وحض أمراء ايطاليا على أن يهجروا المنشق العنيد وينبذوه .

وفى وقت الحروب الصليبية ، نظر اليونانيون فى دهش وفزع الى سيل من الهجرة لا ينقطع ، تدفق واستمر فى التدفق من مختلف البقاع المجهولة فى الغرب . وقد نزعت الزيارات التى قام بها آخر أباطرتهم حجاب الفرقة ، فظهرت أمام أعينهم أمم أوربا القوية التى لم يجرؤوا بعد ذلك على دمغها باسم المتبربرين . وقد دون مؤرخ بيزنطى عاش فى تلك الأيام ملاحظات عمانويل وأتباعه الأكثر فضولا واستقصاء ، وسأجمع أفكاره المتناثرة وأوجزها . وقد يكون من الممتع حقا ، وربما كان من المفيد ، أن تتمعن فى الصور البدائية التى يرسمها لألمانيا ، وفرنسا وانجلترا ، وحالتها قديما وحديثا معروفة لنا تمام المعرفة .

١ — يقول المؤرخ اليونانى خالكونديليس Chalcondyles : ألمانيا ذات اتساع كبير من فينا الى المحيط ، وتمتد (ويالها من جغرافية عجيبة !) من براغ فى بوهيميا الى نهر تارتيسوس وجبال البرانس . وأرضها مثمرة الى حد كاف ، فيما عدا التين والزيتون . وهواؤها صحى وأجسام أهلها قوية وصحتهم جيدة ويندر أن تزور كوارث الأوبئة والزلازل تلك الأجواء الباردة . وفيما عدا السكيذيين والتتار ، يعتبر الألمان أكثر الأمم عددا . وهم شجعان صابرون . ولو أنهم اتحدوا تحت رئيس واحد ، لكانت قوتهم لا تقاوم . وكمنحة من البابا ، أصبح لهم الحق فى اختيار امبراطور الرومان . وليس هناك من شعب يتعلق فى ورع ببطريق اللاتين أو يطيعه أكثر منهم ، ويوزع الجزء الأكبر من هذا القطر بين الأمراء ورجال الكنيسة . ولكن ستراسبورج وكولونيا وهمبرج وأكثر من مائتى مدينة حرة ، تحكمها قوانين حكيمة عادلة تبعا لارادة كل الشعب ولمصلحته .

ويسود بينهم الالتجاء الى المبارزات والمعارك الفردية على الاقدام فى الحرب والسلم . وتتفوق صناعتهم فى كل الفنون الميكانيكية ،ويمكن للألمان أن يفخروا باختراع البارود والمدافع التى انتشرت الآن فى أكبر جزء من العالم » .

٢ ــ تمتد مملكة فرنسا لمسيرة أكثر من خمسة عشر أو عشرين يوما من ألمانيا الى أسبانيا ، ومن جبال الألب الى المحيط البريطانى . وهى تحتوى على كثير من المدن المزدهرة . ومنها مدينة باريس ، وهى مقر الملك ، وتتفوق على بقية المدن فى الترف والغنى . وينتظر كثير من الأمراء واللوردات ، الملك ، كل بدوره فى قصره ، ويعترفون به كمليكهم جميعا . وأكثر هؤلاء قوة دوق بريتانى ، ودوق برجاندى ، ويملك الأخير ولاية فلاندرز الغنيـــة . ويتردد على موانيهـــا تجارنا وسفننا كما يتردد عليها التجار والسفن من أقصى البحار . والفرنسيون شعب قديم غنى ، ولغتهم وأخلاقهم كثيرة الشبه بلغة الايطاليين وأخلاقهم ، وان وجد بينهم بعض الاختلاف.وقد غرتهم عظمة شارلمان الامبراطورية وانتصاراتهم على العرب ومغامرات بطليهما أوليفر وورولاند ، ومن ثم يظنون أنهم أول أمم أوربا الغربية . ولكن هذه الغطرسة الحمقـــاء قد أذلتها الأحداث التعيسة التى نزلت بهم أخـــيرا فى حربهم ضـــد الانجليز ، وهم سكان الجزر البريطانية .

٣ ــ يمكن اعتبار بريطانيا التى تقع فى المحيط ، وفى مواجهة شواطىء فلاندرز ، جزيرة واحدة أو ثلاث جزر وجدت بينها كلها مصلحة مشتركة ، وأخلاق وحكومة مماثلة . ويبلغ محيطها خمســـة

آلاف ستاديا [1] ، وتنتشر فيها البلدان والقرى . ومع أنها خالية من الكروم ، ولا تكثر فيها أشجار الفاكهة فان أراضيها خصبة تنتج القمح والشعير ، وتنتج الشهد والصوف ، وينسج سكانها كثيرا من الأقمشة . ومن حيث عدد السكان والقوة والثروة والترف ، يمكن أن تدعى لندن ، وهى عاصمة الجزيرة ، أن لها الصدارة على جميع مدن الغرب . وهى تقع على نهر التاميز ، وهو نهر عريض سريع الجريان ، يصب بعد ثلاثين ميلا فى بحر الغال ويسمح المد والجزر اليومى للسفن التجارية بالدخول والرحيل فى أمان . ويرأس الملك طبقة أرستقراطية قوية ومحبة للشعب . ويضع أتباعه الرئيسيون أيديهم على مقاطعاتهم بصكوك ملكية حرة لا سبيل الى تبديلها . وتعين القوانين حدود نفوذه وحدود طاعتهم . وقد نكبت هذه المملكة فى أحيان كثيرة بالفتح الأجنبى والشقاق الداخلى . ولكن أهلها شجعان أشداء ، لهم شهرة فى القتال ، وقد اعتادوا النصر فى الحرب . وشكل تروسهم أو دروعهم مأخوذ عن الايطاليين ، كما أخذوا شكل سيوفهم عن اليونان ، أما استخدام القوس الطويلة فهو ميزة حاسمة خاصة بالانجليز . وليس للغتهم صلة واضحة بلغات القارة . ولا يمكن أن نميز بسهولة بين عاداتهم فى حياتهم الخاصة وبين عادات جيرانهم فى فرنسا . ولكن أعجب شىء فى أخلاقهم هو عدم مبالاتهم بشرف الزوجية ولا بالعفة بين نسائهم . وفى زياراتهم المتبادلة يستقبل الضيف فى أحضان زوجاتهم وبناتهم ، كأول واجب من واجبات

---

(1) Stadia قضيب مدرج لقياس الأبعاد ، طوله نحو ٦٣٠ قدما .

الضيافة . ويتبادل الأصدقاء اعارتهن واستعارتهن دون استحياء ، ولا يثور سكان الجزر لهذه الاتصالات الغريبة غير المشروعة ولا لنتائجها المحتومة . ولعلمنا بالعادات العريقة فى انجلترا وتأكدنا من فضائل أمهاتنا ، فان لنا أن نبتسم لسذاجة هذا اليونانى ، أو نغضب لمجافاته جادة الانصاف ، حيث خلط بين تحية بريئة [٢] ، وعناق آثم . ولكن سذاجته وظلمه قد يلقاننا درسا فى ألا نثق فى أخبار الأمم الأجنبية القاصية ، وألا نؤمن بكل حكاية تخرج عن قوانين الطبيعة ، أو تنافى طباع البشر .

وبعد عودته . وانتصار تيمورلنك ، حكم عمانويل سنين عديدة فى رخاء وسلام . وطالما التمس ابنا بايزيد صداقته وابتعدا عن ممتلكاته، ظل الامبراطور قانعا بعقيدة قومه ، واستخدم وقت فراغه فى وضع عشرين محاورة فى الدفاع عنها . أما ظهور سفراء بيزنطه فى مجلس كونستانس فهو اعلان عن عودة القوة التركية ، والكنيسة اللاتينية على حد سواء . ذلك أن فتوحات السلطانين محمد ومراد أصلحت ما بين الامبراطور والفاتيكان . وكاد حصار القسطنطينية أن يغريه بالرضوخ للانبثاق المزدوج للروح القدس . وعندما ارتقى مارتن الخامس عرش القديس بطرس دون منافس ، استؤنفت الصلات الودية من رسائل ووفود بين الشرق والغرب . لقد أملى الطموح من ناحية والكرب من ناحية أخرى عين اللغة المهذبة : لغة البر والسلام .

---

(٢) فى مؤلفات ارزم قطعة جميلة عن عادة الانجليز فى تقبيل الأجانب عند استقبالهم وعند توديعهم ، ولكنه مع ذلك لا يستخلص منها استنتاجات مخزية .

وأبدى اليونانى الماكر رغبته فى تزويج أبنـــائه الستة من أمـيرات ايطاليات ، وبعث الحبر الرومانى ، وهو لا يقل عنه مكرا ولا دهاء ، بابنة مركيز مونتفيرات ومعها فريق من العـذارى النبيـلات ليخففن بروعة جمالهن من عناد المنشـقين . ولكن تحت هـذا القنـاع من الحمـــاس لابد أن تدرك أية عين فاحصـــة أن كل شيء فى بلاط القسطنطينية وكنيستها كان أجوف مجردا من الولاء والاخلاص . لقد تقدم الامبراطور أو تراجع تبعا لظروف الخطر أو الهدوء ، كما كان أحيانا يأمر وزراءه وأحيانا يتنصل منهم . وكان يتهرب كلمـا ألح عليه الضغط ، بالقول بوجوب البحث والتحرى وفهم ما يقصـــده البطارقة والأساقفة ، مع استحالة دعوتهم للاجتماع ، فى وقت تقف فيه جيوش الأتراك أمام أبواب القسطنطينية . ومن استعراض المناقشات العامة سيتضح أن اليونانيين ألحوا على ثلاثة أشياء : نجدة ، فمجلس ثم اتحاد نهائى جديد . غير أن اللاتين تهربوا من الثانى ، ووافقوا على الأول ، على أن يكون مكافأة اختيارية تأتى نتيجة للثالث . ومع ذلك فلدينا فرصة لكشف الحجاب عن أشد نوايا عمانويل خفاء كما شرحها هو فى محادثة خاصة دون لف أو دوران . وعندما كبرت سنه أشرك الامبراطور معه جون بلايولوجوس ، وهو الثانى بين من حملوا هذا الاسم ، وهو أكبر أبنائه ، وعليه ألقى الجزء الأكبر من سلطة الحكومة وأعبائها . وذات مرة ـــ وكان المـؤرخ فرانزا وحـــده فى حضرة الامبراطور ، وهو أمينه المحبـوب ـــ اطلع عمانويل زميله وخليفته على الأساس الحقيقى لمفاوضاته مع البابا ، فقال : « ان آخر ملجأ لنا ضد الأتراك هو خوفهم من اتحادنا مع اللاتين ، مع أمم أوربا الغربية

المحبة للقتال الذين قد يحملون السلاح لنجــــدتنا وهلاكهم (أى الأتراك) . كلما هددك الكفار ، قدم هذا الخطر أمام أعينهم ، واقترح مجمعا وتفاوض على الوسائل ، ولكن أرجىء وسوف دائما متحاشيا دعوة جمعية عامة ، لا تميل الى تحقيق أى نفع لنا من الناحية الروحية أو الزمنية ، فاللاتين مزهوون مغرورون وكل يونانى عنيد . ولن يتراجع أى من الفريقين أو يتزحزح عن موقفه . ومحاولة الاتحاد التام لابد أن تؤكد عوامل الشقاق وتغضب الكنائس . وستتركنا دون أمل أو دفاع تحت رحمة البرابرة » . ولما لم يستطع الملك الشاب صبرا على هــذا الدرس النافع نهض من مقعده وخرج فى صمت . ويستمر فرانزا فى روايته قائلا ان الملك الحكيم اتجــه ببصره الى واستطرد يقــول : « ان ابنى يظن أنه أمير عظيم وبطل . ولكن ، وأأسفاه ، ان زماننا البائس لا يسمح بمجال للبطولة أو العظمة . ان روحه الجريئة ربما كانت تلتئم مع الأزمنة السعيدة فى عصور أجدادنا ، لكن الأمر يتطلب الآن ، لا امبراطورا ، ولكن خازنا أمينا حذرا للبقية الباقية من ثرواتنا . انى أذكر جيدا الآمال الكبار التى عقدها على حلفنا مع مصطفى ، وكم أخشى . أن تعجل شجاعته المتهورة بخراب أسرتنا ، وأنه حتى الديانة قد تعجل بسقوطنا ». ومع ذلك فقد حافظ نفوذ عمانويل وتجاربه على السلام ، وتهرب من المجمع ، حتى أنهى وهو فى الثامنة والسبعين من عمره ، وفى زى راهب ، حكمـــه ، وقسم منقولاته الثمينـــة بين أولاده ، وبين الفقراء ، وأطبائه ، وأحب خدمه اليه . ومن بين أبنائه الستة ، منح ابنه أندرونيكوس الثانى مقاطعة سالونيك . ومات من مرض الجذام ، فور بيع تلك المدينة الى أهل البندقية واســـتيلاء

الأتراك عليها نهائيا . وقد أعادت بعض الأحداث السعيدة بلاد المورة الى الامبراطورية . وفى أيامه الأكثر ازدهارا حصن عمانويل البرزخ الضيق الذى يبلغ طوله ستة أميال بسور من الحجر وبمائة وثلاثة وخمسين برجا . وقد هدم هذا السور أول هجوم شنه العثمانيون . وكان من الممكن ان يكفى شـــبه الجزيرة الخصب الأخوة الأربعة الصغار : ثيودور وقسطنطين ، وديمتريوس وتوماس ، ولكنهم أضاعوا فى منازعات داخلية كل ما بقى لديهم من قوة . واضطر أتعس المتنافسين وأقلهم توفيقا الى أن يعيشوا أتباعا فى القصر البيزنطى .

حملة جون باليولوغوس الثانى

اعترف بجون بالايولوغوس الثانى أكبر أبناء عمانويل ، بعــــد موت أبيه ، كامبراطور اليونانيين الوحيد . فشرع توا فى تطليق زوجته وعقد زواج آخر مع أميرة طرابزون . وكان الجمـــال فى نظـــره أول مؤهلات الامبراطورة . وتراجع رجال الكنيسة أمام توكيده القـــوى بأنه اذا لم يسمح له بهذا الطلاق ، فانه سينزوى فى دير ، ويترك العرش لأخيه قسطنطين . وكان أول نصر أحـــرزه بالايولوغوس ، وهو فى الحقيقة نصره الوحيد ، على يهودى أقنعه بعد نقاش طويل ظهر فيه علمه ، باعتناق الدين المسيحى . وقد دون هذا النصر الضخم بدقة فى كتب التاريخ فى تلك الأيام . ولكنه سرعان ما جدد فكرة توحيـــــد الشرق والغرب . ولم يلتفت الى نصيحة أبيه ، بل أصغى باخلاص ، على ما يظهر الى اقتراح بمقابلة البابا فى مجمع عام يعقد فيمـــا وراء

الأدرياتيك . وقد شجع البابا مارتن الخامس هذا المشروع الخطر ، ولكنه قوبل بفتور من خليفته يوجينيوس . وبعد مفاوضات مملة تلقى الامبراطور دعوة من جمعية لاتينية ذات طابع جديد ألفها رجال الدين المستقلون فى بازيل ، الذين سموا أنفسهم ممثلى الكنيسة الكاثوليكية وقضاتها .

لقد كان الحبر الرومانى قد حارب وانتصر فى الدفاع عن حرية رجال الكنيسة . ولكن رجال الدين المنتصرين تعرضوا بسرعة الى طغيان منقذهم . وكان شخصه المقدس يتمتع بمناعة ضد تلك الأسلحة التى اكتشفوا أنها حادة ومؤثرة فى الحكام المدنيين . وان صك حريتهم وهو حق الانتخاب ، قضت عليه الالتماسات ، وأمكن التخلص منه عن طريق الانتدابات والتفويض الى الثقاة ، كما أحبطته المنح التى تعود الى أصحابها ، وحل محله التحفظات السالفة الاستبدادية . وأقيم مزاد عام فى بلاط رومه ، واهتم الكرادلة والمقربون بأسلاب الأمم . ومن الممكن أن يشكو كل قطر من أن أهم وظائف رجال الدين وأكثرها قيمة تجمعت فى أيدى الأجانب والغائبين . وانحصر طموح البابوات أثناء اقامتهم فى أفنيون فى الشهوات الخسيسة كالجشع[1] والترف . ففرضوا بشدة على رجال الكنيسة ضرائب البكور والعشور

(١) ترك البابا جون الثانى والعشرون (١٣٣٤) وراءه ١٨ مليون فلورين من الذهب ، وما قيمته سبعة ملايين من الأوانى والجواهر . (انظر تاريخ جون فيلانى Chronicle of J. Villani الذى استقى أخوه هذه المعلومات من الأمناء على خزائن البابا) . أن ستة أو ثمانية ملايين من الجنيهات فى القرن الرابع عشر ، مبلغ هائل لا يكاد يصدق .

ولكنهم كثيرا ما احتملوا تفشي الرذيلة وسوء النظام والرشوة . وقد زاد من شدة هذه المآسى العديدة الشقاق الكبير الذى نشأ فى الغرب واستمر لأكثر من خمسين سنة . ففى المنازعات الوحشـية بين رومه وأفنيون فضح كل فريق رذائل خصـمه ، وقلل من نفوذهم تزعزع مركزهم ، فتراخى نظامهم وكثرت مطالبهم وعسفهم . ولشفاء هـذه الجروح ولاعادة سلطان الكنيسة ، عقـد على التوالى مجمعـا بيزا وكونستانس . ولكن هاتين الجمعيتين العظيمتين ، لشـعورهما بقوتهما ، قررتا حماية الامتيازات الأرستقراطية المسيحية . فبعـد أن أصدروا حكما شخصيا ضد اثنين من البابوات كانوا قد نبذوهما ، وضـد حبر ثالث هو رئيسهم المعترف به الذى عزلوه ، شرع آباء الكنيسة فى كونستانس فى فحص طبيعة السيادة الرومانية وحدودها . ولم ينفضوا قبل أن يؤكدوا نفوذ مجمع عام أعلى من البابا . فصدر قرارهم بأنه لتدبير شئون الكنيسة واصلاحها ينبغى عقد أمثال هـذه الجمعيات العمومية فى أوقات منتظمة ، ويجب على كل مجمع قبـل انفضاضه أن يحدد زمن الاجتماع التالى ومكانه . وقد أغفلت بسهولة دعوة المجمع الثـانى فى سيينا Sienna بسبب نفوذ بلاط رومه . وكادت قرارات مجمع بازل الجريئة القوية أن تقضى على البابا فى ذلك الوقت ، وهو يوجينيوس الرابع . وقـد دفع شك له ما يبـرره فى مقاصده ، آباء الكنيسة الى أن ينشروا أول قرار لهم ، وهو ينص على أن ممثلى الكنيسة المحاربة على الأرض قـد منحوا ولاية قدسـية وروحية على جميع المسيحيين بمـا فيهم البابا ، وأن أى مجمع عام لا يمكن حله أو تأجيله أو نقله الا برضاه ، وبعد مناقشة حرة . وعندما

لاحظوا أن يوجنيوس قد أصدر قرارا بابويا كأنه الصاعقة ، لذلك الغرض ، فانهم تجرءوا على دعوة خليفة القديس بطرس المتمرد وتحذيره وتهديده ولومه . وبعد تأجيلات كثيرة لافساح الوقت للندم أعلنوا فى النهاية أنه اذا لم يخضع فى ظرف ستين يوما فهو موقوف عن مباشرة سلطانه الكنسى والزمنى . ولاظهار أن الأمير خاضع لولايتهم خضوع رجل الدين لها ، أمسكوا فى أيديهم بمقاليد الحكم فى أفنيون ، وأبطلوا بيع التراث المقدس ، وحموا رومه من فرض ضرائب جديدة عليها : وقد برر جرأتهم ، لا الرأى العام بين رجال الكنيسة فحسب ، بل كذلك مساندة أول ملوك العالم المسيحى وقوته : حيث أعلن الامبراطور سيجيسموند أنه نفسه خادم المجمع وحاميه . وانضمت فرنسا وألمانيا الى قضيتهم ، وكان دوق ميلان عدو البابا يوجنيوس . وطرد البابا من الفاتيكان نتيجة ثورة قام بها الشعب الرومانى . وبعد أن نبذه فى الوقت نفسه رعاياه من رجال الدين والشعب ، لم يبق للبابا سبيل الا الخضوع ، فأصدر قرارا بابويا شائنا الى أقصى حد ، ألغى به قراراته التى كان قد أصدرها ، ووافق على قرارات المجمع ، وضم نوابه وكرادلته الى هذه الهيئة الموقرة ، وبدا أنه قد خضع لقرارات ذلك المجلس التشريعى الأعلى . وقد ذاعت شهرتهم فى أقطار الشرق . وفى حضرتهم استقبل سيجيسموند سفراء سلطان الأتراك الذين وضعوا تحت قدميه اثنى عشر صندوقا كبيرا مليئة بأثواب الحرير والقطع الذهبية . وقد داعب آباء الكنيسة فى بازل الأمل فى أن يحظوا بمجد اخضاع اليونانيين وأهل بوهيميا وضمهم الى حظيرة الكنيسة . ووجه مندوبوهم الدعوة

الى الامبراطور والى بطريق القسطنطينية للانضمام الى جمعية حازت ثقة الأمم الغربية . ولم يكن بالايولوغوس يعارض هـذا الاقتراح . وقدم سفراؤه بمظاهر التكريم اللائقة الى السناتو الكاثوليكى . ولكن اختيار المكان وقف عقبة كأداء ، فقد رفض أن يعبر جبال الألب أو بحر صقلية ، وطالب بشدة أن يؤجل المجمع حتى ينقل الى مدينة ملائمة فى ايطاليا أو على الأقل على نهر الدانوب . ولكن تمت الموافقة بسرعة أكبر على بقية بنود هذه المعاهدة ، فاتفق على تقديم نفقات سفر الامبراطور مع حاشية تبلغ سبعمائة شخص ، وعلى أن تدفع فورا ثمانية آلاف دوكات لتغطية نفقات اقامة رجال الدين اليونانيين ، وعلى أن تدفع فى أثنـاء غياب الامبراطور اعانة قدرها عشرة آلاف دوكات ، مع اعداد ثلثمائة من الرماة وبعض البوارج الحربية لحمـاية القسطنطينية . وقدمت مدينة أفنيون النقود اللازمة لدفع النفقات المبدئية . وأعد كل شىء للابحار من مرسيليا بعد بعض المتاعب والتأخير .

وتنازعت القوى الكنسية فى الغرب كسب صداقة باليولوغوس فى محنته ، ولكن براعة الملك ونشاطه تغلبا على المناقشات الوئيدة ، وعلى طباع الجمهورية المفتقرة الى المرونة ، واستمرت قرارات بازل تميل الى الحد من استبداد البابا والى تأسيس محكمة عليا دائمة فى الكنيسة . وما كان يوجينيوس ليصبر على هذه القيود التى طوقوه بها . وربما هيأ الاتحاد مع اليونان مبررا لائقا لنقل هذا المجمع الثورى من الراين الى البو ولكن اذا عبر الآباء جبال الألب ، ضاع استقلالهم. وقد وصفت سافوى أو أفنيـــون التى وافقوا عليهـا كارهين ، فى القسطنطينية ، على أنها تقع فيما وراء أعمـــدة هرقل ، وتوجس الامبراطور ورجال كنيسته خيفة من أخطـار رحلة بحرية طويلة .

وساءهم اعلان متعجرف بأنه بعد اخضاع الهراطقة الجدد فى بوهيميا، سيسارع المجلس الى القضـــــاء على الهرطقة القديمة فى اليونان . أما فيما يتعلق بالبابا يوجينيوس فقد بدا كل شيء من جانبه هينا لينا يدعو الى التقدير والاحترام . وقد دعا امبراطور بيزنطه الى أن يرأب بمقدمه الصدع فى الكنيسة اللاتينية وفى كنائس الشرق سواء بسواء . واقترحت فيرارا Ferrara على شاطىء الأدرياتيك كمكان للقائهم الودى. وباستخدام بعض أفانين التزييف والاغتصاب حصل على قرار مختلس بنقل المجمع بموافقة أعضائه الى تلك المدينة الايطالية . وجهزت لهذا الغرض تسع بوارج حربية فى البندقية وفى جزيرة كانديا ، وكانت هذه ، بفضل اليقظة والجد ، أسبق من ســفن بازل التى هى أبطأ . وفوض الأميرال الرومانى فى أن يحرق وأن يدمر . وكان من الممكن أن تلتقى هذه السفن الكنسية فى نفس البحـار التى التحمت فيها فيما مضى أثينا واسبرطه لاحراز قصب السبق فى مضمار المجد . واستبد الخوف والقلق بعقل باليولوغوس ، نتيجة الحاح الأحزاب التى كانت على استعداد للقتال بغية الظفر بشخص الامبراطور ، ومن ثم تردد قبل أن يترك قصره ووطنه للدخول فى تجربة خطرة . كانت نصيحة والده لا تزال عالقة بذاكرته ، وكان لابد أن يملى عليه العقل أن اللاتين لن يتحدوا قط للدفاع عن قضية خارجية ماداموا مختلفين فيما بينهم . وحاول سيجيسموند أن يثنيه عن هذه الرحلة غير الملائم أوانها . وكانت نصيحته مجردة غير مغرضة ، اذ أنه كان يشايع المجلس . وقوى من هذه النصيحة اعتقاد غريب فى أن قيصر الألمان سيعين يونانيا ليرثه ويخلفه على عرش الامبراطورية فى الغرب . وحتى سلطان تركيا كان من بين من

أشاروا على امبراطور القسطنطينية ، وربما كان من الخطر الاطمئنان الى نصيحة السلطان ، ولكن كانت الاساءة اليه خطرا كذلك . ولم يكن مراد بارعا أو خبيرا بهذا النزاع ، ولكنه كان يخشى اتحاد المسيحيين. وقد عرض أن يسد حاجات البلاط البيزنطى من أمواله الخاصة ، ومع ذلك فقد أعلن فى شهامة ظاهرية أنه يجب أن تبقى القسطنطينية آمنة مطمئنة فى أثناء غياب امبراطورها . وحسمت أعظم الهـدايا الثمينة والوعود البراقة موقف بالايولوغوس . وكانت تراوده رغبة فى أن يترك ، ولو لوقت قصير ، مسرح الخطر والكوارث . وبعد أن صرف سفراء المجلس برد غامض ملتو ، أعلن عن عزمه على الابحـار على بارجة رومانيـة . وكانت سن البطـريق جوزيف آنذاك تبعث على الخوف أكثر مما توحى بالأمل . لقد ارتعد أمام أخطار البحر . وعبر عن مخاوفه من أن صـوته الضعيف ـــ ومعه ثلاثون من اخوانه الأرثوذكس ـــ ربما طغت عليه قوة مجمع لاتينى وعـدد أفراده . ولكنه خضع لأمر المليك ، وللملق الذى أكد له حسن الاصغاء اليه على أنه نبى الأمم ، ولرغبته الخفية فى أن يتعلم من أخيه فى الغـرب كيف ينقذ الكنائس من نير الملوك . وكان على حملة الصليب الخمسة فى أياصوفيا ، أو الرؤساء الخمسة ، أن يقوموا على خدمته . وقد وضع واحد من هؤلاء ـــ رئيس الكنيسة العظيم أو الواعظ الأكبر ، وهو سيلفستر سيروبولس Sylvester Syropulus ـــ تاريخا غريبا وغير دقيق للاتحاد الزائف . وفيما يتعلق برجال الدين الذين لبوا كارهين نداءات الامبراطور والبطريق ، كان الخضوع هو أول الواجبات ، والصبر أنفع الفضائل . وفى ثبت يحوى عشرين أسـقفا وقع عليهم الاختيـار ، يمكن أن ترى رؤساء الدين فى العواصم : هـيراقليا

وسيزيكوس ونيقيا ونيقوميديا وافسوس وطرابزون ، وترى بينهم الأبوين مرقص وبيساريون اللذين رفعا الى منصب الأساقفة اعتمادا على علمهما وفصاحتهما . وقد ذكرت أسماء بعض الرهبان والفلاسفة لاظهار علم الكنيسة اليونانية وتقواها . وقام بمهمة الترنيم فريق منتقى من المرتلين والموسيقيين . وكان يمثل بطارقة الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس نواب حقيقيون أو زائفون . ومثل رئيس أساقفة روسيا الكنيسة الوطنية . وقد يستطيع اليونانيون أن ينازعوا اللاتين فى مدى اتساع امبراطوريتهم الروحية . وقد تعرضت الأوانى الثمينة فى أياصوفيا لأخطار الريح والأمواج حتى يستطيع البطريق أن يقوم بالواجبات الدينية فى أبهة لائقة . وقد أنفق الامبراطور كل ذهب استطاع أن يحصل عليه فى الزينة الضخمة التى حلى بها سريره وعربته. وبينما كانوا يتظاهرون بالاحتفاظ بعظمة ثرواتهم القديمة كانوا يتنازعون على تقسيم خمسة عشر ألف دوكات ، هى باكورة صدقات الحبر الرومانى . وبعد الاستعدادات الضرورية أبحر جون بالايولوغوس مع حاشية كبيرة ، يصحبه أخوه ديمتريوس وأبرز الشخصيات الكنسية والحكومية فى ثمان سفن مزودة بالأشرعة والمجاديف شقت طريقها فى مضيق غاليبولى التركى ، الى بحر الأرخبيل فالمورة ثم بحر الأدرياتيك .

اتحاد مؤقت بين اليونانيين واللاتين

وبعد رحلة مضنية مملة استمرت سبعة وسبعين يوما ، رسا هذا الأسطول الدينى أمام البندقية . وتم استقبالهم عن بهجة الجمهورية القوية وعظمتها . فعندما كان أوغسطس المتواضع يحكم العالم لم يتطلب

قط من رعاياه مظاهر تكريم كتلك التى قدمتها حكومة مستقلة لخليفته الضعيف ، وقد جلس فى مؤخر السفينة على عرش مرتفع ، ورحب بزيارة الدوج وأعضاء السناتو — وفى لغة البلاط اليونانى ، بحفاوتهم به وتقديسهم له . وأبحروا على السفينة المسماة بوكنتور التى كانت تصحبها اثنتا عشرة بارجة ضخمة ، وقد انتشر فوق الماء عدد لا حصر له من الجندولات المعدة للأبهة واللهو . وردد الهواء أصداء الموسيقى والهتافات . وقد ارتدى البحارة ثيابا من الحرير موشاة بالذهب ، كما كسيت السفن بمثل ذلك . وفى جميع الشعارات والزينات اختلطت النسور الرومانية بآساد القديس مرقص . ومر موكب النصر وهو يصعد القناة العظيمة تحت قنطرة ريالتو . وحملق الأجانب الذين جاءوا من الشرق فى ذهول الى القصور والكنائس وكثرة عدد سكان مدينة تبدو كأنها تعوم على صدر الأمواج . وصعدوا الزفرات وهم يرون الأسلاب ونصب النصر التى ازدانت بها بعد نهب القسطنطينية . وبعد ضيافة كريمة دامت خمسة عشر يوما تابع بالايولوغوس رحلته برا وبحرا من البندقية الى فيرارا . وخفف من كبرياء الفاتيكان فى هذه المناسبة ، سياسة ترمى الى الاغضاء عن العظمة القديمة لامبراطور المشرق ، فدخل البلدة ممتطيا صهوة جواد أسود ، ولكن جوادا أشهب اقتيد أمامه ، وكانت زخارفه تزدان بنسور من الذهب . وحمل المظلة فوق رأسه أمراء ايستى Este ، وهم أبناء أو أقرباء نيقولا مركيز المدينة ، وهو حاكم أقوى منه ولم يترجل بالايولوجوس حتى وصل الى أسفل الدرج ، وتقدم البابا الى باب الجناح المخصص له ، وأراد الامبراطور أن يركع أمامه فأبى . وبعد

عناق أبوى قاده الى مقعـد الى يساره . ورفض البطريق أن يترك سفينته حتى تم الاتفاق بين أساقفة رومه والقسطنطينية على مراسم تكاد تنم عن المساواة بين الحبرين . وطبع الأول على جبين الثـانى قبلة الاتحـاد والأخوة ، ورفض جميع رجال الدين من اليونانيين أن يقبلوا قدمى بابا الغرب . وعند افتتاح المجمع طالب الزعيم الزمنى والرئيس الدينى بمكان الصدارة فى الوسط . ولم يستطع يوجينيوس أن يتفادى السوابق القديمة لقسطنطين وماركيان الابادعائه أن اسلافه لم يحضروا بأشخاصهم فى مجمعى نيقيا وخلقدونيه وبعد نقاش طويل تم الاتفاق على أن تحتل كل أمة جانبا من الكنيسة : الايمن أو الأيسر، وأن كرسى القديس بطرس ، وهو مقعد وحيد ، يجب أن يرفع الى أول الصف اللاتينى ، وأن عرش الامبراطور البيزنطى ، على رأس رجال دينه ، يجب أن يكون مساويا مقابلا للمكان الثانى . أما المكان الخالى فهو كرسى امبراطور الغرب [١] .

ولكن سرعان ما انتهت الولائم والشكليات وانصرف الجميع الى النظر فى معاهدة أكثر جدية حتى شعر اليونانيون بعدم الرضا عن رحلتهم وعن أنفسهم وعن البابا . لقد كان قلم سفرائه الماكر قد صـوره بأنه يعيش فى دولة يعمها الرخاء على رأس أمراء أوربا ورجالها الدينيين ، الذين كانوا يطيعون كل كلمة تخرج من فيه خاصة بالايمان أو الحرب. وقد أظهر ضعفه قلة من حضروا المجمع العام فى فيرارا . وافتتح اللاتين الجلسة الأولى بخمسة من كبار الأساقفة فقط ، وثمانية عشر أسقفا

---

(١) أغرت غرابة الملابس اليونانية غوغاء اللاتين بالضحك ، ولا سيما طول ثيابهم وأكمامهم ولحاهم • ولم يتميز الامبراطور من بينهم الا باللون الأرجوانى ، وتاجه أو لباس رأسه الذى كانت تعلوه جوهرة • ومع ذلك يعترف أحد النظارة بأن الزى اليونانى أكثر رزانة ووقارا •

وعشرة من رؤساء الأديرة كان أكثرهم رعايا الحبر الايطالى أو من مواطنيه ، واذا ـــ استثنينا دوق بيرجاندى ، لم يتفضل أحد من حكام الغرب بأن يحضر بنفسه أو يرسل سفيرا ينوب عنه . ولم يكن من الممكن وقف قرارات بازل الشرعية ضد كرامة يوجينيوس وشخصه والتى انتهت آخر الأمر بانتخاب بابا آخر . وتحت هـــذه الظروف جاءت المطالبة بهدنة أو تأجيل ، وتمت الموافقـــة على ذلك ، لعـل بالايولوغوس يحظى من موافقة اللاتين ببعض الجزاء الدنيوى لاتحاد غير مستحب . وبعد الجلسة الأولى أجلت الاجراءات العلنية لمـــدة ستة أشهر تقريبا . وقد اختار الامبراطور لشخصه مقرا صيفيا ، ولفريق منتقى من أصفيائه وللانكشارية ديرا جميلا متسعا يبعد ســتة أميال عن فيرارا . ونسى فى مباهج الصيد كوارث الكنيسة والدولة ، وألح فى قتل الصيد دون أن يصغى لشكوى المركيز أو المزارعين . وفى أثناء ذلك تعرض اليونانيون البائسون الى كل شرور النفى والفقر . فقد حدد لمؤونة كل أجنبى فى الشهر ثلاثة أو أربعة فلورينات من الذهب . ومع أن المبلغ كله لم يصل الى سبعمائة فلورين ، فكثـــيرا ما تكدست المتأخرات اما لفقر بلاط رومـــه أو بسبب سياسته [(١)] . وكم تعالت آهاتهم لخلاص عاجل . ولكن هروبهم وقفت فى طريقه أغلال ثلاثة :

---

(١) بعد صعوبات جمة أجيب طلب اليونانيين فى أن توزع عليهم نقود بدلا من المؤن : أربعة فلورينات شهريا لكل شـخص ذى منصب شريف وثلاثة لخادمه ، بالاضافة الى ثلاثين فلورين للامبراطور ، وخمسة وعشرين للبطريق ، وعشرين للأمير أو الطاغية ديمتريوس . وقد بلغ ما دفع فى أول شهر ٦٩١ فلورين ، وهو مبلغ لا يسمح لنا بأن نحصى أكثر من مائتين من اليونانيين من جميع الطبقات . وفى اليوم العشرين من شهر أكتوبر فى عام ١٤٣٨ ، كانت المتأخرات مستحقة عن أربعة أشـــهر ، وفى أبريل سنة ١٤٣٩ . كانت المتأخرات تستحق عن ثلاثة ، وفى شهر يونيه ، فى وقعت الاتحاد ، كانت المتأخرات تستحق عن خمسة أشهر ونصف شهر .

أ ـــ كان لابد من جواز مرور من رئيسهم يقدم عند أبواب فيرارا.

ب ـــ وقد تعهـــدت حكومة البندقية بالقبض على كل هـــارب واعادته .

جـ ـــ وكان العقاب المحتوم ينتظرهم فى القسطنطينية : الحرمان من الكنيسة ، والغرامات ، وحكم لم يحترم كرامة رجال الدين ، بأن يجردوا من ثيابهم وأن يضربوا بالسياط علانية .

ولم يكن من المستطاع اقناع اليونانيين بافتتـــاح المؤتمر الأول الا بأحد اثنين : الجوع أو الجدل . وقبلوا على كره شـــديد منهم ، أن يذهبوا من فيرارا الى فلورنسة ليجلسوا مع مؤخرة مجمع متنقل طائر . وقد أغرت الحاجة التى لا مفر منها ، بهذا الانتقال الجديد . لقد حل الطاعون بالمدينة ، وأصبح ولاء المركيز موضع شك ، وكان جنود دوق ميلان من المرتزقه على الأبواب . ولما كانوا قد احتلوا روما نا Romagna ، فان البابا والامبراطور والأساقفة لم يســـتطيعوا الا بشق الأنفس ، مع التعرض للأخطار ، أن يكشـــفوا طريقا عبر الممرات غير المطروقة فى جبال الأبنين .

ولكن الزمن والسياسة ذللتا كل تلك العقبات . ولقد أفاد عنف آباء بازل قضية يوجينيوس أكثر مما أضر بها . فقد كرهت أمم أوربا الشقاق وأنكرت انتخاب فليكس الخامس ، الذى كان على التوالى : دوق سافوى ، وراهبا زاهدا ، وبابا . وأعاد منافسه ، على مر الأيام ، الأمراء العظام الى حياد موات له والى تعلق شديد به . وهرع النواب ومعهم بعض الأعضاء المبجلين الى فريق رومه الذى زاد عدده وحسنت سمعته دون أن يشعر أحد . وهبط عدد المجلس فى بازل الى تســـعة

وثلاثين أسقفا وثلثمائة من ذوى المراكز الدنيا فى الكنيسة بينما كان اللاتين فى فلورنسة يمكنهم أن يبرزوا باشتراك البابا نفسه وثمانية من الكرادلة وبطريقين وثمانية من رؤساء الأساقفة واثنين وخمسين من الأساقفه وخمســة وأربعين من رؤساء الأديرة ، أو رؤساء الفــرق الدينية . وبعد جهد دام تسعة أشهر ونقاش استمر خمسا وعشرين جلسة ، حظوا بمزايا وبمجد عودة اليونانيين الى الاتحاد . وقد احتدم النقاش بين الكنيستين حول أربع مسائل أساسية .

١ ـــ استخدام الخبز بدون خميرة فى تقديم قربان جسد المسيح.

٢ ـــ طبيعة المطهر .

٣ ـــ سيادة البابا .

٤ ـــ انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج .

وحمل عبء الدفاع عن قضية كل أمة عشرة من علماء اللاهوت . واستعان الجانب اللاتينى بفصاحة الكاردينال جوليان التى لا ينضب معينهــا . وكان مرقص (من افسوس) وبيســـاريون (من نيقيا) ، وهما زعيمان جريئان قادران ، على رأس الفريق اليونانى . وقد نزجى بعض الثناء على التقدم الذهنى بين البشر ، بملاحظة أن أولى هــذه المسائل نظر اليها الآن على أنها طقس غير أساسى ، يمكن أن يتغير دون جريرة ، تبعا للنظام السائد فى العصر أو القطر . وفيما يخص المشكلة الثانية اتفق الفريقان فى الاعتقاد بوجود حالة وسط من التطهير لآثام المؤمنين التى يمكن الصفح عنها . أما عن السؤال : هل تطهر النار المادية أرواحهم ، فأمر مشكوك فيه ، ومن الممكن بعد سنوات قليلة أن ينتهى المتنازعون فيه (فى هذا الموضوع) الى رأى بطريقة

مناسبة . وكانت مزاعم السيادة على ما يظهر أهم وأضخم . غير أن أهل الشرق استمروا دائما يحترمون أسقف رومه كأول البطارقة الخمسة . ووافقوا دون شك على أن ولايته يجب أن تستخدم بما يتفق والقوانين الالهية . وهو تراجع غامض يمكن تحديده أو التنصل منه فى الوقت المناسب . وكان انبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن ، بندا من بنود العقيدة التى رسخت أكثر فى أعماق عقول الناس. وفى الجلسات التى عقدت فى فيرارا وفلورنسة تفرعت الاضافة اللاتينية (ومن ابنه) Filioque الى سؤالين : أكان ادخالها مشروعا ؟ وهل هى اضافة أرثوذكسية ؟ وقد لا يكون من الضرورى أن أفخر فى هذا الموضوع بحيادى وعدم اهتمامى ، ولكنى أظن أن اليونانيين كان يؤيدهم هنا بقوة تحريم مجمع خلقدونية اضافة أى بنـد مهما كان الى عقيـدة نيقيا أو بالأحرى القسطنطينية [١] أما فى الشئون الدنيوية فليس من السهل ادراك كيف أن جمعية تشريعية تستطيع أن تتحكم فى الخلف ، وقد منح الخلف من السلطات ما يساوى سلطاتهـا . ولكن ما يمليه الوحى يجب أن يكون صادقا لا يتغير . ولا ينبغى أن يتجرأ أسقف بصفته الشخصية ، أو مجمع اقليمى على أن يجدد فى أى شىء مخالفا بذلك ما قضت به الكنيسة الكاثوليكية . أما فيما يمس موضوع النظرية فقد تساوى النقاش وامتد بلا نهاية . فلقد حير العقول انبثاق اله . وكان

---

(١) لم يرغب اليونانيون الذين كرهوا الاتحاد أن ينطلقوا أو يهاجموا من هذه القلعة الحصينة . وقد زاد من عار اللاتين ابرازهم لمخطوط قديم لمجمع نيقيا الثانى وبه عبارة « وابنـه » فى عقيدة نيقيـا . وهذا تزييف ملموس ! .

الانجيل الموضوع على المذبح صامتا لا ينطق بشيء ، ومن الجائز أن تكون نصوص الآباء العديدة قد أفسدها الغش أو اضطربت بفعل السفسطة . وكان اليونانيون يجهلون شخصيات القديسين اللاتين ومؤلفاتهم [1] . وقد يجوز لنا أن نتأكد من النقطة التالية على الأقل ، وهى أن حجج أحد الجانبين لا يمكن أن تقنع الجانب الآخر ، وقد يستنير الهوى بالعقل ، وقد نصحح لمحة سطحية عابرة بنظرة فاحصة أكثر كمالا أتيحت لنا ولكن الأساقفة والرهبان قد دربوا منذ طفولتهم على ترديد طراز من الأساليب مكون من ألفاظ لا يدرك أحد كنهها . وتعتمد كرامتهم القومية والشخصية على تكرار هذه الكلمات بعينها. وقد قست عقولهم الضيقة وألهبتها حدة المناقشات العامة .

وبينما ضل المجتمعون السبيل فى سحب من الغبار والظلام ، كان البابا والامبراطور يتوقان الى الوصول الى وحدة ظاهرية ، هى وحدها التى تفى بالغرض الذى اجتمعا من أجله . فخففت المفاوضات الخاصة والشخصية من عناد المناقشات العلنية . وكان البطريق جوزيف قد سقط تحت عبء السن والعلة . وعند موته نصح وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بالبر والوفاق . وربما أثار منصبه الشاغر مطامع رجال الكنيسة وأهاج آمالهم . ولقد استثير الامتثال السريع الجاد لدى رئيسى أساقفة روسيا ونيقيا ، ايزيدور وبيساريون ، فنال جزاءه فى ترقية سريعة الى مرتبة الكرادلة . كان بيساريون فى المناقشات الأولى أعنفه

(١) « عندما أذهب الى كنيسة لاتينية ، فانى لا أحنى رأسى أمام القديسين هناك ، لأنى لا أعرف أحدا منهم » (ترجمة ملاحظة أبداها سيروبولس واقتطفها جيبون باللغة اليونانية) .

زعماء الكنيسة الشرقية وأفصحهم . واذا كان المرتد وابن الزنا قد أنحى عليه قومه باللائمة ، فانه يبدو فى تاريخ الكنيسة كمثال نادر للوطنية ، قدمته للبلاط معارضة صاخبة ورضوخ جاء فى حينه . وبمعونة مساعديه الروحيين ، استخدم الامبراطور حججه مطبقا اياها على الموقف العام وعلى أخلاق الأساقفة الشخصية . وتأثر كل منهم بدوره بالسلطة وبالقدوة . كانت مواردهم فى أيدى الأتراك ، وأجسادهم فى أيدى اللاتين . وقد نفد بسرعة الكنز الأسقفى المكون من ثلاثة أثواب وأربعين دوكات . ولازال الأمل فى عودتهم الى وطنهم يعتمد على سفن البندقية وصدقات رومه . وقد بلغ من عوزهم أن دفع متأخراتهم ، وهى دين واجب الآداء ، كان من الممكن أن يعتبر عطفا ، وربما كان له فاعلية الرشوة . وربما يبرر الخطر المحدق بالقسطنطينية وانقاذها منه بعض الرياء المعقول الذى لا ضرر منه . ثم أشير من طرف خفى الى أن الهراطقة المعاندين الذين يقاومون اتحاد الشرق والغرب سيتركون فى بلد معاد لانتقام الحبر اللاتينى أو لعدالته . وفى أول اجتماع خاص عقده اليونانيون وافق على صيغة الاتحاد أربعة وعشرون عضوا ورفضه اثنا عشر . ولكن حملة الصلبان الخمسة فى أياصوفيا الذين أملوا فى أن يمثلوا البطريق ، لم يكن لهم حق التصويت طبقا للنظم العتيقة ، وحل محلهم فى التصويت جماعة خنوعة من الرهبان والنحاة والرجال العاديين من غير رجال الدين . ونفذت ارادة المليك باجماع زائف ذليل . ولم يوجد غير اثنين من المحبين لوطنهم كان لديهما من الشجاعة ما يمكنهما من التعبير عن احساسهما وشعور وطنهما . وعاد ديميتريوس أخو الامبراطور الى

البندقية حتى لا يشهد هـــذه الوحدة . ومن المحتمـــل أن مرقص ـــ ارضاء لكبريائه ، وان ظن أنه يرى ضميره ـــ رفض كل اختلاط مع الهراطقة اللاتين ، وأعلن أنه هو نفسه زعيم العقيـــدة الأرثوذكسية الصحيحة والمعتنق لها [1] . وفى هذه المعاهدة التى عقدت بين الأمتين اقترحت عدة صيغ ، مما قد يرتضيه اللاتين ، دون جرح كرامة اليونان ، فوزنوا كل ذرة من الشك الذى قد تثيره أية كلمة أو مقطع ، حتى اهتز ميزان اللاهوت بميل يسير نحو الفاتيكان . وقد تم الاتفـــاق (وأرى لزاما على أن أوجه هنا نظر القارىء) على أن الروح القدس ينبثق بوساطة الآب والابن ، انبثاقا من مبدأ واحد وجوهر واحد ، وأنه ينبثق بوساطة الابن لأنه من عين الطبيعة والجوهر ، وأنه ينبثق من الآب والابن بنفس الانبثاق والنتاج . وأقل من ذلك صعوبة ، فهم بنود المعاهدة المبدئية : على البابا أن يقدم نفقات عودة اليونان الى وطنهم وأن يقوم على اعداد بارجتين وثلثمائة جندى للدفاع عن القسطنطينية وعلى جميع السفن التى تنقل الحجاج الى بيت المقدس أن تمر بتلك الميناء . وعلى البابا كلما دعت الحاجة أن يجهز عشر بوارج لمدة سنة، أو عشرين بارجة لمدة ستة أشهر ، وأن يلح بشدة على أمراء أوربا ، اذا كان الامبراطور فى حاجة الى قوة من المشاة .

تميزت السنة نفسها وعين اليوم تقريبا فى بازل بعزل يوجينيوس ، وفى فلورنسه باتحاده من جديد مع اليونانيين واللاتين . [illegible]

---

(۱) لقد نسيت معارضا أرثوذكسيا معروفا محظيا يرقد عادة فى هدوء تحت قدمى الامبراطور ، ولكنه نبح نباحا وحشيا عندما كانت وثيقة الات[illegible] خدم الملك أن يسكتوه بالربت أو بالسياط ! .

(الذى سماه جمعية الشياطين) رمى البابا بجرائم الاتجار بالمقدسات والحنث والطغيان والهرطقة والانشـقاق . وأعلنوا أن مساوئه غير قابلة للاصلاح وأنه غير لائق وغير قادر على تولى أى منصب كنسى . وفى المجمع الثانى حظى بالتبجيل والاجـلال بوصفه الممثل الحقيقى المقدس للمسيح ، وأنه الذى جمع بعد فرقة ستمائة عام كاثوليك الشرق والغرب فى صعيد واحد وتحت راع واحـد . وقد وقع على وثيقة الاتحاد البابا والامبراطور وأهم أعضاء الكنيستين ، حتى أولئك الذين كانوا قد حرموا من حق التصويت (مثل سيروبولوس) . وربما أمكن الاكتفاء بنسخة للشرق وأخرى للغرب . ولكن يوجينيوس لم يقنع الا بأربع نسخ حقيقية ومطابقة للأصل ، وقد تم التوقيع عليهـا وتوثيقها كآثار خالدة لانتصاره . وفى يوم مشهود ، فى السادس من شهر يوليه ، ارتقى خليفتا القـديس بطرس وقسطنطين عرشيهمـا ، واجتمعت الأمتان فى كاتدرائية فلورنسة وصعد المنبر ممثلا الأمتين : الكاردينال جوليان وبيساريون رئيس أساقفة نيقيا ، وبعد أن قرأ كل منهما فى لغته وثيقة الاتحاد تبادلا العناق باسم اخوانهم ، وفى حضرتهم ووسط استحسانهم . وقام البابا ورجاله بالصلاة طبقا للمراسم الرومانية، وترنم الناس بالعقيدة وقد أضيف اليها : وابنه filioque . وقد يبرر سكوت اليونانيين جهلهم بتلك الأنغام الشجية ولكنها أعجمية . ورفض أكثر اللاتين لشككا اقامة أى طقس بيزنطى علانية . ومع ذلك فلم يكن الامبراطور ورجال دينه غافلين عن الشرف القومى . لقد وقعوا على المعاهدة برضائهم . ولكنهم اتفقوا فى صمت على عدم محاولة ادخال أى تجديد على العقيدة أو الطقوس .ولم يلحقوا أى أذى بمرقص

(من افيسوس) بل لقد احترموا فى السر ثباته الكريم . وعند وفاة البطريق رفضوا انتخاب سلفه الا فى كاتدرائية أياصوفيا . وفى توزيع الجوائز العامة والخاصة تجاوز الحبر الجواد آمالهم ووعوده . وعاد اليونانيون ، فى أبهة وكبرياء أقل ، عن طريق فيرارا والبندقية نفسه . وقد قوبلوا فى القسطنطينية باستقبال سنصفه فى الفصل التالى . وقد شجع يوجينيوس نجاحه فى التجربة الأولى على أن يكرر هذه المناظر التهذيبية نفسها . فأدخل تباعا نواب الأرمن والموارنة واليعاقبة فى سوريا ومصر والنساطرة والأحباش ليقبلوا أقدام الحبر الرومانى وأن يعلنوا طاعة المشرق وسلامة دينه . وهــذه الوفود الشرقية التى لا تعرفهــا الدول التى تجرأت على تمثيلها ، أذاعت فى أنحــاء الغرب شــــهرة يوجينيوس . وتعالت الصيحات التى أحسن تدبيرها ضد بقيــة من المنشقين فى سويسرا وسافوى ، لأنهم وحدهم عطلوا الوفاق فى العالم المسيحى . وجاء خمول اليأس فى أعقاب شدة المقاومة . فانحل فى صمت مجلس بازل . ونبذ فيلكس القبعة المثلثه أوعاد الى صــومعته الورعة أو الممتعة فى ريباى Ripaille . وقــد وطدت أركان السلام العــام بتصرفات متبادلة من النســيان والتعويض . وتوارت كل فكرة عن الاصلاح . واســتمر البابوات فى ممارسة أو سوء اســتغلال طغيانهم الكنسى . ولم يقلق رومه منذ ذاك الحين شرور انتخاب مطعون فيه .

إحياء العلوم اليونانية فى إيطاليا

لم تكن رحلات الأباطرة الثلاثة مجدية فى انقاذهم فى حياتهم الدنيا، وربما حياتهم الأخرى . غير أنه كان لها نتيجة حسنة هى احياء العلوم اليونانية فى ايطاليا ، ومنها انتشرت الى أقصى أمم الغرب والشمال .

فان رعايا الامبـراطورية البيزنطية وهم يرزحـون تحت أحط ألوان العبودية وأقسى ألوان الضيق ، كانوا لا يزالون يملكون مفتاحا ذهبيا ينفذون بفضله الى كنوز العالم القديم ، ولغة موسيقية خصبة تضفى على الأشياء المادية روحا ، وعلى المجردات الفلسفية جسدا . ومنذ أن وطئت تحت الأقدام حواجز المملكة ، بل حواجز العاصمة ، أفسد البرابرة دون ريب شكل اللغة القومية ومادتها . وقد وضعت معاجم كبيرة لتبيان معانى كثير من الألفاظ التى ترجع الى أصل عربى أو تركى أو سكلافونى أو لاتينى أو فرنسى ، ولكن ثمة لغة أنقى كان يتحدث بها فى البلاط وتعلم فى الكليات . وقد وصف ازدهار اللغة ، وربما زينه ، عالم ايطالى أقام مدة طويلة بالقسطنطينية واقترن بزوجة نبيلة ، وتجنس بالجنسـية البيزنطية قبـل الفتح التركى بنحـو ثلاثين عاما . قال فيليلفوس Philelphus :

« ان لغة الشعب قد أفسدها العامة ولوثتهـا جماهير الأجانب والتجـار الذين يفـدون كل يوم الى المدينة ويختلطون بسكانها . ومن أتباع أمثال هذه المدرسة تلقت اللغة اللاتينية ترجمة أرستوفانيس وأفلاطون . وهى غامضة المعنى حقيرة الروح . أما اليونانيون الذين نجوا من هذه العـدوى فهم وحدهم روادنا وهم وحدهم الجـديرون بالمحاكاة . ففى الحـديث العادى لا زالوا يتكلمون لغـة أرستوفانيس ويوربيديس ، ولغة المؤرخين والفلاسفة فى أثينا . أما أسلوبهم فى الكتابه فهوأصح وأدق .أما الاشخاص الذين يرتبطون ، بحكم المولد أو المنصب بالبلاط البيزنطى

فانهم يحتفظون بالمستوى القديم من الرشاقة والنقــاء . بأقل مزج ممكن . ويتألق جمال اللغة الأصيل أعظم ما يتألق بين السيدات النبيلات اللائى لا يسمح لهن بالاختـــلاط بالأجانب . هــل قلت : بالأجانب ؟ انهن يعشن فى عزلة ، محجبات عن أعين مواطنيهن . وقلما يرين فى الطــرقات . وعندما يغادرن منازلهن فانهن يفعلن ذلك تحت ظـــلام الليل لزيارة الكنائس أو أقرب أقاربهن . وفى هذه الأوقات يمتطين ظهور الخيل ، وهن يرتدين الحجاب ، ويحيط بهن آباؤهن أو أزواجهن أو خدمهن » .

وخصص لخدمة الدين عند اليونانيين عدد كبير غنى من القساوسة. وقد تميزت أخلاق رهبانهم وأساقفتهم على الدوام بالوقار والصرامة . ولم تلههم ، كما ألهت رجال الدين من اللاتين ، مباهج الحياة الدنيوية أو حتى العسكرية ومشاغلها ، وبعد أن نسقط من حسابنا ، الزمن والمواهب التى ضاعت فى الخشـــوع والخمــول والنزاع الذى مزق الكنيسة والأديرة ، فلابد أن العقول الأكثر حبا للاطلاع والأكثر طموحا ترغب فى ارتياد الثقافات الدينية والمدنية الموجودة فى لغتهم . وقام رجال الدين على تعليم الشباب . واستمرت مدارس الفلسفة والبلاغة حتى سقوط الامبراطورية . ويمكن أن نجزم بأنه كان هناك بين جــدران القسطنطينية ما يمكن أن ينشر فوق أرجاء الأقطار الشاسعة فى الغرب . ولكن هناك فرقا هاما سبق لنا أن أوضحناه : كان اليونانيون ثابتين فى أماكنهم ، ان لم يكـــونوا متراجعـــين الى الوراء ، بينما كان اللاتين يتقدمون بحركة سريعة تقدمية . لقد حفزت الأمم روح الاســـتقلال

والمنافسة ، حتى عالم الولايات الايطالية الصغير كان يضم أناسا أكثر جـدا ونشاطا أكبر من دائرة الامبراطورية البيزنطية المتناقصة . ففى أوربا تحررت الطبقات الدنيا من المجتمع من نير العبودية الاقطاعية . والحرية هى أول خطوة نحو حب الاستطلاع والمعرفة . وقد احتفظت الخرافات باللغة اللاتينية على الرغم من عدم صقلها وفسادها . وكانت الجامعـــات من بولونا Bologna الى أكســفورد [1] تزخر بألوف الباحثين . وربما وجه حماسهم الذى ضل السبيل ، الى دراسات أكثر حرية وأكثر رجولة . وفى بعث العلوم كانت ايطاليا أول من ينزع عنها أكفانها ويمكن انصافا وعدلا أن يمتدح بترارك الفصيح ، لدروسه والمثل الذى ضربه ، على أنه أول بشير ببزوغ النهار . وانبثق عن دراسة كتاب رومه القديمة ومحاكاتهم ، أسلوب فى التأليف أكثر نقاء ، وسلسلة من المشاعر أكثر حرية وتعقلا . واقترب تلاميذ شيشرون وفرجيل ، فى اجلال وحب ، من حرم أساتذتهم اليونانيين . وفى نهب القسطنطينية احتقــر الفرنســيون وحتى البنادقة أعمــال ليسيبوس وهوميروس ودمروها . وقد يمكن القضاء على الآثار الفنية بضربة واحدة ، ولكن العقل الخالد يمكن أن يجدد ويزداد بالنسخ التى يخطها القلم ، وكان كل طموح بترارك وأصدقائه أن يقتنوا أمثال هذه النسخ ويستوعبوا مكنوناتها . ولا جدال فى أن أسلحة الأتراك قد عجلت بفرار ربات

---

(١) فى أواخر القرن الخامس عشر كان فى أوربا حوالى خمسين جامعة . ومن هؤلاء عشر أو اثنتا عشرة جامعة أسست قبل سنة ١٣٠٠ ، وكانت مزدحمة نظرا لندرتها . وكان فى بولونا عشرة آلاف طالب ، يدرس أكثرهم القانون المدنى . وفى ١٣٥٧ نقص عدد الطلبة فى أكسفورد من ثلاثين ألفا الى ستة آلاف . ومع ذلك فان هذا النقص أكثر بكثير من عدد الطلبة الآن .

الشعر . ومع ذلك فقد نرتعد فرقا اذا خطر ببالنا أنه كان من الجائز أن تطمر بلاد اليونان بمدارسها ومكتباتها قبل أن تخرج أوربا من طوفان الهمجية ، وأن بذور العلم كان من الجائز أن تذروها الرياح قبل أن تصبح تربة ايطاليا صالحة لانباتها .

اعترف أكثر الايطاليين علما فى القرن الخامس عشر بالآداب اليونانية وامتدحوا احياءها ، بعد أن جر النسيان عليها ذيوله لمئات من السنين . ومع ذلك ففى ذاك القطر وفيما وراء الألب ، ذكرت أسماء بعض الباحثين المتعمقين الذين كانوا فى العصور المظلمة يتميزون بشرف معرفة اللغة اليونانية . وقد دوى الغرور القومى عاليا فى امتداح هذه الأمثلة النادرة للمعرفة والعلم . ومن الحق أن نلاحظ ، دون تمعن دقيق فى جدارة الأفراد ، أن علمهم لم يكن له هدف ولم يكن ذا أثر وأنه كان من السهل ارضاء أنفسهم وارضاء معاصريهم الأكثر جهلا ، وأن اللغة التى عرفوها بأعجوبة دونت فى مخطوطات قليلة ، ولم تكن تدرس فى أية جامعة فى الغرب . وفى أحد أركان ايطاليا بقيت هزيلة كلهجة عامية أو كنسية ، فالأثر الأول للمستعمرات الدورية والأيونية لم يمح تماما قط . وظلت كنائس كالابريا مدة طويلة مرتبطة بعرش القسطنطينية . وتابع رهبان القديس بازيل دراساتهم على جبل أثوس وفى مدارس الشرق . وكانت كالابريا موطن بارلام الأصلى . وقد ظهر فيما سبق كسفير مشايع لمذهب معين . وكان بارلام هو أول من أحيا ذكرى هوميروس أو على الأقل كتاباته ، فيما وراء جبال الألب . وقد وصفه كل من بترارك وبوكاشيو بأنه رجل قصير القامة ، ولكنه عظيم حقا فى مدى علمه وعبقريته . وكانت نظرته نافذة ، ومنطقه بطيئا مؤلما .

وهما يجزمان بأن بلاد اليونان لم تنجب مثله قرونا عديدة فى علمه بالتاريخ والنحو والفلسفة . وشهد بفضله أمراء القسطنطينية وعلماؤها. ولاتزال احدى هذه الشهادات باقية الى الآن . وقد اضطر الامبراطور كاتناكوزين ، حامى خصومه ، الى القول بأن ذاك المنطيق العميق كان ملما باقليدس وأرسطو وأفلاطون . وفى بلاط أفنيون عقد صداقة متينة مع بترارك أول الباحثين من اللاتين . وكانت الرغبة المتبادلة فى التعلم هى عماد اتصالاتهما الأدبية . وقد انهمك ابن توسكانيا فى لهف وشوق وجد متواصل فى دراسة اللغة اليونانية . وفى أثناء كفاحه المرير ، نظرا لجفاف المبادىء الأولى وصعوبتها ، بدأ يدرك معانى الشعراء والفلاسفة وأن يحس بروحهم ، وكانت عقولهم تلتئم مع عقله . ولكنه سرعان ما حرم صحبة هذا المعاون النافع ودروسه . فقد تنحى بارلام عن سفارته التى لا جدوى منها . وعند عودته الى بلاد اليونان أثار فى تهور جماعات الرهبان المتعصبين ، بأن حاول أن يحل نور العقل محل نور البطن . وبعد فراق دام ثلاث سنوات التقى الصديقان مرة ثانية فى بلاط نابلى . ولكن هذا التلميذ الكريم تخلى عن أجمل فرصة للتقدم فى دراسته ، وبناء على توصيته استقر بارلام نهائيا فى أسقفية صغيرة فى كالاباريا ، موطنه الأصلى . ان أعمال بترارك العديدة وحبه وصداقته ورسائله الكثيرة ورحلاته المتكررة والاكليل الرومانى ، ومؤلفاته الدقيقة باللغتين اللاتينية والايطالية شعرا ونثرا ، قد حولت اتجاهه بعيدا عن اللغة الأجنبية . وكلما تقدمت به السن أضحى تعلم اللغة اليونانية موضع رغبته لا محط آماله . وعندما كان فى الخمسين من عمره تقريبا قدم له سفير من بيزنطه ، وكان صديقا له ، وكان متمكنا

من اللغتين اللاتينية واليونانية ، نسخه من هوميروس . وجاء رد بترارك معبرا عن فصاحته واعترافه بالجميل وندمه فى الوقت نفسه . فبعد أن أثنى على كرم من وهبه هذه النسخة ، وأبان أن قيمة هذه الهدية أثمن فى نظره من الذهب والياقوت ، استطرد قائلا : « ان اهداءك اياى نسخة من النص الأصلى الحقيقى للشاعر المقدس ، مصدر كل خلق وابداع ، أمر جدير بك وبى . لقد بررت بوعدك ، وأشبعت رغبتى ، ومع ذلك فجودك لا يزال ناقصا . وكان يجب مع هوميروس ، أن تهبنى نفسك كمرشد يستطيع أن يقودنى فى مصادر النور ، ليكشف لعينى المذهولتين عن معجزات الالياذة والأوديسية . ولكن ، واأسفاه ! اما أن هوميروس أبكم أو أنى أنا أصم . وليس فى مقـــدورى أن أستمتع بالجمال الذى أملكه . لقد وضعته الى جانب أفلاطون : أمير الشعراء بالقرب من أمير الفلاسفة . وانى لأفاخر بمنظر ضيفى اللامعين . لقـــد اطلعت على ما ترجم من كتاباتهم الخالدة الى اللغة اللاتينية . ولكن ان لم يكن ثمت كسب ، فهناك متعة النظر الى هؤلاء اليونانيين الأجلاء فى ثوبهم القومى الأصيل (يقصد لغتهم) . انى مسرور بمنظرهم ، وكلما عانقت هذا المجلد الصامت تنهدت صائحا : أيها الشاعر المبرز ، بأى سرور كان يجب على أن أصغى الى أغانيك ، لو لم يكن سمعى قد ضاع وأصابه صمم لموت صديق ولغيـــاب الآخر ! ولكنى لم أيأس بعد ، ونموذج كاتو يسرى عنى ، ويبعث فى نفسى الأمل ، فقد تعلم اللغة اليونانية فى آخر فترة من حياته .

لقد حصل بوكاشيو ، صديق بترارك وأبو النثر التوســـكانى ، بحظه وجده ، على الجائزة التى لم تستطع جهود بترارك أن تحظى بها.

وهذا الكاتب المحبوب الذى تعتمد شهرته على مؤلفه «ديكاميرون» وهو عبارة عن مائة قصة كلها لهو وحب ، قد يمكنه أن يؤمل فى ثناء أكثر جدية ، وهو أن يكون أول من أعاد الى ايطاليا دراسة اللغة اليونانية . ففى عام ١٣٦٠ عطلت نصيحة بوكاشيو وكرمه تلميذا من تلاميذ بارلام ، كان فى طريقه الى أفنيون ، واسمه ليو أوليوتتيوس بيلاتس ، وأسكنه بوكاشيو فى داره ، وأثر على جمهورية فلورنسه لتمنحه معاشا سنويا ، ووقف أوقات فراغه على أول مدرس يونانى علم تلك اللغة فى أقطار أوربا الغربية . وربما كلمن منظر ليو كفيلا بتنفير أكثر التلاميذ شوقا ، فلقد ارتدى ثوب فيلسوف أو شحاذ ، وكان وجهه كئيبا ، يغطيه شعر أسود ، ولحيته طويلة شعثاء ، وسلوكه ساذجا ، وطبعه حزينا ومتقلبا. ولم يكن يستطيع أن يزين حديثه بمحسنات أو حتى بوضوح الفصاحة اللاتينية . ولكن ذهنه كان حافلا بكنز من العلوم اليونانية : من التاريخ والقصص ، والفلسفة والنحو ، كل أولئك كان يحذقه بقدر سواء . وقد قرأ أشعار هوميروس فى مدارس فلورنسه . ومن شرحه استمد بوكاشيو ما دونه وترجمه من الالياذه والأوديسية : ترجمة حرفية نثرا وهى الترجمة التى روت غلة صديقه بترارك ، واستخدمها سرا فى القرن التالى لورنتيوس فالا ، المترجم اللاتينى . ومن أحاديثه جمع بوكاشيو نفسه المواد الخاصة بكتابه عن أصل آلهة الوثنيين ، وهو مؤلف كان يعد فى ذلك الوقت مليئا ثمينا . وقد حشاه ، زهوا ، بشخصيات يونانية وقطع يونانية ليحفز قراءه الأكثر جهالة الى أن يتعجبوا ويهللوا . ان أول خطوات يخطوها العلم بطيئه ومجهدة . فلم يكن من المستطاع احصاء أكثر من عشرة مريدين لهوميروس فى جميع

ايطاليا . ولم تستطع رومه أو البندقيه أو نابلى أن تضيف اسما واحدا الى هذا الثبت من المجدين المجتهدين . ولولا أن ليو ترك بعد ثلاث سنوات ، نتيجة تقلبه ، منصبا مشرفا ومجزيا ، لتضاعف عددهم ، وأسرع تقدمهم . وفى أثناء مروره ، استضافه بترارك فترة قصيره فى بادوا ، وقد استمتع بعلمه ، ولكن ساءه حقا طبعه الكئيب الفظ . ولما كان ليو غير راض عن عالمه وعن نفسه ، فانه انتقص من قيمة ما كان ينعم به ، وكان الأشخاص الغائبون والأشياء الغائبة محببة الى خياله. كان فى ايطاليا رجلا من تساليا ، وفى بلاد اليونان مواطنا من كالاباريا . فاذا كان بين اللاتين ازدرى لغتهم ودينهم وعاداتهم ، وسرعان ما يصل الى القسطنطينية حتى يتنهد مرة أخرى أسفا على ثراء البندقية ورشاقة فلورنسه . وأصم أصدقاؤه من الايطاليين آذانهم ولم يستمعوا الى الحاحه والحافه . فأبحر فى رحلة ثانية معتمدا على حبهم للاستطلاع وصبرهم . ولكن عند دخوله بحر الأدرياتيك داهمت العاصفة سفينته، وكان المعلم المنكود الحظ قد ربط نفسه الى الصارى كما فعل يوليسيس ، ولكن انقضت عليه صاعقة من البرق فقتلته . وذرف بترارك ذو القلب الرحيم الدمع حزنا على هذه الكارثة . ولكنه تلهف أيما تلهف عما اذا كان فى الامكان انقاذ نسخة من يوربيديس أوسوفوكليس من أيدى البحارة .

ولكن المبادىء الضئيلة من علوم اليونان التى شجعها بترارك وغرسها بوكاشيو ، سرعان ما ذبلت وانقرضت . وقنع الجيل التالى لفترة ما بالتقدم الذى حدث فى الأسلوب اللاتينى . ولم يحدث قبل نهاية القرن الرابع عشر أن أضاءت شعلة جديدة متصلة فى ايطاليا . وقبل

أن يقوم الامبراطور عمانويل برحلته ، أرسل رسله وخطباءه ليستدروا عطف أمراء الغرب . ومن بين هؤلاء الرسل كان أشهرهم أو أكثرهم علما هو مانويل خريسولوراس ، وكان من أصل نبيل ، والمظنون أن أجداده من الرومان قد هاجروا الى القسطنطينية مع قسطنطين الأكبر. وبعد أن زار بلاط فرنسا وانجلترا ، وحصل منهما على بعض التبرعات وعلى كثير من الوعود ، دعى هذا السفير ليشغل منصب أستاذ . وللمرة الثانية حظيت فلورنسه بشرف ارسال هذه الدعوة الثانية . وكان خريسولوراس جديرا بمعاشه ، لا لمعرفته باللغة اليونانية وحدها ، بل ولعلمه باللغة اللاتينية أيضا ، وفاق ما كانت الجمهورية تنتظر منه . وقد امتلأت مدرسته بجمهور من التلاميذ من كل مرتبة وكل سن . وقد وصف أحدهم في تاريخ عام حوافزه ونجاحه . قال ليونارد أرتين : « في ذاك الوقت ، كنت أدرس القانون المدني ، ولكن كان يتملكني حب الأدب ، وقد وجهت بعض عنايتي الى المنطق والبلاغة . وعند مجيء مانويل ترددت بين هجر دراساتي القانونية أو ترك فرصتي الذهبية . وفي حماس الشباب قلت في نفسي : أو تقصر في حق نفسك ومستقبلك ؟ أو ترفض أن تتعرف الى هوميروس وأفلاطون وديمستنيس وتتحدث حديثاوديا الى هؤلاء الشعراء والفلاسفة والخطباء الذين تروى عنهم أمثال هذه العجائب ، والذين تغنى كل جيل بمديحهم كأعظم أساتذة للعلوم البشرية ؟ سيكون هناك دائما في جامعاتنا عدد كاف من أساتذة القانون المدني والباحثين فيه .ولكن معلما ، ومعلما من هذا الطراز ، للغة اليونانية ، ان سمحت أن يفلت من يدي ، فلن أحظى به البتة فيما بعد . فلما أقنعت نفسي بهذه الأسباب ، التحقت بمدرسة

خريسولوراس ، وسيطر على الهوى بحيث أن ما تلقيت من الدروس فى أثناء النهار ، أصبح دوما موضوع أحلامى فى الليل.. » وفى نفس الوقت والمكان شرح جون دى رافنا وهو تلميـــذ بترارك الخاص ، كتب اللاتين الكلاسيكية . وقد نشـــأ الايطاليون الذين ازدان بهم جيلهم وقطرهم فى هذه المدرسة المزدوجة . وأصبحت فلورنسه التربة الخصيبة للمعارف اليونانية واللاتينية . وعنـــدما جاء الامبراطور الى ايطـــاليا استدعى خريسولوراس من الكلية الى البلاط . ولكنه قام بالتدريس فيما بعد فى باڤيا وروما بالهمة نفسها التى استحقت الثناء نفسه . وتوزع الجزء الباقى من حياته ، وهو ما يقرب من خمسة عشر عاما ، بين ايطاليا والقسطنطينية ، بين السفارات والدروس .وفى مهمته النبيلة ، ألا وهى تعليم أمة أجنبية ، لم ينس عالم النحو واجبا أكثر قدسية نحو أميره ونحو بلده . وقضى مانويل خريسولوراس نحبه فى كونستانس ، وكان الامبراطور قد أرسله فى بعثة عامة الى المجلس .

واقتداء به قام عدد من المهاجرين باحيـــاء الآداب اليونانيـــة فى ايطاليا . وكانوا معدمين من الناحية المادية ، ولكنهم أوتوا حظا من العلم أو على الأقل من اللغة . نزح أهل سالونيك والقسطنطينية هربا من ظلم الأتراك أو من اضطهادهم وأسلحتهم الى بلاد الحرية وحب الاستطلاع والثروة . ولقد جاء المجمع الى فلورنسه ، بأضواء الكنيسة اليونانية وعلماء الفلسفة الافلاطونية . وكان للهاربين الذين استمسكوا بالوحدة أجر مضاعف ، لأنهم هجروا أوطانهم ، لا من أجل القضية المسيحية وحدها ، بل من أجل القضية الكاثوليكية أيضا . فالوطنى الذى يضحى بقبيله وضميره لينعم بالحظوة ، قد يكون من المتمسكين بالفضـــائل

الشخصية والاجتماعية ، وهو لايعود يلقى بالا الى النعوت البذيئة مثل « عبد » أو « مرتد » وسيعيد المركز الذى يحظى به بين أصـــحابه الجدد ، أمام عينيه ، ما كان لشخصه من مكانة . وكانت الحلة الرومانية الأرجوانية جزاء وفاقا لما اتسم به بيساربون من امتثال حصيف . وقد جعل مقره الدائم فى ايطـــاليا ولقى الكاردينال اليونانى ، بطريق القسطنطينية الشرفى كل التبجيل بوصفه زعيما وحاميا لأمته . وقد استغلت قدراته فى البعثات التى أوفدت الى بولونا والبندقية وألمانيا وفرنسا . أما فكرة انتخابه ليشغل كرسى القـــديس بطرس فقد رفرفت لبعض الوقت فى ســماء المجمع المقدس التى لا تســتقر على حال [1] . وقد أضفت أمجاده الكنسية رواء وسموا على عبقريته الأدبية وعلى خدماته. وكان قصره مدرسة . وفى كل مرة زار الفاتيكان صحبته حاشـــية من العلماء من كل من الأمتين ، ومن رجال رضوا عن أنفسهم ورضى الناس عنهم ، ممن كانت كتاباتهم التى علاها التراب الآن ، ذائعة ونافعة فى عصرهم . ولن أحاول احصاء من أحيوا أدب اليونان فى القرن الخامس عشر . ويمكننا أن نكتفى مع الشكر والتقدير بذكر الأسماء التالية : ثيودور جازا ، وجورج دى طرابزون ، وجـــون أرجـــيروبولس ، وديميتريوس خالكونديلس ، الذين علموا لغتهم فى مدارس فلورنسه وروما . ولم تكن جهودهم تقل عن جهود بيساريون ، وكانوا يبجلون رداءه الأرجوانى ، وكان حظه موضع حقدهم الدفين . وكانت حيـــاة

(١) طرق الكرادلة باب بيساريون يوما ، ولكن خادمه رفض أن يقطع عليه دراساته . فقال له : « نيقولا ، ان احترامك أضاع عليك قبعة وأفقدنى تاجـــا » .

النحاة متواضعة مغمورة ، ولقد عزفوا عن السير في ركاب الكنيسة وهو مجز مربح . وحالت ثيابهم وسلوكهم دون اختلاطهم بالناس ، ولما كانوا قد اقتصروا على فضـــل العلم فقد حق عليهم أن يقنعوا بجوائزه . ويستحق يانوس لاسكاريس أن يستثنى من هذه الفئة . فأن فصاحته وأدبه ونســبه الامبراطورى ، كل أولئك أوصى به خــيرا لدى ملوك فرنسا . وفى المدن نفسها كان يستخدم للتعليم أو التفاوض . وحفزهم الواجب والمصلحة أن يوجهــوا عنايتهم الى دراسة اللغة اللاتينيــة . واكتسب أكثرهم توفيقا القدرة على الكتابة والتحدث بطلاقه ورشاقة، بلغة أجنبية . ولكنهم احتفظوا على الدوام بغرورهم الوطنى المتأصل واحتفظوا بمديحهم ، أو على الأقل بتقديرهم ، لكتابهم القوميين الذين يدينون لهم بشهرتهم وأرزاقهم . وقد أظهروا فى بعض الأحيان ازدراءهم لشعر فرجيل وخطب تولى Tully فى نقد أو هجاء فاجر . وبرز تفوق هؤلاء الأساتذة بفضل استخدامهم المألوف للغة حية . ولم يكن تلاميذهم الأول يستطيعون أن يدركوا مبلغ انحدارهم عن معــارف أجدادهم أو حتى عن طرائق أجدادهم العملية . وبفضل ذكاء القرون التالية ، اختفى من المدارس المنطق المعيب الذى أدخلوه . وكانوا يجهلون قوة النبرات الصوتية فى اللغة اليونانية . وكانت النغمات الموسيقية ــــ التى اذا ما خرجت من فم أتيكى الى أذن أتيكية ، فهى حتما روح الانسجام الخفية ــــ لا تزيد فى نظرهم ، كما هى فى أغانينا اليوم ، عن علامات صماء لا تعنى شيئا ، بل لا فائدة منها فى النثر ، وهى مجهـــدة فى الشعر . وكانوا يلمون حقا بعلم النحو . وقد امتزجت البقايا القيمة من أبولونيوس أو هــيروديان بدروســهم . ولا زال لكتبهم فى النحــو

والاشتقاق ، وان خلت من الروح الفلسفية ، نفع لدى الطلبة اليونانيين. وفى أثناء تدمير المكتبات البيزنطية أمسك كل لاجىء بأثارة من كنز ، بنسخة من بعض المؤلفين الذين لولا حرص هؤلاء اللاجئين وحدهم لكتب عليها الدمار . وزاد عدد هذه المخطوطات بفضل قلم لا يعرف الكلل أو قلم رشيق . وقد صحح النص أو وشرح بتعليقات من أقلامهم أو تعليقات مأخوذة من الشراح القدامى . فنقل المعنى ، وان لم تنقل روح كتاب اليونان الكلاسيكيين الى العالم اللاتينى . ان جمال الأسلوب ليتبخر اذا أريد نقله الى لغة أخرى . ولكن ثيودور جازا اختار من مؤلفات أرسطو وتيوفراستوس أكثرها قيمة . وقد فتحت كتبهم فى التاريخ الطبيعى للحيوان والنبات آفاقا واسعة من العلم الأصيل والتجريبى .

ومع ذلك فقد تعقبوا ظلال الميتافيزيقا السريعة الزوال ، بفضول أكبر وحماس أشد . فبعد نسيان طويل بعث أفلاطون فى ايطاليا على يد عالم يونانى جليل[1] كان يقوم بالتدريس فى دار كوزمو ميدتشى . وبينما كان مجمع فلورنسه منهمكا فى نقاش لاهوتى ، كان من الممكن الخروج ببعض النتائج الطيبة من دراسة فلسفته الرشيقة . وقد بلغ أسلوبه أنقى مستوى فى اللهجة الأتيكية . وفى بعض الأحيان كانت أفكاره السامية تلتئم مع أسلوب الحديث العادى ، وفى أحيان أخرى نجد أنه قد نمق أسلوبه بأزهى ألوان الشعر والفصاحة . فمحاورات أفلاطون صورة مثيرة لحياة حكيم وموته . وكلما هبط من بين السحب

(١) جورج جمستوس بليتو G, Gemistus Pletho ، كاتب متعدد النواحى له مؤلفات ضخمة ، وهو أستاذ بيساريون وجميع تلاميذ أفلاطون فى زمانه . زار ايطاليا فى شيخوخته ، وعاد بسرعة لينهى أيامه فى المورة .

أو من علیائه ، غرس نهجه الأخلاقی فی النفوس حب الحق ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشری . وقد حبذت تعالیم سقراط وأمثلته شكلا متواضعا وبحثا حرا . واذا كان أتبــاع أفلاطون قد تعلقوا فی ولاء أعمى برؤى وأخطاء معلمهم المقدس ، فان حماسهم قد يصحح من منهج مدرسة المشائین الجاف المرتبط بالعقيــدة . واذا كانت مناقب أفلاطون وأرسطو متساوية تماما ، فانها متضادة تماما ، حتى انه يمكن موازنتها فی مناظرات لا نهاية لها . ولكن قد يمكن احداث شرارة من الحرية نتيجة الاصطدام بين ألوان العبــودية المتضادة . وقد انقسم اليونانيون المحدثون فی ولائهم بين المذهبين . لقد حاربوا تحت رايات قادتهم فی عنف أكثر منهم فی براعة . وعند هروبهم انتقل ميدان القتال من القســطنطينية الى رومه . ولكن هــذا الجدل الفلسفی انحط بسرعة الى نزاع شخصی غاضب بين النحاة . ودافع بيساريون ، على الرغم من أنه من أنصار أفلاطون ، عن الشرف القومی باستخدام مشورته ونفوذه للوساطة بين الفريقين . وقد تمتع المهذبون والعلماء فی حـدائق دی مديتشی بالنظريات الأكاديمية . ولكن جمعيتهم الفلسفية انفضت بسرعة . واذا كانت كتابات الحكيم الأتيكی تقرأ فی الغرف الخاصة ، فقد بقی فيلسوف ستاجيرا ، وهو أكثر قوة ، يتحكم فی الكنيسة والمدارس .

البابا نيقولا الخامس

لقد عرضت عرضا منصفا مناقب اليونانيين الأدبية : ومع ذلك فيجب أن نعترف بأن حماس اللاتين ثنى عليها ، بل وتفـوق . وكانت ايطاليا مقسمة الى ولايات كثيرة مستقلة . وفی ذلك الوقت كان طموح

الأمراء والجمهوريات يدفعها الى المباراة بعضهـا مع بعض فى تشجيع الأدب وبذل المكافأة عليه . وكانت شهرة نيقولا الخامس لا ترتفع الى مستوى فضله . لقد ارتقى من بين صفوف العامة نتيجة فضائله وعلمه . وسما فى شخصه ، خلق الانسان والرجل فوق مصالح البابا . وقد شحذ تلك الأسلحة التى سرعان ما وجهت ضد الكنيسة الرومانية . وكان قد عقد أواصر الصداقة مع أبرز علماء العصر . ثم أصبح حاميهم . وقـد بلغ تواضعه حدا جعل هذا التغيير لا يكاد يحسه هو نفســه ولا هم أنفسهم . فاذا ألح فى قبــول هدية كريمة ، فلم يكن ذلك مقيـاسا للجدارة ، وانما هو دليل على البر . فاذا أبت الجدارة المتواضعة قبول المنحة ، فانه كان يقول وهو يشعر بقيمته : « اقبلها ، فلن يوجد بينكم نيقولا على الدوام » . وقد انتشر نفوذ البابا فى أنحاء العالم المسيحى . واستخدم هـذا النفوذ فى البحث عن كتب لا فى البحث عن مرتبات للكهنة . وجمع من أطلال المكتبات البيزنطية ومن أحلك الأديرة ظلاما فى ألمانيا وبريطانيا مخطوطات كتاب العالم القديم التى علاها التراب . وعندما تعذر نقل الأصل من مكانه ، كتبت نسخة مطابقة وأرسلت اليه لاستعماله الخاص . وفى كل يوم كان يأتى الى الفاتيكان وهو المستودع القديم لقرارات البابا والأساطير ، وللخرافات والتزييف ، مصنفات أكبر قيمة . وقد بلغ نشاط نيقولا حدا يجعله يجمع فى حكم دام ثمـان سنوات مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد . ويدين العالم اللاتينى لكرمه بترجمات لأكسينوفون ، وديودور ، وبوليبيوس وثوكيديديس ، وهيرودوت وأبيان ، وجغرافية اســترابون ، والأليــاذة ، وأكثر مؤلفات أفلاطون وأرسطو قيمة ، وبطلميوس وتيوفراستوس ، وآباء الكنيسة اليونانية.

وقد سبق هذا المثل الذى ضربه البابا أو حاكاه تاجر من فلورنسه حكم الجمهورية دون سلاح ودون ألقاب . كان كوزمو ميدتشى أبا لجيل من الأمراء يكاد اسمهم وعصرهم يكون مرادفا لاحياء العلوم . لقد زاد فضله فذاع صيته ، ونذر ثروته لنفع الجنس البشرى . وراسل فى الوقت نفسه القاهرة ولندن . وكثيرا ما حملت الكتب اليونانية مع التوابل الهندية على السفينة نفسها . أما عبقرية حفيده لورنزو وتعليمه فقد جعلاه ، لا حاميا ، ولكن حكما ومرشحا فى السباق الأدبى . وفى قصره كان من حق من نزلت به كارثة أن يجد غوثا ، وكان من حق الجدارة أن تحظى بجائزة . وكان يقضى ساعات فراغه مبتهجا فى أكاديمية أفلاطون . ولقد شجع ديميتريوس خالكنديلس وأنجيلو بوليتيان على التنافس . ولقد عاد مبعوثه النشيط ، يانوس لاسكاريس، من الشرق يحمل كنزا يتألف من مائتى مخطوط ، لم تكن ثمانون منها معروفة بعد فى مكتبات أوربا . وقد ساد فى بقية ايطاليا روح مشابهة ، وعوض تقدم الأمة جود الأمراء . واحتكر اللاتين ملكية آدابهم دون منازع . واستطاع تلاميذ اليونان هؤلاء أن ينقلوا الدروس التى تلقوها وأن يدخلوا عليها تحسينا . واستمر مجىء المعلمين الأجانب فترة قصيرة، انحسر بعدها مد الهجرات . ولكن لغة القسطنطينية انتشرت فيما وراء جبال الألب . وسلم أهالى فرنسا وألمانيا وانجلترا [1] الى أوطانهم تلك

(١) دخلت اللغة اليونانية الى جامعة أكسفورد فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، على يد جروكين ، ولينـاكير ولا تيمير . وقد درس جميعهم فى فلورنسة على يد ديمتريوس خالكونديليس . أنظر « سيرة ارزم » العجيبة التى ألفها الدكتور نايت . وعلى الرغم من تعصبه الهائل لجامعته ، اضطر الى أن يعترف بأن ارزم تعلم اليونانية فى أكسفورد وعلمها فى كمبردج .

النار المقدسة التى أشعلوها فى مدارس فلورنسه وروما . وفى الانتاج الفكرى ، كما هو الحال فى انتاج التربة ، يتفوق الجد والمهارة على هبات الطبيعة . فالمؤلفون اليونانيون الذين نسيهم الناس على شواطىء نهر ايليسوس حظوا بالتعليق والشرح على شواطىء نهرى الالب والتاميز .. وكان من الممكن أن يغبط بيساريون أو جازا البرابرة على تفوقهم العلمى ، وأن يغبط بودايوس على دقته ، وارزم لذوقه ، وستيفنز لغزارة مادته وسكاليجر لعلمه الواسع ، وريسكلى أو بينتلى على نفاذ بصيرته . وفى الجانب اللاتينى كان اختراع الطباعة فائدة عرضية . ولكن ألدوس وخلفاءه الذين لا حصر لهم استخدموا هذا الفن النافع لتخليد المؤلفات العتيقة والاكثار منها [1] . فان مخطوطا وحيدا أتى من بلاد اليونان قد بعث حيا فى عشر آلاف نسخة ، وكل نسخة أجمل من الأصل . وفى هذا الشكل الجديد كان يمكن لهوميروس وأفلاطون أن يتصفحا كتاباتهما الخاصة ، فى رضا أكثر . ويجب على شراحهم القدامى أن ينزلوا عن الجائزة لجهود الناشرين الغربيين .

---

(١) أسست مطبعة ألدوس مانوتيوس ، وهو رومانى ، فى البندقية حوالى سنة ١٤٩٤ . وقد قام بطبع أكثر من ستين مؤلفا ضخما من الأدب اليونانى ، وكلها تقريبا لأول مرة . وكثير منها يحتوى على رسائل مختلفة ومؤلفين مختلفين ، وقد صدرت طبعتان أو ثلاث أو أربع لمؤلفين عديدين . ولكن مجده يجب ألا ينسينا أن أول كتاب فى اللغة اليونانية « أجرومية قسطنطين لاسكاريس » طبع فى ميلان فى سنة ١٤٧٦ وأن طبعةهوميروس فى فلورنسا ١٤٨٨ تتميز بكل فنون الطباعة الأنيقة .

الاستفادة من العلوم القديمة، وسوء استخدامها

قبل احياء الآداب الكلاسيكية كان المتبربرون فى أوربا غارقين فى ظلمة الجهالة . وكانت لهجاتهم العامية تتميز بعدم الصقل وبالفقر فى الأساليب . وقد فتح أمام طلبة اللغتين اللاتينية واليونانية ، وهما أكثر كمالا ، أبواب عالم جديد من النور والعلم ، وأبواب الاتصال بأمم حرة مثقفة من العالم القديم ، والاختلاط الودى مع أولئك الخالدين الذين تكلموا لغة عالية ، هى لغة الفصاحة والعقل . ومثل هذا الاختلاط يهذب حتما من ذوق المحدثين ويسمو بعبقريتهم . ومع ذلك ، فربما بدا منذ التجربة الأولى ، أن دراسة القدامى قد كبلت العقل البشرى بالقيود أكثر مما منحته أجنحة يحلق بها . ومهما كان من أمر الثناء الذى يجب أن تمتدح به روح المحاكاة ، فالتقليد موصوم بطابع العبودية . وكان أول تلاميذ اليونان والرومان عبارة عن مستعمرة أجنبية وسط زمانهم ومكانهم . وكان من الممكن أن يرفع النشاط الذى بذل فى التعرف على آثار القرون الغابرة ، من أحوال المجتمعات الحاضرة أو يزينها . لكن كان النقاد والباحثون فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) عبيدا لأرسطو . وكان الشعراء والمؤرخون والخطباء يفخرون بترديد أفكار عصر أوغسطس وألفاظه . وكانوا ينظرون الى أعمال الطبيعة بعين يلينى وثيوفراستوس . وأظهر بعض مريدى الوثنية ولاء خفيا لآلهة هوميروس وأفلاطون [1] وأرهق الايطاليين قوة معاونيهم القدامى وعددهم .

---

١ ـ سأختار ثلاثة أمثلة فريدة لهذا الحماس للكلاسيكية • (١) ـ قال جمستوس بليتو فى مجمع فلورنسه فى حديث ودى مع جورج أوف

وامتلأ القرن الذى أعقب موت بترارك وبوكاشيو بجمهور من مقلدى الرومان ، وهم يرقدون الآن على رفوفنا فى هدوء واحترام . ولكن فى تلك الفترة من عصر احياء العلوم كان من الصعب ادراك كشف علمى حقيقى ، أو مؤلف يتميز بالابداع والفصاحة ، كتب بلغة البلد . ولكن ما ان تشبعت التربة بالندى السماوى تشبعا عميقا ، حتى سارعت الى الانبات والحياة . فصقلت اللغات الحديثة ، وأوحى الكتاب الكلاسيكيون فى أثينا وفى رومه بذوق نقى ومنافسة كريمة . وفى ايطاليا، ومن بعدها فى فرنسا وانجلترا ، أعقب عصر الشعر والقصص البهيج ، ضوء الفلسفة التأملية والتجريبية . قد تسبق العبقرية زمن النضوج . ولكن فى تعليم الشعوب ، كما فى تعليم الأفراد ، يجب تمرين الذاكرة قبل أن تنفتح قوى العقل والخيال . وقد لا يكون فى مقدور الفنان أن يؤمل فى التساوى مع أسلافه ، أو فى التفوق عليهم ، قبل أن يتعلم كيف يحاكى أعمالهم .

سرعان ما أعقب اتحاد الكنيستين الذى حققه مجمع فلورنسه ، الانفصال النهائى للكنيسة اليونانية (١٤٤٠ ـ ١٤٤٨) . وعوقت عمليات لادسلاوس ملك بولنده ، والمجر ، وثورات يوحنا هونياد واسكندربرج ـ عوقت تقدم الاتراك ، ولكنها لم تستطع الحيلولة دون النتيجة النهائية . وأصبح قسطنطين باليولوغوس ـ كما ثبت من الأحداث ـ آخر امبراطور رومانى فى القسطنطينية (١٤٤٨ ـ ١٤٥٣) . وسرد جيبون هذه الأحداث فى الفصل السابع والستين .

طرابزون ، سوف ينبذ البشر عما قريب الانجيل والقرآن، الى ديانة الأمميين (الكفار) . (ب) ـ اضطهد بول الثانى الأكاديمية الرومانية ، التى كان قد أسسها پمپونيوس لاتوس ، وأتهم أعضاءها الأصليين ، بالهرطقة والزيغ والوثنية . (ج) ـ فى القرن التالى احتفل بعض الأدباء والشعراء فى فرنسا بنجاح تمثيلية جودل «كليوباترة» احتفالا أحمر ، وقدموا معزاة قربانا ـ على ما قيل . على أن روح التعصب الأعمى قد تتبين زيفا خطيرا فى لعبة الخيال والعلم .

الفصل الثامن والستون
(١٤٥١ - ١٤٨١)

خلق محمد الثانى وحكمه • حصاره للقسطنطينية واستيلاؤه عليها • دخوله المدينة • حزن أوربا وفزعها

خلق محمد الثانى وحكمه

يجذب حصار الأتراك للقسطنطينية انتباهنا أولا الى شخص «المدمر» العظيم وأخلاقه . كان محمد الثانى بن مراد الثـانى ، وعلى الرغم من أن أمه ازدانت بلقب أميرة ومسيحية ، فمن المرجح أنها لم تختلف عن الخليلات العديدات اللائى ملأن حريم السلطان من كل قطر . وكانت تربيته وأحاسيسه الأولى هى تربية وأحاسيس مسلم ورع . وكلمـا تحدث الى كافر ، طهر يديه ووجهه بالمراسم الشرعية للوضوء . ويبدو أن السن والملك قد خففا من هذا التعصب الضيق . وقد احتقرت عبقريته الطامحة أن تعترف بأن هناك قوة أعلى من قوته . وثابر هذا السلطان على اظهـار التبجيل اللائق لشرائع القرآن وسـننه . أما حمـاقته الخاصـة فلابد أنهـا أخفيت عن آذان العـامة . ويجب أن نرتاب فى سـذاجة الأجانب والمتشـيعين الذين يميلون الى الاعتقـاد بأن أى عقـل متحجر ضـد الحـق ، لابد أن يتسلح باحتقـار فائق للسخف والخطـأ . وتحت رعاية أمهر المعلمين تقـدم محمد بنجاح مبكر وسريع فى مسالك المعرفة . ويقـال جزما انه فضـلا عن لغتـه

القومية كان يتكلم أو يفهم خمس لغات هى العربية والفارسية والكلدانية أو العبرية واللاتينية واليونانية . ومن الممكن حقا أن تزيد اللغه الفارسية فى متعته واللغة العربية فى تهذيبه . وأمثال هذه الدراسات مألوفة لدى الشباب فى المشرق . وفى الاتصالات بين اليونانيين والأتراك قد يرغب فاتح فى أن يتحدث الى الشعب الذى يطمع فى أن يحكمه ، وقد يجد مديحه ، باللاتينية ، شعرا أو نثرا ، طريقا الى أذنه الملكية . ولكن أى نفع أو فضل يحبب سياسيا أو باحثا فى تعلم اللهجة البشعة التى يتحدث بها عبيده من اليهود ؟ كانت ذاكرته تعى تاريخ العالم وجغرافيته . وقد حفزته سير أبطال الشرق ، وربما الغرب ، على منافستهم . ويمكن تبرير مهارته فى التنجيم بجهالة زمانه ، وهـــذا يفترض الماما بمبـــادىء الرياضيات . ونمت عن تذوقه البسيط للفنون دعوته الكريمة وجوائزه الثمينة للمصورين الايطاليين[1] . غير أنه لم يكن للدين أو العلم أى أثر على طبيعته الوحشية واباحيته.. وانى لن أكتب ، ولست أعتقد اعتقادا جازما فى الحكايات التى تقول بأن أربعة عشر من خدمه بقرت بطونهم بحثا عن بطيخة مسروقة . أو بأن جارية جميلة قطع رأسها بالسيف ليثبت للأنكشارية أن مولاهم لا يخضع لسلطان الحب [2] . ويشهد على عدم ادمانه الخمـــر الحوليات التـــركية التى تتهم ثلاثة فقط ، من البيت

(١) انصرف من مجلسه جنتيلى بللينو الشهير الذى كان قد استدعاه من البندقية بسلسلة وطوق من الذهب وكيس به ثلثمـــائة دوكات . وانى لأسخر مع فولتير من الحكاية السخيفة التى تقول بأن عبـــدا قطعت رأسه عمدا لتلقين المصور درسا فى قوة العضلات .

(٢) بنيت قصة الدكتور جونسون ، « ايرين » على هذه الحكاية . وقد أكد الكتاب المتأخرون صحة شكوك جيبون ، ويذكر بيورى أن الحكاية موجودة فى كتاب سنكا (ولد سنة ٥٥ ق.م.) ، د.م.ل.

العثمانى برذيلة الخمر [1] . ولكن لا يمكن أن ننكر أن أهواءه كانت فى الوقت نفسه عنيفة ولا تعرف الرحمة . وأنه فى القصر كما فى ميدان القتال ، جرى الدم سيلا جارفا لأقل اثارة . وأنه كثيرا ما دنس بشهواته غير الطبيعية أنبل الشبان من الأسرى . وفى الحرب الألبانية استفاد من دروس أبيه ، وسرعان ما تفوق عليه . وينسب الى سيفه الذى لا يقهر فتح امبراطوريتين واثنتى عشرة مملكة ومائتى مدينة ، وهذا احصاء كله عبث وملق . وكان بلا ريب جنديا ، وربما كان قائدا . وكانت القسطنطينية مناط مجده . ولكنا اذا قارنا الوسائل والعقبات والمنجزات ، لوجب أن تعرو محمدا الثانى حمرة الخجل ، اذا شبه بالاسكندر أو تيمورلنك . وفى عهده كانت القوات العثمانية التى تحت امرته دائما أكثر عددا من أعدائها ، ومع ذلك فقد حال نهر الفرات والأدرياتيك دون تقدمه ، ووقف هونياد واسكندربرج ، وفرسان رودس ، وملك فارس ، فى وجه جيوشه .

وفى حكم مراد ، ذاق مرتين طعم الملك ، ونزل مرتين عن العرش . وكان صغيرا لا يقوى على الوقوف فى وجه عودة أبيه الى الحكم . ولكنه لم يستطع قط أن يعفو عن الوزراء الذين نصحوا باتخاذ هذا الاجراء السليم . وقد احتفل بزواجه من ابنة أحد أمراء التركمان ، وبعد أفراح دامت شهرين رحل مع زوجته من أدرنه ليقيم فى ولاية ماغنيسيا . وقبل انقضاء ستة أسابيع استدعى فجأة برسالة من الديوان ، يبلغه فيها بموت

(١) هؤلاء الأباطرة المتهمون بادمان الخمر هم سليمان الأول وسليم الثانى ومراد الرابع . ويستطيع المتصوفون فى فارس أن يقدموا ثبتا أكثر انتظاما . وفى العصر الأخير كان الرحالة الأوربيون شهودا وندماء فى حفلات شرابهم .

مراد وتمرد الانكشارية . وقد أجبرهم بسرعته وشدته على الطاعة ، وعبر الدردنيل ومعه حرس اختاره وانتقاه . وعلى بعد ميل من أدرنه خر الوزراء والأمراء والأئمة والقضاة والجنود والشعب ، راكعين أمام السلطان الجديد . وتصنعوا البكاء ، وتصنعوا الفرح . واعتلى العرش وهو ابن احدى وعشرين سنة وأزال أسباب الخيانة والغدر بقتل اخوته من الأطفال ، وهو عمل لم يكن منه مفر . وسرعان ما مثل سفراء أوربا وآسيا أمامه ليهنئوه بارتقائه العرش ، وليلتمسوا صداقته ، وقد تحدث الى كل بلغة ملؤها الاعتدال وحب السلام ، وأحيا ثقة امبراطور اليونان بالأيمان المغلظة والتوكيد القوى الذى ختم به التصديق على المعاهدة بينهما . وخصصت منطقة غنية على شواطىء نهر ستريمون نظير ثلثمائة ألف أسبر ، وهذا المبلغ هو النفقة السنوية التى كانت تدفع لأحد أمراء آل عثمان الذى احتجز فى البلاط البيزنطى بناء على طلب السلطان . ومع ذلك ، فربما جاز لجيرانه أن يرتعدوا فرقا للشدة التى استخدمها هذا الملك الشاب فى اصلاح الحال فى قصر أبيه . فالنفقات التى كانت تصرف على اللهو وجهت ناحية الطموح ، وطردت حاشية لا فائدة منها ، تتألف من سبعة آلاف ممن يصطادون بالصقور ، من خدمته أو جندت فى جيوشه . وفى أول صيف من حكمه زار ومعه جيشه ولايات آسيا . وبعد أن أذل من كبرياء القاراميين تقبل خضوعهم ، حتى لا تحوله أصغر العقبات عن مشروعه العظيم .

شيد محمد قلعة فى أسوماتون على البسفور ، وأعد العدة لحصار القسطنطينية ، وصنع مدفعا ذا قوة هائلة • وفى أثناء ذلك حاول الامبراطور قسطنطين بالايولوجوس دون جدوى أن يحصل على العون من الغرب •

حصار القسطنطينية

القسطنطينية على شكل مثلث ، وقد حصن الضلعان المتدان على ساحل البحر فامتنعا على أى عدو ، وبحر مرمره محصن بالطبيعة ، أما الميناء فقد حصنتها يد الانسان . وبين الماءين أقيم سور مزدوج . وحفر خندق عمقه مائة قدم لحماية قاعدة المثلث ، أعنى جانب اليابسة . وقد وجه الأتراك هجومهم الأساسى ضد هذا الخط من التحصينات الذى يقول عنه فرانزا ، وهو شاهد عيان ، انه يمتد الى مسافة ستة أميال . وبعد أن وزع الامبراطور مهام العمل واختار القواد فى اخطر المواقع ، اضطلع هو نفسه بعبء الدفاع عن السور الخارجى . وفى الأيام الأولى من الحصار نزل الجنود اليونانيون الى الخندق أو خرجوا فى هجماتهم الى الميدان ، ولكنهم سرعان ما كشفوا أنه اذا روعيت النسبة بين عدد الجيشين ، فان الجندى المسيحى كان أكبر قيمة من عشرين تركيا . وبعد هذه المقدمات الجريئة ، قنعوا ، فى حزم ، بالمحافظة على الحصن بقذائفهم . وينبغى ألا نرمى هذا الحزم بالجبن وان كانت الأمة اليونانية موصومة حقا بالخور والحطة . ولكن آخر قسطنطين يستحق لقب البطولة . وقد استلهمت عصبته النبيلة من المتطوعين فضائل الرومان . ودافعت القوات المساعدة الأجنبية عن شرف الفروسية الغربية . فكان الرمى المتصل بالحراب والسهام يقترن بدخان مدافعهم وبنادقهم وجلبتها ونيرانها . وأطلقت أسلحتهم الصغيرة فى الوقت نفسه خمس ، بل عشر طلقات من الرصاص فى حجم الجوز ، وتبعا لتقارب الصفوف وقوة البارود ، اخترقت الرصاصة الواحده عددا من الدروع والأجساد .

ولكن سرعان ما تحولت طرق تقدم الأتراك الى حفر أو غطيت بالأنقاض. وكسب المسيحيون كل يوم علما أو خبرة جديدة . غير أن كمية البارود القليلة التى كانت لديهم ضاعت فى العمليات يوما بعد يوم . ولم يكن عتادهم قويا من حيث الحجم أو العدد . واذا كان لديهم بعض المدافع الثقيلة ، فانهم خشوا أن ينصبوها على الأسوار لئلا تخلخل الانفجارات تلك المنشئات العتيقة وتهدمها . وقد عرف المسلمون عين السر المدمر ، فاستغلوه بأكبر طاقة من الحماس والمال والاستبداد . ولقد أشرنا فى موضع منفصل الى المدفع الضخم الذى أطلق عليه مدفع محمد ، وهو حدث هام بارز فى تاريخ تلك الأزمنة . وقد أحاط بتلك الآلة الهائلة مدفعان آخران يكادان يساويانها فى الضخامة ، وقد سددت فوهات مدافع الأتراك فى صف طويل نحو الأسوار . وصبت أربع عشرة فرقة من المدفعية التركية نيرانها فى وقت واحد ضد أقل المواقع مناعة . وكانت احدى هذه الفرق مجهزة — كما ذكر فى عبارة مبهمة — بمائة وثلاثين بندقية ، أو أنها أطلقت مائة وثلاثين رصاصة . مع ذلك يمكن أن ندرك طفولة العلم الجديد من قوة السلطان ونشاطه . وفى عهد مليك كان يعد اللحظات ، لم يكن من المستطاع حشو المدفع الكبير واطلاقه أكثر من سبع مرات فى اليوم . ولكن لسوء الحظ اشتدت حرارة المعدن وانفجر ، وقتل عدد من العمال . وقد أعجب الناس بمهارة صانع فنان فكر فى درء الخطر والحوادث ، بصب زيت فى فوهة المدفع بعد اطلاقه فى كل مرة .

أنتجت الطلقات الأولى التى أرسلت اعتباطا دويا أكبر وأثرا أقل . وكانت نصيحة أحد المسيحيين هى التى هدت المهندسين الى أن يصوبوا

مدافعهم نحو الجانبين المتقابلين من الزوايا الناتئة للبرج البارز . ومهما كانت عيوبها فان قوة النيران وتكرارها تركت بعض الأثر فى الأسوار . وتقدم الأتراك حتى حافة الخندق وحاولوا ردم هذه الفجوة الهائلة وتشييد طريق لزحفهم . فألقيت فيها حزم من العيدان الطويلة لا حصر لها وبراميل وجذوع أشجار بعضها فوق بعض . وقد بلغ من تهور الحشود أن من وقف فى الصفوف الأولى أو كان ضعيفا دفع به الى أسفل الهاوية فاختفى لتوه تحت الأكوام المتكدسة . وكان هم المحاصرين أن يملأوا الحفرة ، على حين كانت سلامة المحصورين تتطلب ازالة هذه النفايات . وبعد صدام دموى طويل ، بات النسيج الذى أحكم حبكه أثناء النهار ، سليما لم تمسسه يد بالليل . وكانت الحيلة الثانية التى لجأ اليها محمد هى حفر الأنفاق . ولكن التربة كانت صخرية . وفى كل محاولة ، اضطره المهندسون المسيحيون الى التوقف وهدموا أنفاقه . ولم يكن معروفا بعد فن ملء الممرات المحفورة تحت الثرى بالبارود ونسف قلاع ومدن كاملة . وانه لمما يميز حصار القسطنطينية الجمع بين المدفعية القديمة والمدفعية الجديدة . فقد اختلطت المدافع بالآلات الميكانيكية التى تقذف بالحجارة والسهام . وقد وجه الرصاص و الكبش [1] ضد الأسوار نفسها . ولم يحل اكتشاف البارود دون استخدام النار السائلة التى لا تنطفىء . وتقدمت قلعة من أضخم القلاع حجما على أسطوانات . وكان يحمى هذا المخزن المتنقل الملىء بالذخيرة وحزم العيدان الطويلة ، غطاء مكون من

---

(١) آلة حربية كان القدماء يستخدمونها فى دك أسوار المدن المحاصرة .

ثلاث طبقات من جلود الثيران . واستمر القاء القذائف بدقة من الفتحات . ومن الأمام تحايلوا على فتح ثلاثة أبواب لهجوم الجنود والعمال أو تقهقرهم . لقد صعدوا بسلالم الى الطابق الأعلى ، ورفعوا بالبكر سلالم الصعود الى ارتفاع مساو لذلك الطابق ، لتكوين قنطرة تمسك بالحصن المقابل . وبأفانين المضايقات العديدة هذه ، وبعضها كان جديدا كما كان مؤذيا لليونانيين ، هدمت فى النهاية قلعة القديس رومانوس . وبعد نضال شديد ارتد الأتراك عن الجزء الذى هدم وعوق الظلام استمرارهم فى الهجوم . ولكنهم كانوا على ثقة من استئناف الهجوم عند بزوغ النهار ، بقوة جديدة ونجاح حاسم . وفى فتره التوقف ، أو فترة الأمل هذه ، زاد فى قيمة كل لحظة منها ، نشاط الامبراطور وجستنيانى اللذين قضيا الليل فى الميدان ، يستنهضان الهمم لعمل كل ما تقتضيه سلامة المدينة والكنيسة . وفى فجر ذلك اليوم لاحظا السلطان الذى عيل صبره ، فى دهش وحزن ، أن قلعته الخشبية قد تحولت الى رماد ، وأن الحفرة قد أزيل منها كل النفايات وعادت كما كانت ، وأن قلعة القديس رومانوس عادت مرة أخرى متينة كاملة البنيان ، فرثى لفشل خطته . وتفوه بألفاظ بذيئة صائحا بأن كلمة سبعة وثلاثين ألف نبى لم تكن لتجبره على الاعتقاد بأن الكفار يستطيعون تنفيذ مثل هذا العمل فى مثل هذا الوقت القصير .

وكان سخاء الأمراء المسيحيين فاترا وبطيئا . وكان قسطنطين حالماتوجس خيفة من الحصار ، قد اتصل بجزر الأرخبيل والمورة وصقلية للحصول على أهم المعدات التى لا غنى له عنها . وفى وقت مبكر ، فى أوائل أبريل ، كان على خمس سفن كبيرة مجهزة لحمل

البضائع وللقتال ، أن تبحر من ميناء خيوس ، لولا أن الريح هبت باستمرار من الشمال . وكانت احدى هذه السفن ترفع العلم الامبراطورى . أما السفن الأربع الأخرى فكانت ملكا لجنوه ، وكانت محملة بالقمح والشعير والنبيذ والزيت والخضروات ، وخاصة بالجنود والبحارة للدفاع عن القسطنطينية . وبعد تأخير ممل حملهم نسيم رخاء. وفى اليوم التالى هبت ريح عاصفة قوية من الجنوب حملتهم عبر الدردنيل وبحر مرمرة . ولكن المدينة كانت محاصرة بحرا وبرا . وكان الأسطول التركى يمتد على مدخل البسفور من الشاطىء على شكل هلال ليعترض ، أو الاقل ليصد هذه القوات المساعدة الجريئة . وسيتخيل القارىء الذى يستحضر فى ذهنه الصورة الجغرافية للقسطنطينية ، عظمة هذا المنظر وسيعجب به . واستمرت السفن المسيحية الخمس فى التقدم مع صيحات بهيجة ودفع من الريح والمجاديف ضد أسطول الاعداء المؤلف من ثلثمائة سفينة . واصطف نظارة لا حصر لهم على الحصن وفى المعسكر على شواطىء أوربا وآسيا ينتظرون فى قلق نتيجة النجدة الخطيرة . ولأول وهلة لم يكن من الممكن أن يتطرق أى شك فى النتيجة . وكان تفوق المسلمين فوق كل تقدير وكل بيان . وفى جو ساكن ، كان من المحتوم أن تتغلب أعدادهم وشجاعتهم . ولكن أسطولهم الذى جمع بسرعة وبطريقة مرتجلة ، لم يكن نتيجة لعبقرية الشعب ، ولكن اطاعة لارادة السلطان . ولقد اعترف الأتراك ، وهم فى ذروة ازدهارهم ، أنه اذا كان الله قد أعطاهم الأرض ، فقد ترك البحر للكفار . وقد أثبت العديد من الهزائم والسير السريع نحو الانحلال صدق اعترافهم المتواضع . واذا استثنينا ثمان عشرة بارجة لها بعض

القوة ، فان باقى الأسطول كان يتألف من قوارب مفتوحة ، شيدت على نهج سيىء وأبحرت بطريقة خاطئة . وازدحمت بالجنود ، وخلت من المدافع . ولما كانت الشجاعة الى حد كبير وليدة الشعور بالقوة ، فقد يرتعد أشجع الانكشارية فرقا أمام عنصر جديد . وكان لدى المسيحيين خمس سفن ضخمة عالية يقودها ملاحون مهرة ، وعليها قدماء المحاربين فى ايطاليا وبلاد اليونان ممن توفرت لهم الخبرة بفنون البحر وأخطاره. وقد وجه ثقلها لاغراق العقبات الهزيلة التى اعترضت سيرها وتشتيتها . واكتسحت مدافعهم المياه . وصبت النار السائلة على رءوس الأعداء الذين تجرأوا على الاقتراب من سفنهم ، وكان هدفهم الصعود على ظهور السفن اليونانية .. وتقف الريح والأمواج دائما الى جانب أمهر البحارة. وفى هذا النزاع أنقذ بحارة جنوه السفينة الامبراطورية التى كادت تنهزم. ولكن الأتراك فى هجوم بعيد وهجوم أقرب ردوا على أعقابهم مرتين بخسارة جسيمة . ووقف محمد نفسه على ظهر جواده على الشاطىء ليستحث الهمم بصوته ووجوده . واعدا بالثواب ، متوعدا بعقاب دونه الخوف من العدو . وكانت خلجات نفسه ، بل وحركات جسمه تحاكى على ما يظهر أعمال المقاتلين . وهمز ، وكأنه سيد الطبيعة ، فى جهد جرىء ولكنه عظيم ، جواده ليقتحم البحر . وحفز سبابه المدوى وصيحات المعسكر العثمانيين على القيام بهجوم ثالث أكثر تدميرا ودموية من سابقيه . ويجدر بى أن أكرر شهادة فرانزا ، ولو أنى لا أثق فيها . فهو يجزم بأنهم فقدوا ، كما ذكروا هم أنفسهم ، أكثر من اثنى عشر ألف رجل فى مذبحة فى ذلك اليوم ، وهربوا دون نظام الى شواطىء أوربا وآسيا ، بينما سارت الفرقة المسيحية منتصرة دون أن يمسها أذى

بجوار ساحل البسفور ورست فى طمأنينة داخل سلسلة الميناء . وفخروا فى ثقة المنتصر بأن قوة الأتراك كلها لابد أنها تراجعت أمام أسلحتهم . ولكن الأميرال التركى أو الباشا القبطان وجد بعض العزاء عن جرح أليم أصابه فى عينه ، زاعما أن ذاك الحادث كان السبب فى هزيمته . كان « بالتاأوغلى » مارقا من أمراء البلغار . وكان الجشع ، وهو رذيلة مذمومة يدنس صفاته الحربية ، وفى ظل استبداد السلطان أو الشعب يعتبر سوء الحظ دليلا كافيا على الذنب . فجرد من منصبه واستغنى عن خدماته لعدم رضاء محمد عنه . وفى الحضرة الملكية طرح أربعة من العبيد الباشا القبطان على الأرض ، وضرب مائة جلدة بعصا من ذهب. وكان قد حكم عليه بالاعدام . ولكنه يشيد برفق السلطان الذى قنع بعقوبة أخف ألا وهى مصادرة أمواله ونفيه . وقد أحيا دخول هـذه المؤونة الى مدينة القسطنطينية آمال الاغريق ، كما كان سبة فى جبين حلفائهم الغربيين ، واتهاما لهم بالتقاعس .ففى وسط صحارى الأناضول وصخور فلسطين وجد ملايين الصليبين لأنفسهم بارادتهم قبورا لا مفر منها . ولكن مركز المدينة الامبراطورية كان منيعا ضد أعدائها ، ولكنه فى متناول أصدقائها . وكان من الممكن أن قوة معقولة ومتواضعة من الدول البحرية تنقذ بقايا الاسم الرومانى ، وتحتفظ بقلعة مسيحية فى قلب الامبراطورية العثمانية . ومع ذلك فقد كانت هـذه هى المحاولة الضعيفة الوحيدة لانقاذ القسطنطينية . ولم تشعر الدول النائية بخطرها، وأقام سفير المجر ، أو على الأقل سفير هونياد ، فى المعسكر التركى ليزيل مخاوف السلطان ويوجه عملياته العسكرية .

وكان من الصعب على اليونانيين أن يصلوا الى أسرار الديوان .

ولكن اليونانيين اعتقـدوا أن مقاومة عنيدة ومذهلة كهذه قد أرهقت جلد السلطان ، فبدأ يفكر فى التقهقر . وكان من الممكن أن يرفع الحصار بسرعة ، لولا أن طموح الوزير الثانى أو حقـده عارض النصيحة الخائنة التى قدمها خليل باشا ، وكان هذا لا يزال يراسل البـلاط البيزنطى سرا . وبدا أنه لا أمل فى اخضاع المدينة ، الا اذا حدث هجوم مزدوج من الميناء ومن اليابسة فى الوقت عينه ولكن الميناء كان منيعا ، وكانت هناك ثمان سفن كبيرة وأكثر من عشرين سفينة أصغر حجما ، مع بوارج عديدة وسفن ذوات سارية واحدة . وكلهـا تحرس الآن سلسلة لا يمكن اختراقها . وبدلا من اقتحام هذا الحاجز ، ربما كان الأتراك يخشون هجوما بحريا وصداما آخر فى عرض البحر . وفى غمرة هذه الحيرة نفذ محمد خطـة جريئة عجيبة ، كانت عبقريته قد تفتقت عنها ، ذلك أنه نقل سفنه الخفيفة ومخازنه العسكرية من البسفور الى الجزء الأعلى من الميناء . وتبلغ المساحة عشرة أميال تقريبا . وكانت الأرض غير مستوية ومغطاه بالأحراش . ولما كان الطريق يجب أن يبقى مفتوحا وراء ضاحية غلطه ، فان حرية مرورهم ، أو تدميرهم تدميرا تاما كانت تعتمد على ارادة بحارة جنوه . غير أن هؤلاء التجار الأنانيين كانوا يطمعون فى أن يكونوا آخر من يفترسهم الأتراك ، على أن قوة الألوف المطيعة عوضت عن النقص فى الفن والمعـرفة . فتمت تغطية طريق مستو بسطح عريض من قطع الخشب القوية الصلبة ، ودهنت بشحم الغنم والثيران لجعلها ملساء صالحة للانزلاق . وأنزلت الى البر على شاطىء البسفور ثمانون بارجة خفيفة وسفينة مزدوجة الصوارى، لكل منها خمسون أو ثلاثون مجدافا ، ووضعت تباعا على بكر وجرت الى

الأمام بقوة الرجال والبكرات . ووضع دليلان أو مرشدان أحدهما عنـد الدفة والآخر فى مقدمة السـفينة ، ونشرت الأشرعة أمام الريح وانشرحت صدور المشتركين فى هذا العمل بالأغانى والهتافات . وفى ليلة واحدة صعد هذا الأسطول التركى التل بصعوبة . وشق طريقه على السهل ، ونزلت السفن من المنحدر الى مياه الميناء الضحلة فى موضع تكون فيه بمنأى عن تحرش سفن اليونانيين التى كانت تقف فى مكان أكثر انخفاضا . وقد زاد من الأهمية الحقيقية لهذه العملية الحربيـة ما أحدثته من ذعر ، وما بعثته من ثقة . ولكن هذه الحقيقة المشهورة التى لا نزاع فيها ، حدثت أمام أعين الأمتين ووصفتها أقلام كل من الجانبين . ولكم استخدم القدماء خدعة مشابهة مرارا وتكرارا . ويجب القول بأن بوارج الأتراك قوارب كبيرة (ويجـدر أن أكرر كذلك) ، واذا قارنا الضخامة والمسافة ، والعوائق والوسائل . فمن المحتمل أن الجد والمثابرة فى زماننا هذا قد خلقا ما يساوى هذه المعجزة التى كانوا يفاخرون بها . وسرعان ما احتل محمد الجزء الأعلى من الميناء بأسطول وجيش ، حتى أنشأ فى أضيق مكان قنطرة ، أو بالأحرى حاجزا عرضـه خمسون ذراعا وطوله مائة ذراع يتكون من براميل صغيرة وكبيرة ربط بعضها الى بعض بعارضات من الخشب مثبتة بالحديد ومغطاة بأرضية متينة . وعلى هذا الرمث العائم وضع محمد أحد مدافعه الضخمة ، بينما اقتربت البوارج الثمانون مع الجنود وسلالم الصعود الى الجانب الأقل منعة ، وهو الجزء الذى كان قد استولى عليه الغزاة من اللاتين عنوة . وقد اتهم المسيحيون بالخمول لعدم تدميرهم هذه الأعمال قبل أن تتم . ولكن نيرانهم تحكمت فيها وأسكتتها نيران أكثر تفوقا ، ولم تنقصهم

الهمة ليقوموا بهجوم ليلى محاولين احراق سفن السلطان ، وقنطـرة السلطان سواء بسواء . ولكن يقظته حالت دون اقترابهم . وأغرقت قواربهم الأمامية أو أسرت ، وقتل أربعون شابا ، هم أشجع شبـان ايطاليا وبلاد اليونان ، بطريقة وحشية بأمر منه . ولم يكن من الممكن أن يخفف من لوعة الامبراطور ذاك الانتقام العادل ، ولو أنه قاس ، بعرض رءوس مائتين وستين مسلما فوق الأسوار . وبعد حصار استمر أربعين يوما ، لم يعـد من الممكن تجنب مصير القسطنطينية . لقـد أنهك الهجوم المزدوج الحامية الصغـيرة . وهشمت المدفعية العثمانية من كل جانب التحصينات التى وقفت عصورا ضد عنف الاعداء . وقد فتحت فرج كثيرة فى الأسوار . وسـويت بالأرض بالقرب من باب القديس رومانوس أربع قلاع . واضطر قسطنطين لكى يدفع أجور جنوده الضعفاء المشاغبين ، الى أن يسلب الكنائس تحت وعد برد أربعة أمثال القيمة . وعطلت روح الشقاق البقية الباقية من القـوة المسيحية . فاتهم جستينيانى والدوق العظيم كل منهما الآخر بالخيانة والجبن ، ولم يكن الخطر العام قد أخمد طموحهما . وراحت القوات المساعدة من البندقية وجنوه تؤكد تفوق الخدمات الخاصة التى قام بها كل فريق منهما .

وفى أثناء حصار القسطنطينية كانت كلمات السلم والتسليم تردد على الألسنة فى بعض الأحيان ، وترددت سفارات عديدة بين المعسكر والمدينة . لقد أذلت الكارثة امبراطور اليونان ، فكان على استعداد أن يقبل أى شروط تتفق مع الدين والملك . وكان سلطان تركيا يرغب فى تفادى سفك دم جنوده . كما كان أشد رغبة فى الاسـتيلاء على

كنوز بيزنطه لاستعماله الخاص . وكان ينفذ أوامر الشرع عندما عرض على الكفار اختيار الختان أو الجزية أو الموت . وربما أرضى جشع محمد مبلغ سنوى مقداره مائة ألف دوكات . ولكن طموحه تعلق بعاصمة الشرق . فعرض على الأمير مبلغا مماثلا وعلى الأهالى تسامحا حرا أو خروجا آمنا . ولكن بعد بعض المفاوضات العقيمة ، أعلن عزمه على أن يبنى له تحت أسوار القسطنطينية عرشا أو يحفر قبرا . ثم ان باليولوغوس أبى عليه احساسه بشرفه وخوفه من لوم الناس له ، أن يسلم المدينة الى أيدى العثمانيين . وقرر أن يخوض غمار الحرب الى أقصى نهايتها . وقضى السلطان عدة أيام فى اعداد هجومه . وقد أمده التنجيم ، وهو العلم الأثير لديه ، بمهلة أو فترة هدوء وراحة ، حيث حددت له النجوم اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو على أنه الساعة السعيدة الفاصلة . وفى مساء اليوم السابع والعشرين أصدر أوامره النهائية ، وجمع فى حضرته رؤساء الجيش ، وبعث رسله فى أرجاء المعسكر معلنين وجوب القيام بهذا المشروع المحفوف بالمخاطر وحوافزه . ان الخوف هو أول مبادىء حكومات الطغيان . وقد ساق تهديداته فى أسلوب الشرق فقال بأن الهاربين والفارين ، ولو كانت لهم أجنحة الطير ، لن ينجوا من عدله الذى لا يعرف الصفح . وكان الجزء الأكبر من باشواته وانكشاريته ينحدرون من والدين مسيحيين. ولكن مواصلة التبنى خلد اسم الأتراك ومجدهم . وفى التغيير التدريجى للأفراد حفظت روح الكتيبة أو الفرقه أو الغرفة ، حية بفضل المحاكاة والنظام . وفى هذه الحرب المقدسة أمر المسلمون بتطهير أنفسهم بالصلاة ، وأجسامهم بالوضوء سبع مرات وبالامساك

عن الطعام حتى نهاية اليوم التالى . وزار عدد كبـير من الدراويش الخيام لغرس الرغبة فى الاستشهاد والتوكيد بحياة شباب دائم بين أنهار الجنة وحدائقها فى أحضان العذارى ذوات العيون السـود . ولكن محمدا اعتمد أساسا على فاعلية الجوائز الدنيوية المرئية . فوعد بدفع الأجر مضاعفا للجنود المنتصرين : فقال محمد : « المدينة والمبانى لى ، ولكنى متنازل لشجاعتكم عن الأسرى والأسـلاب ، وكنـوز الذهب ، والجمال ، فانعموا بالثراء والسـعادة . ان الولايات التى تتألف منها امبراطوريتى كثيرة : وسيكافأ أول جندى جرىء يتسلق أسوار القسطنطينية بحكم أغناها وأجملها ، وسيزيد اعترافى بجميله من أمجـاده وثروته أكثر بكثير ممـا يؤمـل » . ونشرت أمثـال هذه الحوافز القوية المختلفة بين الأتراك حمـاسا عارما ، غير عابئين بالحياة ، متعجلين ساعة العمل . وردد المعسكر هتـافات المسلمين : « الله أحد . لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . وسطعت نيرانهم الليلية فأضاءت البحر والبر من غلطه الى الأبراج السبعة .

وكانت حال المسيحيين تختلف اختلافا كبيرا . فقد علت شكواهم دون جدوى ، وهم يندبون خطاياهم أو العقـاب الذى نزل بهم من أجلها . لقد عرضت صورة العذراء السماوية فى موكب جليل . ولكن حاميتهم المقدسة أصمت آذانها دون توسلاتهم . وعابوا على الامبراطور عناده ، اذ رفض التسليم فى الوقت المناسب ، وتراءى لهم أمام أعينهم مصيرهم البشع . وتنهدوا فى لهفهم على الهدوء والطمأنينة فى ظـل العبودية التركية . ودعى أنبل اليونانيين وأشجع الحلفاء الى القصر فى مساء الثامن والعشرين لاعدادهم لواجبات الهجوم العام وأخطاره .

وكانت آخر خطبة ألقاها بالايولوغوس ، هى رثاء الامبـــراطورية الرومانية . وبذل الوعود واسترجع الماضى ، وحاول عبثا أن يحيى أملا خمد فى فؤاده . فكان كل شىء فى هذا العالم مضنيا كئيبا . ولم يقدم الانجيل أو الكنيسة جزاء وفاقا للأبطـال الذين يسقطون فى ميدان الدفاع عن أوطانهم . غير أن المثال الذى ضربه مليكهم وتضييق الحصار سلحا هؤلاء المحاربين بشجاعة اليأس . وقد وصف هـذا المنظر المؤلم المؤرخ فرانزا وأودع فى وصفه جميع أحاسيسه ، وكان هو نفسه أحد من حضروا هذا الاجتماع الحـــزين : « انهم بكوا وتعانقـوا دون نظر الى نسب أو حسب أو ثروة ، ونذروا حياتهم . وعاد كل قائد الى مركز قيادته وأقام حراسة قلقة يقظة طوال الليل على الحصن . ودخل الامبراطور وبعض رفقائه الأوفياء الى قبة أياصوفيا التى قدر لها أن تتحول الى مسجد بعد ساعات قلائل ، وتسلم القربان المقدس فى خشوع ، بين البكاء والدعاء . ثم آوى بعض الوقت الى القصر الذى ضج بالصياح والعويل ، وطلب الامبراطور الصفح عمن يكون قد ألحق به أى أذى وامتطى جواده ليزور الحرس ، وليستطلع حركات العدو . ان كارثة آخر قسطنطين وسقوطه لأكثر مجـدا من الرخاء الطويل الذى استمتع به قياصرة بيزنطه .

الاستيلاء على القسطنطينية

قد يحالف التوفيق أحيانا محاربا يشن الهجوم تحت جنح الظلام. ولكن أملت على محمد فى هجمته العارمة العظيمة ، حكمته الحربية وعلمه بأسرار النجوم ، أن ينتظر فلق الصباح فى اليوم التاسع والعشرين

من شهر مايو سنة ١٤٥٣ م . وانقضت الليلة السابقة فى عمل دائب وجهد متواصل . وتحركت الجنود والمدافع وحزم الأعواد الى الأمام حتى بلغت حافة الحفرة التى هيأت فى بعض أجزائها ممرا مستويا أملس الى الفجوات . وكادت بوارجه الثمانون أن تمس بمقدماتها وسلالم التسلق أقل اسوار الميناء مناعة . وفرض الصمت التام وجعل الاعدام عقوبة المخالفة . ولكن قوانين الحركة والصوت لا تخضع للنظام أو الخوف . وقد يخفض كل شخص من صوته ويحد من خطواته ، ولكن سير ألوف من الناس وأعمالهم لابد أن تحدث ضوضاء مضطربة غير ناطقة تصل الى آذان المراقبين فى الأبراج . وعند بزوغ النهار ، ودون اطلاق مدفع الصباح ، وهى العلامة المعتادة ، هاجم الأتراك المدينة برا وبحرا . وقد شبهت صفوف هجومهم فى تراصها وامتدادها المتصل بخيط مفتول مجدول . وكانت نفاية الجيش تؤلف مقدمته الأولى ، وتتكون من عديد من المتطوعين حاربوا دون نظام ودون قيادة . وكانت تضم الضعاف فى سن الكهولة أو الطفولة ، والفلاحين والمشردين ، وكل من لحقوا بالمعسكر يحدوهم أمل أعمى فى السلب والاستشهاد . وقد دفعهم الحافز العام نحو الأسوار . وقذف فى التو بأشد المتسلقين جرأة وصلابة . ولم يضع سدى أى سهم أو قذيفة أطلقها المسيحيون على هذه الكتل البشرية . ولكن قوتهم وذخيرتهم نفذت فى هذا الدفاع الشاق . وسرعان ما ملئت الحفرة بجثث القتلى ، فسار عليها رفقاؤهم . فكان موت هذه الطلائع المتفانية أجدى من حياتها . وسيق جنود الاناضول ورومانيا بعضهم وراء بعض الى الهجوم يقود كل فريق باشواته وسناجقه . وكان نجاحهم متفاوتا

ومشكوكا فيه . وبعد صدام دام ساعتين كان اليـونانيون لا يزالون يحتفظون بامتيازهم ، بل لقد حاولوا تحسين موقفهم . وسمع صوت الامبراطور وهو يشجع جنوده على بذل آخر جهد لانقاذ وطنهم . وفى تلك اللحظة الحاسمة ظهر الانكشارية الذين لم يشتركوا بعد ، أقوياء لا يقهرون . وكان السلطان نفسـه على ظهر جواده وبيـده صولجان من الحديد يرقب شجاعتهم ويقدر بسالتهم وكان يحيط به عشرة آلاف من جنوده الأتراك الذين احتفظ بهم للحظة الفاصلة . وكان صوته وعينه توجهان سير الحرب وتدفعانهـا . وكان وزراؤه العديدون ، وكأنهم قضاة ، قد اتخذوا أماكنهم فى مؤخرة الصفوف ليحثوا الجنود وليمنعوا هروبهم ويعاقبوا الفارين . واذا كان الخطر يواجه الفارين فى المقدمة ، فان الخزى والمـوت المحتوم ينتظرهم فى المؤخرة . وقد غطت الموسيقا الحربية من الطبول والأبواق على صيحات الخوف والألم . وقد دلت التجربة على أن الأصـوات الميكانيكية ، بتنشيطها الدورة الدموية وتقويتها الروح المعنوية ، تؤثر فى الآلة البشرية أكثر مما تؤثر فصـاحة الشرف والعقـل . وقصفت المدفعية العثمانية فى جميع الجهات من الخطوط والبوارج والقنطرة . ولفت سحب الدخان المعسكر والمدينة ، واليونانين والأتراك . ولم يكن فى الامكان أن ينقشع هذا الدخان الا بانقـاذ الامبرطورية الرومانية أو تدميرها نهائيا . ان المبارزات الفردية بين أبطال التاريخ أو الأساطير يطرب لها خيالنا ، وتستهوى أفئدتنا ، أما التطوير البارع لفنون الحرب فانه يغذى عقولنا ، ويرتفع بمستوى علم ضرورى وان يكن قتالا . ولكن فى الهجوم العام ، وهو يتخذ صورا متكررة كريهة ، ليس

ثمة شيء غير الدم والفزع والاضطراب . ولن أحاول بعد ثلاثة قرون على بعد ألف ميل ، أن أرسم صورة لمنظر من المحال أن يوجد فيه نظارة أو متفرجون ، وممثلوه أو المشتركون فيه أنفسهم لا يستطيعون أن يكونوا عنه فكرة عادلة كافية .

ومن الجائز أن ينسب ضياع القسطنطينية المباشر الى الرصاصة أو السهم الذى اخترق قفاز جون جستنيانى . لقد أرهق منظر الدم والألم الشديد شجاعة هذا الزعيم الذى كان سلاحه كما كانت نصائحه أقوى وأثبت حصن للمدينة . وعند تركه موقعه للبحث عن جراح ، لاحظ الامبراطور الذى لا يعرف الكلل هربه واستوقفه ، وصاح بالايولوغوس : « جرحك بسيط ، ولكن الخطر يدهمنا ووجودك ضرورى . ثم الى أين أنت ذاهب » ؟ وأجاب ابن جنوة وهو يرتعد : « سأذهب فى الطريق نفسه الذى فتحه الله للأتراك » . وبعد أن فاه بهذه الكلمات سارع باختراق احدى الفجوات فى السور الداخلى . وقد دنس حياته الحربية بهذا العمل الجبان ، وقد امتلأت الأيام القليلة التى عاشها بعد ذلك فى غلطة أو جزيرة خيوس بالمرارة : مرارة تأنيب الضمير ، ومرارة لوم الناس . واقتفى أثره الجزء الأكبر من القوات المساعدة من اللاتين ، وبدأ الدفاع فى التراخى ، عندما ضغط الهجوم بقوة أكبر . وكان عدد العثمانيين خمسين وربما مائة مرة قدر عدد المسيحيين . وقد حولت المدفعية السور المزدوج الى أنقاض . وفى محيط عدة أميال لابد أنه كان ثمة مواقع أقرب منالا ، أو كان الدفاع عنها أضعف . واذا استطاع المحاربون أن ينفذوا من نقطة واحدة ، فقد ضاعت حتما المدينة كلها دون أمل فى استعادتها . وكان أول من استحق جائزة

السلطان جندى من الانكشارية اسمه حسن ، وكان ذا قامة فارعة وبأس شديد . فتسلق التحصينات الخارجية ممسكا باحـدى يديه سيفه وبالأخرى ترسه . ومن بين الثلاثين انكشاريا الذين كانوا ينازعونه البطولة هلك ثمانية عشر فى المغامرة الجريئة . ولكن حسن ورفاقه الاثنى عشر وصلوا الى الذروة . وقد قذف بهـذا العمـلاق من فوق السـور ، ولكنه نهض على ركبـة واحـدة ليواجـه سـيلا من السـهام والأحجـار . على أن نجـاحه قد برهن على أن انجـاز العمليـة ممكن ، وامتـلأت الأسـوار والقـلاع توا بأفواج من الأتراك ، وتغلبت الجمـوع المتزايدة على اليونانيين الذين طردوا من مواقعهم المرتفعة . ووسـط هـذه الجمـاهير الغفيرة كان الامبراطور [1] الذى أدى جميع واجبات القائد والجندى ، على مرأى من الجميع طول الوقت ، ثم افتقد نهائيا . ودافع النبلاء الذين حاربوا حوله الى آخر لحظة من حيـاتهم عن شرف اسـمى باليولوغوس وكنتاكوزين . ولقد سمعت صيحته الحزينة : « أليس من بين المسيحيين من يقطع رأسى ؟ » اذ كان يخشى آخر ما يخشى ، أن يقع حيا فى أيدى

(١) يقول دوكاس انه خر صريعا بضربتين من جندى تركى . ويقول خلقنديليس أنه جرح فى كتفه ، ثم بعد ذلك وطئته الأقدام . أما فرانزا فيقول بأنه اندس بين الأعداء ، وبهـذا يتخلص المؤرخ الحزين من تبيان الصورة الدقيقة لموته . ولكنا نستطيع أن نستعير دون ملق هذه الأبيات النبيلة لدريدن :

أما عن سباستيان ، فليبحثوا عنه فى الميدان ،
وحيث يجدون جبلا من القتلى ،
فليبعثوا برجل ليصعد هذا الجبل ، ولينظروا الى أسفل ،
فسيجدونه ملقى ممددا بطوله العظيم ،
ووجهه ينظر الى أعلى الى السماء ، فى ذاك الجدث الأحمر ،
الذى حفره له سيفه العظيم .

الكفار . وقد ألقى قسطنطين فى يأسه الحازم بالحلة الأرجوانية ، وفى غمرة هذا المعترك سقط قتيلا بيد مجهولة . وتوارى جثمـانه تحت أكداس الجثث . وبعد موته لم يعد هناك مقاومة ولا نظام . فهرب اليونانيون فى اتجاه المدينة . وسقط الكثيرون فاختنقوا فى الممر الضيق الموصل الى بوابة سانت رومانوس . وسارع الأتراك المنتصرون الى الدخول من الفجوات فى السور الداخلى . وعندما تقدموا فى الطرقات لحق بهم بسرعة اخوانهم الذين حطموا بوابة فينـــــار Phenar على جانب الميناء . وفى حمأة المطاردة الأولى قتـل حوالى ألفين من المسيحيين . ولكن سرعان ما تغلب الجشع على القســوة . واعترف المنتصرون بأنه كان يجب عليهم الامتناع عن التقتيل مباشرة لولا أن مقاومة الامبراطور وفرقه المنتقاة قد حذرتهم من مقاومة مماثلة فى كل جزء من العاصمة . وعلى هذا النهج ، وبعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوما ، سقطت الى الأبد أمام جيوش محمد الثانى ، القسطنطينية التى كانت قد تحدت قوة خسرو وجنكيزخان والخلفاء . ان اللاتين هم الذين قضوا على امبراطوريتها . ولكن المسلمين الفاتحين هم الذين امتهنوا دياناتهـا .

وتطير أخبار الكوارث على جنـاح السرعة . الا أن مسـاحة القسطنطينية كانت من السعة بحيث أمكن للأحياء البعيدة أن تطيل لوقت قصير أمد جهلها بالخراب الذى حل بالمدينة . ولكن فى الفزع العام ، وفى الاحساس بالقلق الذاتى أو الاجتماعى ، وفى صخب الهجوم ورعده ، لابد أن الناس لم يذوقوا طعم النوم فى ليلهم أو نهارهم . ولست أستطيع أن أصـدق أن كثيرات من السيدات اليونانيات قد

أيقظهن الانكشارية من سبات عميق هادىء . وعند التأكد من الكارثة العامة ، هجرت فى التو الدور والأديرة ، وازدحم الأهالى وهم يرتعدون فرقا فى الطرقات ، كأنهم قطيع من الحيوانات المذعورة . وكأن الضعف اذا تراكم ينتج قوة ، أو كأنهم قد راودهم أمل كاذب فى أن الفرد قد يشعر وسط الزحام بالأمن ، وكأنه لا يراه أحد . وتدفق الناس من جميع الجهات فى العاصمة الى كنيسة أياصوفيا . وفى ظرف ساعة امتلأ الحرم المقدس والمكان المخصص للجوقة والصحن والشرفات العليا والسفلى بعديد من الآباء والزوجات ، من النساء والأطفال ، من القساوسة والرهبان ، والعذارى القديسات . وأغلقت الأبواب بالمتاريس من الداخل . وطلبوا الحماية من هذه القبة المقدسة التى كانوا يبغضونها منذ وقت قريب كبناء دنس ملوث . وقد يبنون ثقتهم على نبوءة متحمس أو دجال بأنه فى يوم من الأيام سيدخل الأتراك القسطنطينية وسيطاردون الرومان حتى عمود قسطنطين فى ميدان أياصوفيا ، وأن ملكا سيهبط من السماء وبيده سيف ، وأنه سيسلم الامبراطورية وهذا السلاح السماوى الى رجل فقير جالس فى أسفل العمود قائلا له : « خذ هذا السيف وانتقم لشعب الرب » وعند سماع هذه الكلمات المثيرة ، سيفر الأتراك توا ، وسيطردهم الرومان المظفرون من الغرب ومن الأناضول الى حدود فارس . وينتهز دوكاس تلك الفرصة ليوجه اللوم ، فى شىء من الخيال وفى كثير من الصدق ، الى شقاق اليونانيين وعنادهم : فيصيح هذا المؤرخ : « لو أن هذا الملك قد ظهر فعلا ، ولو أنه عرض عليكم أن يدمر أعداءكم تدميرا تاما ، شريطة أن توافقوا على وحدة الكنيسة ، لرفضتم سلامتكم أو لخدعتم ربكم حتى فى هذه اللحظة المصيرية » .

وبينما كانوا ينتظرون هبوط هذا الملك المتباطىء ، حطمت الأبواب بالفئوس ولم يلق الأتراك أية مقاومة ، فانصرفوا دون حرب أو قتال الى اختيار أسراهم العديدين وربطهم . وقد جذب الشباب والجمال ومظهر الثراء أنظارهم ، وحدد حق التملك فيما بينهم بالسبق فى الاستيلاء أو القوة الشخصية أو سلطان القيادة . وفى ظرف ساعة كان الأسرى من الرجال قد ربطوا بالحبال ، والأسيرات من النساء قد ربطن بالنقب والأحزمة . وربط اعضاء السناتو مع عبيدهم ، ورجال الكنيسة مع بوابيها ، وسيدات الطبقة الدنيا مع عذارى نبيلات لم تر الشمس أو أقرب أقربائهن وجوههن . وفى هذا الأسر العام اختلطت طبقات المجتمع ، ومزقت الروابط الطبيعية ، ولم يلق الجندى العنيد الصلب بالا الى آهات الأب أو دموع الأم أو عويل الأطفال . وكانت الراهبات أكثرهن نحيبا ، فقد انتزعن من المذابح بصدور عارية وأيد ممتدة وشعر أشعث ، ويجدر بنا أن نؤمن فى ورع بأن القليلات منهن أمكن اغراؤهن بايثار السهر فى الحريم على التهجد فى الدير . ومن هؤلاء اليونانيين البائسين ، من هذه الحيوانات الوديعة ، سقطت صفوف ضخمة بطريقة بشعة فى الطرقات . ولما كان المنتصرون يتحرقون شوقا الى الرجوع للاستيلاء على ضحايا أكثر ، فقد أسرع أسراهم بخطى مرتعدة تحت تأثير التهديدات والضربات . وفى الوقت نفسه حدث سلب مماثل فى كل الكنائس والأديرة ، فى كل القصور والدور فى العاصمة . ولم يستطع مكان ما سواء أكان مقدسا أم بعيدا عن الأعين أن يحمى أشخاص اليونانيين أو ممتلكاتهم . فنقل حوالى ستين ألفا من هذا الشعب المتفانى ، من المدينة الى المعسكر والأسطول ،وقد

استبدلوا أو بيعوا وفقا لمشيئة سادتهم أو مصلحتهم ، ووزعوا فى رق سحيق فى جميع أنحـــاء ولايات الامبراطورية العثمـــانية . ومن بين هؤلاء يمكننا أن نميز بعض الشخصيات البارزة . لقد لقى المصير العام نفسه ، المؤرخ فرانزا وأسرته ، وهو الأمين الأول والسكرتير الخاص ، وبعد أن قاسى متاعب الأسر أربعة أشهر ، استعاد حريته . وفى السنة التالية غامر بالذهاب الى أدرنة وافتدى امرأته من أسر « ميرباشى » أو رئيس الخيالة . ولكن طفليه ، وكانا فى ريعان الشباب والجمال ، قد استبقيا لخدمة محمد نفسه . وقد ماتت ابنة فرانزا فى السراى ، ومن المحتمل أنها ماتت عذراء . أما ابنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره فقد فضل الموت على العار ، وقد طعنه العاشق الملكى بيده . وهذا العمل الوحشى لا يمكن أن يكفر عنه بكل تأكيـــد الذوق أو الكرم الذى أطلق سراح سيدة يونانية وابنتيها بعد تسلمه قصيدة غنائية باللغة اللاتينية كتبها فيليلفوس الذى كان قد اختار زوجته من هذه الأسره النبيلة . ولكن كبرياء محمد أو قسوته كان من الممكن أن يشبعها الى درجة محسوسة أسر أحد نواب البابا فى رومه . ولكن مهارة الكاردينال ايزيدور تخلصت من مغبة البحث والتنقيب ، فهرب من غلطة متنكرا فى ثياب العامة . وكانت السفن التجارية والزوارق الحربية الايطالية لا تزال تحتل السلسلة ومدخل الميناء الخـــارجى ، ولقد اشتهرت شجاعتهم فى أثناء الحصار ، فانتهزوا الفرصة للانسحاب بينما كان البحارة الأتراك قد انهمكوا فى أعمال السلب فى المدينة . وعندما بدءوا ينشرون أشرعتهم ، كان الشاطىء مزدحما بجمهور من الضارعين الذين يدعو منظرهم الى الرثاء . ولكن وسائل النقل كانت ضئيلة . فآثر البنادقة وأهل جنوه مواطنيهم . ورغم ما بذل السلطان

من أجمل الوعود ، هجر سـكان غلطة دورهم وأبحروا مع أثمن أمتعتهم .

ليت شعرى ، هل كتب على أى مؤرخ ، عند سرده لقصة سقوط المدن الكبرى أو نهبها ، أن يكرر الكارثة على نهج واحد بعينـه ، فتنتهى الأهواء نفسها ، الى النتائج نفسها فى كل قصة ! وعندما يترك لهذه الأهواء العنان دون قيد أو شرط ، فان الفرق ، واأسفاه يكون ضئيلا بين الانسان المتوحش والانسان المتحضر . وفى وسط الصيحات الغامضة للتعصب والكراهية ، لايتهم الأتراك بالافراط فى سفك الدم المسيحى ارضاء لشهواتهم ، ان دم المقهورين طبقا لقواعدهم (العتيقة) مهدر . وجائزة الفاتح المنتصر الشرعية يتقاضاها عن طريق خدمات الأسرى من كلا الجنسين ، أو بيعهم أو قبول الفدية عنهم ، ولقد وهب السلطان ثروة القسطنطينية لجنوده المظفرين . ونهب ساعة قد يأتى بأكبر مما يأتى به الجد والكد فى سنين . ولما لم تبذل محاولة لتوزيع الأسلاب توزيعا منظما ، فان الأنصبة لم تحدد طبقا لمقاييس الجدارة . فاختطف الأتباع فى المعسكر جوائز الشجاعة ، وهم الذين أبوا مشاق القتال وأخطاره . ولا يبعث وصف سلبهم سرورا ولا نفعـا . وفى ظروف الفقر الأخيرة التى حلت بالامبراطورية قدرت القيمة الكلية للأسلاب بأربعة ملايين دوكات . وكان جزء صغير من هذا المال ملكا للبنادقه وأهل جنوه وفلورنسه وتجار أنكونا . فرأس مال هؤلاء الأجانب كان دائما فى ازدياد ، نتيجة المعاملات السريعة المستمرة . أما ثروات اليونانيين فكان قوامها أدوات التفاخر السخيف العقيم فى القصور وخزائن الثياب ، أو أنها كانت سبائك وعملات قديمة مدفونة

على عمق كبير حتى لا تظهر للعيان فيطالبون بها للدفاع عن وطنهم . وقد أثار الاعتداء على الكنائس والأديرة ونهبها أشد الشكاوى حزنا . وقد سلبت قبة أياصوفيا نفسها ، وهى التى تحكى السماء على الأرض القبة الزرقاء الثانية ، وعربة الملائكه وعرش مجد الله ، وهى هبات قدمت فى قرون عديدة . وحول الأثم فى أقسى صوره الذهب والفضة ، واللؤلؤ والجواهر ، والأوانى والثياب المقدسة ، لاستعمال الجنس البشرى . وبعد أن انتزع من الصور المقدسة كل ما تظنه العين الخبيثة ذا قيمة ، مزق الخيش أو الخشب أو حطم أو أحرق أو طرح تحت الأقدام ، أو ترك لأحقر استعمال فى الأسطبل أو المطبخ . ومهما يكن من أمر فان هذا الأسلوب فى الاعتداء على المقدسات قد استخدمه اللاتين عند استيلائهم على القسطنطينية . وتلك المعاملة التى لقيها المسيح والعذراء والقديسون على أيدى الكاثوليك الأشرار قد يكون من الممكن أن ينزلها المسلمون المتحمسون بآثار الوثنية . وقد يلاحظ الفيلسوف بدلا من أن يشارك فى الصيحات والعويل ، أنه بعد انحطاط الفنون لم تكن الصنعة أكبر قيمة من العمل ، وأن دهاء القساوسة وسذاجة الشعب يمكن أن يبتدعا بسرعة قدرا جديدا من الرؤى والمعجزات . وسيندب هذا الفيلسوف ، وهو أشد حزنا ، ضياع المكتبات البيزنطية التى دمرت أو بعثرت فى أثناء الاضطراب العام . ويقال بأن مائة وعشرين ألفا من المخطوطات قد اختفت ، وبأنه كان من الممكن شراء عشر مخطوطات مقابل دوكات واحد ، كان يدفع فى جميع مؤلفات أرسطو وهوميروس ، أعنى أنبل الانتاج العلمى والأدبى فى العالم الأغريقى القديم . وقد نذكر بسرور أن جزءا لا يقدر بثمن

من كنوزنا الكلاسيكية كان قد أودع فى أمان فى ايطاليا . وأن علم الميكانيكا فى بلدة ألمانية قد أخرج لنا فنا يسخر مما يأتى به الزمان والهمجية من خراب أو دمار .

دخول محمد الثانى

ساد الاضطراب والنهب والسلب فى القسطنطينية منذ الساعة الأولى من ذاك اليوم المشهود ، وهو التاسع والعشرون من شهر مايو ، حتى الساعة الثامنة من اليوم نفسه ، حينما مر السلطان نفسه فى موكب نصر من باب القديس رومانوس ، يحيط به وزراؤه وباشواته وحرسه وكان كل واحد منهم (كما يقول مؤرخ بيزنطى) فى القوة مثل هرقل وفى البراعة مثل أبوللو كما كان يساوى فى ميدان القتال عشرة من الأفراد العاديين . وألقى الفاتح نظرة رضا ودهشة على مظهر القباب والقصور ، وهو مظهر باهر رغم غرابته ، يختلف كثيرا عن الطراز الشرقى فى العمارة . وفى حلبة السباق أو الميدان لفت نظره عمود الثعابين الثلاثة المجدول ، واختبارا لقوته حطم بصولجانه الحديدى أو ببلطته الحربية الفك الأسفل لأحد هذه الوحوش ، التى كانت فى نظر الأتراك أوثانا أو تمائم وطلاسم للمدينة . وأمام الباب الرئيسى لأياصوفيا ترجل عن جواده ودخل القبة . وقد اشتدت يقظته وحرصه على المحافظة على هذا الأثر الخالد لمجده ، الى حد أنه عندما رأى مسلما يحطم ، فى حماسة ، الرصيف الرخامى ، هدده بسيفه قائلا له انه اذا كان الأسرى والأسلاب قد وهبت للجنود ، فقد احتفظ للأمير بالمبانى العامة والخاصة . فحول مركز الكنيسة الشرقية بأمر منه الى

مسجد . وكانت الأدوات الدينية الثمينة الميسور نقلهـا قد حملت بعيدا ، وأنزلت الصلبان ونظفت الحوائط التى كانت مغطاة بالصور والفسيفساء وطهرت وأعيدت الى حالة من البساطة المجـردة . وفى اليوم نفسه أو فى يوم الجمعة التالى صعد المؤذن أعلى برج ، وأعلن الأذان أو الدعوة العامة الى الصلاة باسم الله ورسوله . وخطب الامام وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة والشكر ، على المذبح العظيم الذى شهد منذ وقت قصير الاحتفاء بالأسرار المسيحية أمام آخر القياصرة . وتقدم من أياصوفيا الى القصر العظيم ، ولو أنه المهجور ، الذى عاش فيه مائة من خلفاء قسطنطين ، الذى انتزع منه فى ساعات قلائل رواء الملك وأبهته . فألحت على فؤاد السلطان خطرات حزينة من تقلب العظمة البشرية . فردد مقطوعة جميلة من الشعر الفارسى : « لقد نسج العنكبوت بيته فى قصر الامبراطور ، وترنمت البوم بأنشودة الحراسة على قلاع « أفراسياب » ، (التى ورد ذكرها فى الأساطير الفارسية) .

ولكن السـلطان لم يكن بعد راضى البال ، وقد خيل اليه أن النصر لن يكون كاملا قبل أن يعرف مصير قسـطنطين : هل فر ، أو وقع أسيرا أو سقط فى ميدان القتـال . وقد ادعى اثنان من الانكشارية شرف قتله ، وطالبا بمكافأتهما : على أن جثمانه وجد تحت أكداس من جثث القتلى . وقد كشف عن شخصيته حذاؤه المزركش بالنسـور الذهبية . وتعرف اليونانيون وسط الدموع على رأس مليكهم الراحل . وبعد عرض هـذه التذكار الدامى للنصر ، تفضل محمد على منافسه بشرف الدفن بالمراسم اللائقة بمقامه . وبعد موت الامبراطور كان لوكاس نوتاراس ، الدوق العظيم والوزير الأول فى

الامبراطورية ، أعظم الأسرى شأنا . وعندما قدم نفسه وكنوزه تحت قدمى السلطان ، قال له السلطان غاضبا : « ولماذا لم تستخدم هذه الكنوز فى الدفاع عن أميرك ووطنك » ؟ وأجاب هذا العبد : « انهـا ملك لكم . لقد احتفظ الله بها لشخصكم .. » . وأجاب الطاغية : « واذا كان الله قد احتفظ بها لى ، فلم حبستها عنى هذه المدة الطويلة وأنت تقاوم مقاومة عقيمة قتالة ؟ » . وتعلل الدوق العظيم بعنـاد الأجانب ، وبعض التشجيع السرى من الوزير التركى . وانتهت هذه المقابلة الخطيرة بالانصراف ، مع التوكيد بالعفو عنه والمحافظـة على سلامته . وتنازل محمد فزار زوجته ، وهى أميرة جليلة ، أضـناها المرض والحزن . وكانت مواساته لها فى مصابها ، من أرق مظـاهر الانسانية والاجلال البنوى . وقد امتد عطف مماثل فشمل أهم موظفى الدولة ، وقام بدفع الفدية عن كثـيرين منهم من ماله الخاص . وفى أيام قليلة أعلن أنه صديق الشعب المغلوب على أمره وأبوه . ولكن سرعان ما تغير المشـهد . وقبل مغادرته القسطنطينية ، غرقت حلبة السباق بدم أنبل الأسرى . وقد صب المسيحيون اللعنات على قسوته وخياناته ، وهم يصورون بألوان الاسـتشهاد البطولى اعدام الدوق العظيم وابنيه ، وانهم لينسبون موته الى رفضه الأبى أن يدفع بأطفاله لاشباع شهوة الطاغية . ولكن لفظا أفلت ، عفوا وبلا حذر ، من مؤرخ بيزنطى عن مؤامرة ، وانقاذ ، ونجدة ايطالية . وقد تكون مثل هذه الخيانة عملا مجيدا ، ولكن الثائر الذى يغامر فى شجاعة ، قد يهدر دمه غدرا ، كما يجب ألا نلوم فاتحا على تدمير أعداء لا يستطيع أن يوليهم ثقته بعد ذلك . وفى اليوم الثامن عشر من شهر يونيه عاد

السلطان المظفر الى أدرنه ، وابتسم للوفود الجوفاء الهزيلة التى بعث بها الأمراء المسيحيون ، الذين رأوا فى سقوط الامبراطورية الشرقية ايذانا بدنو ساعة سقوطهم .

لقد تركت القسطنطينية عزلاء مهجورة بلا أمير ولا شعب . ولكن لا يمكن أن تسلب مكانتها التى لا تبارى والتى تميزها لتكون عاصمة لامبراطورية عظيمة . وستتغلب على الدوام عبقرية المكان على تصاريف الزمن والحظ . لقد انحطت أدرنة وبورصة ، وهما العاصمتان القديمتان للعثمانيين الى مصاف البلدان فى الولايات ، وشاد محمد مقره ومقر خلفائه من بعده على الربوة المتحكمة نفسها التى اختارها قسطنطين من قبل . وقد دمرت استحكامات غلطه التى قد يأوى اليها اللاتين . وكان من الحزم تدميرها . وسرعان ما أصلح الضرر الذى ألحقته المدفعية التركية . وقبل شهر أغسطس كانت كمية كبيرة من الجير قد أحرقت لاعادة بناء أسوار العاصمة . ولما كانت ملكية الأرض كلها بما فيها التربة الزراعية وأراضى البناء سواء كانت عامة أو خاصة ، مقدسة أو غير مقدسة ، قد انتقلت الآن بأجمعها الى الفاتح ، فانه أفرد أولا مساحة ثمانية فراسخ من مركز المثلث لبناء قصر ، أو سراى له . ومن هذه النقطة ، وفى أحضان الترف ، يبدو السيد العظيم ، (على حد تعبير الايطاليين) وهو يحكم أوربا وآسيا . غير أن وجوده على شواطىء البسفور قد لا يكون دائما بمنجاة من اساءات الأساطيل المعادية . وفى وضعها الجديد كمسجد ، وقفت على أياصوفيا موارد ضخمة وتوجت بمآذن مرتفعة وأحيطت بآجام ونافورات ، للترويح عن المسلمين ، وهم يؤدون فرائض الصلاة . وقد حوكى النموذج

نفسه فى بناء الجامع أو المسجد الملكى . وأول هذه المساجد بناه محمد لنفسه فى مكان كنيسة الرسل المقدسين ومقابر أباطرة اليونان. وبعد الفتح بثلاثة أيام كشف عن طريق الرؤيا ، قبر أبى أيوب الذى سقط فى أول حصار قام به العرب للقسطنطينية . وأمام قبر هذا الشهيد يتمنطق السلاطين الجدد بسيف الامبراطورية . ولم تعد القسطنطينية تخص المؤرخ الرومانى . وانى لن أعدد المبانى المدنية والدينية التى دنسها أو شيدها سلاطين الأتراك . وسرعان ما عاد السكان الى سابق عهدهم وعددهم . وقبل شهر سبتمبر ، امتثلت خمسة آلاف أسرة من الأناضول ورومانيا لأمر السلطان الذى قضى بأن تحتل كل أسرة مساكنها الجديدة فى العاصمة ، وجعل الاعدام عقوبة المخالفة . وقام على حراسة عرش محمد رعاياه من المسلمين بأعدادهم الوفيرة ووفائهم . ولكن سياسته المتعقلة تطلعت الى ضم البقية الباقية من اليونانيين الذين عادوا زرافات ووحدانا ، حالما تأكدوا من ضمان حياتهم وحريتهم ، وممارسة شعائر دينهم . وأحيوا فى انتخاب البطريق وتنصيبه مراسم البلاط البيزنطى وقلدوها . وتطلع المسيحيون فى مزيج من الرضا والفزع الى السلطان ، وهو جالس على عرشه ، يضع فى يد جناديوس Gennadius صولجان البطريق ، أى عصا الرسل ، وهى رمز المنصب الكنسى ، ويسير بجواره الى باب السراى . ويقدم له جوادا جهز بأبهى زينة وأغلاها ويطلب الى وزرائه وباشواته أن يكونوا فى معيته الى قصره الذى خصص لسكناه . وقد قسمت كنائس القسطنطينية بين الديانتين ، وعينت حدودهما . واستمر اليونانيون يتمتعون أكثر من ستين عاما ، بميزة شطر المدينة الى

نصفين متساويين ، حتى اعتدى على هذا التقسيم السلطان سليم حفيد محمد الثانى . وشجع وزراء الديوان الذين أرادوا تفـادى تعصب السلطان ، أنصار التقسيم من الذين تجرءوا على الزعم بأن قسمة المدينة كان عملا من أعمال العدالة لا الجو والكرم ، وأن ذلك كان عقـدا لا امتيـازا ، وأن نصف المدينة أخذ عنوة ، ولكن النصف الآخر استسلم بناء على شروط مقدسة . وأن الوصية الأصلية حقا أحرقت ، ولكن هذه الخسارة تعوضها شهادة ثلاثة من قدماء الانكشارية الذين لا زالوا يذكرون هذا العمل . وأيمانهم المشتراة أكثر وزنا فى نظـر كانتمير [1] من اتفاق تاريخ تلك الأزمنه الجازم والاجماعى .

سأترك البقية الباقية من المملكة اليونانية فى أوربا وآسيا للجيوش التركية . ولكن القضاء النهائى على آخر أسرتين حكمتا القسطنطينية يجب أن يختم تاريخ اضمحـلال الامبراطورية الرومانية الشرقيـة وسقوطها . لقد أذهل طاغيتى المورة ، ديمتريوس وتوماس ، الأخوين الذين بقيا من أسرة بالايولوغوس موت امبرطورها قسطنطين وخراب مملكته . ولما لم يكن لديهما أمل فى الدفاع عن نفسيهما فقـد أعدا العدة مع نبـلاء اليونان الذين بقوا على ولائهم ،التماسا لملجأ فى ايطاليا ، بمنأى عن خطر الأتراك العثمانيين . وقد أذهب السلطان المنتصر مخاوفهم الأولى ، حيث قنع بجزية قدرها اثنا عشر ألف دوكات ، وبينما

---

(١) Cantemir أسرة شهيرة من التتار ، نزحت من القرم الى ملدافيا فى القرن السابع عشر ، منها ديمتريوس أمير ملدافيا الذى طوح الأتراك بعرشه فى ١٧٠١ . وكتب « تاريخ الامبراطورية العثمانية » وهو من أشهر مؤلفاته الباقية . (الترجمة)

كان طموحه يرتاد القارة والجزر بحثا عن ضحية ، فانه منح المورة راحة امتدت سبع سنين . ولكن هذه الراحة كانت فترة حزن ونزاع وشقاق وبؤس . ولم يكن فى استطاعة ثلثمائة من الرماة الايطاليين الدفاع عن الهيكساميليون Hexamilion ، حصن البرزخ ، الذى كثيرا ما أقيم وكثيرا ما هدم . فاستولى الأتراك على مفاتيح كورنثه ، وعادوا من رحلتهم الصيفية بعديد من الأسرى والأسلاب . وقوبلت شكاوى اليونانيين المنكوبين والازدراء . وأعمل الألبانيون ، وهم قبيلة مشردة من الرعاة واللصوص ، السيف والنهب والسلب فى شبه الجزيرة . وقد طلب الطاغيتان العون من الباشا المجاور ، وهو عون محفوف بالخطر مشوب بالمذلة . وما ان قضى على الثورة ، حتى كانت دروسه قد غرست أو حددت قواعد سلوكهم فى المستقبل . ولم تستطع روابط الدم ولا الأيمان المغلظة عند تناول القربان وأمام المذبح ، ولا ضغط الحاجة وهو أشد وأنكى — أن تصلح بينهما أو توقف نزاعهما الداخلى . فخرب كل منهما أملاك الآخر بالنار والسيف . وضاعت صدقات الغرب ونجداته فى اعتداءات أهلية . وبرزت قوتهما فى التقتيل الوحشى الاستبدادى وحده . وحدا الكرب بأضعف المتنافسين وانتقامه الى الاتجاه نحو سيدهما الأعلى . وأعلن محمد فى الوقت المناسب للانتقام أنه صديق لديمتريوس ، واخترق المورة بقوة لا سبيل الى مقاومتها . وبعد أن استولى على اسبرطه ، قال السلطان لديمتريوس : « انك أضعف من أن تحكم هذه الولاية المشاغبة . سأبنى بابنتك وستمضى بقية حياتك فى أمان وشرف » . وتنهد ديمتريوس وامتثل . وسلم ابنته وقلاعه ، وتبع سلطانه وابنته

الى أدرنه ، وتسلم لقاء نفقاته ونفقات أتباعه مدينة فى تراقيه ، والجزر المجاورة : امبروس وليمنوس وساموتراس . ولحق به فى السنة التالية رفيق له فى نكد الطالع ، هو آخر أسرة كومنينوس الذى كان قد أسس بعد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين امبراطورية على ساحل البحر الأسود . وفى تقدم فتوحاته فى الأناضول ، حاصر محمد بأسطوله وجيشه عاصمة « داود » الذى تجرأ على أن يسمى نفسه امبراطور طرابزون ، واقتصرت المفاوضات على سؤال قصير حاسم : « أتريد أن تطمئن على حياتك وثروتك بالتخلى عن مملكتك ، أم تفضل أن تضيع مملكتك وكنوزك وحياتك » ؟ وفت فى عضد كومنينوس الضعيف مخاوفه ، وما حدث لجار مسلم هو أمير سينوب الذى سلم عند صدور أمر مماثل له ، مدينة حصينة بها أربعة آلاف مدفع وعشرة آلاف أو اثنا عشر ألف جندى . ونفذت بأمانة شروط تسليم طرابزون ، ونقل الامبراطور وأسرته الى قلعة فى رومانيا ، ولكن لشك ضئيل فى أنه يراسل ملك الفرس ، ضحى بداود وجميع أسرة كومنينوس قربانا لحقد الفاتح وجشعه . ولم يستطع لقب « الوالد » أن يحمى ديمتريوس المنكود مدة طويلة من النفى والمصادرة . وقد حرك خضوعه وذلته شفقة السلطان وازدراءه . فخفف من آلام فقره معاش قدره خمسون ألف أسبر ، حتى خلص ثوب الدير والموت بعد طول العناء ، بالايولوغوس من سيده فى هذه الحياة الدنيا . وليس من السهل أن نقول أيهما أعظم مجدا : استسلام ديمتريوس للعبودية أم منفى أخيه توماس ؟ فعند فتح المورة هرب هذا الطاغية الأخير الى كورفو ، ومنها الى ايطاليا ومعه بعض الأتباع العزل . وقد هيأه اسمه

وآلامه ورأس القـــديس أندراوس لترجيب الفاتيـــكان وكرمه . وقد أطال من أمد حياته البائسة معاش من البابا والكرادلة قدره ستة آلاف دوكات . وقد ربى ابناه ، أندرو ومانويل ،فى ايطاليا . وكان أكبرهما موضعا للزراية لدى أعدائه ، وعبئا على أصدقائه . وحط من قدره وضاعة حياته وزواجه . وكان لقبه هو ميراثه الوحيد . وقـــد باع هذا التراث لملكى فرنسا وأرجون على الترتيب . ففى أثناء رخائه العابر طمع شارل الثامن فى أن يضم الامبراطورية الشرقية الى مملكة نابلى : وفى حفل عام اتخذ لقب أوغسطس ، واتشح بحلته الأرجوانية. وابتهج اليونانيون ، وارتعد الأتراك ، فى انتظـــار مجىء الفرسان الفرنسيين . وأغرى باليولوغوس الابن الثانى بأن يزور وطنه الأصلى. وقد ينال رجوعه رضا الباب العالى ، ومع كل فهو لن يضر البـــاب العالى فى شىء . فعاش فى القسطنطينية على نفقة السلطان فى طمأنينة ودعة . وعند موته شيعه الى قبره عدد كبير من المسيحيين والمسلمين. واذا كان هناك نوع من الحيوان ذو طبيعة كريمة ، فيأبى أن ينجب وهو فى الأسر ، فان آخر أسرة بالايولوغوس الامبراطورية يجب أن يكون من نوع أحقر ، فقد تقبل من سخاء السلطان امرأتين جميلتين ، وضاع ابنه الذى عاش من بعده فى رداء عبد تركى ، معتنقا الدين الاسلامى .

حزن أوربا وفزعها

بعد ضياع القسطنطينية أحس الناس بأهميتها وبالغوا فى هـــذه الأهمية : ومهما كان عهد البابا نيقولا الخامس عصر سلام ورخاء ، فقد دنسه سقوط الامبراطورية الشرقية . فأحيا حزن اللاتين وفزعهم ،

أو بدا أنهما أهاجا الحماس القديم للحروب الصليبية . ففى قطـر من أقصى أقطار الغرب ، أستضاف فيليب ، دوق بيرجاندى ، فى ليل Lisle من أعمال فلاندرز ، جماعة من نبلائه . وفى أسلوب بارع ، هيأ لهم من مظاهر الأبهة والكرم ما يرضى خيالهم وأحاسيسهم . وفى وسط الوليمة دخل عربى عملاق ، القاعة وهو يقود فيلا زائفا يحمل فوق ظهره قلعة . ورأى المجتمعون امرأة فى ثياب الحداد ، وهى رمز الديانة ، تخرج من قلعتها وهى تندب ما حاق بها من ظلم وجور ، وتتهم حماتها بالتباطؤ . ويتقدم رئيس فرسان « الجزة الذهبية » (١) وهو يحمل فى يده حجلة حية ، يقدمها ، تبعا لمراسم الفروسـية ، للدوق . واستجابة لهذه الدعوة غير العادية وقف فيليب ، وهو أمير هرم عاقل ، شخصه وقواته للحرب المقدسة ضد الأتراك . وحذا حذوه البارونات والفرسان الحاضرون . وأقسـموا أمام الله والعـذراء والسيدات والحجلة ، ولم تكن عهـودهم ونذورهم الخاصـة بأقل تطرفا من القسم الذى تعاهدوا جميعا على البر به . غير أنهم علقـوا التنفيذ على احتمال وقوع شيء خارج عنهم فى المستقبل . ومن الجائز أن دوق برجاندى ، طوال اثنى عشر عاما وحتى آخر لحظة من حياته كانت توسوس له نفسه أنه على وشك الرحيل ، وربما كان مخلصا

(١) Golden Fleece طائفة من الفرسان أسسها فيليب الطيب ملك برجنديا فى ١٤٢٩ من أكرم النبلاء خلقا وفضلا . وكانوا يشـكلون مجلس الشورى . ولعل الجزة ترمز الى الصوف الذى هو مصدر كل ثروة الفلاندز . (أصلها فى الأساطير اليونانية ، جزة من الذهب كانت معلقة فى أيكة مقدسة ؛ يحرسها تنين ، حتى انتزعها جاسون Jason . (تاريخ العالم ، المجلد الخامس — (الترجمة)

فى ذلك . ولو أن كل صــدر اشــتعل بالحمــاس نفســه ، ولو أن اتحــاد المسيحيين كان معــادلا لشجاعتهم ، ولو أن كل قطــر من السويد الى نابلى قدم نســبة عادلة من الخيــالة والرجــالة . من الرجــال والأموال ، لكان من المحتمــل حقــا انقــاذ القسطنطينية ، ومن الممكن طــرد الأتراك الى ما وراء الدردنيــل أو الفــرات . ولكن كاتم سر الامبراطــور الذى دبج كل رســـالة وحضر كل اجتمــاع ، وهو اينيــاس سيلفيوس ، وهو سياسى وخطيب ، يصف من تجاربه الشخصية ، حالة العــالم المسيحى وروحه المنفرة . فهــو يقول : « انه جسد بلا روح ، جمهورية بلا قوانين أو حكام . وقــد يتألق البابا والامبراطور فى ألقاب سامية ، وصور فخمة ، ولكنهما عاجزان عن الحكم ، وليس هناك من يريد أن يمتثل . لكل دولة أمير مستقل ، ولكل أمير مصلحة مستقلة . أية فصاحة تستطيع أن توحد بين هذا العدد من القوى المتنافرة المتصارعة تحت راية واحدة ؟ ولو أمكن تسليحهم وجمعهم فى مكان واحد ، فمن ذا الذى يجرؤ على شغل منصب القيادة ؟ أى ترتيب يمكن الاحتفاظ به ؟ وأى نظــام عسكرى ؟ ومن يتكفل باطعام مثل هذا العدد الضخم ؟ من الذى يستطيع أن يفقه لغاتهم المتباينة أو أن يوحد سلوكهم الغريب الناشز؟ أى بشر يستطيع أن يوفق بين الانجليز والفرنسيس ، بين جنــوه وأراجون ، بين الألمان وسكان المجر وبوهيميا ؟ فاذا جند فى الحرب المقدسة عدد قليل ، هزمهم الكفار لا محــالة ، وان جند عدد كبــير غلبتهم كثرتهم واختلال أمرهم ! » . ومع ذلك فان اينياس هـــذا ، نفسه بعد أن اعتلى عرش البابوية باسم بيوس الثانى ، نذر حياته

لمتابعة الحرب التركية . وفى مجمع مانتوا أشعل بعض ومضـات من حماس ضعيف أو زائف : ولكن عندما شخصى البـابا الى أنكونا ليبحر هو نفسه مع الجنود ، ضاعت التعهدات فى المعاذير ، وأجل اليوم المضروب الى أجل غير مسمى . وكان جيشه العامل يتألف من بعض الحجاج من الألمان الذين اضطر أن يسرحهم مع بعض صكوك الغفران والصدقات . ودون نظر الى المستقبل ، استغرقت مشروعات الطموح الداخلى والراهن جهود خلفائه وجهود دويلات ايطاليا . فحدد بعد أى شيء أو قربه فى نظرهم عظمته الظاهرية . ولو أنهم نظروا الى مصلحتهم من زاوية أوسع ، لأدركوا أنه يجب عليهم أن يشنوا حربا دفاعية بحرية ضد العدو المشترك . ومن الجائز أن مساعدتهم سكندربرج وأتباعه من الألبانيين الشجعان كانت تحول دون غزو مملكة نابلى فيما بعد . وأثار حصار أوترانتو ونهبها على يد الأتراك فزعا عام . وكان البابا سيكستوس Sixtus على أهبة الفرار الى ما وراء الألب ، عندما أخمد موت محمد الثانى العاصفة فورا . وكان عمره آنذاك احـدى وخمسين سنة . لقـد رنت عبقريته العالية الى فتح ايطاليـا . وكان السلطان يملك مدينة قوية وميناء متسعا . وربما ازدان حكمه كذلك، بتذكارات النصر فى رومه الجديده وروما القديمة معا .

وثمة نتيجتان من نتـائج طلب العون من الغرب (أنظر الموجز ، ص٣٤٤) جديرتان بالذكر هنا : أحداهما هى أرسال ألفين من الجنود من جنوه تحت قيادة جستنيانى ، والأخرى بعثة يرأسها الكاردينال ايزيدور كنائب عن البابا • ووصف سلوك جستنيانى فى ص ٣٦٠ ليس بصحيح من الناحية التاريخية ، وليس بمنصف • والسبب المباشر فى الاستيلاء على المدينة كان دخول بعض الأتراك من باب خلفى كان جستنيانى قد

فتحه للهجوم خارج الأسوار • ولم يكن لبعثة ايزيدور من أثر ، الا اذكاء نار العداء بين اليونانيين واللاتين • وقد أشار بعضهم الى أنه يفضل أن يرى فى المدينة عمامة مسلم عن أن يرى قبعة كاردينـــال • فبعد اقامة الصلوات فى الكنيسة أيا صوفيا وفقا للطقوس اللاتينية ، هجر الناس هذه الكنيسة و « خيم على تلك القبة الجليـــلة صمت عميق حزين » • وهذا يفسر الاشارة الى التدنيس ، ص ٣٦٣ •

الخاتمة

روما في العصور الوسطى . فجر النهضة

الفصل التاسع والستون

(٨٠٠ - ١٣٥٠)

سلطان البابوات في رومة • طرق انتخاب البابوات • هجرة البابوات الى أفنيون • نشأة اليوبيل ، أو السنة المقدسة • النبلاء الرومان •

سلطان البابوات في رومه

في العصور الأولى من اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تتركز أعيننا دون تحول ، على المدينة الملكية التي زودت معظم بقاع العالم بالقوانين . وانا لنمعن التفكير في حظ المدينة ، تفكيرا أوله اعجاب ، وآخره اشفاق ، ولكن الاهتمام أبدا طابعه . وعندما يتحول هذا الاهتمام من الكابيتول الى الولايات ، نرى أنها لا تعدو أن تكون مجموعة كبيرة من الأغصان التي انفصلت واحدا بعد الآخر عن الجذع الامبراطوري . ولتأسيس رومه ثانية على شواطيء البسفور ، اضطر المؤرخ أن يتتبع خلفاء قسطنطين ، وقد أغراه حب الاستطلاع بأن يزور أقصى أقطار أوربا وآسيا ليكشف عن أسباب ومسببي تدهور الملكية

البيزنطية الذى طال أمده . وبعد فتوحات جستنيان عدنا الى شواطىء نهر التيبر ، لتخليص العاصمة القديمة ، ولكن هذا الخلاص لم يكن سوى تغيير فى العبودية أو بالأحرى زيادة فيها . لقد انتزعت من رومه تذكارات نصرها ، وآلهتها ، وقياصرتها ، ولم يكن حكم القوط أكثر مجدا أو أشد عسفا من طغيان اليونانيين . وفى القرن الثامن بعد الميلاد حفز نزاع دينى ، هو عبادة الصور ، الرومان الى اعلان استقلالهم ، فأصبح أسقفهم الحاكم الزمنى والأب الروحى لشعب حر . ولا يزال اللقب والصورة المأخوذتان عن الامبراطورية الغربية التى أعادها شرلمان ، تزينان الدستور الفريد فى ألمانيا الحديثة. ولا زال اسم رومه يفرض علينا احتراما لاإراديا . ولم يعد المناخ (مهما يكن تأثيره) كما كان فى القديم ، وتلوث نقاء الدم عن ألف طريق وطريق . ولكن جلال أطلالها وذكرى عظمتها أشعلتا قبسا من طابعها الوطنى . وتعرض ظلمة العصور الوسطى بعض المشاهد التى لا يجدر اغفالها . ولن أفرغ من هذا المؤلف قبل أن أستعرض حالة المدينة الرومانية وثوراتها ، تلك المدينة التى أذعنت لحكم البابوات المطلق ، حوالى نفس الوقت الذى استعبدت فيه الجيوش التركية مدينة القسطنطينية .

فى مستهل القرن الثانى عشر [١] ، أعنى فى عصر الحرب الصليبية الأولى ، نظر اللاتين الى رومه بعين الاجلال والاكبار بوصفها عاصمة الدنيا ، وعرش البابا والامبراطور اللذين استمدا من المدينة الخالدة

---

(١) لقد تغيب القارىء مدة طويلة عن رومه ، ولذا فانى أنصحه أن يستعيد أو يتصفح مرة أخرى الفصل التاسع والأربعين من هذا التاريخ .

ألقابهما وشرفهما وحق الحكم الزمنى أو مباشرته . وبعد هذه الفترة الطويلة ، قد يكون من المفيد أن نكرر أن خلفاء شرلمان وأوتو كانوا يختارون قيماً وراء الراين فى مجالس وطنيةDiet ، وأن أولئك الأمراء قنعوا بلقب ملك ألمانيا وايطاليا ، الى أن عبروا جبال الألب والأبنين للحصول على التاج الامبراطورى على شواطىء نهر التيبر . وعلى مسافة ما من المدينة كان يستقبلهم موكب طويل من رجال الدين والشعب يحملون السعف والصلبان . وقد مثلت الرموز الرهيبة من الذئاب والسباع والحيات والنسور التى سبحت فى الرايات العسكرية، مثلت كتائب الجمهورية وفرقها السالفة . وتردد القسم الملكى على الاحتفاظ بحريات رومه ثلاث مرات : عند القنطرة ، والبوابة ، وعلى درج الفاتيكان . وجرى توزيع الهبات المعتادة ، فى محاكاة هزيلة لسخاء القياصرة الأولين . وفى كنيسة القديس بطرس قام خليفته بمراسم التتويج . واختلط صوت الرب بصوت الشعب ، وأعلنت الهتافات عن رضاء هذا الشعب : « العمر المديد والنصر لمولانا البابا . العمر المديد والنصر لمولانا الامبراطور . العمر المديد والنصر للجيوش الرومانية والتيوتونية » . ودعم اسما قيصر وأوغسطس ، وقوانين قسطنطين وجستنيان ، والمثل الذى ضربه كل من شرلمان وأوتو — كل أولئك دعم السلطان الأعلى للامبراطورية . وقد نقشت صورهم وألقابهم على نقود البابوات ، وتميزت ولايتهم الشرعية بأنها سيف العدالة الذى كانوا يسلمونه الى محافظ المدينة . ولكن اسم أى سيد متبربر ولغته وعاداته كانت تهيج الكراهية فى صدر كل رومانى . وكان قياصرة ساكسونيا وفرانكونيا رؤساء أرستقراطية اقطاعية .

ولم يكن فى وسعهم ممارسة نظام السلطة العسكرية والمدنية ، وهى وحدها التى تضمن طاعة شعب قاص لا يطيق العبودية ، رغم أنه من المحتمل أنه لا يقدر على الحرية . وهبط كل امبراطور من جبال الألب مرة واحدة ، وواحدة فقط ، مع جيش من أتباعه التيوتون . ولقد وصفت نظام دخوله السلمى وتتويجه . ولكن ذاك النظام اختل عادة بسبب صيحات وهياج الرومان الذين قابلوا مليكهم وكأنه غاز أجنبى . وكان رحيله دائما سريعا ، وفى أكثر الأحيان شائنا . واذا قصرت مدة حكمه امتهن سلطانه ، وضاع اسمه فى زوايا النسيان . ان نمو الاستقلال فى ألمانيا وايطاليا قوض أركان السيادة الامبراطورية على حين كان فى انتصار البابوية انقاذ لرومه .

كان لرومه سيدان : أما الامبراطور فقد حكم حكما غير مستقر مستندا الى حق الفتح ، أما البابا فقد أسس سيادته على قاعدة مريحة ناعمة ، ولكنها أكثر صلابة ، قوامها الرأى والعادة . ان استبعاد النفوذ الأجنبى أعاد الراعى الى رعيته وحببه اليهم . وبدلا من تعيين تعسفى أو مشترى عن طريق البلاط الألمانى ، انتخب نائب المسيح انتخابا حرا فى مجمع الكرادلة الذين كان أكثرهم من المواطنين أو من سكان المدينة . ودعم انتخابه استحسان الحكام والشعب له ورضاهم عنه . وكانت السلطة الكنسية المطاعة فى السويد وبريطانيا نابعة فى جوهرها من أصوات الرومان . هذه الأصوات نفسها هى التى هيأت للعاصمة أميرا ، كما أخرجت لها حبرا . وكان هناك اعتقاد عام بأن قسطنطين وهب للبابوات السلطة الزمنية فى رومه . وقنع أشد المدنيين جرأة وأكثر الملحدين تشككا بمناقشة حق الامبراطور

ومشروعية هذه الهبة . وارتبطت حقيقة هذه الواقعة وحجية هـــذه الهبة ارتباطا وثيقا بالجهل والتقاليد التى تأصلت فى أربعة قرون . وفنى أصلها الخـــرافى فى نتائجها الحقيقيـــة التى ثبتت على الزمن . ونقش اسم السيد Dominus أو لورد على نقود الأساقفة ، واعترفت بهذا اللقب هتافات الناس وأيمان الولاء التى أقسموها ، ومارسوا بموافقة القياصرة الألمان طوعا أو كرها ، مارسوا منذ زمن طويل الولاية على المدينة وعلى أملاك القديس بطرس .وكان حكم البابوات الذى صادف هوى فى النفوس ، ملتئما مع حريات رومه . على أننا لو دققنا النظر وتعمقنا فى البحث ، لتكشف لنا مصدر أكثر نبلا لهذه القوة ، ذلك هو اعتراف أمة بجميل من أنقذوها من هرطقة الطاغية اليونانى وجوره . ومن المحتوم فى عصر سادت فيه الخرافات ، أن يبدو لأعين الناس أن فى اتحاد السلطتين الزمنية والدينية ما يحصن بعضها بعضا ، أو تقوى الواحدة منهمـــا الأخرى ، وأن مفاتيح الفردوس قد تكون أوثق ضمان على الأرض . والحق أن قدسية المنصب قد تحط من قدرها الرذائل الشخصية لشاغل هذا المنصب . ولكن فضائح القرن العاشر محتها فضائل جريجورى السابع وخلفائه، وهى فضائل أشد خطرا ، طابعها الصرامة والتقشف . وان صراعاتهم الجريئة التى خاضوها دفاعا عن حقوق الكنيسة ، ونجاحهم فى هـــذا الصراع أو شقاءهم به ، نقول ان كل أولئك سواء بسواء ، كان لابد أن يدعو الناس الى تبجيلهم واجلالهم . فكم هاموا على وجوههم ، وكم نفوا من الأرض ، فقراء معدمين ، ضحايا للظلم والاضطهاد ، وكان لزاما أن تثير الغيرة الرسولية التى جعلتهم يستعذبون الاستشهاد

كل عطف وحب لهم فى صدور المسيحيين . وأحيانا كان صوت البابوات فى الفاتيكان يدوى كالرعد ، فيصنعون الملوك أو يحاكمونهم ويعزلونهم . وما كان أى رومانى مهما كان من أمره وغروره ، أن يستشعر عارا فى الخضوع لقسيس كان خلفاء شرلمان يقبلون قدميه ويمسكون بركابه . بل ان المصلحة الزمنية للمدينة كانت تقتضى المحافظة فى سلام وشرف على مقر البابا ، ومنه يستمد شعب كسلان مغرور أعظم جزء من رزقه وثروته . ومن الجائز أن موارد البابوات الثابتة كانت قد ضعفت ، اذ استولت أيد نجسة على كثير من المزارع الموقوفة القديمة فى كل من ايطاليا والولايات . وما كانت المطالبة بحقهم فى منح ببين وذراريه السخية لتعوض عن الاستيلاء عليها . ولكن الفاتيكان والكابيتول كان ينعشهما ويغدق عليهما سيل متزايد لا ينقطع من الحجاج والمتبتلين . واتسعت حدود المسيحية ، وغرق البابا والكرادلة فى الفصل فى القضايا الدينية والدنيوية . وقرر فقه قانونى جديد فى الكنيسة اللاتينية حق الاستئناف وسبل ممارسته . ومن الشمال والغرب دعى الأساقفة ورؤساء الأديرة أو استدعوا ، ليقدموا الالتماسات أو الشكاوى ، أو يتهموا أو يدافعوا ، أمام منصة الرسل . وسجلت مرة احدى العجائب النادرة : فقيل ان حصانين يملكهما رئيس أساقفة ماتنز ورئيس أساقفة كولونيا عبرا الألب عائدين محملين بالذهب والفضة . ولكن سرعان ما فهم الناس بأن نجاح الحجاج والخصوم على السواء لا يعتمد على عدالة قضيتهم قدر ما يرتكز على قيمة هباتهم . وكم عرضت فى كثير من التفاخر ثروة هؤلاء الأجانب وورعهم ، على أن وجوه الانفاق ، مقدسة أو مدنسة ، كانت كثيرة متنوعة ، وكلها لنفع الرومان وخيرهم .

وكان لزاما أن توثق أمثال هـــذه الحوافز القوية ، من روابط الامتثال الارادى المؤمن بين الشعب الرومانى وأبيه الروحى والزمنى. ولكن نوبات الأهواء الجامحة كثيرا ما تحدث الاضطراب فى عملية التحيز والمصلحة . فان الهندي الذى يقطع الشجرة ليجمع ثمارها ، والعربى الذى يسلب قوافل التجارة ـــ كليهما ، يحفزهما الى هـــذا العمل طبيعتهما الوحشية التى تغفل أمر المستقبل من أجل الحاضر ، وتتخلى من أجل عرض عاجل عن خير محقق آجل طويل الأمد عظيم القيمة : وهكذا فعل الرومان فى غفلتهم ، حين دنسوا ضريح القديس بطرس ونهبوا القرابين وآذوا الحجاج ، ولم يحسبوا حسابا لأمثال هذه الزيارات فى عددها وقيمتها ، تلك الزيارات التى وقفوا فى سبيلها باعتدائهم الآثم على المقدسات . ان أثر الخرافة أو العقيدة نفسها متقلب ومزعزع ، والرقيق الذى أخضع عقله ، كثيرا ما ينقذه جشعه أو كبرياؤه. ويؤثر التصديق الساذج بخرافات القساوسة ومعجزاتهم أشـــد تأثير على عقل المتبربر، ولكن مثل هذا العقل هو أقل العقول قدرة على ايثار الخيال على الحس ، أو التضحية بشهوات هذه الحياة الدنيا من أجل دافع بعيد ، أو هدف لا تراه عيناه ، وربما كان هدفا مثاليا . مثل هذا الانسان فى عنفوان صحته ونضـــارة شبابه تتناقض أعماله دائما مع مايؤمن به . حتى اذا ما أيقظ مخاوفه تقدم السن أو اشتداد العلة أو نزول الكوارث ، اضطر أن يسدد دينه من الورع والندم مضاعفا . وقد أسلفت الاشارة الى أن الأزمنة الحديثة بما يقترن بها من عدم اكتراث بالدين ، هى أكثر الأوقات ملاءمة لرخاء رجال الدين وأمنهم كما كان لهم فى عصور الخرافة أن يعقدوا أكبر الآمال على جهل البشر ، كما كان عليهـــم أن يتوجســـوا أكبر الخيفـــة من عنفهم .

والثروة التى أغدقها عليهم الوالد بلا حساب فى حال توبته وندمه ، حتى باتوا ملاك الأراضى الوحيدين ، كان يسلبهم اياها الولد فى غمرة جشعه وطمعه ، وعبد الناس أشخاصهم، أو انتهكوا حرمتهم ، والعابدون الذين وضعوا الوثن على المذبح بأيديهم هم الذين وطئوه فى التراب بأقدامهم . ففى النظام الاقطاعى فى أوربا ، كانت الأسلحة علامة الامتياز ومقياس الولاء . وفى وسط صليلها كان يندر أن يسمع أو يطاع صوت القانون والعقل . واحتقر الرومان المشاغبون نير أسقفهم وعابوا عليه عجزه . وما كانت تربيته أو أخلاقه تجيز له أن يمارس على نهج ملائم مؤثر قوة السيف . وكانت الدوافع على انتخابه ونقائص حياته ماثلة أمام أعينهم ، وأنقص قربه منهم أو وجوده بينهم ، حتى من الاجلال الذى كان يفرضه اسمه ومراسمه على العالم المتبربر . ولم يفت مؤرخنا الفيلسوف أن يلحظ الاختلاف فقال : « على الرغم من أن اسم بلاط رومه ونفوذه كانا مرهوبين أشد الرهبة فى أقصى الأقطار الأوربية ، التى غرقت فى جهل عميق ، والتى لم تكن تدرى شيئا عن طابع هذا البلاط وسلوكه ، فان البابا حظى بأقل الاحترام ، فى وطنه ، حتى ان أعداءه الألداء أحاطوا بأبواب رومه نفسها وسيطروا على حكومته فى تلك المدينة . حتى أن السفراء الذين وفدوا اليه من أقصى الأرض فى أوربا ليقدموا الولاء المتواضع ، وان شئت الذليل ، باسم أقوى شخصيات العصر ، وجدوا أشد صعوبة فى أن يشقوا طريقهم اليه وأن يلقوا بأنفسهم تحت قدميه »[1] .

---

(١) هيوم ، « تاريخ انجلترا » ، المجلد الأول ، ص ٤١٩ . روى لنا الكاتب نفسه نقلا عن فتزستيفن عملا فريدا من أعمال القسوة ضد رجال

لقى البابوات منذ الأيام الأولى مقاومة وعنفا • ففى أواسـط القرن الثانى عشر بدأ أرنولد أوف برشيا Breschia حركة لاعادة الجمهورية • وقد طرد البابا أدريان الرابع (البابا الانجليزى) والامبراطور فردريك بارباروسا أرنولد من رومه ، ثم أحرق حيا بعد ذلك • غير أن شكلا من أشكال الحكم الجمهورى ، بما فيه عمل السناتو ، استقر فى رومه •

طرد انتخاب البابوات

كان الطموح عشبا مبكرا سريع النمو فى كرمة المسيح . ففى زمن الأمراء المسيحيين الأوائل تنازع كرسى القديس بطرس الأصـــوات والرشـــوة والعنف المألوف فى الانتخابات العامة ، ودنست الأماكن المقدسة فى رومه بالدماء . ومنذ القرن الثالث وحتى القرن الثانى عشر ، تمزقت الكنيسة بشرور الخلافات والانقسامات المتكررة . وطالما بقيت الكلمة الأخيرة للحاكم المدنى ، كانت هذه الشرور مؤقته ومحلية . وكان العدل أو المحاباة أو العطف مقياس الجدارة . ولم يكن من الممكن أن يعكر المنافس الذى لم ينجح صفو غريمه المنتصر أمدا طويلا . ولكن بعد أن انتزعت من الأباطرة امتيازاتهم ، وبعـــد أن اســـتقرت القاعدة القائلة بأن نائب المسيح لا يخضـــع لأية محكمة

الدين قام به جوفرى ، والد هنرى الثانى • « فعندما كان حاكمـــا على نورماندیا ، تجرأ القساوسة فى سيز Seez على القيام ، دون موافقته ، بانتخاب أسقف • فأمر بخصيهم جميعا بما فيهم الأسقف المنتخب • وأمر باحضار خصاهم اليه فى صحفة » • كان من حقهم عدلا الشكوى من الألم والخطر ، ولكن لما كانوا قد نذروا أنفســـهم للعفة ، فقد حرمهم من كنز لا فائدة فيه •

أرضية ، اشتد الجدل أو استعرت نار الحرب فى العالم المسيحى فى كل مرة يخلو فيها الكرسى الرسولى . وكانت مزاعم الكرادلة ورجال الكنيسة من ذوى الرتب الدنيا ، ومزاعم النبلاء والشعب ، مبهمة قدر ما كانت مثارا للنزاع . وطغى على حرية الاختيار مشاغبات مدينة لم تكن تعترف بسيد أو تمتثل له . فعند موت البابا ، ذهب حزبان الى كنائس مختلفة لاجراء انتخاب مزدوج : وربما تعادل عدد الناخبين وأهمية أصواتهم ، والأسبقية فى الزمن ، وجدارة المرشحين ، بعضها مع بعض ، وانقسم أكبر رجال الدين مقاما . ولم يستطع الأمراء فى البلاد النائية والذين كانوا يركعون أمام العرش الروحى ، أن يميزوا « الصنم » الشرعى من « الصنم » الزائف . وكان الأباطرة فى أغلب الأحيان هم سبب الانشقاق ، حيث ضربوا بدافع سياسى حبرا صديقا بحبر معاد ، ووصل الحال بكل من المتنافسين الى حد الصبر على احتمال اهانات أعدائه الذين لا تؤنبهم ضمائرهم ، والى شراء تأييد أتباعه الذين حفزهم الجشع والطموح . وقد ضمن اسكندر الثالث تعاقب البابوات تعاقبا سلميا دائما ، حين أبطل نهائيا أصوات رجال الدين والشعب الموصومة بالشغب والفتنة ، وقصر حق الانتخاب على مجمع الكرادلة وحدهم . وسوى هذا الامتياز الهام بين الفئات الثلاث : الأساقفة والقساوسة والشمامسة . وحظى رجال الكنيسة فى أبروشية روما بالمرتبة الأولى فى ترتيب الوظائف الكنسية . ووقع الاختيار عليهم من جميع الأمم المسيحية دون تمييز . ولم يكن امتلاك أغنى اقطاعية أو التعيين فى أهم أسقفية يتعارض مع لقبهم ووظيفتهم . وراتدى أعضاء السناتو فى الكنيسة الكاثوليكية ، أعنى أعوان الحبر

الأعظم ونوابه ، ثيابا أرجوانية ، وهــذا اللون الأرجوانى هو رمز الاستشهاد أو الملكية . وزعموا ، مفاخرين ، أنهم مساوون للملوك . وقد رفع من شأنهم صــــغر عددهم الذى قلما زاد ، حتى حكم ليو العاشر ، على عشرين أو خمسة وعشرين فردا . وبهــذا التنظيم الحكيم أزيل كل شك وفضيحة ، وانتزعت تماما جــذور الانشقاق حتى انه فى فترة امتدت ستة قرون أحدث انتخاب مزدوج مرة واحدة انقساما فى وحدة المجمع المقدس . ولما أصبح الحصــول على ثلثى الأصوات شرطا ضروريا ، فقد تأجل الانتخاب فى أكثر الأحيان بسبب مصالح الكرادلة وأهوائهم الخاصة . وعلى حين أطالوا هم فترة حكمهم المستقل ، بقى العالم المسيحى بلا رأس . وقد بقى كرسى البابوية شاغرا ثلاث سنوات تقريبا قبل ارتقاء جريجورى العاشر الذى صمم على القضاء على هذا العبث فى المستقبل . وقد وضع مرسومه بعــد بعض المقاومة ، فى مجموعة القانون الكنسى . وسمح بتسعة أيام لأداء مراسم دفن للبابا المتوفى وعودة الكرادلة الغائبين . وفى اليوم العاشر يحجزون ، ومع كل منهم خادم واحد ، فى شقة مشتركة أو مجمع مقدس بدون حوائط أو أســتار فاصلة . وقد تركت نافذة صــغيرة لادخال الضروريات . ولكن الباب مقفل من الناحيتين ، ويقوم على حراسته حكام المدينة . لمنعهم من أى أتصال بالعالم الخارجى . فاذا لم يتم الانتخاب فى ثلاثة أيام ، اختزلت مائدة الطعــام الزاخرة الى صحفة واحدة فى الغداء والعشاء . وبعد اليوم الثامن يقتصرون على كمية ضئيلة من الخبز والماء والنبيذ . وفى أثناء خلو الكرسى الرسولى، حرم على الكرادلة لمس الموارد المالية أو الاضطلاع بحكومة الكنيسة

الا فى أمور عاجلة نادرة . وتبطـــل تماما كل اتفـاقات ووعود مع الناخبين ، وحصنت نزاهتهم بأيمان حاسمة وصلوات كاثوليكية . وقد خففت تدريجيا بعض البنود غير المناسبة المفرطة فى الشــدة بلا جدوى . ولكن مبدأ الحجز لا يزال قويا لم يمس . ولا زالت تستحثهم الحوافز الشخصية من الحرص على الصحة والحرية أن يتعجلوا انقاذ أنفسهم . وقد لف تحسين طريق الانتخاب ، أو الانتخاب السرى ، نضال المجمع فى قناع حريرى من البر والأدب . وقد حرم الرومان بهذه النظم من انتخاب أميرهم وأســقفهم ، وبدا ، فى حمى الحرية الجامحة المؤقتة ، أنهم لا يحسون بفقدان هذا الامتياز الذى لا يقدر بثمن . وقد أحيا الامبراطور لويس ، امبراطور باقاريا ، مثــال أوتو العظيم . وبعد بعض المفاوضات مع الحكام اجتمع الشعب الرومانى فى الميدان أمام كنيسة القديس بطرس وعزل جون الثانى والعشرين ، بابا أفنيون . وقد وثق اختيار خلف له برضــاهم وهتافهم . وصدقوا باستحسانهم وموافقتهم ، وصوتوا تصويتا حرا ، على قانون جديد يقضى بأنه يجب على أسقفهم الا يتغيب أكثــر من ثلاثة أشــهر فى السنة ، والا يبتعد أكثر من مسيرة يومين من المدينة ، وأنه اذا أهمل العودة بعد أن يطلب اليه الرجوع ثلاث مرات ، وجب عزل خادم الشعب هذا وتجريده . ولكن لويس نسى ضعفه هو نفسه ، كمــا نسى حزازات تلك الأزمنة . فقد رفض الناس شبحه الذى لا فائدة فيه خارج حدود المعسكر الألمانى . واحتقر الرومان ما صنعت أيديهم . والتمس خصم البابا الرحمة من مليكه الشرعى . وثبت حق الكرادلة بشكل أقوى ، بفضل هذا التهجم الذى جاء فى غير أوانه .

هجرة البابوات إلى أفنيون

لو أن الانتخاب جرى دائما فى الفاتيكان ، لما اعتدى أحد على حقوق السناتو والشعب دون عقوبة . ولكن الرومان نسوا ، كما تناساهم الناس ، فى غياب خلفاء جريجورى السابع الذين لم يداوموا على اقامتهم فى المدينة والأبرشية كقاعدة مقدسة . وكانت رعاية شئون هذه الأبرشية أقل أهمية من حكم الكنيسة فى العالم المسيحى . ولم يكن من الممكن أن يبتهج البابوات بالاقامة فى مدينة يلقى فيها نفوذهم مقاومة على الدوام ، وتتعرض فيها فى أكثر الأحيان أشخاصهم للخطر : لقد فروا من ظلم الأباطرة ومن الحروب فى ايطاليا ، الى ما وراء جبال الألب الى أحضان فرنسا الكريمة . وانسحبوا فى حزم من شغب رومه وصخبها ليعيشوا ويموتوا فى أماكن أكثر هدوءا مثل أناجنى وبيروجيا وفيتربو والمدن المجاورة . وعندما يلحق بالقطيع أذى أو يعضه العوز بسبب غياب الراعى ، كان البابوات يستدعون فى تقريع خشن ، مع تذكيرهم بأن القديس بطرس أقام كرسيه ، لا فى قرية مغمورة ، ولكن فى عاصمة العالم ، وتهديدهم تهديدا وحشيا بأن الرومان سيحملون السلاح ويسيرون لتدمير ذلك المكان وذلك الشعب الذى يتجرأ فيمنح البابوات ملجأ ، ومن ثم عادوا الى رومه طائعين وجلين ، حيث استقبلهم فيها قائمة بالدين الثقيل الذى تراكم عليهم ، ألا وهو تعويض كل خسارة ألحقها بالمدينة فرارهم منها : مثل أجر المساكن ، وبيع المؤن والنفقات المختلفة للخدم والأجانب الذين كانوا يترددون على البلاط البابوى . وبعد فترة قصيرة سادها السلام ،

وربما استردوا فيها النفوذ ، نفوا مرة أخرى بسبب اضطرابات جديدة ، ودعوا مرة ثانية بأوامر تعسفية أو بدعوة مهذبة من السناتو . وفى مثل هذا الانسحاب العرضى ، قل أن طال غياب المنفيين من الفاتيكان والهاربين منه ، أو ابتعدوا كثيرا عن العاصمة . ولكن فى أول القرن الرابع عشر انتقل العرش الرسولى من التيبر الى الرون ، وقد تراءى للناس فى ذاك الوقت أن هذا الانتقال كان الى الأبد . ويمكن أن نستنتج سبب هذه الهجرة من النزاع العنيف الذى شب بين بونيفاس الثامن وملك فرنسا . لقد قام فى وجه الأسلحة الروحية — كالحرمان والطرد من الكنيسة اتحاد الأقاليم الثلاثة وامتيازات الكنيسة الغالية (فى الغال) . ولم يكن البابا على استعداد لمواجهة الأسلحة الدنيئة التى كان لدى فيليب الجميل من الشجاعة ما يمكنه من استخدامها . وبينما كان البابا يقيم فى أناجنى دون توقع لأى خطر ، هاجم قصره وشخصه ثلثمائة من الخيالة ، جمعهم سرا الوزير الفرنسى وليام أوف نوجاريت ، وشيارا كولونا ، وهو سليل أسرة نبيلة ، ولكنها معادية لرومه . وهرب الكرادلة ، وأغرى أهل أناجنى بطرح ولائهم وعرفانهم بالجميل . ولكن بونيفاس الذى لم يفزع ولم يوجل وهو أعزل وحيد ، جلس على كرسيه وانتظر ، مثل الآباء المجندين القدامى ، سيوف الغاليين . وقنع نوجاريت وهو خصم أجنبى، بأن ينفذ أوامر مولاه . وبسبب ما بين كولونا والبابا من عداء شخصى، انصبت على البابا الشتائم وكيلت له الضربات ، وأودع السجن ثلاثة أيام كانت حياته فيها مهددة نتيجة المتاعب التى لاقاها بسبب عناده الذى شدد منه استفزازهم له . وقد هيأ ابطاؤهم الغريب لأنصار الكنيسة بعض الوقت وأمدهم ببعض الشجاعة ، لانقاذ البابا من هذا

الاعتداء الآثم . ولكن روحه المتعجرفة جرحت فى موضـع حيوى . ومات بونيفاس فى رومه فى سورة الغضب والانتقام . وقد دنست ذكراه برذيلتين بارزتين ، الجشع والكبرياء . ولم تسم شجاعة الشهداء بهذا الزعيم الكنسى الى مرتبة القديسين وأمجادهم . وتقول حوليات ذلك الزمان انه : « مذنب شهم ، دخل كثعلب ، وحكم كأسد ، ومات ميتة كلب » . وجاء بعده بنيديكت الحادى عشر ، أكثر البشر اعتدالا، ومع ذلك فانه حرم من الكنيسة رسل فيليب الأشرار ، وصب على مدينة أناجنى وشعبها لعنة كبيرة لا تزال آثارها ظاهرة لأعين المؤمنين بالخرافة .

وبعد موته أكدت براعة الفريق الفرنسى نفس الحيرة المملة فى المجمع القلق نفسه . حيث قدم عرضا ظاهره فيه الرحمـة وباطنـه فيه العذاب ، وقد قبل هذا العرض ، وهو أنه فى ظرف أربعين يوما لابد أن يختار واحد من مرشحين ثلاثة يقدمهم خصومهم . وكان رئيس أساقفة بوردو وهو عدو عنيد لمليكه ووطنه على رأس القائمة ، ولكن طموحه كان معروفا . ولبى ضميره دعوة الحظ ، وأطاع أوامر رجل جواد كان قد أبلغ عن طريق رسول سريع أن اختيار البابا كان آنئذ فى يديه . ووافق على الشروط فى مقابلة خاصة . وتمت الصفقة فى سرية وسرعة ، ووافق المجمع المقدس بالاجمـاع ، ورفع كليمنت الخامس الى عرش البابوية . وسرعان ما أذهل كرادلة الفريقين دعوة منه للمثول بين يديه فيما وراء الألب ، وقد كشفوا بسرعة أنه لا أمل لهم فى العودة من ذاك المكان . ولقد التزم ، تنيجة لوعده وحبـه ، بالاقامة فى فرنسا . وبعد أن جر بلاطه عبر بواتو وغسقونيا ، وأفقر بنفقاته المدن والأديرة التى مر بها ، استقر نهائيا فى أفنيون التى ازدهرت

مدة سبعين سنة كمقر الحبر الرومانى وعاصمة العالم المسيحى . وكان الطريق الى أفنيون ميسورا من كل جانب ، برا وبحرا وبوساطة نهر الرون ، ولا يمكن أن تسلم ولايات فرنسا الجنوبية نفسها لايطاليا . وقامت قصور جديدة لسكنى البابا وكرادلته ، وسرعان ما جذبت كنوز الكنيسة فنون الترف . وكانوا يسلكون المنطقة المجاورة : مقاطعة فينسان Venaissin وهى بقعة خصبة كثيفة السكان . واشتريت مملكة أفنيون فيما بعد من جين ، أول ملكة لنابلى وكونيتس لبروفانس ، نظرا لصغر سنها وكروبها ، لقاء ثمن بخس هو ثمانون ألف فلورين . وفى ظل الملكية الفرنسية ، وفى وسط شعب مطيع ، تمتع البابوات بالهدوء والشرف اللذين لم يعرفوهما منذ مدة طويلة . ولكن ايطاليا حزنت لغيابهم . ويحتمل أن تكون رومه ندمت وهى تعانى الوحدة والفقر ، على حريتها الجامحة التى طردت خليفة القديس بطرس من الفاتيكان . وجاء ندمها متأخرا غير مجد . وبعد موت الأعضاء القدامى ، امتلأ المجمع المقدس بالكرادلة الفرنسيين الذين نظروا الى رومه بعين الكراهية والاحتقار ، فداوموا على انتخاب سلسلة من البابوات المحليين أو الاقليميين ، كانت تربطهم ببلدهم الأصلى روابط لا تنفصم ألبتة .

إنشاء اليوبيل أو السنة المقدسة

خلق تقدم الصناعة الجمهوريات الايطالية وكان سببا فى ثرائها : وكانت فترة حريتهم هى أكثر الأوقات ازدهارا فى عدد السكان والزراعة ، وتحولت صناعتهم وتجارتهم ، وأعمالهم الميكانيكية

بالتدريج الى فنون الرشاقة والعبقرية . ولكن موقع رومه كان أقل ملاءمة ، ومنطقتها أقل خصوبة ، وكانت أخلاق أهلها قد أفسدها الخمول وأبطرها الغرور ، وتمسكوا بشدة برأيهم فى أن الجزية التى يدفعها الرعايا يجب أن تنعش على الدوام عاصمة الكنيسة والامبراطورية . وقد شجع تردد الحجاج على أضرحة الرسل هذا الهوى الى درجة ما ، ولم يكن آخر تراث للبابوات ، وأعنى به نشأة السنة المقدسة ، أقل نفعا للأهالى عنه لرجال الدين . فمنذ ضياع فلسطين باتت هبة الغفران الكامل التى كانت تمنح للصليبيين غير ذات موضوع . وتعطل أهم كنوز الكنيسة أكثر من ثمان سنوات من التداول العام . وقد فتحت يقظة بونيفاس الثامن — الذى وفق بين رذيلتى الطموح والجشع — سبيلا جديدا وكان لدى البابا من العلم ما يكفى لتذكر وأحياء الألعاب القرنية التى كان يحتفل بها فى رومه فى نهاية كل قرن . ورغبة فى سبر أغوار السذاجة الشعبية دون خطر ، ألقيت عظة فى حينها ، ونشرت اشاعة بمهارة ، واستحضر عديد من شهود العيان القدامى . وفى اليوم الأول من شهر يناير من عام ألف وثلثمائة ، ازدحمت كنيسة القديس بطرس بالمؤمنين الذين طالبوا بالغفران المعتاد فى هذا الوقت المقدس . وسرعان ما اقتنع البابا الذى راقب ، كما أهاج قلقهم الورع ، بعدالة مطلبهم الذى أيده الشهود القدامى . وأعلن غفرانا كاملا لكل كاثوليكى زار فى خلال تلك السنة وفى كل فترة مماثلة ، فى خشوع ، كنيستى القديسين بطرس وبولس الرسولين . وقد نشر هذا الخبر المحبوب فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، فازدحمت الطرق بأفواج من الحجاج ، أولا من أقرب

محافظات ايطاليا ، وفى النهاية من مملكتى المجر وبريطانيا البعيدتين ، وقد سعوا لمحو خطاياهم فى رحلة شاقة غالية النفقة ، ولكنها خالية من أهوال الخدمة العسكرية . وفى غمرة النشوة العامة أغفل أى اعتبار للمنصب والجنس ، والسن والضعف ، وفى الطرقات والكنائس لقى كثير من الناس مصرعهم تحت الأقدام بسبب التحرق الى الخشوع والتقوى . وليس من السهل احصاء عددهم ، ولن يكون الاحصاء دقيقا ، وربما ضاعف القساوسة البارعون فى الأعداد لعلمهم اليقينى بعدوى القدوة ، ومع ذلك فقد أكد لنا مؤرخ محقق ، اشترك فى الطقوس ، أنه لا يقل على الاطلاق عدد من زاروا رومه عن مائتى ألف من الأجانب . وأكد واحد من شهود العيان أن مجموع الزوار فى تلك السنة بلغ مليونين . وربما شكلت تلك التقدمة الصغيرة التى يجود بها كل فرد ثروة ملك . ووقف قسيسان ليلا ونهارا وبيد كل منهما جاروف ليجمعا دون حساب ، أكوام الذهب والفضة التى انهالت على مذبح القديس بولس . وكان من حسن الحظ أن الوقت وقت سلام ورخاء . واذا كان العلف نادرا ، واذا كانت الخانات والمساكن باهظة الأجر على نهج مبالغ فيه . فقد كانت هناك كميات لا تنفد من الخبز والنبيذ ، ومن اللحوم والأسماك ، أعدتها سياسة بونيفاس وجود الرومان المشترى . ان أية ثروة جاءت عرضا الى مدينة لا تجارة بها ولا صناعة لابد أن تتبخر بسرعة . ولكن جشع الجيل التالى وحسده أهاب بكليمنت السادس أن يستبق فترة القرن وهى طويلة المدى ، واستجاب البابا الرحيم لرغبات الناس . ومنح رومه هذه المواساة الهزيلة تعويضا عن فقده ، وبرر هذا التغيير بالاشارة الى

اسم اليوبيل الموسوى وطقوسه . فلبى الناس نداء . ولم ينقص عدد الحجاج ولا حماسهم ولا جودهم عن العيد الأول . ولكنهم قابلوا العذاب المثلث : الحرب والوباء والقحط ، فاعتدى على كثير من النساء العذارى فى قلاع ايطاليا ، ونهب كثيرون من الأجانب أو قتلوا ، بأيدى الرومان المتوحشين ، الذين لم يعد يحثهم على الاعتدال وجود أسقفهم بينهم . ومن الممكن أن ينسب الى نفاد صبر البابوات ، انقاص تلك المدة على التوالى الى خمسين ، وثلاث وثلاثين ، وخمس وعشرين سنة ، على الرغم من أن الرقم الثانى يعادل عمر المسيح . وقد أنقص من قيمة اليوبيل كثيرا ، الاسراف فى منح الغفران ، وثورة البروتستانت وانهيار الخرافات . ومع ذلك فان اليوبيل التاسع عشر والأخير كان سنة لهو وغنم للرومان . ولن تعكر ابتسامة فلسفية ساخرة فوز القس أو سعادة الشعب .

نبلاء الرومان

فى بداية القرن الحادى عشر كانت ايطاليا معرضة لطغيان الاقطاع، وهو نظام مرهق للملك وللشعب على السواء . وقد دافعت جمهورياتها العديدة عن حقوق الطبيعة البشرية . ومدت هذه الجمهوريات حريتها وأملاكها من المدينة الى ما جاورها . وحطم سيف النبلاء ، وحرر عبيدهم ، وهدمت قلاعهم . وتخلقوا بأخلاق المجتمع وتعودوا على الطاعة ، وانحصر طموحهم فى الحصول على المناصب البلدية . وفى أعظم ارستقراطيات البندقيه وجنوه كبرياء ، كان كل رجل من الطبقات العليا خاضعا للقوانين . ولكن حكومة رومه الضعيفة المرتبكة

لم تكن قادرة على الحد من ثورة أبنائها الذين حقروا سلطان الحكام فى داخل رومه وخارجها . ولم يعد الأمر نزاعا مدنيا بين النبلاء والعامة على حكم الدولة : حيث أكد البارونات استقلالهم الشخصى بأسلحتهم وكانت قصورهم وقلاعهم محصنة ضد الحصـــار ، واحتمل أتباعهم وخدمهم عبء استمرار منازعاتهم الشخصية . أما من حيث أرومتهم وتعلقهم بوطنهم فقد كانوا أجانب عن هذا الوطن . وربما تبرأ الرومانى الأصيل ، ان وجد مثل هذا الرجل ، من هؤلاء الأجانب المتعجرفين الذين احتقروا لقب المواطن وأطلقوا على أنفسهم ، فى كبرياء وغرور ، أمراء رومه ، وبعد سلسلة من الثورات فقدت كل سجلات النسب ، وأبطل امتيـــاز لقب الأسرة ، واختلط دم الأمم بألوف من الطرق . وحظى القوط واللومبـــارد ، واليونان والألمان والنورمان بأجمـــل الممتلكات ، بفضل منحة ملكية أو جزاء على الشجاعة . وقد تستساغ هذه الأمثلة بسهولة ، ولكن ارتقاء رجل يهودى الى مرتبة أعضـــاء السناتو والقناصل حدث لا شبيه له فى الأسر الطويل لهؤلاء المنفيين البائسين . ففى زمن البابا ليو التاسع اعتنق المسيحية يهودى غنى عالم . وقد كرم فى تعميده باسم أبيه الروحى وهو البابا الحاكم . وقد برزت حماسة بطرس ـــ ابن ليو ـــ وشجاعته فى الذود عن جريجورى السابع الذى عهد الى تابعة الأمين بحكم « ميناء هادريان » ، أى قلعة ركريسنتيوس أو كما تسمى الآن قلعة القديس أنجيلو . وقـــد أنجب كل من الولد وابنه ذرية كبيرة . وقد اشترك فى ثروتهم ، وهى من ثمار الربا ، أنبل الأسرات فى المدينة . وقد اتسعت صلاتهم الى حد أن حفيد المرتد الأول رفع الى عرش القديس بطرس بفضل مكانة

عشيرته . ووقف الى جانبه أكثر رجال الدين والشعب . وحكم عدة سنين فى الفاتيكان . وكانت بلاغة القديس برنارد والنصر النهـائى لانوسينت الثانى هما اللذان وصما أناكليتوس بلقب « خصم البابا » . وبعد هزيمته وموته ، لم تعد سلالة ليو من اللامعين البارزين . وليس ثمة أحد من النبلاء المحدثين يرغب فى أن ينتسب الى أصل يهودى . ولست اعتزم احصاء الأسرات الرومانية التى أخفقت وخبت فى فترات مختلفة ، أو التى استمرت تحتفظ بدرجات متفاوتة من العظمة والبهاء الى الوقت الحالى . فأسرة فرانجيبانى العريقة التى احتفظت بمنصب القنصل يوما ، تكشف عن اسمها فى ذاك العمل الكريم وهو « كسر » الخبز أو توزيعه فى زمن القحـط . والحق أن مثل هـذا البر أكبر مجدا من احاطة « حى Corsi » وهو حى متسع من أحياء المدينة ، مع حلفائهم ، بسلسلة من التحصينات . وقد احتفظ السافيلى Savelli بمركزهم الأصيل وهم من سلالة السابين ، كما ينبغى أن يتبين من اسمهم . وقد نقش لقب الكابيزوتشى Capizucci على نقود أعضـاء السناتو الأوائل . ويحتفظ الكونتى Conti بشرف ، لا بمزارع ، دوق سنيا Signia . أما أسرة أنيبالدى ، فلابد أنهم كانوا غاية فى الجهل أو غاية فى التواضـع ، ان لم يرجعوا بنسـبهم الى بطـل قرطاجه (هانيبـال) .

ولكن من بين ، أو ربما فوق ، لوردات المدينة وأمرائها ، لابد أن أميز أسرتين متنافستين ، هما أسرة كولونا وأسرة أورسينى ، وتاريخهما الخاص جزء أساسى من حوليات رومه الحديثة .

١ ـــ كان اسم أسرة كولونا وشعارها موضوع كثير من الاشتقاق

المشكوك فيه . فلم يغفل الخطباء أو علماء الآثار عمود تراجان أو أعمدة هرقل أو عمود ضرب المسيح أو عمود النور الذى أرشد بنى إسرائيل فى الصحراء . وكان أول ظهور لهم فى التاريخ فى عام ١١٠٤ . وهذا يشهد بقوتهم وقدمهم ، بينما يشرح المعنى البسيط لاسمهم . لقد استفزت أسرة كولونا أسلحة باسكال الثانى باغتصاب كافاى Cavae ولكنهم كانوا يملكون بصفة شرعية فى ريف رومه اقطاعيتين وراثيتين هما مقاطعة زاجارولا ومقاطعة كولونا . ومن المحتمل أن المدينة الثانية من هاتين المدينتين تألق فيها عمود مرتفع هو بقية باقية من احدى الدور الريفية أو المعابد .كما كانوا يملكون نصف المدينة المجاورة وهى مدينة توسكولوم Tusculum . وهنا زعم قوى بأنهم ينتسبون الى دوق توسكولوم . وكانوا فى القرن العاشر طغاة الكرسى الرسولى . وتبعا لرأيهم الخاص ، وللرأى العام ، يرجع الأصل الأول والبعيد الى شواطىء نهر الرين . ولم يستح ملوك ألمانيا من قرابة حقيقية أو مزعومة مع أسرة نبيلة اشتهرت فى الكثير الغالب بالجدارة والفضل ، ودائما بالحظ الحسن ، رغم تقلبات الزمن طيلة سبعمائة سنة . وفى أواخر القرن الثالث عشر تقريبا تألف أقوى فرع فى الأسرة من عم وستة أخوة ، كلهم ذوو شهرة فى الجيش أو الكنيسة . ومن بينهم انتخب بطرس عضوا فى سناتو رومه ، وأخذ فى عربة نصر الى الكابيتول وحيته بعض الهتافات العقيمة بلقب قيصر . على حين أعلن نقولا الرابع جون مركيزا على أنكونا وستيفن دوقا على رومانا . وكان راعيا لهذه الأسرة متحيزا لها حتى انه رسم فى صور هجائية وكأنه قد سجن فى عمود أجوف . وبعد موته أثار سلوكهم المتعجرف غضب أقسى

البشر . لقد أنكر الكاردينالان ، العم وابن أخيه ، انتخاب بونيفاس الثامن . وخمدت لفترة ما شوكة أسرة كولونا بفعل أسلحته الروحية والزمنية . وأعلن حربا صليبية ضد أعدائه الشخصيين . فصـودرت ممتلكاتهم ، وحوصرت حصونهم على ضفتى نهر التيبر بجنود القديس بطرس وجنود خصومهم من النبـلاء ، وبعد تخريب باليسترينا أو برانستى ، وهى مقرهم الرئيسى ، قلبت الأرض قلبا بمحراث ، علامة على الخراب الأبدى . وانزل الأخوة الستة من مراكزهم ونفوا وأهدر دمهم ، فجاسوا خلال أوربا متنكرين تحف بهم الأخطـار من كل جانب ، دون أن يفقدوا الأمل فى النجاة والثأر . وفى هذا الأمل المزدوج كان بلاط فرنسا لهم أكثر ملجأ أمنا . فدبروا مشروع فيليب، وقاموا على تنفيذه . وكان لزاما على أن أمتدح شهامتهم ، لو أنهم قدروا نكبة الطاغية الأسير واحترموا شجاعته . لقد أبطل الشـعب الرومانى أعماله المدنية ، ورد الى أسرة كولونا ألقابها وممتلكاتها . ومن الممكن أن نكون فكرة عن ثروتهم من خسائرهم ، وعن خسائرهم من التعويضات التى منحت لهم ضد شركاء البابا المتوفى وورثته ، ومقدارها مائة ألف فلورين من الذهب ، وأبطل خلفاؤه العقلاء كل لوم روحى أو تجريد من الحقوق . ولم تزد هـذه العاصفة الطارئة حظ الأسرة الا قوة . واشتهرت جرأة شيارا كولونا فى أسر بونيفاس ، وبعد ذلك بفترة طويلة فى تتويج لويس البافارى . وبسبب اعتراف الامبراطور بجميلهم أحيط العمود ، وهو رمز أسرتهم ، بتاج ملكى . وكان ستيفن الأكبر هو قمة هذه الأسرة فى الشهرة والفضل ، وقـد أحبه بترارك واعتبره بطلا أعظم من زمانه ، وجديرا كل الجدارة برومه

القديمة . وقد كشف الاضطهاد والنفى للناس عن قدراته فى الحرب والسلم . ففى أيام الشدة والضيق كان موضع احترام لا شفقة ، وقد حفزه احداق الخطر به الى أن يعلن عن اسمه ووطنه . وعندما سئل : « وأين قلعتك الآن » ؟ وضع يده على قلبه وأجاب : « هنا » . وقد استقبل عودة الرخاء بالروح نفسها . والى أن آذنت شمس حياته بمغيب ، بعد أن تقدمت به السنون ، رفع أجداد ستيفن كولونا وأخلاقه وأبناؤه من مكانته فى الجمهورية الرومانية وفى بلاط أفنيون.

٢ ــ هاجرت أسرة أورسينى Ursini من سبوليتو . فهم أبناء أورسوس Ursus كما سموا فى القرن الثانى عشر ، وهو شخصية لامعة بارزة ، وقد عرف فقط بأنه أب لهذا العرق . ولكن سرعان ما برزوا بين نبلاء رومه بكثرة عدد عشيرتهم وشجاعتهم ، وبقوة قلاعهم ، وشرف العضوية فى السناتو والمجمع المقدس ، وارتقاء اثنين الى كرسى البابوية هما سلستين الثالث ونيقولا الثالث ، وقد انتسبا الى هذه الأسرة وحملا اسمها . وربما اتهمت ثروتهم بأنها جاءت من سوء استغلال مبكر للمحاباة ، فقد تنازل لهم سلستين الجواد عن أملاك القديس بطرس . ومن أجلهم كان طموح نقولا الى محالفة الملوك والى تأسيس مملكتين جديدتين فى لومبارديا وتوسكانيا والى الحصول لهم على العضوية الدائمة فى سناتو رومه . وكان ما قلنا عن عظمة أسرة كولونا يضفى مجدا ، سوا بسواء ، على أسرة أورسينى خصومهم الدائمين المساوين لهم فى النزاع الوراثى الطويل الذى مزق الحكومة الكنسية أكثر من مائتين وخمسين سنة . وكان الحقد الذى يتولد من الشهرة والقوة هو السبب الحقيقى لنزاعهم ، ولكن ، كعلامة

خداعة على الامتياز ، اتخذت أسرة كولونا اسم الجبليين Ghibellines على أنهم حزب الامبراطورية ، أما أسرة أورسيني فحملت لقب الويلف Guelphs ، وانحـازوا الى الكنيسـة . وقد عرض النسر والمفاتيح فى راياتهم المتضادة ، كما ثار النزاع الوحشى بين حزبى ايطاليا بعد أن نسى الناس منذ زمن طويل أصل النزاع وطبيعته . وبعد أن انسحب البابوات الى أفنيون ، تقاتلوا على الجمهورية الشاغرة ، واستمرت شرور النزاع بسبب الحل الوسط المنكود الذى قضى بأن ينتخب كل عام عضوان متنافسان للسناتو ، فأقفرت المـدن والقرى بسبب عدائهم الشخصى ودارت الحرب بينهما سجالا ، وتأرجحت بينهمـا كفة النصر ، ولم يسقط أى من الأسرتين بالسيف قبـل أن يفاجىء ستيفن كولونا الأصغر أشهر أبطال أسرة أورسيني ويرديه قتيلا . وقد تلوث انتصاره باتهامه بخرق الهدنة . وجاء الانتقـام للهزيمة انتقاما خسيسا ، اذ راح ضحيته طفل برىء وخادماه أمام باب الكنيسة . ومع ذلك فان عضو أسرة كولونا المنتصر انتخب عضوا لمدة خمس سنوات فى السناتو ، وانتخب زميله لمدة سنة .وقد أوحت ربة الشعر الى بترارك برغبة أو أمل أو نبوءة فى أن يعيد ذاك الفتى الكريم ، ابن بطله المبجل ، رومه وايطاليا الى مجدهما الأول ، وأن يقطع عدله دابر الذئاب والأسود والحيـات والدببة التى تجـاهد لتقوض الأساس الخالد للعمود الرخامى .

الفصل السبعون

(١٣٠٤-١٥٠٠)

بترارك • رينزى وعودة « الحكومة الفاضلة » • ازدهار الجمهورية الرومانية • فروسية رينزى ، وتتويجه ، حماقاته • عودة البابوات الى رومه • الانشقاق العظيم فى الغرب • حكومة رومه فى القرن الخامس عشر • الحكومة الكنسية •

بترارك

بترارك فى مفهوم العصور الحديثة ، هو الشاعر الايطالى الذى تغنى بالحبيبة « لورا » وبالحب . وعلى أنغـام قوافيه التوسكانية تصفق ايطاليا ، أو بالأحرى تقدس أبا شعرها الغنائى . ويتردد على الألسنة شعره ، أو على الأقل اسمه ، فى حماس أو ميل ينبعث من احساس بالمحبة . ومهما يكن الذوق الشخصى للأجنبى ، فان معرفته الضئيلة السطحية يجب أن تذعن فى تواضع أمام ذوق أمة مثقفة . ومع ذلك ، فانى أؤمل أو أفترض أن الايطاليين لا يقارنون الرتابة المملة فى المقطوعات ذات الأربعة عشر بيتا وفى المراثى ، باتتاجهم الرائع الرصين من الشعر البطولى ، وبالطبيعة الأصيلة عند دانتى ، وبألوان الجمال المنتظم عند تاسو ، وبالتنوع الذى لا يبارى عند أريوستو . ولا زلت غير أهل للحكم على مناقب العاشق . ولست أهتم اهتماما

كبيرا يهوى ميتافيزيقى لحورية فاتنة ، ومجرد شبح ، مشكوك فى وجودها . أو سيدة ولود أنجبت أحد عشر طفلا شرعيا ، بينما عاشقها الولهان يتنهد ويغنى بجوار نافورة فوكلوز Vcucluse . ولكن فى نظر بترارك ومعاصريه الأكثر رزانة ، كان الحب اثما ، والشعر الايطالى لهوا تافها . ان مؤلفاته التى كتبت باللغة اللاتينية فى الفلسفة والشعر والبلاغة ، هى التى بنت شهرته الحقيقية ، التى سرعان ما انتشرت من أفنيون الى جميع أرجاء فرنسا وايطاليا . وقد ازداد عدد أصدقائه وتلاميذه فى كل مدينة . واذا كانت المجلدات الضخمة من مؤلفاته قد أودعت الآن الرفوف فاننا — اعترافا منا بالجميل ، يجب أن نشيد برجل أحيابالتعليم وبالقدوة روح عصر أوغسطس ودراساته . ومنذ شبابه المبكر تاق بترارك الى الحظوة بتاج الشعر . وقد أوجدت مراتب الشرف الجامعية فى الكليات الثلاث درجة ماجستير أو دكتوراه فى فن الشعر . وكان قياصرة ألمانيا هم أول من ابتدع لقب شاعر البلاط ، الذى خلدته ، فى البلاط الانجليزى ، العادة ، لا الغرور . وكان الفائز فى المباريات الموسيقية فى العالم القديم يمنح جائزة . وقد أشعل الاعتقاد بأن فرجيل وهوراس توجا فى معبد الكابتول روح المنافسة فى شاعر لاتينى ، وقد أغرم العاشق بأكليل الغار لمشاكلة لفظية بينه وبين اسم الحبيبة . وقد زادت صعوبة السعى من قيمة كل من الهدفين . واذا كانت فضيلة لورا (الحبيبة) أو رزانتها لا ترحم ، فقد استمتع ، أو ربما استطاع أن يفاخر بأنه تمتع بعروس الشعر . ولم يكن غروره شديد الحساسية اذ أنه كان يمتدح نجاح جهوده . وكان اسمه محبوبا ، وكان أصدقاؤه نشيطين . وقد تغلبت الموهبة الصامدة البارعة على العداوة العلنية أو الخفية

التى يمليها الحقد والحسد والبغضاء . وفى السادسة والثلاثين من عمره طلب اليه أن يقبل ما كان يصبو اليه ، وفى اليوم نفسه ، وهو وحيد فى فوكلوز ، جاءته دعوة كريمة مماثلة من السناتو فى رومه ومن جامعة باريس . وكان علم مدرسة اللاهوت ، وجهـــل المدينة التى لا يحكمها قانون ، كلاهما غير أهل لمنح هذا الاكليل المثالى ـــ ولو أنه خالد ـــ الذى يمكن أن تحظى به العبقرية من الثناء العام الخالص ومن الأعقاب . ولكن مرشحنا رفض هذا الخاطر المتعب . وبعد لحظات من الرضا والتمهل فضل دعوة عاصمة العالم .

وقد قام بمراسم هذا التتويج فى الكابتول صديقه وحاميه الحاكم الأعلى فى الجمهورية . وصحب الموكب اثنا عشر شابا من علية القوم بملابسهم القرمزية ، وستة من ممثلى الأسر الكبيرة بملابســـهم الخضراء وعلى رءوسهم أكاليل من الزهر . ووسط حشد من الأمراء والنبلاء ، اعتلى عضو الشـــيوخ ، ودوق أنجويلارا وقريب أسرة كولونا ، عرشه . وعندما جلجل صوت المنادى ، وقفه بترارك . وبعد أن تحدث عن نص من فرجيل ، وبعد أن كرر ثلاث مرات دعاءه بالرخاء والازدهار لرومه ، ركع أمام العرش وتسلم من عضو السناتو اكليلا من الغار ، مع اعلان أكثر قيمة : « هذه هى جائزة الجدارة » . وصاح الشعب : « العمر المديد للكابيتول وللشاعر » . واستمع الناس الى مقطوعة شعرية فى مديح رومـــه ، كنتاج لعبـــقريته ورمز لاعترافه بالجميل . وبعد أن زار الموكب بأجمعه الفاتيكـــان . علق الاكليل الدنيوى أمام ضريح القديس بطرس .. وفى الوثيقة أو الدرجة التى قدمت اليه ، بعث لقب « شاعر البلاط » وامتيازاته فى الكابتول بعد مضى ألف وثلثمائة سنة ، ومنح الامتياز الدائم أن يلبس ، اذا أراد ،

تاجا من الغار أو اللبلاب أو الآس ، وأن يرتدى لباس الشعراء ، وأن يدرس ويناقش ويشرح ويؤلف فى جميع الأماكن وفى كل الموضوعات الأدبية . ووافق مجلس الشيوخ والشعب على هذه المنحة . وكان منحه لقب المواطن جزاء وفاقا لتعلقه باسم الرومان . لقد أسبغوا عليه شرفا ، ولكنهم أنصفوه ومنحوه ما يستحق . فقد تشبع بأفكار المواطن العتيق لكثرة صحبته لشيشرون وليفى . وقد حول خياله المتقد كل فكره الى احساس ، وكل احساس الى هوى . وقد ثبت منظر التلال السبعة وأطلالها الجليلة هذه الانطباعات الحيوية . انه أحب وطنا توجه وتبناه بروح كريمة . وقد أهاج فقر رومه وانحطاطها غضب ابنها البار وشفقته . لقد أخفى أخطاء مواطنيه . وشاد فى حب وتحيز بآخر أبطالهم وسيداتهم . وأثلج صدره أن ينسى بؤس الحاضر فى ذكريات الماضى . وفى أمل المستقبل . ولا زالت رومه سيدة العالم الشرعية ، ولكن البابا والامبراطور : أسقفها وقائدها ، قد اعتزلا منصبيهما وانسحبا على نهج شائن ، الى الرون والدانوب . ولكن ان كان فى الامكان أن تستعيد مكانتها ، فلربما دعمت الجمهورية مرة أخرى حريتها وممتلكاتها . وفى غمرة الانهماك فى الحماس والبلاغة ، أذهلت بترارك وايطاليا وأوربا ثورة حققت لفترة ما ، أروع ما تصور من رؤى . وسيحتل ظهور التربيون رينزى وسقوطه الصفحات التالية . فالموضوع هام والمادة موفورة ، ولا بد أن تبعث نظرة شاعر وطنى ، فى بعض الأحيان ، روح الحياة فى الوصف الغزير ، ولكنه البسيط ، الذى دبجه مؤرخ فلورنسة ، وبشكل أخص ، مؤرخ رومه .

رينزى وعودة الحكومة الفاضلة

فى حى من المدينة كان يسكنه الصناع الميكانيكيون واليهود ، أنجب زواج صاحب خان من امرأة « غســـالة » ، منقذ رومه فى المســـتقبل . ولم يكن فى امكان نيقــولا رينزى جابرينى Rienzi أن يرث عن مثل هذين الوالدين مكانة أو ثروة . ولكن التعليم الحر الذى تلقاه ، كان هو الهبة الكريمة التى قاسى أبواه فى ســـبيلها الآلام ، كما كان سبب مجده وموته المبكر قبل الأوان . وقد سمت دراسته للتاريخ والبلاغة ومؤلفات شيشرون وسينكا وليفى وقيصر وفاليريوس ماكسيموس ، سمت بعبقرية هذا الفتى الذى خرج من صفوف العامة ، فوق قرنائه ومعاصريه . ولقد تصفح بجد لا يعرف الكلل المخطوطات العتيقة والنقوش القديمة ، وكان يميل الى نشر معارفه فى لغة عادية مألوفة ، وكثيرا ما ثارت نفسه ، فصــــاح : « أين هم الآن أولئك الرومان ؟ أين فضيلتهم ، وعدلهم ، وقوتهم ؟ لماذا لم أولد فى تلك الأيام السعيدة ؟ » وعندما بعثت الجمهورية بوفد الى عرش أفنيون مؤلف من الطبقات الثلاث ، رشحت رينزى روحه وفصاحته لاحتلال مكانة بين الأعضاء الثلاثة عشر الذين وقع عليهم الاختيار من بين العامة . وحظى هذا الخطيب بشرف القاء كلمة فى حضرة البابا كليمنت السادس ، والتحدث الى بترارك ، وهو ذو عقلية مماثلة . ولكن آماله الطموحة أخمدها العار والفقر . واضطر هـــذا

الوطنى الغيور أن يكتفى برداء واحد . وبما يمنحه المستشفى من صدقات . وقد أنقذه من هذا البؤس شعور بالجدارة ، أو ابتسامة الحظوة ، وكفلت له وظيفة موثق بابوى مرتبا يوميا قدره خمسة فلورينات من الذهب ، وصلات أكثر شرفا واتساعا ، كما مكنته من مقارنة نزاهته قولا وعملا بمساوىء الدولة . وكانت فصاحة رينزى يقظة ومقنعة . والجماهير دائما ميالة الى الحقد والتقريع واللوم . وقد أثاره فقد أخيه وافلات السفاكين من العقاب . ولم يكن من الممكن تبرير المصائب العامة أو المبالغة فى وصفها . وقد اختفت من رومه نعمتا السلام والعدالة ، اللتان من أجلهما أنشىء المجتمع المدنى . كما أن المواطنين الغيورين الذين كان من الممكن أن يحتملوا أى أذى فى أجسادهم أو أموالهم ، أصيبوا بجرح عميق غاية العمق ، فى هتك أعراض زوجاتهم وبناتهم ، وعصف بهم سواء بسواء غطرسة النبلاء وفساد الحكام . وكان سوء استعمال الأسلحة أو القانون هو الأمر الوحيد الذى ميز بين سباع الكابتول وبين كلابه وأفاعيه . وتكررت وتنوعت هذه الاشارات الرمزية فى الصور التى كان يعرضها رينزى فى الطرقات وفى الكنائس . وبينما حملق النظارة فى دهشة غريبة ، كان هذا الخطيب الشجاع السريع الخاطر يوضح ويهجو ، ويهيج المشاعر ، كما يبعث فيهم أملا بعيدا فى الراحة والخلاص . وكانت امتيازات رومه وسلطانها الدائم على أمرائها وولاياتها هى موضوع أحاديثه الخاصة والعامة . وتحول فى يديه أثر من آثار العبودية الى عنوان على الحرية وحافز اليها . لقد نقش قرار السناتو الذى منح فيسباسيان أعظم الامتيازات على لوح من

النحاس لا يزال قائما فى مكان الجوقة فى كنيسة القديس يوحنا لاتيران . وقد دعيت جماعة كبيرة من النبلاء والعامة الى هذه المحاضرة السياسية . وشيد مسرح مناسب لاستقبالهم . وظهر الموثق وهو يرتدى لباسا فخما غريبا . وشرح النقوش بعد أن ترجمها وعلق عليها ، وأفاض بطلاقة فى الأمجاد العتيقة المسناتو والشعب ، وهما مصدر كل سلطة شرعية . ولم يكن جهل النبلاء المطبق بمستطيع أن يتبين الاتجاه الحقيقى لهذه الأحاديث . وكان فى استطاعتهم فى بعض الأحيان ، بالألفاظ واللكمات ، تأديب هذا المصلح الذى خرج من صفوف العامة ، غير أنه كثيرا ما سمح له فى قصر أسرة كولونا بأن يسلى المجتمعين بتهديداته وتنبؤاته . وكان بروتوس العصر الحديث يتنكر تحت قناع الحماقة ، وفى شخصية المهرج . وبينما كانوا سادرين فى غيهم واحتقارهم ، كانت « عودة الحكومة الفاضلة » ، وهو تعبيره المفضل ، تنتشر بين الناس كحدث مرغوب فيه ، أو ممكن ، وفى النهاية وشيك الوقوع . وبينما كان الجميع يميلون الى التصفيق لمنقذهم « المنتظر » ، أوتى بعضهم من الشجاعة ما يمكنهم من معاونته .

كانت النبوءة أو بالأحرى النداء الذى علق على باب كنيسة القديس جورج هو أول شاهد علنى على خططه ، كما كان عقد جمعية ليلية مؤلفة من مائة مواطن على جبل أفنتين أول خطوة فى تنفيذها . وبعد أن أقسم المتآمرون يمين السرية والمساندة ، بين لهم أهمية مشروعهم وسهولته ، وأن النبلاء ، الذين لا تجمعهم وحدة ، وليست لديهم موارد ، كانوا أقوياء فقط فى خوف الناس من

قوتهم الخيالية ، وأن كل قوة ، وكذا كل حق ، فى أيدى الشعب ، وأن موارد الخزانة الرسولية يمكن أن تخفف من الضائقة العامة ، وأن البابا سيبارك انتصارهم على العدو المشترك للحكومة والحرية . وبعد أن جمع حوله عصبة موالية ، لتـــأييد اعلانه الأول ، أعلن بالأبواق فى مختلف أرجاء المدينة ، أن على الجميع أن يجتمعوا فى مساء اليوم التالى أمام كنيسة القديس أنجيلو دون أن يحملوا أسلحة، وذلك للاعداد لتأسيس « الحكومة الفاضلة » . وانقضى الليل كله فى اقامة ثلاثين حفلا لتقديم قربان الروح القدس . وفى الصباح خرج رينزى من الكنيسة عارى الرأس مدججا بسلاحه ، يحيط به المتآمرون المائة . وقد أقنع نائب البابا ، أسقف أورفيتو الساذج ، بالاشتراك فى هذا الحفل الغريب . فسار على يمين رينزى وحملت أمامه ثلاثة ألوية كبيرة كرموز على هدفهم . ففى اللواء الأول وهو راية الحرية ، جلست رومه على أسدين وفى احدى يديها ســـعف النخيل وفى اليد الثانية الكرة الأرضية . ورسم على اللواء الثانى راية العدالة القديس بولس وهو يمسك بسيف مســـلول . وعلى اللواء الثالث رسم القديس بطرس وهو يقبض على مفاتيح الوفاق والســـلام . وقد شجع رينزى وجود جماهير لا حصر لها تهتف وتهلل ، وهى تفقه القليل وتؤمل فى الكثير . وســـار الموكب ببطء من قلعة القديس أنجيلو الى الكابيتول . وقد أثار نصره بعض الانفعالات التى جاهد فى اخمادها . وارتقى دون مقاومة وفى ثقة ظاهرية قلعة الجمهورية ، وخطب فى النـــاس من الشرفة ، وتلقى موافقة متملقة على أعماله وقوانينه . ونظر النبلاء فى فزع صامت الى هذه الثورة الغريبة ،

وكأنهم عزل من السلاح مجردون من الرأى والمشورة . وقد اختيرت اللحظة المناسبة فى دقة وحزم عندما كان ستيفن كولونا ، وهو أقوى النبلاء شكيمة ، غائبا عن المدينة . وعند أول اشاعة سارع بالرجوع الى قصره . وتظاهر بأنه يحتقر هذا الشغب الشعبى ، وأعلن الى رسول رينزى أنه سيلقى ، عندما يريد ، بهذا المجنـــون من نوافذ الكابيتول . فدق الناقوس الكبير توا ، انذارا . وتتابعت الأحداث بسرعة وأحدق الخطر ، حتى ان كولونا نفســـه بادر بالهرب الى ضاحية القديس لورنس ، ومن هناك ، بعد أن اســـتراح لحظة ، جد السير حتى وصل فى أمان الى حصن باليسترينا ، وهو يندب قلة حزمه فى أنه لم يقض على الشرارة التى أشعلت هذه النار الكبرى . وصدر من الكابيتول أمر عام حاسم لجميع النبـــلاء بالذهاب بطريقة سلمية الى مزارعهم . فأطاعوا . وقد كفـــل خروجهم هدوء مواطنى رومه الأحرار المطيعين .

ولكن مثل هذه الطاعة الاختيـــارية تتبخر مع أول نشـــوات الحماس . وشعر رينزى بأهمية تبرير استيلائه على الحكم بتشكيل منتظم ولقب قانونى . وتبعا لاختيـــاره هو ، كان الشعب الرومانى مستعدا لاظهار تعلقهم به ولاظهار نفوذهم بأن ينثروا على رأســـه لقب عضو السناتو أو قنصل أو ملك أو الامبراطور ، ولكنه فضل اسم التريبيون ، وهو لقب قديم متواضع . وكانت حماية العامة هى جوهر هذه الوظيفة المقدسة . وكانوا يجهلون أنها لم تمنح صاحبها قط أى قسط فى السلطتين التشريعية والتنفيذية فى الجمهورية . وفى هذا المنصب وبموافقة الرومان أصدر التريبيون أنجح القوانين لاعادة

« الحكومة الفاضلة » والاحتفاظ بها . وفى أول هـــذه القوانين كان يحقق رغبة الرجل الأمين غير المجرب ، فقضى بألا يطول الفصـــل فى أية قضية مدنية لأكثر من خمسة عشر يوما . وقد يبرر الخوف من تكرار الحنث ، الحكم على من اتهم آخر كذبا بالعقوبة نفسها التى كانت أدلته تؤدى اليها . ان الفوضى والاضطرابات التى سادت العصر ترغم المشرع على أن يعاقب على كل قتل بالاعدام وكل اعتداء بقصاص مماثل . ولكن تنفيذ العدالة كان أمرا لا أمل فيه ، قبل أن يقضى أولا على طغيان النبلاء . فنص صراحة على أنه لا يجوز لأحد سوى الحاكم الأعلى أن يستولى على ، منافذ الدولة أو قناطرها أو قلاعها أو أن يتحكم فيها . وأنه يحرم الاتيان بحاميات خاصـــة الى مدن الأرض الرومانية أو قلاعها . وأنه لا يجوز أن يحمل أحد سلاحا أو يحصن داره فى المدينة أو الريف . وعلى البارونات مسئولية حماية الطرقات وحرية مرور المؤن . وأنه يعاقب على حماية الأشرار واللصوص بغرامة مقدارها ألف مارك من الفضة . ولولا أن سيف السلطة المدنية أرهب النبلاء الداعرين ، لبقيت هـــذه التشريعات عديمة القوة والقيمة . واستطاع انذار مفاجىء من ناقوس الكابيتول أن يضم الى اللواء أكثر من عشرين ألف متطوع . ولكن تأييد التريبون وقوانينه كانت فى حاجة الى عون مستمد من قوة دائمة أكثر انتظاما . ففى كل ميناء على الشاطىء وضعت سفينة لتأمين التجارة . وجندت قوة ثابتة من الحرس ، قوامها ثلثمائة وستون من الخيالة وألف وثلثمـــائة من الرجالة ، يتسلمون لباسهم ويتقاضون أجورهم ، فى أحياء المدينـــة الثلاثة عشر . ويمكن أن تتتبع أثر روح الكومنولث فى المنحة المشكورة

وقدرها مائة فلورين أو جنيه تدفع لورثة كل جندى يفقد حياته فى سبيل الدفاع عن وطنه . واستخدم رينزى ـــ دون خوف من تهمة الاعتداء على الأموال المقدسة ـــ موارد الخزانة الرسولية لانشاء قوة للدفاع العام واقامة مخازن للغلال واسعاف الأرامل اليتامى والأديرة الفقيرة . وكان كل فرع من الفروع الثلاثة ، أعنى ضريبة الوقود والملح والمكوس تدر مائة ألف فلورين سنويا . ولابد أن سوء الاستغلال كان شنيعا ، اذ كانت ضريبة الملح وصلت فى أربعة أشهر أو خمسة الى ثلاثة أمثال حصيلتها السابقة ، وذلك بسبب تدبيره الدقيق . وبعد أن أعاد قوى الجمهورية وماليتها ، استدعى التربيون النبلاء من عزلتهم واستقلالهم ، وطلب منهم الحضور شخصيا الى الكابتول وفرض عليهم يمين الولاء للحكومة الجديدة والخضوع لقوانين « الحكومة الفاضلة » . وخاف الأمراء والبارونات على سلامتهم ، ولكنهم توجسوا خيفة أكثر من الرفض ، فعادوا الى دورهم فى رومه وهم يرتدون لباس المواطن البسيط المسالم . واختلط أعضاء أسرة كولونا وأورسينى وسافيلى وفرانجيبا أمام منصة هذا الفرد العادى من الرعاع ، ذاك المهرج الدنىء الذى طالما سخروا منه ، وزاد فى عارهم ذاك السخط الذى كانوا يجاهدون عبثا لاخفائه . وقد نطقت بالقسم نفسه طبقات المجتمع العديدة على الترتيب : رجال الدين والأعيان والقضاة والموثقون والتجار والصناع . وقد ميز هذا الهبوط التدريجى ارتفاع فى درجة الاخلاص والحماس : أقسموا أن يحيوا ويموتوا للجمهورية والكنيسة ، وقد أدمجت مصالح الكنيسة بطريقة ماكرة ، بتعيين أسقف أورفيتو نائب البابا فى وظيفة

التربيون اسميا فقط . وكان رينزى يفخر بأنه خلص عرش القديس بطرس وأمواله من أرستقراطية مشاغبة متمردة . وقد تظاهر كليمنت الذى ابتهج لسقوطها ، بأنه يؤمن بآراء خادمه الأمين ، وأنه يشيد بمآثره ويوافق على لقبه . وقد ألهم حرص قوى على نقاء العقيدة ، لغة التربيون ، ومن المحتمل أنه ألهم عقله كذلك ، فأشار من طرف خفى الى دعواه بأنه يتلقى رسالة مقدسة من الروح القدس . وفرض كواجب سنوى « الاعتراف » وتسلم القربان ، وعاقب على مخالفة ذلك بغرامة ثقيلة . وقام بدقة على رعاية شعبه الوفى وسعادته الروحية والدنيوية معا .

ازدهار الجمهورية الرومانية

ربما لم يسبق قط من قبل أن أحس الناس بطاقة عقل واحـد وأثره ، أشد من احساسهم باصلاح رومه على يد التربيون رينزى ، وهو اصلاح مفاجىء ، ولكنه عابر . وتحولت بؤرة لصوص الى معسكر أو دير . فكان يصغى فى صبر ، ويسارع الى تضميد الجراح وتخفيف الآلام ، ولا يقبل شفاعة عند انزال العقوبة ، وكان الوصول الى ساحته دائما سهلا على الفقير والغريب . ولم يكن المولد أو المركز أو حصانة رجال الكنيسة لتحمى المذنب أو شركاءه . وأبطل امتيازات بعض الدور والمعابد الخاصة فى رومه ، تلك التى لم يكن أى مندوب من مندوبى العدالة يجرؤ على دخولها ، واستخدم أخشاب حواجزها وحديدها فى تحصين الكابتول . وتعرض رب أسرة كولونا المبجل الى العار المزدوج ، فى أنه لا يستطيع فى قصره أن يحمى مجرما على الرغم

من رغبته الشديدة فى ذلك . وسرق يوما بغل يحمل اناء من الزيت بالقرب من كابرانيكا ، وقد حكم على رب أسرة أورسينى بأن يعوض الخسارة وأن يدفع غرامة قدرها أربعمائة فلورين لاهماله فى حراسة الطرق العامة . ولم يتمتع أشخاص البارونات بحصـــانة أكثر من أرضهم ودورهم . ومن الجائز أنه حدث اتفاقا أو عمدا أن عين الصرامة المحـــايدة انصبت على رؤساء الأحــزاب المتعــادية . فقبض على بيتر أجابيت كولونا الذى كان عضوا فى السناتو فى رومه بسبب عدوان أو دين ، واستراح ضمير العدالة باعدام مارتن أورسينى ، ولو بعد حين ، وكان من بين أعمال العنف والنهب التى ارتكبها أنه اعتدى على سفينة غارقة فى مصب نهر التيبر وسلبها . ولم يعبـــأ التربيون الذى لا يقبل شفاعة والذى كان قد اختار ضحيته ، لم يعبأ باسمه ولا بالرداء الأرجوانى لاثنين من الكرادلة ، هما عماه ، ولا بزواج حديث ، ولا بمرض قتال . فجره ضباط الحكومة من قصره ، من مخدع الزوجية ، وكانت محاكمته قصيرة ومرضية ، وجمع ناقوس الكابيتول الناس . ونزع رداؤه . وركع على ركبتيه وقد ربطت يداه وراء ظهره . وسمع الحكم عليه بالاعدام . وبعد اعتراف قصـــير ، اقتيد أورسينى الى المشنقة . وبعد هذا المثال ، لم يطمع امرؤ يدرك خطيئته فى الافلات من العقـــوبة . وسرعان ما طهر هروب الأشرار الداعرين والخاملين مدينة رومه وما حولها . وهنا يقول المؤرخ : « وفى هذا الوقت بدأت الغابات تبتهج اذ خلت من اللصـــوص ، والثيران تحرث ، والحجـــاج يزورون المعابد ، وامتلأت الطرقات والخانات بالمسافرين . وعادت التجارة والأمانة والرخاء الى الأسواق .

ومن الممكن عرض كيس ملىء بالذهب دون خطر فى وسط الطريق العام . وحالما يطمئن المرء على حياته وماله ، تدب الحياة تلقائيا فى فنون الصناعة وتؤتى أكلها . وكانت رومه لا تزال عاصـــمة العالم المسيحى ، وقد انتشرت شهرة التربيون وحظه فى كل قطر ، على لسان الغرباء الذين استمتعوا بخيرات حكومته .

وأوحى انقاذ الوطن الى رينزى بفكرة عريضة ، وقد تكون خيالية ، هى توحيد ايطاليا فى جمهورية اتحادية (فدرالية) كبرى تكون رومه هى مركزها الشرعى والعتيق . وتكون المدن الحرة والنبلاء الأحرار أعضاءها وحلفاءها . ولم يكن قلمه أقل فصاحة من لسانه ، وقد سلمت رسائله العديدة الى رسل سريعين موثوق بهم ، اخترقوا على أقدامهم ، وهم يمسكون بعصا بيضاء ، الغابات والجبـــال ، وتمتعوا فى أكثر الولايات عداوة بحصانة السفراء ، وعادوا يقولون فى لغة الملق أو الصدق ان الطرقات التى مروا بها كانت مليئة بالجماهير الراكعة التى تدعو الله لنجاح مساعيهم . فكان من الممكن لو أن الهوى استمع الى العقل ، ولو أن المصلحة الخاصة أخلت السـبيل للمصلحة العامة ، أن تخفف المحكمة العليا والاتحـاد الفيـدرالى لجمهورية ايطاليا من شقاقها الداخلى فتغلق جبـال الألب ضد برابرة الشمال . ولكن هيهات ، لقد فات الأوان . واذا قدمت البنـدقية وفلورنسه وسـيينا وبيروجيا وكثير من المدن الصـغيرة أرواحهـا وأموالها للحكومة الفاضلة ، فان طاغيتى لومبارديا وتوسـكانيا كانا يحتقران أو يمقتان حتما الرجل الذى خرج من صفوف الرعاع ، والذى أذاع دستورا حرا . ولكن التربيون تلقى منهما ومن كل جزء فى

ايطاليا ردودا بلغت الذروة فى المحبة والاحترام . ثم جاء فى أثرها سفراء الأمراء والجمهوريات . وبين هـذه الجماعات الأجنبية فى سـاعات اللهو والعمل كان الموثق الوضيع قادرا على أن يتخلق بآداب الملوك فى تواضعهم أو يحاكى جلالهم [1] وكان أهم حـدث فى حكمه ، التجاء لويس ملك المجر الى عدالته . فقد أرسل اليه يشكو من أن جين ملكة نابلى خنقت غدرا أخاه وهو زوجها . وبعد أن شـهد التريبون المحاكمة الرهيبة فى رومه ، واستمع الى محامى الدفاع ، أجل هذه القضية الهامة ، ولكنها البغيضة ، والتى سرعان ما فصل فيها ملك المجر بحد السيف . وفيما وراء الألب وعلى الخصوص فى أفنيون ، كانت الثورة موضع تساؤل ودهشة وثناء . وكان بترارك الصديق الخاص لرينزى ، وربما كان مستشاره السرى ، وكانت تشع من كتاباته روح الوطنية المشتعلة والابتهاج . لقد ضاع كل احترام للبابا وكل اعتراف بالجميل لأسرة كولونا فى أسـمى واجبات المواطن الرومانى . ويدافع شاعر البلاط فى الكابتول عن الثورة ، ويثنى على البطل ، ويمزج ببعض المخاوف والنصائح أروع الآمال فى ارتقاء الجمهورية مدارج العظمة ودوامها .

---

(١) وهكذا ذهل معارف أوليفر كرومويل القـدامى الذين تذكروا دخوله الى مجلس العموم البريطانى بطريقة خشنة فظة غير كريهة ـ عندما رأوا سلاسة أخلاق حامى حمى الجمهورية ، وهو جالس على عرشه يحف به الجلال . ان الشعور بالقـدرة والقوة « قد يرقى فى بعض الأحيان بالسلوك ليصل الى مستوى المرتبة التى يشغلها المرء .

فروسية رينزى ، تتويجه ، حماقاته

وبينما كان بترارك غارقا فى أحلامه ونبوءاته ، كان البطل الرومانى يهوى بسرعة من ذروة شهرته وقوته . وبدأ الشعب الذى كان يتطلع فى دهش الى صعود السراج الوهاج ، يلاحظ عدم انتظامه فى مساره وتعاقب الظلام والنور . وبات أكثر فصاحة وأقل حكمة ، وأكثر جرأة وأقل عزما ، فلم يكن يتحكم فى مواهب رينزى منطق هادىء مسيطر . فكان يبالغ فى تضحيتهم مناط الأمل وموطن الخوف عشر مرات . ان الحزم الذى لم يكن ليقيم عرشه ، لم يكن فى وسعه أن يحصنه . وفى ذروة رخائه وازدهاره كانت فضائله تلتاث ، دون وعى منه ، بالرذائل القريبة منها : العدالة بالقسوة ، والكرم بالاسراف، والرغبة فى الشهرة بالغرور الصبيانى الموصوم بالتباهى والتفاخر ، كان فى مقدوره أن يتعلم أن التريبون القديم الذى كان فى نظر الناس قويا مقدسا لم يكن يختلف عن الرجل من العامة فى أسلوب أو لباس أو مظهر ، وأنه كلما زار المدينة على قدميه ، أعانه فى مهمته صاحب واحد أو تابع واحد . ولو أن الأخوين الجراكيين ابنى جراكوس قرأا ألقاب خلفهما الطنانة ونعوته الرنانة ، لعبسا أو ابتسما ساخرين : « نيقولا ، قاس ورحيم ، منقذ رومه . حامى ايطاليا . صديق الجنس البشرى ، نصير الحرية والسلم والعدالة . تريبون مبجل » . وعاونت مواكبه المسرحية على الاعداد للثورة . ولكن رينزى ، ترفا وغرورا ، أساء استغلال المثل السياسى القائل بأن يتحدث المرء الى عيون الجماهير كما يتحدث الى عقولهم . فلقد منحته الطبيعة وسامة

وملاحة ، ولكن أفسدهما ومسخهما الافراط والادمان . وقد حد من ميله الى الضحك تكلف الرزانة والحزم ، وهو على منصة الحكم . وكان يرتدى ، على الأقل فى المناسبات العامة ، ثوبا متعدد الألوان من المخمل أو الأطلس ، مبطنا بالفراء ومزركشا بالذهب . وكانت عصا العدالة التى يحملها فى يده عبارة عن صولجان من الصـــلب الصقيل متوجا بسكرة وصليب من الذهب ، وبه قطعة صـــغيرة من الخشب الحقيقى المقدس . وفى مواكبه المدنية والدينية خلال المدينة كان يمتطى جوادا أشهب ، هو رمز الملكية . وكان علم الجمهورية الكبير ، وهو يمثل شمسا مع دائرة من النجوم ويمامة مع غصن الزيتون يرفرف فوق رأسه . وكانت القطع الذهبية والفضية تنثر على الناس ، كما أحاط بشخصه حرس مؤلف من خمسين جنديا يحملون الرماح . وسارت أمامه فرقة من الخيالة ، بطبولهم وأبواقهم المصنوعة من الفضة الخالصة . وقد كشف طموحه فى الحصـــــول على شرف الفروسية عن وضاعة أصله ، كما حط من أهمية منصبه . ولم يكن النبلاء الذين انحاز التريبيون الفارس الى جانبهم ، أقل مقتا له من العامة الذين هجرهم وتخلى عن صفوفهم . وقد أنفق فى ذلك اليوم كل ما بقى حتى الآن من الكنوز ومن الترف ومن الفن . ركب رينزى فى طليعة الموكب من الكابتول الى اللاتيران . وخففت الزينات والألعاب من ملل الطريق . سارت طبقات رجال الدين والمدنيين والعسكريين ، كل تحت علمه الخاص به . وسارت سيدات رومه فى ركاب زوجته . وكان من الممكن لسفراء ايطاليا أن يهللوا بأعلى أصـــواتهم أو أن يسخروا فى أعماقهم من هذا البهاء المبتدع . وبعد أن وصـــلوا فى

المساء الى كنيسة قسطنطين وقصره ، شـــكر المجتمعين ، وأذن لهم بالانصراف ، ودعاهم على كثرة عددهم الى الحفل الذى سيقام فى اليوم التالى . ومن يد فارس مبجل تسلم رتبة فارس من جماعة الروح القدس . وقد سبق ذلك تطهيره بالاستحمام . ولم يحدث أن أتى رينزى فى حياته عملا جلب عليه فضيحة ولوما أكثر من استخدامه فى ذلك اليوم ، فى أمر دنيوى ، الاناء المصنوع من الحجر السماقى ، الذى شفى بوساطته قسطنطين من مرض الجذام (وهى خرافة ســـمجة) على يد البابا سيلفستر . واجترأ بالقدر نفسه ، وانتظر التربيـــون أو استراح داخل الحرم المقدس للتعميد . وقد فسر سقوط سريره الرسمى على أنه نذير شؤم بسقوطه الوشيك . وعند اقامة الطقوس رأته الجماهير التى عادت الى الكنيسة فى أبهى مظهر من الجـــلال والعظمة ، مرتديا ثوبا أرجوانيا ومتمنطقا بسيفه وحول قدميه مهمازه المذهب ، ولكن سرعان ما أخل طيشه وحمقه بسير الطقوس المقدسة . حيث نهض من عرشه وتقدم نحـو المصلين وصاح بأعلى صـوته : « اننا نطلب الى البابا كليمنت أن يمثل أمامنا ونأمره بالاقامة فى أبرشيته ، أبرشية رومه . وكذلك نطلب الى مجمع الكرادلة المقدس ، ونطلب أيضا الى المدعيين ، شارل أوف بوهيميا ولويس أوف باڤاريا اللذين يسميان نفسيهما أمبراطورين ، كما أننا نطلب الى جميع ناخبى ألمانيا ، أن يقولوا لنا بأى حق اغتصبوا حق الشعب الرومانى الذى لا يمكنه التنازل عنه ، والشعب هو الســـيد الشرعى القـــديم للامبراطورية » . ثم استل سيفه البكر وأخذ يلوح به مشيرا الى أجزاء العالم الثلاثة ، وكرر ثلاث مرات هذا الاعلان المتهور : « وهذا أيضا

ملكى » . وقد حاول نائب البابا ، أسقف أورفيتو ، أن يحد من هذا المسلك الطائش . ولكن الموسيقا العسكرية غطت على احتجاجه الهزيل ، وبدلا من الانسحاب من الاجتماع ، قبل أن يتناول الطعام مع أخيه التربيون على مائدة كانت الى ذاك الوقت مخصصة للحبر الأعظم . وأعدت للرومان وليمة كتلك التى كان يولمها القياصرة ، ونثرت موائد لا حصر لهـــا فى الغرف والأروقة والأفنية فى قصر لاثيران لكلا الجنسين ولكل طبقات الشعب ، وسال نهير من النبيذ من خياشيم تمثال حصان قسطنطين البرونزى ، ولم تسمع أية شكوى الا من ندرة الماء . وحد النظام والخوف من عبث الجماهير . وحدد يوم تال لتتويج رينزى . فوضع أعظم رجال الدين من الرومان على رأسه بالترتيب سبعة تيجان مكونة من أوراق مختلفة ومعادن مختلفة. وهى تمثل هبات الروح القدس السبع . وكان لا يزال يعلن أنه يحكى مثال التربيونات القدامى . وقد تخدع الشعب هذه المشــاهد غير العادية أو تتملقه . وقد أرضى غرور زعيمهم غرورهم . ولكنه فى حياته الخاصة انحرف بسرعة عن جادة الاقتصاد والتقشف . ان العامة الذين آفزعهم ترف النبــلاء ، أهاجتهم الآن أبهــة الرجــل الذى هو من نظرائهم . وأبرزت زوجه وابنه وعمه (وكان حلاقا بالاسم والمهنة) التناقض بين سلوك الوضاعة وبذخ الأمراء . وانغمس رينزى فى رذائل الملك ، دون أن يحظى بجلاله .

فى عام ١٣٤٧ خلع رينزى عن منصبه ونفى . ثم عاد الى رومه بعد سبع سنوات يحمل لقب عضــو فى السناتو ، ولكنه قتل بعد أربعة أشهر ، فى سبتمبر سنة ١٣٥٤ .

عودة البابوات إلى روما

كانت عودة جمهورية حرة هى أولى رغبات بترارك وأسماها . ولكن بعد نفى بطله الذى خرج من صفوف الرعاع وموته ، اتجه نظره من التربيون الى ملك الرومان . وكان الكابتول لا يزال ملوثا بدم رينزى ، عندما هبط شارل الرابع من جبال الألب ليحصل على تاجى ايطاليا والامبراطورية ، وأثناء مروره بميلان ، استقبل شاعر البلاط . ودفع ثمن ملقه . فتقبل وسام أوغسطس ، ووعد فى جد ورصانة دون ابتسامة ، أن يقلد مؤسس الملكية الرومانية . وكان التطبيق الزائف للأسماء والقواعد القديمة مصدرا لآمال بترارك وخيبته ويأسه . ولكنه لم يكن يستطيع أن يغفل الفرق بين الأزمنة والشخصيات . وثمت شقة بعيدة بين القياصرة الأول وبين الأمير البوهيمى الذى انتخب ، بفضل رجال الدين ، رئيسا للطبقة الأرستقراطية الألمانية اسميا فقط . وبدلا من أن يستعيد لروما مجدها وولاياتها ، كان قد ارتبط مع البابا بمعاهدة سرية على أن يغادر المدينة فى يوم تنويجه . ولم يفت شاعر البلاط أن يشيع هذا التقهقر الشائن باللوم والتقريع .

وبعد ضياع الحرية والامبراطورية ، كانت رغبة بترارك الثالثة والأكثر تواضعا هى أن يصلح بين الراعى والرعية ، وأن يدعو أسقف روما الى أبرشيته القديمة الخاصة . وفى حماس الشباب ووقار الشيوخ وجه بترارك رجاءه الى خمسة من البابوات على التوالى . وقد ألهب فصاحته دوما شعوره المتدفق ولغته المنطلقة . وكان بترارك

ابن واحد من مواطنى فلورنسة . وقد آثر دائما البلد الذى ولد فيه على ذاك الذى تعلم فيه . وكانت ايطاليا فى نظره ملكة العالم وجنته . وعلى الرغم من أحزابها الداخلية ، فقد كانت بلا ريب أكثر تفوقا من فرنسا فى الفنون والعلوم ، فى الثروة والتهذيب . ولكن هذا الاختلاف لا يكاد يبرر لفظ متبربر الذى يطلقه دون تمييز على جميع الأقطار الواقعة وراء جبال الألب . وكانت أفنيون ، بابل الروحية ، بؤرة الرذيلة والفساد ، موضع كراهيته واحتقـــاره . ولكنه ينسى أن الرذائل والفضائح لا تنبت من التربة ، وأنها فى كل مكان مقترنة بقوة حاشية البابا وترفه . وهو يعترف أن خليفة القديس بطرس هو أسقف الكنيسة العامة ، ومع ذلك لم يثبت الرسول الدائم على عرشـــه الدائم على شواطىء الرون ، بل على نهر التيبر . وبينما تنعم كل مدينة فى العالم المسيحى بأسقفها ، كانت العاصمة مهجورة بائسة . ومنذ انتقال الكرسى الرسولى ، تركت المبانى المقدسة فى اللاتيران والفاتيكان بمذابحها وقديسيها فى حالة فقر وانحلال . وكثيرا ما صورت رومه فى صورة بائسة ، وكأن زوجها جواب الآفاق يمكن أن تدعوه الى العودة صورة عادية تبين كهولة زوجته الباكية وعللها . ولكن السحب العالقة فوق التلال السبعة ، سيبددها وجود ســـلطانها الشرعى . وستكون الشهرة الخالدة ورخاء رومه وسلام ايطاليا جزاء وفاقا لذلك الذى أوتى من الجرأة ما ينفذ به هذا القرار الحكيم . ومن البابوات الخمسة الذين حثهم بترارك ، ضجر الثلاثة الأول وهم جون الثانى والعشرون وبيندكت الثانى عشر وكليمنت السادس، أو تلهوا بجرأة الخطيب . ولكن التغيير المشهود الذى حاوله اربان

الخامس نفذه نهائيا جريجورى الحادى عشر ، وكان يحول دون تنفيذ هدفهم عقبات لها وزنها ، بل لا يمكن تخطيها وكان أحد ملوك فرنسا ، وقد استحق لفظ الحكيم ، لا يرغب فى اطلاق سراحهم من تبعية محلية، وتعلق الكرادلة ، وأكثرهم من رعاياه ، بلغة أفنيون وعاداتها وجوها ، وبقصورهم العظيمة ، وعلى الخصوص بأنبذة برجندى . وكانت ايطاليا فى نظرهم بلدا أجنبيا أو معاديا . فأبحروا من مرسيلية على الرغم منهم ، وكأنهم يباعون أو ينفون الى بلاد العرب . وأقام اربان الخامس فى الفاتيكان ثلاث سنوات فى أمان وتشريف . وقد حافظ على قداسته حرس مؤلف من ألفين من الخيالة . وقد حيا ملك قبرص وملكة نابلى وأباطرة الشرق والغرب ، فى خشوع ، أباهم المشترك الجالس على كرسى القديس بطرس . ولكن سرور بترارك والايطاليين تحول بسرعة الى حزن وغضب . فدعت أسباب هامة ، عامة أو خاصة ، أو نفاد صبره أو رجاء الكرادلة ، دعت اربان الى فرنسا . ونجا الانتخاب التالى من وطنية الرومان الطاغية . وكانت قوى السماء تهتم بشئونهم . فلم يوافق بريجيت السويدى ، وهو قديس وحاج ، على رجوع البابا الى فرنسا ، وتنبأ بموت اربان الخامس . وشجعت القديسة كاثرين (من سيينا) وهى عروس المسيح وسفيرته الى أهل فلورنسه — شجعت هجرة البابا جريجورى الحادى عشر . ويظهر أن البابوات أنفسهم وهم سادة السذاجة البشرية العظام ، قد أصغوا الى هؤلاء النساء الحالمات . ومع ذلك فهذه العظات السماوية أعانتها بعض الأدلة المتصلة بالسياسة الزمنية . لقد غزا الأعداء فى عنف مقر البابوات فى أفنيون .

ولقد انتزع بطل على رأس ثلاثين ألفا من اللصوص الفدية والغفران من نائب المسيح والمجمع المقدس . وكان شعار المحاربين الفرنسيين أن يتركوا الشعب وينهبوا الكنيسة ، وتلك هرطقة جديدة ذات أهمية خطيرة جدا . وبينما طرد البابا من أفنيون . دعى بالحاح الى رومه واعترف به الشعب والسناتو سيدا شرعيا لهم ، ووضعوا تحت قدميه مفاتيح الأبواب والقناطر والقلاع ، وعلى الأقل ذاك الحى الذى يقع عبر نهر التيبر ، ولكن هذه التقدمة المخلصة اقترن بها اعلانهم بأنهم لن يحتملوا بعد ذلك فضيحة غيابه وكارثة بعده ، وأن عنادهم سيحفزهم فى النهاية الى احياء حق الانتخاب البدائى وتأكيده . واستشير رئيس ديرجبل كاسينو ان كان يقبل التاج المثلث من رجال الدين والشعب . وأجاب رجل الكنيسة المبجل : « انى واحد من مواطنى رومه ، والقانون الأول عندى هو صوت وطنى » .

واذا كانت الخرافة تفسر موتا مبكرا ، واذا كانت قيمة النصيحة تقدر بنتيجتها ، فقد يتراءى أن السماء كانت غاضبة على مثل هـــذا الاجراء الذى يتسم فى الظاهر بالمنطق واللياقة ، فلم يعش جريجورى الحادى عشر أكثر من أربعة عشر شهرا بعد رجوعه الى الفاتيكان . وجاء فى اثر موته الانشقاق العظيم فى الغرب الذى مزق الكنيسة اللاتينية أكثر من أربعين سنة . وكان المجمع المقدس يتألف فى ذاك الوقت من اثنين وعشرين كاردينالا : ستة منهم بقوا فى أفنيون . ودخل أحد عشر من الفرنسيين ، وأسبانى واحد ، وأربعة من الايطاليين المجمع المقدس بالطريقة المعتادة . ولم يكن اختيارهم بعد مقصورا على من يرتدون الثياب الأرجوانية . فاختاروا باجماع الأصـــوات رئيس

أساقفة بارى . وكان من رعايا نابلى ، كما اشتهر بغيرته وعلمه . وقد ارتقى عرش القديس بطرس باسم اربان السادس . وتؤكد رسالة المجمع المقدس أن انتخابه كان حرا سليما ، وأنه كان ، كما جرت العادة ، بالهام من الروح القدس . وقد بجل ونصب وتوج طبقـا للمراسم المعتادة . وخضعت رومه وأفنيون لسلطانه الزمنى ، واعترف العالم اللاتينى بسلطانه الدينى . واستمر الكرادلة يحفون بسيدهم الجديد عدة أسابيع ، فى أعظم مظاهر التعلق والولاء ، حتى هيأ لهم حر الصيف هربا وقورا من المدينة . وسرعان ما اجتمعوا فى أناجنى وفى فوندى ، فى مكان أمين ، حتى خلعوا القناع واتهموا أنفسهم بالكذب والزيف والرياء ،وطردوا المرتد وعدو المسيح فى رومه ، وأخذوا فى اختيار روبرت (من جنيف) باسم كليمنت السابع ، وأعلنوا للعالم أنه نائب المسيح الحقيقى الشرعى . أما اختيارهم الأول فقد كان عملا قهريا غير شرعى أبطله الخوف من الموت وتهديد الرومان . وتبرر شكواهم أدلة قوية مستمدة من الاحتمال والواقع . وكان الكرادلة الفرنسيون الاثنا عشر وهم يكونون ثلثى الأصوات، سادة الموقف فى الانتخاب . ومهما تكن الحزازات الاقليمية ، فلا يمكن أن نفترض أنهم كانوا على استعداد للتضحية بحقوقهم ومصالحهم من أجل مرشح أجنبى لن يعيدهم قط الى وطنهم الأصلى . وفى الروايات المختلفة ، وكثيرا ما تكون متناقضة ، لونت ظلال العنف الذى أظهره الشعب بألوان قاتمة أو باهتة . غير أنه أهاج تطرف الرومان المشاغبين شعورهم بامتيازاتهم وخوفهم من هجرة أخرى . وقد أرهب المجمع المقدس صيحات ثلاثين ألفا من الثائرين

الذين أحاطوا به وهم يحملون أسلحتهم . وقد أعلنت أجراس الكابتول وكنيسة القديس بطرس انذارا ، وكانت الصيحة العامة : « الموت أو بابا ايطالى ! » وقد تكرر التهديد نفسه على ألسنة حاملى الأعلام أو زعماء الأحياء الاثنى عشر على هيئة نصـــيحة أريد بها الخير . واتخذت بعض الترتيبات لاحراق الكرادلة المعاندين . حتى اذا اختاروا مواطنا من وراء الألب ، لكان من المحتمل ألا يخرجوا قط أحياء من الفاتيكان . واقتضى هذا شيئا من الرياء والتظاهر أمام أعين الناس فى رومه وفى العالم . وتنتج عن كبرياء اربان وقسوته خطر أكثر حتمية . وسرعان ما كشفوا ملامح الطاغية الذى استطاع أن يسير فى حديقته وأن يردد تسبيحه بينما يسمع من غرفة مجاورة ستة من الكرادلة يضجون من العذاب على المخلعة . وكان من الجائز أن تربطهم غيرته العنيدة ـــ التى من أجلها دوى صوته عاليا بنقد رذائلهم وترفهم ـــ بمقار أبرشياتهم وواجباتهم فى رومه . ولولا أنه ارتكب وزرا مهلكا ، فأجل ترقية جديدة ، لأصبح الكرادلة الفرنسيون أقلية هزيلة فى المجمع المقدس . فلهذه الأسباب وأملا فى أن يعبروا الألب مرة أخرى اعتدوا فى تهور على سلام الكنيسة ووحدتها . ولا تزال مميزات اختيارهم المزدوج تناقش فى المدارس الكاثوليكية . ولقد حدد غرور الأمة ، أكثر من مصلحتها ، اتجاه البلاط ورجال الدين فى فرنسا . ومالت حكومات سافوى وصقلية وقبرص وأراجون وكاســـتيل ونافار واسكتلنده ، بنفوذها وبالمثل الذى ضربته ، الى الامتثــــال لكليمنت السابع ، وبعد موته ، لبنيديكت الثالث عشر . وتمسكت رومه وأهم الحكومات فى ايطاليا وألمانيا والبرتغال وبريطانيا والأراضى المنخفضة وممالك الشمال بالانتخاب الأول ، أعنى اختيار اربان السادس الذى خلفه بونيفاس التاسع وانوسينت السابع وجريجورى الثانى عشر.

الانشقاق الخطير فى الغرب

من شواطىء التيبر والرون تراشـــق الحبران المتعاديان بالقلم والسيف . واختل نظام المجتمع المدنى والدينى . وأصاب الرومان نصيب وافر من الشرور التى يمكن أن يتهموا بأنهم أول من أثارها . لقد عللوا أنفسهم دون جدوى بالأمل فى اعادة الملكية الدينية وتخفيف فقرهم بالجزية والعطايا التى تقدمها الأمم . غير أن انشقاق فرنســـا واسبانيا حول تيار الخشوع الذى يدر الربح . ولم يكن من الممكن تعويض الخسارة بعيدين من أعياد اليوبيل على مدى عشر سنوات . وقد اضطر اربان السادس وخلفاؤه الثلاثة الى قطع اقامتهم فى الفاتيكان بسبب مشـــاكل الانشقاق والجيوش الأجنبية والثورات الشعبية . وكانت أسرتا كولونا وأورسينى لا تزالان تشنان حروبهما المهلكة . وأكد حملة الأعلام فى رومه امتيازات الحكم الجمهورى وأساءوا استغلاله . وعاقبهم نواب المسيح ـــ الذين كانوا قد جندوا قوات عسكرية ـــ على ثورتهم بالمشنقة والسيف والخنجر . وفى مؤتمر ودى قتل غدرا أحد عشر ممثلا من ممثلى أو نواب الشعب ، وألقى بهم الى عرض الطريق . ومنذ غزو روبرت النورماندى ، استمر الرومان فى نزاعهم الداخلى دون أى تدخل خطير أجنبى . ولكن فى الاضطرابات التى أسفر عنها الانشقاق أعان جار طموح ، هو لادسلاوس ملك نابلى ، البابا تارة والشعب تارة ، ثم غدر بهما . وقد خلع عليه البابا لقب « قائد الكنيســـة » ، بينما وضع الآخرون بين يديه أمر تعيين حكامهم . وقد حاصر رومه برا وبحرا ودخلها ثلاث مرات دخـــول

الفاتح المتبربر : فدنس المذابح واعتدى على العذارى ونهب التجار ، وأدى الصلاة فى كنيسة القديس بطرس ، وترك حامية فى قلعة القديس أنجيلو . وفى بعض الأحيان لم يحالف التوفيق جيوشه ، وهو مدين بحياته وتاجه لتمهله الذى لم يزد على ثلاثة أيام . ولكن لادسلاوس انتصر بدوره . وقد كان موته المبكر وحده هو الذى استطاع أن ينقذ العاصمة والحكومة الكنسية من الفاتح الطموح الذى حظى بلقب ملك رومه ، أو على الأقل ، حظى بسلطانه .

لم آخذ على عاتقى كتابة التاريخ الكنسى لهذا الشقاق . ولكن رومه ، وهى موضوع هذه الفصول الأخيرة ، تهتم اهتماما عميقا بالنزاع الذى ثار بين ملوكها حول اعتلاء العرش . وارتفعت أول اقتراحات عن سلام العالم المسيحى واتحاده من جامعة باريس ، من السوربون التى كان علماؤها يعدون ، على الأقل فى الكنيسة الغالية ، أعظم الباحثين فى العلوم اللاهوتية . وتجنبوا عن حكمة كل بحث كريه فى أصل النزاع أو خصائصه ، واقترحوا كعلاج شاف ، أن المتنازعين فى رومه وفى أفنيون يجب أن يعتزلا فى الوقت نفسه ، بعد تفويض كرادلة الحزبين المعاديين فى حضور انتخاب شرعى . وأنه يجب على الأمم أن تحجب ولاءها اذا آثر أحد المتنازعين مصلحته الشخصية على المصلحه العامة . وفى كل مرة يخلو الكرسى ، حاول أطباء الكنيسة هؤلاء أن يتجنبوا شر التسرع فى الاختيار . ولكن سياسة المجمع المقدس وطموح أعضائه أصما الآذان عن كل منطق ورجاء . ومهما بذل البابا من وعود ، فلن يلتزم قط بأيمان أقسمها وهو كاردينال . انك لتجد طوال خمس عشرة سنة أن أهداف الجامعة السلمية قد

تملصت منها حيل الحبرين المتنافسين وشكوك أتباعهم أو أهواؤهم ، وتقلبات الأحزاب الفرنسية التى تحكمت فى شارل السادس الموصوم بالجنون . وفى النهاية اتخذ قرار عظيم ، وأرسل وفد جليل مؤلف من بطريق الاسكندرية ، واثنين من رؤساء الأساقفة ، وخمسة من رؤساء الأديرة ، وثلاثة من الفرسان ، وعشرين عالما الى بلاطى رومه وأفنيون ليطلب باسم الكنيسة والملك ، اعتزال المدعيين : بيتردى لونا الذى سمى نفسه بنديكت الثالث عشر ، وأنجيلو كوراريو الذى اتخذ اسم جريجورى الثانى عشر . ومن أجل شرف رومه التليد وأملا فى نجاح مشروعهم ، طلب السفراء أن يجتمعوا فى مؤتمر مع حكام المدينة الذين أرضوهم باعلان قاطع بأن أفضل الملوك المسيحيين لا تراوده أية رغبة فى نقل الكرسى الرسولى من الفاتيكان الذى يعتبره الجميع كرسى خليفة القديس بطرس الحقيقى والخاص . وباسم السناتو والشعب أكد رومانى فصيح رغبتهم فى التعاون للوصول الى وحدة الكنيسة ، ورثى للكوارث الزمنية والدينية التى جلبها الانشقاق ، وطالب بحماية ملك فرنسا ضد جيوش ملك نابلى . وكان جوابا بنيديكت وجريجورى مهذبين قدر ما كانا مضللين خداعين . وفى تفادى طلب الاعتزال كان المتنافسان كلاهما يصدران عن روح واحدة أو مشتركة . فوافقا على ضرورة الاجتماع فى لقاء سابق . ولكن لم يكن من المستطاع تحديد الزمان والمكان والنهج بموافقة الجانبين . ويقول خادم من خدم جريجورى : « اذا أقدم أحدهما ، أحجم الآخر . ويظهر أحدهما وكأنه حيوان يخشى البر ، بينما يظهر الآخر وكأنه مخلوق يرهب البحر . وعلى هذا النحو ، من أجل بقية

قليلة من العمر والقوة ، يعرض هذان القسيسان الهرمان سلام العالم المسيحى وخلاصه للخطر » .

وفى النهاية ثار العالم المسيحى بسبب عنادهما وخداعهما . فهجرهما الكرادلة الذين عانق بعضهم بعضا كأصدقاء وزملاء . وأعانهم فى ثورتهم جمعية كبيرة من رجال الدين والوفود . فى عدالة متجردة عزل مجمع بيزا بابا رومه وبابا أفنيون كليهما . وقرر المجمع المقدس بالاجماع اختيار اسكندر الخامس ، ثم ملىء كرسيه الشاغر بسرعة فى انتخاب مماثل باختيار جون الثالث والعشرين أكثر البشر خلاعة وتهتكا . ولكن بدلا من القضاء على الانشقاق ، أسفر تهور الفرنسيين والايطاليين عن مدع ثالث لكرسى القديس بطرس . ولم تلق أمثال هذه المزاعم التى ادعاها المجلس والمجمع قبولا . فانحاز ملوك ثلاثة هم ملك ألمانيا وملك المجر وملك نابلى الى جانب جريجورى الثانى عشر . ولما كان بندكت الثالث عشر نفسه أسبانيا ، فقد أبى على أسبانيا القوية ورعها ووطنيتها الا أن تعترف به . وقد أصلح مجمع كونستانس من أعمال مجمع بيزا المتهورة . وقد لعب الامبراطور سيجسموند دورا بارزا كمحام أو حام للكنيسة الكاثوليكية . وربما بدا من عدد الأعضاء المدنيين والكنسيين ومراتبهم فى المجمع أنهم يؤلفون « مجلس الطبقات » فى أوربا . ومن البابوات الثلاث كان جون الثالث والعشرون أول ضحية . تمكن من الهرب ولكنه أعيد أسيرا : وأخفيت أفظع التهم والفضائح : ولم يتهم نائب المسيح الا بالتهم الآتية وحدها : القرصنة والقتل والاغتصاب والشذوذ الجنسى ونكاح المحارم . وبعد أن أقر الحكم الذى صدر

ضده كفر فى السجن عن حمقه فى أنه أسلم نفسه ووثق فى مدينة حرة فيما وراء الألب . أما جريجورى الثانى عشر الذى اقتصر سلطانه على حدود ريمنى الضيقة ، فقد اعتزل عرش البابوية اعتزالا أكثر شرفا . وقد دعا سفيره الى الجلسة التى تخلى فيها عن لقب البابا وسلطانه الشرعى . وللتغلب على عناد بنديكت الثالث عشر أو أنصاره ، قام الامبراطور بشخصه برحلة من كونستانس الى بربنيان . وعقد معاهدة مشرفة على قدم المساواة بين ملك كاستيل وأراجون وناقار واسكتلنده: فعزل المجلس بنديكت بموافقة الأسبانيين . وترك هذا الرجل الهرم الذى لا يملك ضرا فى قلعة مهجورة ليحرم من الكنيسة فى كل يوم مرتين ، الممالك التى ثارت عليه وتخلت عن نصرته . وبعد آن أزيلت آثار الانشقاق على هذا النهج ، بدأ مجمع كونستانس بخطى وئيدة حذرة فى انتخاب سيد رومه ورأس الكنيسة . وفى هـذه المناسبة الخطيره عزز المجمع المؤلف من ثلاثة وعشرين كاردينالا بثلاثين نائبا ، ستة من كل دولة من الدول الخمس العظمى فى العالم المسيحى ، وهى ايطاليا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا وانجلترا . وقد خفف من تدخـل الأجانب ايثارهم الكريم لايطالى ورومانى ، هو أوتوكولونا الذى قدمته مميزاته الموروثة وكذا الشخصية الى المجمع المقدس . وتقبلت رومه فى سرور وامتثال أنبل أبنائها . وقد دافعت أسرته القوية عن الحكومة الكنسية . ويتميز ارتقاء مارتن الخامس عرش البابوية بأنه تاريخ عودة البابوات الى الفاتيكان واستقرارهم فيه .

حكومة روما فى القرن الخامس عشر

لاحظ أحد المواطنين فى فخر وسرور أن ملك الرومان حين يمر بالكرادلة ورجال الدين الذين يستقبلونه على الباب كان يلقى اليهم بتحية خفيفة ، ثم يتجه بالتكريم والتحية الحارة الى عضو السناتو فى رومه ويبجل شخصه . وفى وداعه الأخير هـــذا أمسكت محافل الامبراطورية والجمهورية بعضها ببعض فى عناق حبيب . وطبقــا لقوانين رومه يشترط فى حاكمها الأول أن يكون عالما بالقانون وأن يكون غريبا عنها ، وأن ينسب الى مكان يبعد على الأقل أربعين ميلا من المدينة وألا تربط بينه وبين أحــد من سكان رومه صــلة الدم أو النسب حتى الدرجه الثالثة ، طبقـــا للقواعد الكنسية . وكان الانتخاب سنويا وكان سلوك عضو السناتو المعتزل يفحص فحصا دقيقا . ولا يجوز أن يختار لشغل الوظيفة نفسها الا بعد مضى سنتين. وقد خصص له راتب كبير يقدر بثلاثة آلاف فلورين لنفقاته ومكافآته. وكان مظهره العام يمثل عظمة الجمهورية . فكانت ثيابه من الديباج الموشى بالذهب أو من المخمل القرمزى . وفى فصل الصيف من حرير أخف . وكان يمسك فى يده بصولجان من العاج . وكانت أصوات الأبواق تعلن قدومه . وكان يسبق خطواته الجليلة أربعة من الحجاب أو الأتباع على الأقل ، وقد لفت عصيهم الحمراء بأشرطة أو قصاصات طويلة من اللون الذهبى ، أو زى المدينة الرسمى . وكانت اليمين التى يقسمها فى الكابتول تعلن حقوقه وواجبـــاته ، وأنه يطيع القوانين ويقوم على تنفيذها ، ويحد من الزهو ، ويحمى الضعيف وينشر العدل

والرأفة فى حدود اختصاصه . وقد عاونه فى الاضطلاع بهذه المهام الجليلة ثلاثة من الغرباء : اثنـــان ملازمان له ، وقاض للجنايات المستأنفة . وتشهد القوانين بكثرة محاكمتهم للصوص والمغتصبين والقتلة . ولكن تتستر هذه القوانين الضعيفة على فوضى المنازعات الشخصية والجماعات المسلحة للدفاع المتبادل . واقتصر عمل عضو السناتو على تدبير شئون العدالة . وعهد بالكابتول والخزانة وحكومة المدينة ومنطقتها الى ثلاثة من الأوصياء أو المحافظين ، كانوا يغيرون أربع مرات فى كل سنة . واجتمعت الأحياء الثلاثة عشر تحت رايات زعمائها ، كل تحت راية زعيمه الذى أطلق عليه اسم Caporioni وكان أكبر هـــؤلاء يتميز باســم الأول « Prior » ، ومركزه . وتألفت الهيئة التشريعية الشعبية من مجالس الرومان السرية والعامة . وكان الأول يتكون من الحكام وأســـلافهم المباشرين ، ومن بعض الموظفين الماليين والقضائيين ، وثلاث طوائف من المستشارين تتألف كل منها على الترتيب من ثلاثة عشر ، وستة وعشرين ، وأربعين ، فتكون الجملة حوالى مائة وعشرين شخصا . أما فى المجلس العام فكان لكل مواطن ذكر الحق فى اعطاء صوته . وقد زاد من قيمـــة هذا الامتياز حرصهم الشديد على منع أى أجنبى من اغتصاب لقب الرومانى وشخصيته . وقد حد من صخب الديمقراطية احتياطات حازمة يقظة . ففيما خلا الحكام لم يكن يسمح لأى شخص بتوجيه سؤال . ولم يسمح لأحد بالتكلم الا من منبر مفتوح أو منصـــة مكشوفة . ومنعت جميع الهتافات غير المنظمة . وحدد رأى الأغلبية بوساطة الاقتراح السرى ، ونشرت قراراتهم المبجلة باسم السناتو

والشعب . وليس من السهل أن نحدد الفترة التى تحولت فيها نظرية الحكم هذه الى قواعد عملية دقيقة ودائمة ، لأن اقرار النظام ارتبط تدريجيـــا بتدهور الحرية . ولكن فى عام ١٥٨٠ جمعت القوانين القديمة ، ورتبت فى ثلاثة مجلدات ، وكيفت للاستعمال الحديث ، فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر وبموافقته . وهذه المجموعة المدنية والجنائية هى قانون المدينة الحديث ، واذا كانت الجمعيات الشعبية قد ألغيت ، فلا يزال عضو سناتو أجنبى مع ثلاثة من الأوصياء أو المحافظين يقيم فى قصر الكابتول . ولقـــد كرر البابوات سياسة القياصرة . وتظاهر أسقف رومه بأنه يحافظ على شكل الجمهورية ، بينما حكم كملك زمنى وروحى ذى سلطات مطلقة .

الحكومة الكنسية

تعتمد تهديدات الفاتيكان الروحية ، على قوة الرأى . واذا حل العقل أو الهوى محل الرأى ، ضاع الصوت نفسه عبثا فى الهواء . وتعرض القسيس الذى لا حول له ولا طول الى عسف خصم من النبـــلاء أو العامة . ولكن بعد عودة البابوات من أفنيون ، كان سيف القديس بولس يحرس مفاتيح القديس بطرس . وتحكمت فى رومه قلعـــة منيعة . وكان المدفع آلة قوية تستخدم ضد الفتن الشعبية . وجندت قوة نظاميـــة من الخيالة والرجالة تحت علم البابا . وكفلت موارده الواسعة نفقات الحرب . ومن أرجاء أملاكه كان يستطيع أن يجلب جيشا من الجيران المعادين والرعايا الموالين ضد مدينة ثائرة . ومنذ اتحاد دوقيتى فيرارا وأوربينو امتدت الدولة الكنسية من البحـــر

المتوسط الى الأدرياتيك ، ومن حدود نابلى الى شواطىء نهر البو . وحتى القرن السادس عشر اعترف أكثر أجزاء هذه الرقعة الفسيحة بالدعاوى القانونية وبالسلطة الزمنية لأحبار الرومان . واستندت دعاواهم بالفعل الى الهبات الحقيقية أو الخرافية التى تمت فى القرون المظلمة . واذا أردنا أن تتبع الخطوات التى تمت على مر الأيام وانتهت باستقرارهم النهائى ، فان هذا يجرنا لا محالة بعيدا الى أعماق الأحداث فى ايطاليا بل فى أوربا : مثل جرائم اسكندر السادس وعمليات يوليوس الثانى الحربية وسياسة ليو العاشر الكريمة ، وهو موضوع دبجته أقلام أنبل المؤرخين فى تلك الأزمنة . وفى الفترة الأولى من فتوحاتهم ربما كان البابوات ، حتى حملة شارل الثامن ، موفقين فى الصراع مع الأمراء والدول المجاورة التى كانت قواتها مساوية لقوات البابوية أو دونها . ولكن حالما بدأ ملوك فرنسا وألمانيا وأسبانيا يناضلون بجيوش ضخمة للاستيلاء على ايطاليا فان البابوات كملوا بالحيلة والدهاء النقص فى القوة ، وأخفوا فى تيه لا حد له من الحروب والمعاهدات آراءهم وطموحهم وأملهم الخالد فى أن يطردوا المتبربرين الى ما وراء الألب . وفى كثير من الأحيان اختل ميزان الفاتيكان الدقيق على أيدى جنود الشمال والغرب الذين اتحدوا تحت راية شارل الخامس . وقد عرضت سياسة كليمنت السابع الضعيفة والمتقلبة شخصه وأملاكه لرحمة الفاتح . وتركت رومه سبعة أشهر نهبا لجيش لا يعترف بأى قانون ، جيش أشد قسوة وجشعا من القوط والوندال. وبعد هذا الدرس القاسى خفف البابوات من طموحهم الذى كاد أن يصل الى حد الاشباع ، واتخذوا ثانية صفة الأب المشترك وتورعوا عن

كل منازعات عدوانية ، اللهم الا نزاع سريع عندما شهر نائب المسيح وسلطان تركيا سلاحهما فى الوقت نفسه ضد مملكة نابلى . وفى النهاية انسحب الفرنسيون والألمان من ميدان القتال . وشدد الأسبان قبضتهم على ميلان ونابلى وصقلية وسردينيا وساحل توسكانى ، وأصبح من مصلحتهم المحافظة على السلام ، وعلى تبعية ايطاليا التى خلت من الاضطرابات تقريبا من منتصف القرن السادس عشر الى أوائل القرن الثامن عشر . وخضع الفاتيكان للسياسة الدينية لملك كاثوليكى واحتمى بها . وقد مالت به أهواؤه ومصالحه الى أن يعاون الأمير ضد الشعب فى كل نزاع . وبدلا من التشجيع أو العون أو الملجأ الذى قدمته الدول المجاورة ، سجن أصدقاء الحرية أو أعداء القانون وأحيطوا من كل جانب بنطاق حديدى من الطغيان ، فأخضعت عادات الطاعة والتربية التى استمرت زمنا طويلا روح التمرد والفتنة فى نبلاء رومه وعامة الناس فيها . ونسى البارونات سلاح أجدادهم ، وما كان يتوزعهم من أحزاب وشيع ، وأصبحوا ، دون أن يحسوا ، خدم الترف والحكومة . وبدلا من الاحتفاظ بعدد من المستأجرين والأتباع ، استعمل انتاج مزارعهم فى النفقات الخاصة التى تزيد من ملاذ اللورد وتنقص من قوته . فتبارت أسرتا كولونا وأورسينى فى زخرفة قصورهما وكنائسهما . ونافست ثروات الأسرات البابوية المفاجئة أبهتهم القديمة أو تفوقت عليها . ففى رومه لم يعد يسمع صوت الحرية أو النزاع . وبدلا من السيل أو الموج الهادر ، كانت ثمة ، بحيرة ساكنة ملساء تعكس صورة الخمول والعبودية .

ان أى مسيحى أو فيلسوف أو محب لوطنه لابد أن يرتاع ويصدم

بالمملكة الزمنية لرجال الدين . وستزيد تذكارات عظمة رومه المحلية وذكريات قناصلها وانتصاراتها من مرارة عبوديتها ومن عار هـــذه العبودية . واذا نحن وازنا فى هدوء بين مناقب الحكومة الكنسيـــية ومثالبها ، فقد نمتدحها فى حالتها الراهنة كنظام معتدل ، وقور ، هادىء ، خال من أخطار أحزاب الأقلية ، ونزوات الشباب ونفقات الترف وكوارث الحرب . ولكن يرجح هذه المزايا انتخاب يحدث مرارا ، وقد يحدث كل سبع سنوات ، لمليك يندر أن يكون من أهل القطر ، حاكم سياسى « شاب فى السياسة » بلغ من العمر ستين عاما ، فى مغرب حياته وقدراته ، بدون أمل ، وبدون أطفال يرثون فى حكمه المؤقت . ويختار المرشح الناجح من الكنيسة ، بل من الدير . وهو بحكم تعليمه وتنشئته أكثر الناس عداء للعقل والانسانية . والحرية . لقد تعلم وهو عبد أسير لعقيدته أن يؤمن لأنه من الحمق أن يبجل كل ما يدعو الى التحقير ، وأن يحقر كل ما يستحق تقدير الرجـــل المتعقل ، وأن يعاقب الهفوة وكأنها جريمة ، وأن يكافىء الزهـــد والعزوبة كأعظم الفضائل . وأن يضع القديسين المذكورين فى التقويم فوق أبطال رومه وحكماء أثينا ، وأن يعتبر كتاب القداس والصليب أداتين أكثر نفعا من المحراث والنول . وفى ممارسة وظيفة المبعوث Nuncio أو الكاردينال ، ربما يحظى بمزيد من المعرفة عن العالم ، ولكن الدنس الأول سيلصق بعقله وسلوكه . ومن الدراسة والتجربة قد يرتاب فى أسرار مهنته ، ولكن القس الفنان سوف ينهل جزءا من التعصب الذى يرضع به الناس . وقد تفجرت عبقرية سيكستوس الخامس من ظلام دير للفرنسيسكان . وفى حكم دام خمس سنوات ،

قطع دابر الخارجين على القـــانون وقطاع الطرق ، وأبطل معابد الرجس فى رومه ، وكون قوة بحرية وقوة عسكرية ، وجدد الآثار العتيقة وحاكاها ، وبعد أن استخدم الموارد فى سخاء وكرم ، وزاد فى هذه الموارد زيادة كبيرة ، ترك خمسة ملايين كراون فى قلعة القديس أنجيلو . ولكن عدله دنسته القسوة ، وقد ألهب طموحه الى الفتح نشاطه . وبعد موته تجددت المساوىء . ونضبت الخزانة . وقد جر على الخلف خمسا وثلاثين ضريبة جديدة ، وشراء الوظائف . وبعد وفاته حطم تمثاله ، حطمه شعب لا يعترف بالجميل أو شعب ألم به الضرر والأذى . وتبرز شخصية سيكستوس الخامس الأصـــيلة الجامحة فريدة فى ثبت البابوات . ويمكن أن نســـتجمع قواعد حكوماتهم الزمنية وآثارها اذا نظرنا نظرة ايجابية مقارنة الى الفنون والفلسفة ، الى الزراعة والتجارة ، الى الثروة والسكان ، فى الدولة الكنسية . أما أنا ، فأريد أن أكون رفيقا بارا بجميع الناس ، وما أريد فى أخريات أيامى أن أسىء الى البابا ورجال الدين فى رومه .

الفصل الحادى والسبعون
(١٤٣٠)

مقال پوجيو عن أطلال رومه فى القرن الخامس عشر • أربعة أسباب للدمار • الكوليزيوم • اعادة المدينــــة • تأملات أخيرة فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها •

مقال بوجيو عن أطلال رومه فى القرن الخامس عشر

فى أواخر أيام البابا يوجنيوس الرابع[١] ، صعد اثنان من بطانته : العلامة پوجيو Poggio وصديق له ، تل الكابيتولين وجلسا بين أطلال الأعمدة والمعابد ، وأطلا من هذه البقعة المشرفة الشاهقة ، على منظر هذا الخراب الذى اتسعت رقعته وتعددت مظاهره . وقد أتاح المكان والموضوع مجالا واسعا للتأمل فى تصاريف القدر التى لا ينجو منها لا الانسان ولا أعظم أعماله فخرا ، والتى توارى الامبراطوريات والمدن نفس التراب . واتفقا على أنه ، نظرا لعظمة رومه الغــابرة ، فان سقوطها أشد وأنكى وأدعى الى الحزن والأسى .

---

(١) هذا على ما يظهر خطأ ، وسهو بدلا من البابا مارتن الخامس • وفى الفصل ٦٥ ، يشير جيبون الى أن محاورة بوجيو وضعها قبل موت مارتن بزمن قصير فى أواخر ١٤٣٠ تقريبا • ويعلق ميلمان على هــذا السهو ، أما بيورى فقد أغفله ـ د•م•ل•

« صور خيال فرجيل حالتها الأولى ، كما كان يمكن أن تبدو فى زمن غابر ، عندما استضاف ايفاندر Evander ذاك الرجل الغريب الذى جاء من ترواده . كانت صخرة تارپيان هذه آنذاك أجمة موحشة منعزلة ، يتوجها على زمن الشاعر ، السقوف الذهبية للمعبد . ولقد هدم المعبد ونهب الذهب ، ودارت عجلة الحظ دورتها وأصبحت الأرض المقدسة مرة أخرى مغطاة بالأشواك والشجيرات الشوكية . وفيما مضى كان تل الكاپيتول الذى نجلس عليه عاصمة الامبراطورية الرومانية وقلعة العالم ، وباعث الخوف الى قلوب الملوك ، وزادته شهرة آثار الأقدام فى عدد كبير من مواكب النصر ، وزادته غنى وثراء أسلاب عدد كبير من الأمم والجزية التى فرضت عليها . كيف سقط منظر الدنيا هذا ! وكيف تغير ! لقد محت كروم العنب طريق النصر . وغطت أكوام الروث مقاعد السناتو . حدق ببصرك فى تل بالاتين وفتش بين البقايا الضخمة التى فقدت شكلها عن المسرح الرخامى ، والمسلات والتماثيل الهائلة وأروقة قصر نيرون : استعرض التلال الأخرى فى المدينة . تجد أن الفضاء الفسيح لا يعكره سوى الأطلال والحدائق . أما ساحة (فورم) الشعب الرومانى التى اجتمع فيها لسن القوانين أو انتخاب الحكام فقد أحيطت بسور لزراعة الخضروات، أو تركت لاستقبال الخنازير والجاموس . وترقد على

الثرى تلك الأبنية العامة والخاصة التى شيدت للخلود ، عارية مهشمة ، وكأنها أطراف مارد جبار . ان الخراب أبرز للعين من البقايا الضخمة التى نجت من أذى الزمان والحظ » .

وقد وصف پوجيو بدقة هذه الأطلال ، وهو من أوائل من رفعوا أعينهم عن آثار الأساطير الأولى الى آثار الخرافات الكلاسيكية .

١ ـــ فضلا عن قنطرة كستيوس وقوس نصره ، وقبره وهرمه ، أمكنه أن يرى من عصر الجمهورية ، صفا مزدوجا من الأقبية فى دار الملح على الكاپيتول ، نقش عليها اسم كاتولس ، وهى من مآثر كرمه .

٢ ـــ أمكنه أن يتبين الى درجة ما أحد عشر معبدا من الشكل الكامل للپانثيون ، وثلاثة أقواس وعمودا من الرخام بقيت من معبد السلام الذى بناه ڤسباسيان ، بعد الحروب الأهلية وانتصاره على اليهود .

٣ ـــ من الحمامات العامة ، التى حددها فى شىء من التهـــور بسبع حمامات ، لم يكن هناك واحد كامل ليمثل استعمال الأجزاء المختلفة وتوزيعهـــا . ولكن حمامات دقلديانوس وأنطـــونينوس كراكلا كانت لا تزال تحتفظ بألقاب المؤسسين ، لتذهل المتفرج المدقق الذى يلاحظ متانتها ومساحتها وتعدد أنواع الرخام وحجم الأعمدة وعددها ، ويقارن بين الجهد والنفقات وبين الاستعمال والأهمية . وكان من الممكن أن يجد المرء بعض الآثار البـــاقية من حمامات قسطنطين واسكندر ، ودومتيان ، أو بالأحرى تيتوس .

٤ ـــ وقد بقيت أقواس النصر الخاصـــة بالأباطرة تيتـــوس

وسيفيروس وقسطنطين — بقيت كاملة من حيث البناء والنقوش ، وثمة قطعة سقطت وشرفت باسم تراجان . وقد نسب قوســـان من أقواس النصر ، كانا لا يزالان قائمين فى طـريق فلامينيوس ، الى فاوستينا وجالينوس — تخليدا لذكراهما ، وهما أقل سموا .

٥ — وبعد ذكر الكوليزيوم ، وهو من عجائب العـــالم ، كان بوجيو يستطيع أن يغضى عن مدرج صغير من الطوب ، من المرجح أنه بنى لاستعمال المعسكر البريتورى . وقد احتلت المبانى العامة والخاصة ، الى حد كبير ، مسرحى ماركيلوس وبومبى . وفى مكان سيرك أجوناليس والسيرك الأعظم لا يمكن التساؤل الا عن الموقع والشكل .

٦ — وكان عمودا تراجان وأنطونين قائمين فى ذاك الوقت ، ولكن المسلات المصرية كانت قد هشمت أو طمرت . ولم يبق من جمهور غفير من الالهة والأبطال غير تمثال فارس وحيد مصنوع من النحاس المذهب ، وخمسة من التماثيـــل المصنوعة من الرخام ، أشهرها حصانا فيدياس وبراكسيتيليس .

٧ — ولم يكن من الممكن ضـــياع قبرى أوغسطس وهادريان الضخمين ضياعا تاما . ولكن لم يكن يرى من الأول غـــير كومة من الأتربة . أما عن الثـــانى ، حصن القديس أنجيلو — فقد حظى ، باسم القلعة الحديثة ومظهرها .

وكانت هذه وأمثالها ، اذا أضفنا بعض الأعمدة المنفصلة والتى لا تحمل أسماء ، هى بقايا المدينة القديمة . لأن آثار بناء أكثر حداثة يمكن أن تلاحظ فى الأسوار التى بلغ محيطها عشرة أميال ، وكانت

تحتوى على ثلثمائة وتسع وسبعين قلعة صغيرة ، وبها ثلاث عشرة بوابة تؤدى الى الريف .

رسمت هذه الصورة الحزينة منذ أكثر من تسعمائة سنة بعد سقوط الامبراطورية الغربية ، بل حتى بعد سقوط مملكة القوط فى ايطاليا . ولم تكن الفترة الطويلة من الكروب والفوضى ، تلك الفترة التى هجرت فيها الامبراطورية والفنون والثراء شواطىء التيبر — تستطيع أن تستعيد المدينة أو تقوم بتجميلها ، ومثل جميع أعمال البشر التى لا بد أن تتقهقر ، ان لم تتقدم ، كان من المحتوم أن يعجل كل عصر تال بتخريب أعمال القدماء . وسيكون قياس تفاقم الانهيار والتأكد من حالة كل مبنى فى كل فترة ، جهدا لا نهاية له ولا فائدة فيه. ويكفينى أنا شخصيا ملاحظتان يمكن أن تكونا مقدمة لبحث عن الأسباب والنتائج العامة .

١ — قبل شكوى پوجيوس الفصيحة بمائتى سنة ، دبج كاتب مجهول وصفا لرومه . وقد يؤكد جهله ذكر الأشياء نفسها تحت أسماء غريبة وخرافية ، ومع ذلك فقد كان لهذا المساح المتبربر عينان وأذنان . فاستطاع أن يلاحظ البقايا الظاهرة ، كما استطاع أن يصغى الى روايات الشعب . وهو يحصى بجلاء سبعة مسارح وأحد عشر حماما واثنى عشر قوسا وثمانية عشر قصرا ، اختفى الكثير منها قبل زمن پوجيوس . ومن الواضح أن كثيرا من الآثار القديمة الفخمة بقيت حتى وقت متأخر ، وأن عوامل الدمار عملت بنشاط قوى متزايد فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

٢ ــ ويجب تطبيق الفكرة عينها على القرون الثلاثة الأخيرة ، وسيكون من العبث البحث عن النافورة (Septizonium) التى بناها سيفيروس والذى شاد بذكرها بترارك وعلماء الآثار فى القرن السادس عشر . وحين كانت المبانى الرومانية لا تزال كاملة سليمة ، فان المتانة والضخامة وتناسق الأجزاء قاومت الضربات الأولى مهما كانت قوية وعنيفة ، ولكن أقل لمسة ستستعجل باسقاط بقايا أقواس وأعمدة كانت آيلة للسقوط .

أربعة أسباب للدمار

أستطيع بعد البحث الدقيق أن أتبين أربعة أسباب أساسية لخراب رومه ، استمرت تعمل عملها ، لفترة تزيد على ألف سنة :

١ ــ أذى الزمان والطبيعة :

يستطيع الانسان بفنه أن يشيد آثارا تدوم أكثر من فترة عمره القصيرة ، ومع ذلك فان هذه الآثار ، مثل صاحبها ، ضعيفة قابلة للفناء . ويجب أن تعد حياته وأعماله سواء بسواء ، لحظة عابرة فى جولات الزمان التى لا حد لها . ولكن ليس من السهل أن تحدد مدة بقاء مبنى بسيط متين . ولقد استهوت الأهرام ، كاحدى عجائب الدنيا القديمة ، أنظار القدماء . وسقط مائة جيل كورق الخريف فى القبور . وذهب الفراعنة والبطالمة والقياصرة والخلفاء ، ولكن لا تزال الأهرام نفسها ترتفع منتصبة فى مكانها ثابتة فوق فيضانات النيل . أما أى بناء معقد مركب من أجزاء كثيرة دقيقة ، فهو أكثر تعرضا

للأذى والانحلال . وكثيرا ما عجلت العواصف والزلازل ، والحرائق والفيضانات بسير الزمن الصامت . لقد اهتز الهواء والأرض بلا ريب، ولقد ترنحت القلاع الصغيرة العالية فى رومه من أساسها . ولكن التلال السبعة على ما يظهر ، لم توضع فوق الفجوات الكبيرة فى الكرة الأرضية ، ولم تتعرض المدينة فى أى عصر الى اهتزازات الطبيعة التى حولت أعمال القـــرون الى تراب فى لحظات قليلة فى جو أنطاكية ولشبونة وليما . والنار أقوى عامل من عوامل الحياة والموت . وقد يشعل هذا الشر السريع وينشره جد البشر أو اهمالهم . وقد امتازت كل فترة من فترات التاريخ الرومانى بتكرار كوارث مماثلة . واستمر حريق مشهود ، هو خطيئة عصر نيرون أو كارثته ، بعنف غير متساو ، ستة أيام أو تسعة . وكان تحت مبان لا حصر لها ، ازدحمت فى طرق متقاربة ملتوية ، أمدت اللهب بوقود دائم ، وبعد أن خمدت ، بقيت أربعة أحياء من الأحياء الأربعة عشر سليمة لم تمسها النيران . ودمرت ثلاثة أحياء تدميرا تاما ، وشوهت سبعة أخـــرى ببقايا مبان متهدمة لوثها الدخان . وفى ذروة الامبراطورية نهضت العاصمة من بين الرماد فى ثوب قشيب من الجمال . ولكن ذاكرة المعمرين رثت لخسائرهم التى لا تعوض من فنون اليونان وتذكارات النصر وآثار العصر القديم البدائى أو الخرافى . أما فى زمن الكروب والفوضى فكل جرح قاتل، وكل سقوط لا تقوم له قائمة، ولا تعويض للضرر، لا بعناية الحكومة العامة ولا بنشاط المصلحة الخاصة . ولكن من الممكن أن نقدم سببين يعللان لم كانت كوارث الحريق أشد تدميرا فى مدينة مزدهرة منها فى مدينة تتمزق أوصالها : ـــ

(أ) تذوب أولا المواد الأكثر قابلية للاشتعال ، مثل الطوب والخشب والمعادن ، أو تأكلها النيران . ولكن يمكن أن تشتد النار ، دون ضرر أو نتيجة تذكر ، فى الجدران العارية والأقواس الضخمة التى نزعت عنها زخارفها .

(ب) بين الدور العادية وبيوت العامة أو الرعاع ، من السهل جدا أن تشعل بشرارة صغيرة حريقا هائلا ، ولكن سرعان ما تأكلها النيران جميعا ، ومن ثم تقف المبانى الضخمة التى قاومت ونجت ، بمثابة جزر كثيرة ، فى حالة من العزلة والطمأنينة .

وتعرضت رومه مرارا بسبب موقعها لخطر الفيضانات . ودون استثناء نهر التيبر ، فان مجارى الأنهار التى تهبط من جانبى جبال الأبنين قصيرة وغير منتظمة : نهير قليل العمق فى قيظ الصيف ، وسيل دافق عندما يملؤه فى الخريف أو الشتاء سقوط الأمطار وانصهار الجليد . وعندما تصد الرياح المضادة تيارا وتمنعه من الوصول الى البحر ، وعندما يضيق المجرى العادى بثقل المياه ، تفيض المياه فوق الضفتين وتنتشر وتطغى بلا حساب على سهول القطر المجاور ومدنه . وبعد الانتصار فى الحرب البونية الأولى بمدة قصيرة ، فاض التيبر بسبب سقوط أمطار غير عادية . وهذا الفيضان الذى فاق جميع ما سبقه فى الزمان والمكان دمر كل المبانى المشيدة فى أسفل تلال رومه. وتبعا لتنوع الأراضى ، تنوعت الأسباب والدمار واحد ، واكتسحت قوة دفع المياه المفاجئة ما اعترضها من المبانى ، أو تقوض أساسها فانهارت ، نتيجة لاستمرار الفيضان مدة طويلة . وفى زمن أوغسطس تجددت الكارثة نفسها . فلقد اقتلع هذا النهر المتمرد ، القصور والمعابد القائمة على شاطئيه . وبعد أن بذل الامبراطور جهوده فى

تنظيف النهر وتوسيع المجرى الذى امتلأ بالبقايا والأنقاض ، حفزته يقظة خلفائه أخطار وأهداف مماثلة . ولطالما لقى مشروع تحويل التيبر نفسه أو بعض نهيراته فى مجار جديدة معارضة تؤيدها الخزعبلات والمصالح الخاصة . ولم تعوض الفائدة التى جنوها شيئا من الجهد والنفقات التى بذلت فى تنفيذ المشروع مبتورا بعد فوات الأوان . فالتحكم فى الأنهار أنبل وأهم انتصار أحرزه البشر على شرور الطبيعة. واذا كانت هذه وأمثالها هى أضرار نهر التيبر فى زمن حكومة قوية نشيطة ، فماذا كان يسنع ، أو من ذا الذى يستطيع أن يحصى الأضرار التى أصابت المدينة بعد سقوط الامبراطورية الغربية . وفى النهاية أنتج الشر نفسه علاجا له . وأغلب الظن أنأكوام القاذورات والتراب التى اكتسحها النهر من التلال رفعت سهل رومه أربع عشرة أو خمس عشرة قدما فوق المستوى القديم ،فأصبحت المدينة الحديثة أقل تعرضا لطغيان النهر .

٢ ـ هجوم الأعداء من المتبربرين والمسيحيين :

أهمل جمهور الكتاب من كل جنس ، أولئك الذين نسبوا تدمير الآثار الرومانية الى القوط والى المسيحيين ، فى أن يبحثوا الى أى مدى كان هؤلاء القوط والمسيحيون يصدرون عن غل وحقد فى نفوسهم ، والى أى مدى كانوا يملكون من الوسائل والوقت ما يكفى لارضاء نهمهم . ولقد وصفت فى الصفحات السابقة من هذا التاريخ انتصار البرابرة والدين . وفى وسعى أن ألخص فقط ، فى كلمات قليلة ، صلتهم الحقيقية أو المتصورة بخراب رومه القديمة . وقد ينسج خيالنا

أو يعتنق فكرة رومانية سارة ، مؤداها أن القوط والوندال انطلقوا من اسكنديناوه وهم يتحرقون شوقا الى الثأر لهروب أودين [1] وتحطيم أغلال بنى البشر ، ومعاقبة ظالميهم ، وأنهم كانوا يرغبون فى احراق سجلات الأدب الكلاسيكى ، وأن يشيدوا عمارتهم على أنقاض الطرازين التوسكانى والكورنثى . ولكن الحقيقة المجردة البسيطة هى أن الفاتحين الشماليين لم يكونوا من الوحشية أو التهذيب والصقل الى درجة يمكن معها أن يكون لديهم مثل هذا التطلع الى التدمير والثأر . وكان رعاة سكيذيا وألمانيا قد تعلموا فى جيوش الامبراطورية، فاكتسبوا نظامها وتغلبوا على ضـــعفها ، ولما كانوا قد درجوا على استخدام اللغة اللاتينية ، فانهم تعلموا أن يبجلوا اسم رومه وألقابها . ورغم عجزهم عن مباراتها ، فقد مالوا الى الاعجاب بفنون ودراسات حقبة متألقة ، أكثر من ميلهم الى القضاء عليها . وفى استيلائهم المؤقت على عاصمة غنية لا قبل لها بالمقاومة ، استولت على جنود ألاريك وجنسريك أهواء جيش منتصر . وفى غمرة ارخائهم العنان للشهوة ، أو القسوة ، كان جل بحثهم عن الثروة المنقولة ، وما كانوا ليستشعروا لذة أو زهوا فى التفكير العقيم فى أنهم دكوا آثار القناصل والقياصرة. وكان وقتهم ثمينا حقا ، فقد أخلى القوط رومه فى اليوم السادس ،

---

(١) أنى أنتهز هذه الفرصة لأعلن أنى فى خلال اثنى عشر عاما نسيت أو نبذت فكرة هروب أودين Odin من آزوف الى السويد · وهى فكرة لم أومن بها قط أيمانا عميقا · ومن الواضح أن القوط ألمان · ولكن كل شيء أبعـد من قيصر وتاسيتس يكتنفه الظـلام ، أو هو خرافة ، فى تاريخ ألمانيا القديم ·

كما تركها الوندال فى اليوم الخامس عشر . وعلى الرغم من أن البناء أشق من الهدم فمن الجائز أن هجومهم السريع ترك أثرا ضئيلا على الأبنية الصلدة التى خلفها العالم القديم . وقد تتذكر أن كلا من الاريك وجنسريك تظاهرا بالابقاء على مبانى المدينة ، وأنهما عاشا فى ظل حكومة تيودوريك السعيدة ، فى أحضان القوة والجمال . وأن الغيظ العابر الذى ألم بصدر توتيلا قد أذهبته رقة مزاجه الخاص ونصيحة أصـــــدقائه وأعدائه . وقد يرتفع اللوم عن رءوس هؤلاء المتبربرين الأبرياء ليقع على رءوس كاثوليك رومه . كانت تماثيل الشـــــياطين ومذابحهم ومنازلهم رجسا فى أعينهم . وكان فى اســـــتطاعتهم عند تسلطهم على المدينة أن يدأبوا فى حماس على اقتلاع وثنية أجدادهم. وقد هيأ لهم تدمير المعابد فى الشرق مثلا يحتذونه ، كما هيأ لنا بابا للمناقشة . وقد يقع شىء من الوزر ، أو يعود شىء من الفضل ، عدلا وانصافا ، الى المؤمنين الرومانيين . ولكن كراهيتهم انصبت على آثار الخرافات الوثنية ، وكان من الممكن الاحتفاظ بالمبانى المدنية المخصصة للنفع العام أو اللهو فى المجتمع دون الاضرار بها أو ارتكاب وزر من أجلها . ولقد تم تغيير الديانة ، لا بالشعب الشعبى ، ولكن بقرارات من الأباطرة والسناتو وبفعل الزمن . ومن بين رجال الدين المسيحى ، كان أساقفة رومه فى العادة أكثر الناس تعقلا وأقلهم تعصبا، ولا يمكن أن يوجه اتهام قطعى الى القرار الحكيم الذى يســـــتحق الثناء ، الذى كان من أثره الابقاء على مبنى الباتثيون الفخم العظيم وتحويله .

٣ ـ استعمال المواد وسوء استعمالها :

تتألف قيمة أى شيء يوفر حاجات الجنس البشرى أو ملاذه ، من جوهره وشكله ، من المواد ومن الصنعة . أما ثمنه فيجب أن يعتمد على عدد الأشخاص الذين قد يحصلون عليه ويستخدمونه ، على اتساع السوق ، وتبعا لذلك على سهولة أو صعوبة تصديره الى البلاد البعيدة ، وتبعا لطبيعة الشيء ، والمكان الذى يوجد فيه وظروف العالم المؤقتة . واغتصب المتبربرون الذين فتحوا رومه ، فى لحظة قصيرة ، جهود الدهور المتعاقبة وكنوزها . ولكن ، فيما عدا أدوات الترف القابلة للاستهلاك المباشر ، كان يجب أن يروا أمامهم ، دون لهفة أو رغبة ، أشياء لا يمكن نقلها من المدينة فى عربات القوط أو على أسطول الوندال . وكان الذهب والفضة أول أهداف جشعهم . ففى كل قطر ، وفى أصغر مجال ، يمثل الذهب والفضة أقصى ما تتطلبه الصناعة ، وأثمن ما يصبو الناس الى اقتنائه . وقد يرضى اناء أو تمثال مصنوع من تلك المعادن الثمينة غرور زعيم متبربر . ولكن جماهير العامة لا تعنى بالشكل ، وانما تتمسك فقط بالجوهر . والسبائك اذا صهرت قد توزع بسهولة وتصك كعملة متداولة فى الامبراطورية . واضطر اللصوص الأقل نشاطا أو الأقل حظا الى أن يقنعوا بالأسلاب الأقل قيمة من النحاس الأصفر والرصاص والحديد والنحاس . وقد نهب طغاة اليونان كل ما أفلت من أيدى القوط والوندال . وقد انتزع الامبراطور كونستانس فى زيارته الجشعة القرميد البرونزى من سقف الباانثيون . وقد تعتبر مبانى رومه منجما متسعا متنوع المعادن . وقد تمت بالفعل العملية الأولى ، وهى انتزاع المواد . وقد نقيت المعادن

وأعيد سبكها . وقطع الرخام وصقل . وبعد اشباع شـــهوة النهب الأجنبى والداخلى ، كان فى رومه ثمت بقايا يمكن أن تباع ان وجد مشتر . ولقد تركت آثار العالم القديم مجردة من زينتها الثمينة ، ولكن كان الرومان يستطيعون أن يهدموا بأيديهم الأقواس والجدران ، ان فاق الأمل فى الربح نفقات الجهد والتصدير . ولو أن شرلمان اتخذ من ايطاليا مركزا للامبراطورية الغربية ، لتاقت عبقريته الى اعادة أعمال القياصرة أكثر منها الى الاعتداء عليها . ولكن السياسة أجبرت الملك الفرنسى على البقاء فى غابات ألمانيا . فلم يرتض ذوقه غير التخريب . وزين قصره الجديد فى اكس لاشابل برخام رومه ورافنا . وبعد شرلمان بخمسمائة عام ، استمد روبرت ملك صقليه ، أعقل الملوك وأجودهم فى زمانه ، المواد نفسها بفضل الرحلة الهينة اللينة عبر التيبر ثم البحر . ويتنهد بترارك شاكيا محنقا من أن ذخائر العاصـــمة القديمة للعالم هى سر الترف الخامل الذى ترفل فيه نابلى . ولكن هذه الأمثلة للنهب أو الثراء كانت نادرة فى القرون المظلمة . وربما كان فى اســتطاعة الرومان وحدهم ، ودون حسد من أحد ، أن يستخدموا لمنفعتهم العامة أو الخاصة المبانى الباقية من العالم القديم ، لولا أن شكلها الحالى وموضعها قد أصبحا لا نفع فيهما الى حد كبير للمدينة ولسكانها . ولا زالت الأسوار تحدد محيط المدينة القديم ، ولكن المدينة كانت قد هبطت من تلالها السبعة الى ساحة مارتيوس . وتركت بعض الآثار البالغة الروعة والعظمة والتى قاومت أذى الزمان ، فى قفر بعيد جدا عن مساكن الجنس البشرى . ولم تعد قصور أعضاء السناتو تلائم عادات خلفائهم المملقين أو ثرواتهم . وكان اســتخدام الحمامات والأروقة

قد نسي . وفى القرن السادس عطلت ألعاب المسرح والمدرج والسيرك . وخصصت بعض المعابد للعبادة السائدة . ولكن الكنائس المسيحية فضلت شكل الصليب المقدس . ووزع الطراز السائد أو العقل ، طبقا لنموذج غريب ، غرف الدير ومرافقه . وفى أثناء الحكم الكنسى زاد عدد مؤسسات التقوى والورع زيادة ضخمة . وازدحمت المدينة بأربعين ديرا للرجال وعشرين ديرا للنساء ، وستين دارا ومجمعا للقانون الكنسى والقساوسة ، الذين زادوا ولم يخفضوا من نقص السكان فى القرن العاشر . واذا كان طراز المبانى القديم قد نبذه شعب لا يدرك نفعه أو جماله ، فان المواد الوفيرة قد استخدمت فى كل أمر دعت اليه الضرورة أو الخرافة ، حتى ان أجمل الأعمدة المصنوعة على الطراز الأيونى أو الكورنثى من أثمن رخام باروس ونوميديا قد انحط فأصبح يحمل سقف دير أو اسطبل . وقد يعطينا التدمير اليومى الذى يقوم به الترك فى مدن اليونان وآسيا الصغرى مثلا كئيبا محزنا . وفى التدمير التدريجى لآثار رومه قد يلتمس العذر للبابا سيكستوس الخامس وحده ، لأنه استخدم أحجار النافورة فى بناء كنيسة القديس بطرس المجيدة . وقد يغمرنا شىء من السرور والأسى عندما تقع أعيننا على قطعة أو طلل مهما كان مشوها أو مدنسا . ولكن أكبر قدر من الرخام حرم من مادته ، كما حرم من مكانه وتناسب أجزائه : فقد أحرق لاعداد الجير ولعمل الأسمنت . ومنذ قدوم پوجيو اختفى عن عينيه معبد الكونكورد وكثير من المبانى الرئيسية . وتعبر حكمة بارعة سادت فى العصر نفسه عن الخوف الحق الورع من أن الاستمرار فى هذا العمل سوف يقضى فى النهاية على جميع آثار العالم

القديم . وكانت قلة العدد هى الشىء الوحيد الذى حد من مطالب الرومان ونهبهم . وقد يخلق خيال بترارك الشعور بوجود شعب قوى . وانى أتردد فى الاعتقاد بأنه حتى فى القرن الرابع عشر كان يمكن انقاصهم الى عدد حقير مثل ثلاثة وثلاثين ألفا من السكان . واذا كانوا قد زادوا من تلك الفترة الى حكم ليو العاشر ، حتى بلغوا خمسة وثمانين ألفا ، فان زيادة عدد المواطنين كانت ، الى حد ما ، ضارة بالمدينة العتيقة .

٤ ـ النزاع الداخلى بين الرومان :

لقد أبقيت الى النهاية أقوى وأعظم سبب من أسباب التخريب ، ألا وهو النزاعات الداخلية بين الرومان أنفسهم . وفى أثناء حكم الأباطرة اليونانيين والفرنسيين اضطرب السلم فى المدينة ببعض الفتن العارضة ، على الرغم من أنها كثيرة . ويمكن أن نرجع تاريخ التهور فى الحروب الخاصة الى اضمحلال حكم الأباطرة الفرنسيين أعنى من بدء القرن العاشر ، تلك الحروب التى خرقت دون عقاب الناموس العام وشرعة الانجيل ، دون احترام لجلال الملك الغائب أو وجود نائب المسيح وشخصيته . ففى فترة مظلمة امتدت خمسمائة سنة ، مزق رومه النزاع الدموى المتواصل بين النبلاء وبقية الشعب ، بين جماعتى الويلف والجبلين ، بين أسرتى كولونا وأورسينى . واذا كان التاريخ لم يحط بالكثير ، واذا كان الكثير غير جدير بملاحظة المؤرخين ، فقد أوضحت فى الفصلين السابقين أسباب الاضطراب العام ونتائجه . وفى مثل هذا الوقت حينما كان السيف هو الحكم

الفصل فى كل نزاع ، لم يكن أحد يستطيع أن يعهد بحياته وأملاكه لحماية قانون لا حول له ولا طول ، فحمل المواطنون الأقوياء السلاح طلبا للأمان وعدة للعدوان ضد أعدائهم فى الداخل الذين أبغضوهم أو خافوهم . وفيما عدا البندقيه وحدها ، كانت عين الأخطار والأهداف تعم جميع الجمهوريات الحرة فى ايطاليا ، واغتصب النبلاء الحق فى تحصين منازلهم ، وبناء قلاع قوية تستطيع أن ترد هجوما مفاجئا . فامتلأت المدينة بهذه المبانى العدائية . والمثل المستمد من لوكا Lucca التى كانت تضم ثلثمائة قلعة ، وقانونها الذى حدد ارتفاعها بثمانين قدما ، يمكن أن يطبق تطبيقا واسعا على الولايات الأغنى الأكثر سكانا . وأول خطوة اتخذها برانكليونى عضو السناتو لاقرار السلام والعدالة كانت تدمير (كما رأينا آنفا) مائة وأربعين قلعة فى رومه . وفى أواخر أيام الفوضى والشقاق ، حتى عهد مارتن الخامس، كانت هناك أربع وأربعون قلعة قائمة فى واحد من الأحياء الثلاثة عشر أو الأربعة عشر فى المدينة . وقد حولت بقايا العالم القديم بسهولة كبيرة جدا لتستخدم فى هذا الغرض الخبيث . وهيأت المعابد والأقواس لهذه المبانى الجديدة المتخذة من الطوب والحجارة آساسا عريضة صلبة متينة . ونستطيع أن نسمى القلاع الحديثة التى ارتفعت على أنقاض الآثار التى كانت قد شيدت تخليدا لانتصار يوليوس أو المدرج أو المقبرة الضخمة الى قلعة قوية فسيحة . ولا حاجة بى الى أن أكرر أن بناء هادريان الضخم قد اتخذ لقب وشكل قلعة القديس أنجيلو . وكانت نافورة سيفيروس تستطيع أن تقاوم جيشا ملكيا . وقد سقط قبر ميتيلا Metella تحت ثقل استحكاماته الخارجية .

واحتلت أسرتا سافيلي وأورسيني مسرحي بومبي وماركيلوس . وقد حورت هذه القلعة الخشنة بالتدريج حتى اكتسبت بهاء القصور الايطالية ورشاقتها . وحتى الكنائس أحيطت بالأسلحة والحصون ، وكانت الآلات الحربية الموضوعة فوق سقف كنيسة القديس بطرس تبعث الرعب في قلوب الفاتيكان ، كما كانت وصمة عار في جبين العالم المسيحي . وسيكون كل ما يحصن عرضة للهجوم ، وقد يدمر كل ما يهاجم . ولو استطاع الرومان أن ينتزعوا من البابوات قلعة القديس أنجيلو ، لأصدروا قرارا عاما بتدمير هذا الأثر من آثار العبودية . وقد تعرضت للحصار كل المبانى المخصصة للدفاع . وفى كل حصار استخدمت فنون التدمير وآلاته استخداما بارعا . وبعد موت نيقولا الرابع ، تركت رومه ، لمدة ستة أشهر ، دون ملك أو سناتو . نهبا لجنون الحرب الأهلية . ويقول كاردينال وشاعر عاش فى تلك الأزمنة: « حطمت الدور تحت ثقل الحجارة الضخمة وسرعتها . وثقبت الجدران بضربات من رأس الكبش . واندلعت النار والدخان فى القلاع ، وحفز المهاجمين النهب والثأر » . وأتم العمل طغيان القوانين. ومارست أحزاب ايطاليا ، كل بدوره ، الانتقام الأعمى ، دون تفكير ، ضد خصومهم ، فهدموا منازلهم وقلاعهم حتى ساوت الثرى . وعند مقارنة أيام العداء الأجنبى بعصور العداء الداخلى يجب أن نقرر أن العداء الداخلى كان أشد تخريبا للمدينة . ويجد رأينا هذا سندا فيما يقول بترارك شاعر البلاط : « انظر الى بقايا رومه ، الى صورة عظمتها الأولى ! فلن يستطيع الزمن أو المتبربرون أن يفاخروا بأنهم هم الذين قاموا بهذا التخريب الهائل . لقد ارتكبه مواطنوها

أنفسهم ، وتم على أيدى أشهر أبنائها . وقد فعل أجدادك (فهو يكتب الى واحد من أسرة هانيبال النبيلة) برأس الكبش مالم يستطع بطل قرطاجه أن يفعل بالسيف » . أما أثر السببين الأخيرين للانحطاط ، فيجب ، الى درجة ما ، أن يتضاعف ، بفعل الواحد منهما فى الآخر . اذ أن الدور والقلاع التى هدمت فى الحروب الأهلية احتاجت الى مدد جديد دائم من آثار القدماء .

الكوليزيوم

يمكن أن تطبق هذه الملاحظات العامة ، بشكل خاص ، على مدرج تيتوس الذى حظى باسم الكوليزيوم ، اما لضخامته ، أو من أجل تمثال نيرون الهائل : وهو بناء لو أنه ترك للزمان والطبيعة ، فربما ادعى لنفسه خلودا واستمرارا . ويميل علماء الآثار المدققون والذين حسبوا عدد النظارة والمقاعد ، الى الاعتقاد بأنه فوق الصف الأعلى من الدرج الحجرى أحيط المدرج وزيد فى ارتفاعه بعدة طبقات من الشرفات الخشبية التى أكلتها النيران مرارا ، وأعادها الأباطرة . لقد أصبح كل شىء ثمين أو سهل الحمل أو وثنى : تماثيل الالهة والأبطال ، والزينات الغالية لأعمال النحت ، التى صنعت من النحاس أو غطيت بصفائح رقيقة من الفضة والذهب — أصبحت هذه كلها أول ضحايا الغزو أو التعصب ، وجشع المتبربرين أو المسيحيين . ويمكن أن نرى ثقوبا كثيرة فى أحجار الكوليزيوم الضخمة . وفى ظروف انهياره أقوال كثيرة ، قد يرجح منها اثنان . ولقد ربطت أحجاره بعضها ببعض بأربطة متينة من النحاس أو الحديد ، ولم تغفل عين

السلب والنهب قيمة المعادن غير الثمينة . وحول الفضاء الخالى الى ساحة مولد أو سوق . وورد ذكر صناع الكوليزيوم فى استعراض قديم ، وقد حفرت الفجوات أو جعلت أكثر سعة لتقبل الركائز التى تعتمد عليها حوانيت الصناع الميكانيكيين أو خيامهم . وعلى الرغم من أنه لم يبق لمدرج الفلافيين غير جلاله المجرد ، فقد تطلع حجاج الشمال اليه فى رهبة واعجاب ، وتفجر حماسهم الوحشى فى تعبير سام أصبح مثلا ، وقد دون فى القرن الثامن فى بقايا بيد Bede المبجل : « ستدوم رومه ما دام الكوليزيوم ، وستسقط رومه عندما يسقط الكوليزيوم ، وسيسقط العالم عندما تسقط رومه » . وفى نظم الحروب الحديثة ، لا يصح اختيار مكان لاقامة قلعة ، اذا كان هذا المكان تشرف عليه تلال ثلاثة ، ولكن قوة الأسوار والأقواس كان فى استطاعتها مقاومة آلات الهجوم ، وكان من الممكن اقامة عدد كبير من الحامية فى البقعة المحاطة بالأسوار . وبينما احتل أحد الحزبين الفاتيكان والكابتول ، تحصن الحزب الآخر فى لاتيران والكوليزيوم .

ويجب أن نأخذ الغاء الألعاب القديمة فى رومه فى شيء من اليسر . وقد نظم قانون المدينة أو أعرافها الألعاب الكرنفالية وألعاب تل الصدف وسيرك أجوناليس . وكان عضو السناتو يرأس الحفلة ويحدد الجوائز ويوزعها . وهى خاتم الذهب ، أو الپاليوم Pallium كما سمى ، ثم القماش أو الحرير . وقد كانت الجزية التى فرضت على اليهود تغطى النفقات السنوية . وزاد فى شرف السباق على الاقدام وعلى ظهور الخيل أو فى العربات ، ألعاب اثنين وسبعين

من شباب الرومان والمباريات بينهم . وفى سنة ١٣٣٢ احتفل بادخال مصارعة الثيران فى الكوليزيوم نفسه على الطراز العربى والأسبانى . وقد وصفت المصارعات بكل دقائقها فى مدونة يومية ترجع الى ذاك الوقت . فأعيد نظام مناسب للمقاعد . ودعا اعلان عام ، وصل حتى ريمنى ورافنا ، النبلاء الى أن يجربوا مهارتهم وشجاعتهم فى هـــذه المغامرة الخطرة . وقد نظمت سيدات الرومان فى فرق ثلاث وجلسن فى ثلاث شرفات . وكانت هذه الشرفات فى ذلك اليوم ، وهو الثالث من شهر سبتمبر ، مبطنة بقماش قرمزى . وقادت جاكوفا دى روفيرى الجميلة السيدات من وراء نهر التيبر ، وهن عنصر طاهر أصيل يمثل ملامح القدماء واخلاقهم . أما بقية المدينة فانقسمت كالعادة بين أسرتى كولونا وأورسينى ، وكان الحزبان يفخران بعدد نسائهما وجمالهن . وقد أشير بالثناء الى سحر سافيلا أورسينى وجمالها . وقــد أسفت أسرة كولونا لغياب أصغر غادة فى أسرتهم ، وكانت قد لوت كعبها فى حدائق نيرون . واقترع على الأبطال . وقام بالاشراف على القرعة مواطن هرم مبجل . ثم هبطوا الى الحلبة لملاقاة الثيران الهائجة ، على الأقدام ، على ما يظهر وبحربة واحدة . ومن بين هذا الجمع الغفير اختار مؤرخنا أسماء عشرين من أبرز الفرسان وألوانهم وعلاماتهم . وعدد كبير من هــذه الأسماء هم أشهر أبنــــاء رومه والدولة الكنسية : مالآتيستا ، وبولينتا ، وديللا ڤالى ، وكافاريللو ، وسافيلى ، وكابوتشيو وكونتى ، وأنيبالدى ، وألتيرى ، وكورسى : وكانت ألوانهم تناسب أذواقهم ومراكزهم ، وكانت شاراتهم تعبر عن الأمل أو اليأس ، وتنم عن روح البسالة وقوة الأسلحة . ومن أمثلة ذلك : « انى وحيد ، كالأخ

الأصغر الذى يحمل اسم هوراتيوس » ، ثقة أجنبى جرىء « انى أعيش فى بؤس » أرمل باك « انى أحترق تحت الرمـــاد » ، عاشق يجمله الحياء « انى أعبد لافينيا أو لوكريتيا » ، اعتراف مبهم بهوى حديث « اخلاصى لا مثيل له فى نقائه » ، شعار ثوب رسمى أبيض « من أقوى منى » ؟ شعار جلد الأسد « فاذا غرقت فى الدم ، فياله من موت بهيج ! » ، رغبة شجاعة وحشية . وقد منع أسرة أورسينى كبرياؤها أو حزمها من النزول الى الميدان ، الذى كان يحتله ثلاثة من منافسيهم الوراثيين ، وكانت علاماتهم المنقوشة تدل على عظمة اسم كولونا الهائلة : « على الرغم من حزنى ، فانى قوى » ، « انى قوى قدر ما أنا عظيم » ، لوسقطت (مخاطبا النظارة) « فلسوف تسقطون معى » . وهو يشير (كما يقول الكاتب المعاصر) الى أنهم وحدهم كانوا من حـــزب الكابتول ، بينما كانت الأسرات الأخـــرى خاضعة للفاتيكان . كان الصدام فى المدرج خطيرا داميا . وقد التحم كل بطل بدوره مع ثور هائج . ويمكن أن ينســـب النصر الى ذوات الأربع اذ لم يبق غير أحد عشر فى الميدان ، وكانت الخسارة تسعة جرحى وثمانية عشر من القتلى من جانب خصومهم . وقد حزنت بعض من أنبل الأسرات ، ولكن بهـــاء الجنازة فى كنيستى القديس جون لاتيران والقديسة ماريا ماجيورا ، هيأ للشعب عطلة أخرى . ولا ريب أنه ما كان ينبغى أن يسفك دم الرومان فى أمثال هذه المصارعات ، ومع ذلك فاننا مضطرون الى أن نثنى على بســـالتهم ، ونحن نلوم تهورهم . ويثير النبلاء المتطوعون الذين يظهرون عظمتهم ويخاطرون بحياتهم تحت شرفات النساء الجميلات ، شفقة أبلغ من ألوف الأسرى والمجرمين الذين يجرون رغم أنوفهم الى ساحة الاعدام .

وكان استخدام المدرج فى هذه المصارعات أمرا نادرا ، وربما كان عيدا فريدا . وكان الطلب على المواد حاجة يومية مستمرة يستطيع المواطنون اشباعها دون قيد أو ندم . وفى القرن الرابع عشر ضمن اتفاق ودى شائن لكلا الحزبين حق استخراج الأحجار من محجر الكوليزيوم العام الحر . ويرثى پوجيو أن أكبر قدر من هذه الأحجار قد أحرق ، وصارت جيرا ، بسبب جهل الرومان . وللحد من سوء الاستغلال ، ولمنع الجرائم الليلية التى قد تحدث فى أركانه الواسعة المظلمة ، أحاطه يوجنيوس الرابع بسور . ومنح بمقتضى قرار بقى مدة طويلة ، كلا من الأرض والبناء ، لرهبان دير مجاور . وبعد موته تهدم السور فى احدى ثورات الشعب . ولو أنهم أنفسهم احترموا أنبل أثر تركه آباؤهم ، لوجدوا ما يبرر العزم على وجوب منع هذا الأثر من أن ينحط فيصبح ملكا خاصا . وقد خرب جزؤه الداخلى . ولكن فى منتصف القرن السادس عشر ، وهى فتره تمتاز بالذوق والعلم ، كان محيطه الخارجى ، ويبلغ ألفا وستمائة واثنتى عشرة قدما ، لا يزال سليما لم يمس : ارتفاع مثلث من ثمانين عقدا . بلغ علوه مائة وثمان أقدام . أما عن خرابه حاليا ، فينسب الاثم فيه الى أبناء أخوة بول الثالث . وكل سائح ينظر الى قصر فارنيز لابد أن يلعن اعتداء هؤلاء الأمراء المغرورين وترفهم ، ويوجه لوما مماثلا الى أسرة باربرينى ، وربما خشى المرء تكرار التدمير والتخريب فى كل عصر ، حتى وضع الكوليزيوم فى حماية الدين بفضل أكبر الأحبار ، وأعنى به بنيديكت الرابع عشر ، الذى قدس بقعة صبغها الاضطهاد والخزعبلات بدم عدد كبير من شهداء المسيحيين .

إعادة المدينة

عندما متع بترارك نظره لأول مرة برؤية تلك الآثار التى تجل بقاياها المتناثرة عن أبلغ الوصف ، أدهشه تراخى الرومان أنفسهم وعدم اهتمامهم بها ، وقد أحس بالهوان أكثر مما استشعر الفخر ، حين كشف أنه اذا استثنينا صديقه رينزى وواحدا من أسرة كولونا، فان رجلا غريبا من الرون كان يعرف عن هذه العاديات أكثر من نبلاء العاصمة وسكانها الأصليين . وقد بدا جهل الرومان وسذاجتهم بشكل فاضح فى المسح القديم للمدينة الذى تم حوالى مستهل القرن الثالث عشر . ودون أن نطيل الوقوف عند الأغلاط العديدة فى الأسماء والأماكن ، قد تثير أسطورة الكابتول ابتسامة احتقار وسخط . يقول الكاتب المجهول : « سمى الكابتول بهذا الاسم لأنه رأس العالم . حيث جلس القناصل وأعضاء السناتو فى الزمن القديم ليحكموا المدينة والكرة الأرضية . وقد غطيت الجدران القوية العالية بالزجاج والذهب ، يتوجها سقف مزخرف بأغنى النقوش وأغربها ، وفى أسفل القلعة قام قصر ، معظمه من الذهب ، مزين بالأحجار الثمينة ، ويمكن تقدير قيمته بثلث قيمة العالم نفسه . وقد رتبت تماثيل كل الولايات، وفى عنق كل تمثال جرس صغير . وقد دبرت هذه الحيلة السحرية ، بحيث أنه اذا ثارت الولاية ضد رومه ، دار التمثال الى تلك الجهة من الأفق ، فدق الجرس ، وأعلن عراف الكابتول هذه المعجزة ، وأخبر السناتو بهذا الخطر المحدق » . ويمكن أن نجد مثلا ثانيا ، أقل فى الأهمية ، ولكنه مساو فى السخف ، عن تمثال من الرخام يمثل

حصانين يقودهما شابان عاريان . وقد نقل هذا التمثـــال منذ مدة من حمامات قسطنطين الى تل الكويرينال . وقد نجد عذرا لاطلاق اسمى فيدياس وبراكسيتيليس دون سند ، ولكن كان يجب ألا ينقل هذان المثالان اليونانيان أكثر من أربعمائة سنة من زمن بركليس الى حكم تيبريوس . وكان يجب ألا ينقلبا الى فيلسوفين أو ساحرين ، كان عريهما رمزا للحقيقة والمعرفة . وقد أخبرا الامبراطور بأكثر أعمـــاله سرية ، وبعد أن رفضـــا جميع الجوائز المالية ، طلبـــا أن يسمح لهما بشرف وضع هذا الأثر الخالد الذى يمثلهما. وعلى هذا النهج كان الرومان يشعرون بقوة السحر ، ولكنهم كانوا لا يشعرون بجمـــال الفن . فلم يكن هناك أكثر من خمسة تماثيل ظاهرة لعين بوجيوس ، أما الأعداد الكبيرة التى دفنت صـــدفة أو قصدا تحت الأنقـــاض ، فقد تأخر لحسن الحظ بعثها الى زمن أكثر أمنـــــا وأعظم تنورا . وكشف بعض العمال الذين كانوا يحفرون لغرس الكروم تمثـــــال النيل الذى يزين الفاتيكان الآن ، بالقرب من معبد أو دير مينرفا . ولكن المالك المتعجل وقد آلمته بعض الزيارات التى حفز اليها حب الاستطلاع ، أعاد الرخام الذى لا نفع فيه الى قبره السابق . وقـــد نتج عن كشف تمثال بومبى ، وارتفاعه عشرة أقدام ، قضية قانونية . فقد عثر عليه تحت حائط مشترك . وأصدر القاضى العادل حكمه بأن يفصل الرأس عن الجسد لارضـــاء مزاعم المالكين المتجاورين . وكان من الممكن أن ينفذ الحكم ، لولا أن أنقذ تدخل أحد الكرادلة وجود أحد البابوات ، البطل الرومانى من أيدى مواطنيه المتبربرين .

غير أن سحب الهمجية انقشعت بالتدريج ، وأعاد النفوذ السلمى

لمارتن الخامس وخلفائه الى المدينة زينتها ، كما أعاد النظام الى الدولة الكنسية . ولم تكن التحسينات التى أدخلت على رومه فى القــرن الخامس عشر نتيجة ذاتية المحرية والجــد . ان أول جذور مدينــة عظيمة وأكثرها موافقة للطبيعة هو عمل الريف المجاور وكثافة سكانه، فهو الذى يمدها بضرورات العيش والصناعة والتجارة الخــارجية . ولكن الجزء الأكبر من الريف المجاور لرومه كان قد تحول الى صحراء جرداء مهجورة . وكانت أيدى الاتباع الكســالى المدقعين البائسين تقوم بزراعة الأراضى الخصبة المملوكة للأمراء ورجال الدين. واستغل الاحتكار المحصول الضئيل أو صدره لمصـــلحته . والسبب الثانى والأقل ملاءمة للطبيعة لنمو عاصمة ما هو سكنى ملك من الملوك ، ونفقات بلاط مترف والجزية التى تجبى من الولايات التابعة. وقد فقدت الولايات وأموال الجزية بسقوط الامبراطورية . واذا كان الفاتيكان قد جذب جزءا من نهير الفضة الذى انساب من بيرو والذهب الذى انهمر من البرازيل ، فان موارد الكرادلة ورســوم الوظائف وهبات الحجاج والاتباع وبقايا الضرائب الكنسية كانت تعطى مددا ضئيلا ، ومع ذلك فقد كانت هى التى تقوم بدفع نفقات بلاط كسول، وتمسك رمق المدينة . وكان عدد سكان رومه لا يزيد على مائة وسبعين ألفا ، اعنى أقل بكثير من سكان العواصم الكبيره فى أوربا . وفى داخل المساحة الشاسعة المحصورة بين الأسوار انتشرت الكروم والأطلال فوق أكبر جزء من التلال السبعة . ويمكن أن ينسب جمال المدينة الحــديثة وبهاؤها الى سوء استغلال الحكومة والى أثر الخرافات . فقد تميز كل حكم (الا فيما ندر) بارتقاء سريع لأسرة جديدة أغناها

البابا الذى لا ولد له على حساب الكنيسة والبلد . فكانت قصور أبناء الأخوة المحظوظين أغلى آثار الرشاقة والعبودية . وامتهن أجمل فنون العمارة والتصوير والنحت فى خدمتهم . وازدانت متاحفهم وحدائقهم بأثمن آثار العالم القديم التى حفزهم الذوق أو الغرور الى جمعها . واستخدم البابوات أنفسهم موارد الكنيسة على نهج أكثر ملاءمة لاضفاء رواء على العبادات الكاثوليكية . غير أنه مما لا طائل تحته أن نعدد مؤسسات الورع من مذابح وكنائس صغيرة وكبيرة ، لأن هذه النجوم الصغيرة الأقل بهاء ألقت بها فى الظلام شمس الفاتيكان وقبة القديس بطرس وهى أعظم المبانى المجيدة التى استخدمت يوما فى دين من الأديان . ويقترن بشهرة يوليوس الثانى وليو العاشر وسكستوس الخامس تفوق براماتنى وفونتانا وعبقرية رافاييل وميكل أنجلو . وقد وجه عين الكرم الذى ظهر فى بناء القصور والمعابد ، بحماس مساو فى احياء أعمال القدماء ومنافستها . فأقيمت المسلات التى كانت ملقاة على الثرى ونصبت فى أبرز الأماكن . ورمم أحد عشر مجرى من عمل القياصرة والقناصل ، وسارت الأنهار الصناعية فوق سلسلة من العقود القديمة والجديدة ، لتصب فى حوض من الرخام فيضانا من المياه الصحية المنعشة . وربما عطل الزائر المتعجل فى صعود سلالم القديس بطرس النظر الى عمود من الجرانيت المصرى ارتفع الى مائة وعشرين قدما بين نافورتين عاليتين دائمتين. وقد أوضح علماء الآثار وطلبتهم خريطة رومه القديمة ووصفها وآثارها. ويزور فى خشوع آثار أقدام الأبطال وبقايا الامبراطورية ؛ لا الخزعبلات ، جيل جديد من الحجاج من الأقطار النائية ، التى كانت تسودها الهمجية يوما ، فى الشمال .

تأملات أخيرة عن اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

سيجذب تاريخ اضمحلال الامبراطوريه الرومانية وسقوطها انتباه هؤلاء الحجاج ، والتفات كل قارىء . ومن المحتمل أن هذا الاضمحلال والسقوط كانا أعظم مشــهد فى تاريخ الجنس البشرى وأفظعه . وتتصل الأسباب المختلفة والنتائج التدريجية بكثير من أكثر الأحداث امتاعا فى تاريخ الانسانية : سياسة الدهاء التى انتهجها القياصرة الذين أبقوا الى فترة طويلة ، اسم الجمهورية الحرة وصورتها ، واختلال النظام فى زمن الطغيان العسكرى ، وظهور المســيحية واقرارها ، ومذاهبها ، وتأسيس القسطنطينية ، وتقسيم المملكة ، وغزو المتبربرين من ألمانيا وسكيذيا واستقرارهم ، ووضع القانون المدنى ، وشخصية محمد ودينه ، وسلطان البابوات الزمنى ، واعادة الامبراطورية الغربية على يد شرلمان وســقوطها ، وحروب اللاتين الصليبية فى الشرق ، وفتوحات العرب والترك ، وخراب الامبراطورية اليونانية ، ودولة رومه وثوراتها فى القرون الوسطى . وقد يمتدح المؤرخ أهمية الموضوع وتنوعه ، ولكن عندما يشعر بمثالبه ، يتهم حتما فى أغلب الأحيــان النقص فى المواد . ولقد خطرت ببالى لأول مرة وأنا بين أطلال الكابتول، فكرة هذا المؤلف الذى شرح صدرى وأعملت فيه فكرى ما يقرب

من عشرين سنة من حياتى ، والذى مهما كان لا يسمو الى ما كنت أرغب فيه ، وانى أسلمه فى النهاية الى حب الجمهور للاطلاع والى بعدهم عن التحيز .

لوزان

فى السابع والعشرين من شهر يونية من عام ١٧٨٧ .

الكشـــاف*

(ويشمل الأجزاء الثلاثة)

(الرقم الموضوع بين القوسين يشير الى الجزء ، والآخر يدل على رقم الصفحة) .

((أ))

نوجه نظر القارىء الى الخلاف فى بعض الأسماء ، تبعا لاختلاف نطق بعض الحروف فى اللغتين اليونانية والانجليزية ، ولورود بعض الأسماء بأشـــكال مختلفة فى المراجع العربية . من ذلك ســـابور أو شابور ، خربسستوم أو كريسستوم ، قسطنتيا أو كستنتيـــا ، ليســـينيوس أوليكينيوس . وفى هذا الكشاف أوردنا اللفظين فى معظم الحالات .

(الترجمة)

« د »

« س »

((ك))

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٩/٥٢٩٥